البحرية الإسلامية في الشعر الأندلسي

من الفتح حتى سقوط غرناطة

(٩٢-٨٩٧هـ - ٧١١-١٤٩٢م)

الدكتور
عبد الأمير حسين علوان الخزاعي



www.dardjlah.com

البحرية الإسلامية في الشعر الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة

البحرية الإسلامية
في الشعر الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة
(92-897هـ - 711-1492م)

تاليف

الدكتور عبد الأمير حسين الخزاعي

الطبعة الأولى
2011

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2010/8/2817)

811.96

الخزاعي ، عبد الأمير حسين علوان.

البحرية الإسلامية في الشعر الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة92-897هـ-711-1492م / عبد الأمير حسين علوان الخزاعي . عمان: دار دجلة 2011.

(406) ص

ر.أ: (2010/8/2817).

الواصفات:/ الشعر العربي // عصر الأندلس /

أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية

الآراء الموجودة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الجهة الناشرة

الطبعة الأولى 2011

دار دجلة

ناشرون وموزعون

المملكة الأردنية الهاشمية

عمان- شارع الملك حسين- مجمع الفحيص التجاري

تلفاكس: 0096264647550

خلوي: 00962795265767

ص. ب: 712773 عمان 11171- الأردن

جمهورية العراق

بغداد- شارع السعدون- عمارة فاطمة

تلفاكس:0096418170792

خلوي: 009647705855603

E-mail: dardjlah@yahoo.com

www.dardjlah.com

978-9957-71-185-6: ISBN

من الكتاب المسطور الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، من القرآن الكريم .

بسم اللـه الرحمن الرحيم

[وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ]

الرحمن : ٢٤

[وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ]

إبراهيم : ٣٢

ω

ومن الكتاب المبسوط من حاضرة احتضنتها البحار من الأندلس صفحة من أجمل صفحات الحضارة الإسلامية والإنسانية وأروعها، لوناً وميزةً .

نتوكل على من (عِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)

الأنعام: ٥٩

الإهداء :

[وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللـه عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ]

- صدق اللـه العلي العظيم-

إلى أهلي العراقيين النجباء الصابرين

إلى مَن غرس فيَّ حب التعلم والمعرفة والدي .

إلى والدتي، إلى أخوتي (رحمهم اللـه)

إلى عائلتي التي جاهدت معي ...

زوجتي، أولادي، بناتي، أحفادي

إلى كل مخلص يبني الوطن العزيز الجريح حباً وعلماً وعملاً .

بسم الـلـه الرحمن الرحيم

[الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللـه] [١]، والصلاة والسلام على نبيه الكريم الذي زويت له الأرض فرأى غايتها، وأبصر نهايتها وأخبر أن ملك أمته سيبلغ ما رآه وينتهي الى حيث قدره الخالق ونهاه، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

البحر مشهد جليل من مشاهد الكون، ومظهر عظيم من مظاهر الحياة، فكما احتضنت أمواجه سفن المسلمين صارت مياهه صفحة مشرقة لشعر البحرية الأندلسية الذي عُدَّ من الفنون الأدبية رفيعة الشأن، وظاهرة تفرد بها شعر الأندلس منذ الفتح بقيادة طارق بن زياد وما نسب إليه : [من الطويل]

ركبنا سفيناً بالمجاز مُقيرا عسى أن يكون اللـه منا قد اشترى [٢]

وحتى سقوط غرناطة وما نسب لأبي البقاء الرندي (٦٦٤هـ) : [من البسيط]

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغرُّ بطيب العيش إنسان [٣]

---

[١] الأعراف: ٤٣ .

[٢] نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني، شرحه وضبطه: د. مريم قاسم طويل، ود. يوسف علي طويل : ٢٥٥/١ ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٩٥ .

[٣] المصدر نفسه : ٢٤٣/٦ .

تأتي أهمية الدراسة كونها تمثل صفحة جهادية عظيمة في تاريخ المسلمين، ووثيقة تاريخية عن بطولاتهم البحرية، تعين الباحث على تفسير كثير من الظواهر التي تؤكد عظمة فتح الأندلس الذي كان مشهداً جليلاً ومظاهرة إسلامية لم يستطع الأسبان وأعداء الأمة أن يطمسوا حقيقتها ولن يكتب لهم ذلك .

بعد الفتح - وكما يرى د. علي الكتاني - (تكون شعب جديد مسلم العقيدة عربي اللغة له خاصية متأصلة في بلده، ولم يكن بذلك الفتح الإسلامي غزواً لأمةٍ أَخْرَجَتْ أمةً أخرى، أو إجبار أمة على دين ولغة لم يرتضيهما وإنما الشعب الأندلسي هو نفسه اختار الإسلام ديناً واللغة العربية لغة حضارة ورحَّب بالفاتحين المسلمين الأوائل ترحيب المقهور للمنقذ)[١] .

كما أن المعارك البحرية لم تكن حدثاً تاريخياً عابراً فقط، بل أن الحقبة التي عاشتها البحرية الأندلسية شهدت صراعاً عالمياً للسيطرة على البحر المتوسط، ومنذ انتصار المسلمين في معركة ذات الصواري عمل الأوربيون وبكل ما استطاعوا من قوة القضاء على القوة البحرية الإسلامية في هذا البلد .

ولئن اشتهر جانب من الشعر الأندلسي ببكاء المدن، ورثاء الأندلس، وهذا ما يدفع إلى الألم ويبعث على الأسى، يؤجج الأحزان التي حاول التاريخ أن يسدل عليها - وهماً وتصوراً - ستائر النسيان [٢] . فقد لمع في سماء الأندلس ما يمتع النفس ويبهج القلب ألا وهو وصف انتصارات البحرية الأندلسية، شأنه شأن وصف طبيعة الأندلس، والموشحات والأزجال .

---

[١] انبعاث الإسلام في الأندلس، د. علي المنتصر الكتاني : ٣١، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، ٢٠٠٥ .

[٢] ينظر: الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه، د. مصطفى الشكعة: ٤٦٧، ط١، ٢٠٠٠، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان .

وأن كان شعر البحرية الأندلسية قد تناثر متفرقاً في أثناء مصادر الأدب العربي، إلا أنني وبحمد الله استطعت أن أضعه في كيان واحد وأوزعه في اتجاهات فرضتها طبيعة الشعر، ذلك أنه تشكيل تاريخي أدبي ثقافي جغرافي، ضم صوراً تنم عن حركة التجديد التي أضافها شعر البحرية الأندلسية في تصوير دقيق، فضلاً عن استيعاب هذا الغرض من الشعر لأغلب التيارات التراثية البحرية وشكل انعطافة جديدة في التراث العربي، لذا وجدت هذا الفن الشعري جديراً بالاهتمام فانصرفت إلى دراسته بحثاً واستقصاءً للخروج برؤى واضحة توقِفُ القارئ العربي على جانب مهم من جوانب جهاد المسلمين في تلك الأصقاع التي رُفِعَتْ فيها راية الله أكبر لثمانية قرون أو تزيد .

من الروح الجهادية في البحر وما فيها من أجر كان اختيار موضوع دراستنا تحت عنوان (البحرية الإسلامية في الشعر الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة) ومن بواعث اختيار الموضوع ؛ إغناء المكتبة الأندلسية بهذا اللون من الشعر الذي يُظهر الروح الفدائية والمغامرة البحرية، مما خلفته البحرية الإسلامية في الأندلس، وهو موضوع على قلة مصادره وتشعب مسالكه خُضْنا غماره بتوفيق من الله تعالى وبرعاية من رسوله الكريم محمد (ﷺ) الذي بشر بفتح الأندلس، فسار البحث متتبعاً سفن المسلمين وهي تشق عباب البحار وتخوض أهواله، راصداً تلك الملاحم الجهادية البحرية بما جادت به قرائح الشعراء ذلك أن (السفن في البحر تقابل الخيول في البر، بل هنا أوجب وأهم فالمعارك البحرية في جزر متقطعة في البحر يأتيها الأعداء بأساطيلهم من كل حدب وصوب أكثر شيوعاً، لذلك فإن وصف السفن والأسطول أكثر إلفة من وصف الخيل)[1] .

---

[1] الأدب العربي في جزر البليار، د. عبد الرزاق حسين : ٧٤، ط١، دار الجيل للنشر، عمان، ١٩٩٤ .

ولاستعراض الفتوحات التي جاءت مصداقاً لما جاءت به الأحاديث النبوية الشريفة، ومواقف الصحابة والتابعين من الفاتحين من قادة ومجندين، وتناولنا في التمهيد الرحلة البحرية من الناحية التاريخية، التي تعنى بانتصارات المسلمين في البحر، وأغفلنا انتصارات العدو، وبما أمدتنا به المصادر والمراجع المتوافرة، على الرغم من قلة الفرص للحصول عليها، لا لندرتها وإنما للظرف الأمني الذي يمر به البلد بشكل عام وبغداد بخاصة، فضلاً عن انقطاع التيار الكهربائي المستمر عن مراكز البحث والسكن .

وكان البحث مثل غيره من الدراسات أكدَّ صفحة مشرقة من تاريخ تراثنا الأدبي وقد أغفله جُلُّ الباحثين ولم أدخر وُكداً في البحث عن هذا الشعر الذي لم يأت قصائد مستقلةً تعين الباحث، بل جاء أبياتاً متناثرة في ضمن قصائد المديح أو مقطوعات قصيرة في موروثنا الأدبي .

لم يكن البحث يسيراً أو تعتوره بعض الصعاب بل كان موضوعاً تجرعناه مراً تمتد معه لثمانية قرون ملأى بالأحداث، ولا ريب في أن قلة الأخبار وندرة المصادر كانت العقبة الكأداء، وظروف أخرى حالت دون ملء فراغات مهمة فيما بين تلك الأحداث ولعل صعوبات مثل هذه هي التي أبعدت كثيراً من الباحثين عن البحث فيه .

تكون البحث من مقدمة وتمهيد وأربعة فصول، أما التمهيد فقد وقفت فيه وقفة تاريخية شاملة في تسليط الضوء على سير معارك الجهاد الإسلامية في الأندلس منذ الفتح وما أعقبه من غزوات ودفاع عن الثغور والحدود إلى صد هجمات الأسبان المتكررة حتى سقوط غرناطة واقتصرت على المشهور من الحملات الجهادية البحرية، التي توافرت عليها المصادر، والتي كان للشعر فيها حضور، واكتفيت بذلك عما سواه لأنه من مهمة المؤرخين .

أما النصوص الشعرية التي صاغت تلك الملاحم الجهادية والوقائع الحربية البحرية الدامية وما صاحبها من مشاعر وخلجات فقد كنت أبحث وأنقب عنها في أثناء قصائد المديح أو الرثاء (كمن ضاع في الترب خاتمه)، وكانت مهمة عسيرة لعدم استقلال تلك النصوص في غرض أو باب خاص، كما الحال في أبواب الشعر الأخرى وأغراضه فقد تناولتها في الفصل الثاني وسأعود إليها لاحقاً .

وقد تضمن الفصل الأول مفهوم البحرية في اللغة والتاريخ والتراث العربي، وزعته على أربعة مباحث تناول المبحث الأول ؛ البحر لغة واصطلاحاً وفي التاريخ والجغرافية ومفاهيم أدبية، والمبحث الثاني تضمن البحر في التراث العربي قبل الإسلام، فيما تضمن المبحث الثالث البحر في القرآن الكريم، ثم البحر في التراث العربي الإسلامي في المبحث الرابع .

أما الفصل الثاني فقد تناولت فيه شعر البحرية الإسلامية في الأندلس .

ووزعته على أربعة مباحث هي : لمحة تاريخية عن شعر البحرية الإسلامية في الأندلس ومدى تأثره في شعر البحرية في المشرق في المبحث الأول. أما المبحث الثاني فقد تناولت فيه شعر البحرية في الأندلس منذ الفتح عام (٩٢هـ) حتى نهاية حكم الطوائف عام (٤٩٣هـ) وجعلت هذه الحقبة الزمنية في مبحث واحد، كي استطيع أن أشغل مساحتها بنصوص شعرية مناسبة، وأفردت مساحة واسعة لأحد الشعراء البارزين بنماذج شعرية حتى تنماز هذه الحقبة من لاحقاتها، وهذا منهج اتبعته في المباحث جميعها، وقد يرد نص لشاعر أندلسي مدح فيه أميراً أو خليفة من عدوة المغرب وذلك لأن الأندلس قد ضمت إلى المغرب وأصبح القطران قطراً واحداً في نهاية حكم الطوائف في دولة المرابطين والموحدين، والمصادر الأندلسية لا تفرق بين

الأندلس والمغرب ولا تضع حدوداً بين عدوة المغرب وعدوة الأندلس لتمازج هذه العناصر [1]

وكان المبحث الثالث خاصاً بعصر المرابطين والموحدين من (٤٩٣هـ- ٦٦٨هـ) لأن هذين العصرين يشكلان وحدة موضوعية في بحثنا على الرغم من اختلافهما سياسياً، ويحتوي المبحث الرابع على شعر البحرية في مملكة غرناطة (٦٦٥هـ- ٨٩٨هـ) لأنه يشكل منعطفاً أدبياً ذا ملامح خاصة .

أما الفصل الثالث فتناول مضامين شعر البحرية الأندلسية، فكان المبحث الأول يخص المضامين التقليدية، أما المبحث الثاني فتناول (الرهبة من البحر)، وتناول المبحث الثالث (الحياة والموت) بينما تناول المبحث الرابع : المعارك والتعبئة العسكرية البحرية .

أما الفصل الرابع فتناولت فيه (الدراسة الفنية)، فكان المبحث الأول للنسيج اللغوي (اللفظ والمعنى والأسلوب)، والمبحث الثاني تناولنا فيه المعجم الشعري (لغة الشعر، والاقتباس والتضمين) أما المبحث الثالث فتناول الصورة الشعرية أما موسيقى الشعر فقد تناولها المبحث الرابع .

ومن نافلة القول أن أذكر أن مصادر تناولت شعر الحرب في الأندلس أو الحياة الأدبية فيها إلا أنها لم تتناول شعر البحرية موضوع دراستنا – إلا في صفحة أو بعض صفحات – ومنها ما يرد في محتوياتها ذكر لشعر البحرية وكأن هذا النوع من الشعر خارج دائرة الحياة الأدبية الأندلسية على أنهم ذكروا أغراضاً وأبواباً لا تستحق الذكر، وأن ذكرت نصوص لشعر البحرية الأندلسية فتذكر لغرض الاستشهاد التاريخي فقط .

---

[1] مقدمة القصيدة العربية في الشعر الأندلسي، د. هدى شوكت بهنام : ٥، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠٠٠م .

واذكر من المراجع التي أفدت منها ما تناوله د. مصطفى الشكعة في كتابه (الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه) وكتاب (الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة) للدكتور أحمد هيكل، وكتاب (الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة) للدكتور منجد مصطفى بهجت، وما كتبه د. مصطفى محمود الحلوة في كتيبيه: (ابن خفاجة والبحر) و(البحر في الشعر الأندلسي) وكتاب (أدب البحر) لاحمد محمد عطية .

أما الرسائل الجامعية التي تناولت الأدب الأندلسي فقد تناول بعضها (البحرية الأندلسية) بشكل سريع إلا أنها توقفت طويلاً عند شعر الحروب البرية .

وإن وجدت صعوبة بالغة في اختيار برنامج البحث إلا أني اعتمدت المنهج التحليلي الذي يعتمد النص أساساً للكشف عن الدلالات والمضامين، ولم أغفل لضرورة البحث المنهج النفسي أو التاريخي في أحيان أخرى .

ليس بوسع هذا البحث أن يدعي الكمال، ومن ثُمَّ فإن هناك جوانب كثيرة تحتاج بحثاً واستقصاء وبحثي هذا يشكل خطوة أولى لشعر البحر في التراث العربي الحربي كما أنه يوسع دائرة البحث لدراسة شعر البحرية العربية الإسلامية في المشرق.

يظل البحث مديناً لأصوات كثيرة من أساتذتي وزملائي أسهمت في إخراجه على صورته، ولا يسعني هنا إلا أن أشكر كل من له الفضل في إبداء الرأي والتوجيه وأن كان لابدَّ من التخصيص فاستميح الجميع عذراً كي أخص أستاذي الدكتور عباس مصطفى الصالحي المشرف على الرسالة والذي تابع فكرة الموضوع ومنذ أيام السنة التحضيرية، ولم يبخل عليَّ من وقته وجهده في إعانتي على إتمام الأطروحة وشكري وتقديري لقسم اللغة العربية أساتذة وموظفين في كلية التربية – ابن رشد- جامعة

بغداد- الذي تقبلني طالباً في رحابه في مرحلتي الماجستير والدكتوراه، وتقديري إلى القائمين على مكتبة كلية التربية - ابن رشد - لما أبدوه من مساعدة جزاهم الله خيراً، والشكر موصول إلى القائمين على المكتبة المركزية لجامعة بغداد .

أرجو الله I أن أكون قد وفقت في عملي هذا في جمع جزء من التراث العظيم لأمة الأندلس المتناثر في المصادر والمضان، واسأله تعالى أن يتقبل مني هذا العمل العلمي المتواضع لخدمة لغة القرآن الكريم قبولاً حسناً .

وماتوفيقنا إلا بالله عليه توكلنا وعليه فليتوكل المتوكلون .

ومن الله تعالى التوفيق

الباحث

التمهيد

انتصارات البحرية الأندلسية

منذ الفتح حتى سقوط غرناطة

يَتَعيَّن علينا ونحن ندرس تاريخ انتصارات البحرية الإسلامية في الأندلس، تعرف المراحل التاريخية بأحداثها السياسية التي تعاقبت على شبه الجزيرة الأيبيرية المتمثلة في الفتوحات الإسلامية التي استمرت ثمانية قرون بدءاً بحملة طارق بن زياد من يوم الاثنين الموافق الخامس من رجب سنة (٩٢هـ*، نيسان ٧١١م) وحتى سقوط غرناطة في (الثاني من ربيع الأول سنة ٨٩٧هـ الثاني من كانون الثاني ١٤٩٢م)[١]، والتي كان للسفن والأساطيل البحرية الأثر المهم في الحفاظ على الانتصارات والدفاع عن الأندلس وقواعدها، وصدِّ هجمات الفرنجة، منذ انتصار طارق بن زياد وعبوره البحر إلى الأندلس إلى هروب ملك غرناطة وعبور البحر من الأندلس والفرق شاسع بين (إلى) و (من) .

الأندلس تعرف باللغة اليونانية (إشبانيا) وإن أول من اختطها (بنو طوبال بن يافث بن نوح) سكنوا الأندلس في أول الزمان، وقيل اسمها في القديم : (إبارية) ثم سُميِّت بعد ذلك (باطِقَة)، ثم سُميِّت (إشباينا) وسُميِّت بعد ذلك بالأندلس من أسماء الأندليش الذين سكنوها وسُمِّيتْ بجزيرة الأندلس لأنها شكلٌ مثلث، تضيق من ناحية شرق الأندلس حتى تكون بين البحر الشأمي والبحر المُظلم المحيط بالأندلس، ويحيط بها البحر من جهاتها الثلاث[٢] .

---

* هناك رواية تذكر أن فتح الأندلس لأول مرة لم يكن بعبور طارق بن زياد وإنما بعبور طريف يكنى أبا زرعه في أربعمائة رجل في جزيرة يقال لها اليوم (جزيرة طريف) لنزوله بها وذلك في شهر رمضان المبارك سنة إحدى وتسعين للهجرة، وأبو زرعه هو طريف بن مالك المعافري، وتذكر الرواية، أن هذا الأمر حصل بعد مكاتبات بين موسى ابن نصير بدعوة من (يليان) وبين أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك، وقد كتب إليه أن خضها بالسرايا ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال . (نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تح: محيي الدين عبد الحميد : ٢٣٥/١ ومابعدها، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨..

(١) نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، محمد عبد الله عنان : ٢٦٠، ط٤، القاهرة، ١٩٨٧، مطبعة المدني . (في فجر اليوم الثاني من يناير، وهو اليوم الذي حُدد لتسليم الحمراء) . ينظر : المصدر نفسه .

(٢) ينظر: صفة جزيرة الأندلس، منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، للحميري : ١-٢، تح: إ . لا في بروفنسال، ط٢، دار الجيل، بيروت- لبنان، ١٩٨٨.

جارى شعر البحرية الأندلسية الفتوحات الإسلامية وتفاعل معها، ورجوعنا إلى التاريخ في التمهيد لا، لتحديد نشأة شعر البحرية عند الشعراء العرب، وتأثر الأندلسيين بهذا النوع من الشعر، ذلك أن قافلة شعر البحر الذي عنى بوصف السفن والأساطيل والمعارك البحرية تمتد إلى العصر الجاهلي، حيث امرؤ القيس، وعمرو بن كلثوم، وبشر بن أبي خازم الأسدي، وصولاً إلى العصر الإسلامي، حيث مسلم بن الوليد، والبحتري، وابن الرومي، ومهيار الديلمي، والسري الرَّفاء، وبشار بن برد، وأبو نواس[1]، لذا فأن الشعر الأندلسي جاء مع الفاتحين وعبر مع طارق بن زياد .

لكن أرى أن الحدث التاريخي في بحثنا هو مادة أساسية، لأنه العلة التي دفعت الشعراء إلى النظم في هذا الغرض الجديد في ثوبه الأندلسي، القديم في تراث الأمة العربية، هذا التاريخ الذي توزع على عصور عدة، اختلف الباحثون في تحديد مراحله، وفي أسماء تلك المراحل، وأذكر ما أختاره الدكتور منجد مصطفى بهجت، لأنه يمثل الرأي الأكثر شيوعاً في المصادر الحديثة، وقد أجملها الباحث في خمسة عهود هي [2] :

١- عهد الفتح والولاية (٩٢ – ١٣٨هـ) .

٢- العهد الأموي (الإمارة، والخلافة، والحجابة، والفتنة) (١٣٨- ٣٩٩هـ) .

٣- عهد ملوك الطوائف والمرابطين (٤٠٠ – ٥٤٠هـ) .

٤- عهد الموحدين (٥٤٠- ٦٢٠هـ) .

---

(١) ينظر: الفصل الأول، المبحث الرابع

(٢) الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، د. منجد مصطفى بهجت : ٢٢-٢٤، ط٢، دار الياقوت، الأردن، ٢٠٠٦، وللمزيد من المعلومات ينظر: (الأدب العربي في الأندلس، للدكتور عبد العزيز عتيق: ٤٥-١٣٠، ط١، ١٩٧٦) و(دراسة تحليلية نقدية لنماذج من الشعر الأندلسي)، د. عبد المجيد عابدين: ٧، و(الأدب الأندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة للدكتور أحمد هيكل، ط١٣: ٢٨-٣٠).

٥- عهد دولة بني الأحمر في مملكة غرناطة (٦٣٥- ٨٩٧هـ) .

والبحث في البحرية الإسلامية في الشعر الأندلسي يسير في اتجاهين، الأول: هو البحث في شعر البحر عند العرب مراعاة للتسلسل الموضوعي في مسيرة البحث، وقد تناول الفصل الأول هذا الاتجاه، أما الاتجاه الآخر فهو ظهور - وليس نشأة - هذا النوع من الشعر في الأندلس، فقد نقل عبد الرحمن الداخل قافلة الشعر العربي إلى الأندلس مع نخبة من الأمراء والقادة الفاتحين من الشعراء أو متذوقي الشعر منهم، وما أبدعه الشعراء في وصف المعارك البحرية بقيادة موسى بن نصير وعبد الرحمن الغافقي أي منذ بداية الفتح حتى مطلع القرن الثالث الهجري، فقد لفت انتباهنا قلة النصوص الشعرية في البحرية الأندلسية، وسبب ذلك يعود إلى انشغال مسلمي الأندلس بالفتوحات أولاً، وما رافقها من المنازعات الداخلية، ومقاومة الأسبان، وإخماد الفتن ثانياً، وأرى أن ما ذهبنا إليه يكون رداً على أن ما ذهب إليه المستشرق الهولندي دوزي وهو يسوغ قلة النصوص بقوله : بأن العرب لم يكتبوا التاريخ في القرنين الأولين ذلك أنهم كانوا يعتمدون على الروايات الشفهية لقوة ذاكرتهم في حفظ الوقائع والسنين فلم يكن بهم حاجة إلى كتب مدونة، وكانوا يختارون التأليف في الديانة، وكان التأليف في غيرها مكروهاً [١].

لهذا ندرت الكتابة في التأريخ في حكم أمراء بني أمية بالأندلس، وكان لهذا كله الأثر الكبير في غياب أو ضياع الكثير من هذا النوع من الشعر، فضلاً عن كثرة شهداء المسلمين في معركة (بلاط الشهداء) و(الغزو النورماندي).

---

[١] أورد الكاتب العلامة دوزي، في مقدمة وضعها بالفرنسية على (كتاب المغرب في حلى المغرب). ينظر: تاريخ غزوات العرب، شكيب ارسلان : ٤٣، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٣٥٢هـ .

وقبل متابعة رحلة الأحداث التاريخية للبحرية الأندلسية لابدَّ لنا من أن نتساءل، ما بواعث هذه الحملات الجهادية فيما وراء البحار وأهدافها بعيداً عن مركز الخلافة الإسلامية، والإجابة عن هذا التساؤل نجدها في أحاديث الرسول الكريم محمد (ع): إن (أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أوْجَبُوا)[1]، وهذا ما يؤكد أن أجر الجهاد في البحر عظيم جداً، وحديث آخر للرسول الكريم (ع) : (إنَّ الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإنَّ أمتي سَيَبْلُغ مُلكها ما زُوِيَ لي منها)[2] .

إنَّ لأحاديث الرسول الكريم (ع) الشريفة الأثر الكبير في التحفيز على الحملات الجهادية الأندلسية التي قادها أوائل المسلمين، فتحوا الأندلس حباً في الجهاد والاستشهاد في سبيل نشر مبادئ الدين الحنيف، فضلاً عن صدقهم. وفاتحوها هم ثاني الجماعتين اللتين أشاد بهما رسول الله (ع)، وهي من معجزاته في فضل الجهاد في البحر، وما بشر به الخليفة الثالث عثمان بن عفان (τ)[3]، ويرى شكيب ارسلان في أحاديث الرسول الكريم (ع): (فإنه ما مضت سنوات قلائل حتى ضرب الإسلام بجرانه من العراق وفارس والشام ومصر وأفريقية... ثم من افريقية أغار العرب على أسبانيا ... إلى أن بلغوا فرنسه وصارت جميع قارة أوربا تحت خطر استيلائهم)[4]، إلا أن بعض المستشرقين يرون في الأهداف والبواعث التي دفعت العرب في فتوحاتهم في الأندلس وتوغلهم حتى جنوب فرنسا، ما هي إلا بواعث مادية للحصول على الغنائم

---

(1) صحيح البخاري لأبي عبد الله إسماعيل بن إبراهيم البخاري، ترتيب محمد فؤاد عبد الباقي، تقديم أحمد محمد شاكر : ٣٥٤، رقم الحديث ٢٩٢٤، مكتبة ألفا للتجارة والتوزيع، مصر، ط١، ٢٠٠٨ .

(2) صحيح مسلم للإمام أبي الحسن مسلم بن الحجاج، تح: أيمن إبراهيم الزاملي ومجموعة: ٥٤٤/٤ رقم الحديث : ٧٣٦١، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٨٨ .

(3) ينظر: التاريخ الأندلسي، عبد الرحمن الحجي: ٥٠، ط١، ١٩٧٦، دار القلم، بيروت.

(4) تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر المتوسط، الأمير شكيب ارسلان: ٤٣، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان .

وحباً في التوسع، يذكر ذلك د. عبد الواحد ذنون، وكان ردُّهُ على هذه التهمة مناسباً إذ يقول: (تهمة خطيرة قُصِد بها تشويه التاريخ العربي الإسلامي، فلم يكن الهدف مادياً، بل كانت هناك غاية نبيلة أهم من ذلك بكثير وأبعد أثراً ألا وهي نقل مبادئ الحضارة العربية الإسلامية المستمدة من قيم السماء السمحة إلى البلاد المفتوحة... أما الغنائم والمكاسب المادية فهي تحصيل حاصل ونتيجة طبيعية من نتائج الحروب)[١]، وتأكيداً للبواعث النبيلة ما نقل عن الأمير (عقبة بن الحجاج السلولي) أنه كان رجلاً يتقد حمية على الإسلام، ويرى في الجهاد قرة عينه، وأنه اختار إمارة الأندلس حباً بالجهاد والرباط [٢] .

أما ما ذهب إليه الأستاذ غرسيه غومس ؛ من أن الإسلام (أعطى الأندلس الشعر القديم، شعر القصائد الذي نشأ في الصحراء)[٣]، في إجابته على تساؤله: ماذا أعطى الأندلس الإسلام ؟ وماذا أخذ الأندلس من الإسلام ؟ [٤] .

أرى أن الأستاذ (غرسيه غومس) وما (له من فضل عظيم في تعريف جمهور الأسبان بمآثر العرب وآدابهم وهو لا يكف عن دراسة هذا التراث ونشر آثاره أو ترجمتها وتحليلها بملكة الأديب الناقد العالم الدقيق)[٥]، كان عليه ألا يغفل ما قدمه الإسلام للأمة الأندلسية وللغرب من قيم وتعاليم عاشها مسلمو الأندلس ثمانية قرون، ولو كان استبدل كلمة (الإسلام) بالفاتحين لكان مناسباً ذلك أن الإسلام لم يكن

---

(١) دراسات أندلسية، المجموعة الأولى، د. عبد الواحد ذنون طه : ٥١-٥٢، ط١، مكتبة بسام، الموصل- العراق، ١٩٨٦.

(٢) ينظر: تاريخ غزوات العرب : ١٠٥ .

(٣) الشعر الأندلسي، غرسيا غومس : ٢٦، تح: د. حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٦م .

(٤) المصدر نفسه : ٢٦.

(٥) المصدر نفسه : ٨ .

بحاجة إلى الإزجال والموشحات التي ذكر الأستاذ (غومس) من أن الأندلس قدمتها للإسلام .

نبدأ الرحلة التاريخية مع القائد طارق بن زياد والقائد موسى بن نصير بعد انتصار الأول على لذريق في (معركة وادي لكه) أو (وادي بكه)* في (٨ رمضان سنة ٩٢هـ)، (تموز ٧١١م) وعبور الثاني إلى أسبانيا في (رمضان ٩٣هـ ٧١٢م) ومسيرته الظافرة وصولاً إلى طليطلة والتقائه بطارق بن زياد [١]، حيث وضع الأثنان (خطة لافتتاح ما بقي من أسبانيا ثم زحفا نحو الشمال الشرقي واخترقا ولاية ارجوان (الثغر الأعلى) وفتحا سرقسطة وطرّكونة وبرشلونة وغيرها من المدائن والمعاقل))[٢]، وهذا ما أشار إليه المؤرخ الأمريكي (سكوت) في أمر فتح الأندلس كما أورده عبد الله عنان : (في أقل من أربعة عشر شهراً قضى على مملكة القوط قضاءاً تاماً، وفي عامين فقط وطدت سلطة المسلمين فيما بين البحر الأبيض المتوسط وجبال البرنية ولا يقدم لنا التاريخ مثلاً آخر اجتمعت فيه السرعة والكمال والرسوخ بمثل ما اجتمعت في هذا الفتح)[٣] .

وتسجيلاً تاريخياً لما انفردت به الأندلس من مسيرة ساعدت على ازدهار الروح الجهادية البحرية فيها امتزاج النزعات الدينية بحب الجهاد، وأية تلك الروح

* معركة تلاقى فيها العرب والقوط في منطقة تحيط بها سلسلة من التلال تعرف باسم وادي لكة أو بكة، انتصر فيها المسلمون بقيادة طارق بن زياد، ينظر: دولة الإسلام في الأندلس الى بداية عهد الناصر، محمد عبد الله عنان، مج١: ٤٤/١-٤٥، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٩٨٨ .

(١) ينظر: دولة الإسلام في الأندلس الى بداية عهد الناصر، مج١: ٤٤/١ .

(٢) دولة الإسلام في الأندلس مج١: ١/ ٥٣ .

(٣) المصدر نفسه مج١: ٦٤/١-٦٥ .

الجديدة تمثلت بإنشاء قواعد بحرية عديدة صارت فيما بعد مراكز أمامية للأسطول العربي في البحر الأبيض المتوسط الذي (لم تسبح للنصرانية فيه ألواح))[١] .

ونتابع الرحلة التاريخية التي بدأناها مع طارق بن زياد، وموسى بن نصير، بمسيرة أمير الأندلس عبد الرحمن الغافقي (سنة ١١٤هـ) إلى شمال الأندلس مخترقاً ولاية أرجوان، ودخوله فرنسا بعد معركة عنيفة نشبت على ضفاف نهر الرون، ثم عبوره نهر الجارون ووصوله مسافة ميل عن باريس ثم ارتداده غرباً إلى ضفاف اللوار ليتم فتح هذه المنطقة ثم يقصد عاصمة الفرنج ويفتح نصف فرنسا الجنوبي [٢]، وهذا ما دعا (أدوارد جيبون) إلى التسليم بقوة الأسطول البحري العربي، يقول : (وقد كان اقتحام مثل هذه المسافة يحمل العرب إلى حدود بولونيا وربى اسكتلندا فليس الرَّين بأمنع من النيل أو الفرات، ولعل أسطولاً عربياً كان يصل إلى مصب التايمز دون معركة بحرية، بل ربما كانت أحكام القرآن تدريس الآن في معاهد اكسفورد، وربما كانت منابرها تؤيد لمحمد صدق الوحي والرسالة)[٣] .

وفي سنة (١٨٠هـ- ٧٩٣م) أنشأ عبد الرحمن الداخل دوراً لصناعة السفن في مراسي طرَّ كونه وطرطوشة وقرطنجة وأشبيلية وألمرية وغيرها، وذلك بعد اقتطاعه الأندلس عن الخلافة العباسية وتصديه لبحريتها، وفي سنة (١٩٣هـ- ٨٠٦م) اكتسح الأسطول الأندلسي جزيرة كورسيكة وهزم أسطول (يبين بن شارلمان) ملك إيطاليا بعد تدمير الأسطول وأسر الكثير من الرجال ذوي النفوذ[٤]، إلا أن عظمة هذا

---

[١] مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون : ٣١٦، تح" د. حامد أحمد الطاهر، ط١، دار الفجر للتراث، القاهرة، ٢٠٠٤ .

[٢] ينظر: دولة الإسلام في الأندلس مج١ : ٥٣/١ .

[٣] دولة الإسلام في الأندلس مج١ : ٩١/١ .

[٤] ينظر: تاريخ غزوات العرب : ١٣٩-١٤٠ .

الأسطول ما كان لها أن تستمر بعد نكبة (بلاط الشهداء) إذ انشغلت الأندلس بمنازعاتها الداخلية، وقيام أمبراطورية عظيمة موحدة الكلمة هددت المسلمين ونازعتهم السيادة والنفوذ [1] .

ونتابع مسيرة البحرية الإسلامية في انتصاراتها تارة، وفي اخفاقاتها بحسب قوة حكامها أو ضعفهم لنصل إلى عهد عبد الرحمن بن الحكم الذي تسلم السلطة سنة (٢٠٦هـ) وعرفت الأندلس في عهده خطر الغزوات النورمانية البحرية التي كان من مفاجآتها المروعة ما حمل حكام الأندلس على الاهتمام بأمر الأسطول وتحصين البحرية ببناء سور عظيم وإنشاء دار عظيمة لصناعة السفن الحربية الكبيرة فكانت نواة الأسطول الأندلسي الذي بلغ مئتي سفينة في عهد عبد الرحمن الناصر [2]، وفي سنة (٢٠٧هـ - ٨٢٠م) (سار أسطول إسلامي من تركونه وغزا سردانيه فجاء أسطول مسيحي لأجل الدفاع عنها فتغلب الأسطول الإسلامي وأغرق المسلمون ثمانية مراكب، وأحرقوا مراكب كثيرة))[3] ومن ثغر طرّكونه والجزائر الشرقية خرج الأسطول الأندلسي سنة (٢٢١هـ) إلى مياه فرنسا الجنوبية وكان من أثرها قيام مجمعات عربية إسلامية في بروفاس وأنحاء أخرى من جنوب فرنسا وشمال إيطاليا [4] .

---

[1] دولة الإسلام في الأندلس، مج١: ١/ ١١١ .

* النورمان أمة بحرية عريقة وصلت غزواتهم البحرية الى بلاد الفرنج (فرنسا)، وتطلق الرواية الإسلامية على أولئك الغزاة المجهولين اسم "المجوس"، وكان ظهورهم لأول مرة في المياه الأسبانية (٢٢٩هـ- ٨٤٣م) اقتحموا شواطئ المملكة الإسلامية (الأندلس) (٢٣٠هـ) وكان موطنهم الأصلي اسكندناوه، وشواطئ ألمانيا الشمالية وقد تمرست هذه الأمة منذ غابر العصور في ركوب البحر ومقارعة أهواله . ينظر: دولة الإسلام في الأندلس، ١/١: ٢٦١-٢٦٤ .

[2] ينظر: دولة الإسلام في الأندلس، ١/١: ٢٦٤ .

[3] تاريخ غزوات العرب : ١٤٥ .

[4] ينظر: المصدر نفسه : ١٤٥.

وتستمر انتصارات البحرية الأندلسية وتهاجم مرسيليا ويستولي أسطول المسلمين على جزيرة صقلية وفي سنة (٢٣٣هـ) غزا العرب روما وفي سنة ٢٣٤هـ توجهت قوة بحرية لغزو أكبر جزائر البليار [١]، وكان نتيجة لهذه الانتصارات اضطرار الملك شارل الأصلع ملك فرنسا طلب الصلح بعد أن غزا العرب مرسيليا سنة ٢٣٥هـ [٢] .

لهذه الانتصارات التي حققها المسلمون كان شعور الفرنج على الرغم من انتصارهم في موقعة بلاط الشهداء *، ومعارك أخرى تتلخص في أن المسلمين قوة لا تقهر وأنهم على امتداد دولتهم يستطيعون زج طاقات بشرية غير محدودة .

ويرى العلامة "دوزي" أن انتصارات المسلمين في فتوحاتهم ما هي إلا معجزة: (وأي معجزة أروع وأعجب من أن ترى شعباً كان إلى زمن قليل في غاية الخمول، ثم ظهر إلى الدنيا فجأة، وظل يتقدم بسرعة لا مثيل لها ... ويتنصر على قطر بعد قطر، فتدين له البلاد بالطاعة والولاء وتقبل على دينه من كل حدب وصوب راضية غير مكرهة)[٣] .

ويرى أن كثيراً من المسيحيين آمنوا بالإسلام عن عقيدة وإيمان، ويرى في انتصارات الرسول (ε) وفتوحات المسلمين التي لم تقف عند حد دلالة على معجزة هذا الرسول [٤] .

---

(١) ينظر: تاريخ غزوات العرب: ١٥٠-١٥٢ .

(٢) ينظر: المصدر نفسه : ١٥٦، ١٥٩ .

* معركة بلاط الشهداء، كانت أعظم لقاء بين الإسلام والنصرانية، وبين الشرق والغرب، تغيرت فيه مصائر العالم القديم كله وارتد تاريخ الفتح الإسلامي عام ١١٤هـ وكان من نتائج هذه المعركة هزيمة فادحة بالمسلمين وقتل قائدهم عبد الرحمن الغافقي . (ينظر: دولة الإسلام في الأندلس، ١/١: ٩٢- ١١١) .

(٣) ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام، للعلامة دوزي،ترجمة: كامل كيلاني: ٤٠٦، ط١، ١٩٧٣، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر .

(٤) ينظر: المصدر نفسه: ٤٠٦ .

ونـذكر تـاريخ البحريـة الأندلـسية في عهـد عبـد الـرحمن النـاصر (٣٠٠-٣٥٠هـ) وانتصارته بكل فخر واعتزاز، وقد خلدها ابن عبد ربه (٣٢٨هـ) في أرجوزتـه المشهورة البـالغ عـدد أبياتهـا ٤٤٣ بيتـاً، يقـول في بعـض غزواتـه سـنة ٣٠١هـ [1] : [من الرجز]

سِـبحانَ مَـنْ لم تحـوه أقطـارُ ... ولم تكـن تدركـه الأبـصارُ

ومنها في المديح يقول :

لـو خايـل البحـر نـدى يديـه ... إذا لجـت عفاتـه إليـه [2]
لغـاض أو لكـاد أن يغيـضا ... ولاسـتحى مـن بعـد أن يفيـضا

ويذكر غزوته الثانية (سنة ٣٠١هـ) [3] :

ثـم غـزا في عُقـب عـامٍ قابـل ... فجـالَ في شـذونة والـساحل
ولم يـدع ريَّـة والجزيـرة ... حتـى كـوى أكلبهـا الهريـرة
حتـى أنـاخ في ذرى قرمونـه ... بكلكـلٍ كمـدرةِ الطاحونـة

---

[1] ديوان ابن عبد ربه، جمع وتحقيق : د. محمد رضوان الداية: ١٨١-١٨٥، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٧٩، والعقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي : ٥٠١/٤-٥٠٤، تح: أحمد أمين ومجموعة، ط٢، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٢ .

[2] المخايلة، المباراة، ولجت أصلها، لجأت (هامش الديوان: ١٨٢) .

[3] شذونة، وريَّه، والجزيرة وقرمونه، مدن ونواحٍ من أعمال الأندلس .

ويتقدم أسطول الناصر [1] (٣٠٠-٣٥٠هـ) بقيادة أمير البحر عبد الملك بن سعيد بن أبي حمامة وقوامه أربعون مركباً منها عشرون من الجرافات التي تحمل النفط والآلات البحرية، وعشرون أخرى تحمل الرجالة المقاتلة، وعدة رجاله من الجند ألف رجل، ومن البحريين ألْفَا رجل، من ثغر المرية ويهزم الفرنج في مدينة بالش ويحيط المسلمون براً وبحراً بمدينة أنيش ويحرقوا مراكبها، ويتقدم الأسطول إلى مدينة برشلونة ويقتل قائد الأفرنج (بليط) ثم يعود الأسطول إلى مراسيه في المرية سنة ٣٢٤هـ[2] .

ويتولى الحَكَم بن الناصر، وبعد تهديد الفاطميين سنة (٣٥٣هـ) الإشراف على أعمال تحصين الأسطول بنفسه في ثغر المرية التي كانت أعظم قواعد الأسطول الأندلسي إذ بلغ عدد القطع الراسية يومئذٍ ثلاثمائة قطعة [3] .

ونصل إلى غزوات المنصور بن أبي عامر [4] (٣٦٦هـ- ٣٩٩هـ)، إذ بلغ شغفه بالجهاد حداً أنه كان يتولى القيادة في سائر غزواته بنفسه، وزادت غزواته على الخمسين وقد مثلت عنوان جهاد مستمر كان يرمي إلى غاية عسكرية وسياسية فطنة هي تحطيم العدو ونشر مبادئ الإسلام في إسبانيا ومن معاركه التي أعدَّ لها أسطولاً بحرياً ليضرب الأفرنج في صميم معقلهم وفي صميم زعامتهم الروحية بغزو جليقية في سنة (٣٨٧هـ) وتظهر في هذه المسيرة قوة البحرية الأندلسية وانتصاراتها فقد اخترق

---

[1] هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، أعظم بني أمية وأطولهم في الخلافة، عُرف بشخصيته القوية وحفظ هيبة الدولة . (ينظر: كتاب الحلة السيراء، لأبي عبد الله بن الابار القضاعي، تح: عبد الله أنيس الطباع: ٢٥٥-٢٥٦، دار النشر للجامعين، بيروت، ١٩٦٢) .

[2] ينظر: دولة الإسلام في الأندلس، الخلافة الأموية والدولة العامرية، مج١: ٢/ ٤٠٤ .

[3] المصدر نفسه، مج١: ٢/ ٤٨٨ .

[4] هو محمد بن عبد الله بن أبي عامر، الحاجب المنصور أمير الأندلس في دولة المؤيد بالله هشام بن الحكم المستنصر بالله والغالب عليه . (كتاب الحلة السيراء: ٢٨٢-٢٨٣).

الأسطول أسبانيا الغربية وقد فِرَّتْ جموع غفيرة من الفرنج إلى الجزائر المقابلة (وكانت عظيمة استبشر بها المسلمون، وقرَّتْ نفوسهم، واهتزت لها أسبانيا من أقصاها إلى أقصاها)[1]، ونظم ابن دراج القسطلي(٤٢١هـ)في تهنئة المنصور بهذه الغزوة(غزوة شنتياقة)أو(شنت ياقب)*.

قصيدة منها[2] : [من البسيط]

اليومُ أنكصَ إبليسٌ على عقبه	مُبرَّءاً سَبَبُ الغاوين من سَببه
وحَلْبَةُ الدين والإسلام عاطِفَةٌ	عليك كالفَلَك الجاري على قطبه

ويسجل التاريخ أروع صور البطولة في سنة (٣٨٩هـ) في غزوة المنصور (نافار) ومواصلة الجهاد في العام التالي وصولاً إلى عاصمة (سرقسطة) من دون أن يجرؤ أحد من الفرنج على الوقوف في سبيله[3]، ويورد محمد عبد الله عنان في ضوء هذه

---

[1] ينظر: دولة الإسلام في الأندلس / مج١: ٢/ ٥٥٩-٥٦١ .

* وللزيادة في المعلومات ينظر: كتاب أعمال الأعلام، لابن الخطيب : ٧٩-٨٠، وفَصَّلَ ابن عذارى هذه الغزوة، يقول : غزوة شنت ياقب دليل عظمة انتصارات البحرية الأندلسية وهي غاية لم يبلغها قبلهم مسلم ولا وطأها غير أهلها قدم فلم يكن بعدها للخيل مجال ولا وراءها انتقال، هكذا يصفها ابن عذاري المراكشي، و(شنت ياقب) من أعظم= =مشاهد النصارى الكائنة ببلاد الأندلس كانت كنيستها عندهم بمنزلة الكعبة عندنا، لم يطمح أحد من ملوك المسلمين في قصدها أو الوصول إليها لصعوبة مدخلها وخشونة مكانها وبعد شقتها . خرج المنصور إليها من قرطبة غازياً (٣٨٧هـ) وهي غزوته الثامنة والأربعون وقد جهز أسطولاً كبيراً وجهزه برجاله البحريين وجعل من هذا الأسطول جسراً وقطع بالعبور أنهاراً كباراً كثيرة وخلجان يمدها البحر الأخضر. وبعد أن أفضى المنصور إلى أماكن وعره، يذكر ابن عذارى قطع العسكر لهذه الأماكن وفتح حصن شنت بلاية وغنموه وعبروا سباحة إلى جزيرة من البحر المحيط، وانتهى العسكر البحري إلى جبل مراسيه المتصل من أكثر جهاته بالبحر المحيط، ثم أجاز المسلمون إلى خليج لورقي ثم نهر أيله ثم إلى شنت برية ثم انتهوا إلى خليج أيليا وهو من مشاهد ياقوت، صاحب القبر، ثم نزل المسلمون مدينة شنت ياقوب . (ينظر: البيان المغرب في أخبار المغرب، أخبار الأندلس، لابن عذاري المراكشي: ٤٤٠-٤٤٢، مكتبة صادر، بيروت، ١٩٥٠م).

[2] ديوان ابن دراج القسطلي، تح: د. محمود علي مكي: ٣٧٣، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٩٦١.

[3] دولة الإسلام في الأندلس، مج١ : ٥٦٣/٢ .

الانتصارات قول المؤرخ الأسباني (منديث بيدال) معلقاً على عصر المنصور: (عاش الإسلام في أسبانيا أروع أيامه وأسطعها وانتهى نصارى الشمال إلى حالة دفاع كانت مقرونة بالمحن، ولاح كأنهم لم يعيشوا إلا لتأدية الجزية والسلاح والأسرى والمجد للخلافة الأموية)[١] .

ويقول ابن الخطيب عن هذه الانتصارات : (ونَصَرَ الله المسلمين نصراً ما سُمِعَ بأعظم منه، واستشهد في هذه الوقيعة من صفوف المدوَّنة وغيرهم أزيد من سبعمائة رجل وذلك (سنة ٣٩٠هـ)))[٢] .

ونصل إلى النصف الأول من القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، عقب انهيار الخلافة الأموية، والدولة العامرية واستحالت الأندلس إلى أشلاء ممزقة وولايات متباعدة متخاصمة حيث قامت على انقاضها دول عديدة هزيلة هي دول الطوائف، وبعد أن التجأ الأندلسيون إلى أخوانهم المسلمين في عدوة المغرب، وانقاذ الأندلس بعد مجيء جيوش المرابطين سنة (٤٧٩هـ- ١٠٨٦م) تم دخول المرابطين ثانيةً لا، لنصرة الأندلس وإنما لاحتلالها وضمها إلى دولة المغرب تحت الحكم المرابطي لعدم قدرة المعتمد بن عباد [٣] دفع ضرر ملك قشتالة، مما اضطره إلى عبور البحر لمقابلة يوسف بن تاشفين [٤] أمير المرابطين ليستنصره بنفسه للجهاد وإنقاذ الأندلس [٥]،

---

(١) المصدر نفسه، مج١: ٥٨٦/٢ .

(٢) تاريخ أسبانيا الإسلامية، أو كتاب أعمال الأعلام، لسان الدين بن الخطيب : ٧٢، تح: إ. ليفي بروفنسال، دار المكشوف، ط٢، بيروت – لبنان، ١٩٥٦م .

(٣) بنو عباد من ملوك الطوائف، آخر ملوكم المعتمد بن عباد (٤٦١هـ- ٤٨١هـ) الذي خلعه المرابطون وقضوا على دولتهم ونقلوه الى مدينة اغمات في جنوب مراكش في المغرب حيث سجن فيها مع عائلته وتوفي . (الحلة السيراء: ٣٤١) .

(٤) بنو ناشفين حكموا المغرب وهم فرع من دولة المرابطين . ويوسف بن تاشفين أحد أعلامهم العظام، لبى نداء أهل الأندلس للقضاء على الروم وعاد ثانية لنجدة أهل الأندلس، وقضى على ملوك الطوائف وعلى ملك بني عباد، وحكم الأندلس مباشرة، قاد المعارك في كل ناحية من الأرض العربية في أفريقية الغربية، توفي (٥٠١هـ) . (الحلة السيراء: ٣٠٥-٣٠٦) .

(٥) ينظر: دولة الإسلام في الأندلس، مج٢: ٢٧٦/٢-٢٧٧ .

وبعد استجابة زعيم المرابطين (بدأت الجيوش المرابطية تعبر البحر من سبتة تباعاً إلى ثغر الجزيرة، وما كادت السفن تتوسط ماء مضيق جبل طارق تتقدمها سفينة يوسف، حتى نهض الزعيم المرابطي ومدَّ يديه نحو السماء قائلاً: (اللهَّم إنْ كنت تعلم أن جوازي هذا خيراً وصلاحاً للمسلمين فسهل عليَّ جواز هذا البحر) [1] .

ومن شرق الأندلس تظهر مسيرة خيران العامري (٤٢١هـ) وإخضاعه مدينة مرسيه وانتزاعها من أفلح الصقلبي سنة (٤٠٥هـ) وغَدَت المرية منذ ذلك الحين قاعدته الرئيسة، ويسجل أبو عمر بن دراج القسطلي هذه الأحداث بقصيدته المشهورة[2] :

[من الطويل]

لكَ الخيرُ قدْ أوفى بعهدكَ خيران … وبشراك قد آواك عزُّ وسلطان
إليك شحَنَا الفُلكَ تهوَي كأنها … وقد ذعرت عن مغرب الشمس غربان

وننتقل إلى مجاهد العامري (٤٠١-٤١١هـ) أكبر زعماء العامريين وقد نشأ وتربى في عهد المنصور بن أبي عامر (٣٢٦-٣٩٢هـ)، وكان فيما يبدو بحاراً مجرباً، ويرى أن مملكته الساحلية دانيه والجزائر الشرقية، وأملاكه البحرية تقتضي أن يكون اعتمادها على الأساطيل قبل كل شيء، لذا جَدَدَ دار صناعة السفن وأعاد للأسطول البحري عافيته، إذ استطاع في مدة قصيرة أن ينشئ أسطولاً كبيراً وغدت دانية فيما بعد أعظم مركز للأساطيل الأندلسية، وعلى يديه تم فتح سردانيه سنة (٤٠٦هـ) بعد

---

[1] دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، محمد عبد الله عنان: ١٧٢، ط٣، مكتبة الخانجي، مصر- القاهرة، ١٩٨٨م .

[2] ديوان ابن دراج : ٧٣- ٧٤ .

أن حَشَدَ أسطولاً قوامه مئة وعشرون سفينة [١]، ويذكر عنان بأنه من أذكى الملوك وأعظم بحارة عصره: (أن مجاهداً كان من أذكى ملوك الطوائف ... وقد رأينا مما ذكرناه في غزوة ميورقة وغارات مجاهد البحرية على الشواطئ الفرنسية والإيطالية إن مجاهداً كان كذلك بحاراً من أعظم بحارة عصره، وكان من أكثرهم تمرساً بالحروب والغارات البحرية))[٢].

وإن ذهب العلامة (دوزي) إلى أن مجاهداً من أعظم القراصنة في عصره، أرى أنه لم يكن قرصاناً، وإنما كان مجاهداً مدافعاً عن وطنه [٣].

والأفرنج يسمون مجاهد العامري ؛ موجيت Mujet وكان اسمه يلقي الرعب في سكان كورسيكا وسردانية وبيزه وجنوه، وكانت غارات المسلمين على سواحل فرنسا تتوالى ولا تغيب إلى أن اشتدت قوة فرنسا البحرية [٤].

وفي تاريخ المسيرة البحرية يظهر يوسف بن تاشفين (٥١٠هـ) وهو يعبر البحر إلى الأندلس للمرة الثالثة (٤٨٣هـ) لا، لنصرة الأندلسيين وتعزيز قوتهم البحرية ولا دفاعاً عن المسلمين وإنما ليقضي على أمراء الأندلس وعلى دولهم المنحلة المفككة وليستولي على غرناطة ثم على اشبيلية للقضاء على دولة بني عباد [٥].

أذكر وصفاً للسفن التي أُعدّتْ لنقل المعتمد بن عباد، لا وصفاً لانتصارات الأسطول الأندلسي، ذلك بعد سيطرة المرابطين ونفي المعتمد إلى إغمات في المغرب: (سارت السفن من أشبيلية في نهر الوادي الكبير في طريقها إلى العدوة في مناظر تذيب

---

(١) ينظر: دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي : ١٩٠ .
(٢) المصدر نفسه : ١٩٩ .
(٣) ينظر: دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي: ١٩٩.
(٤) تاريخ غزوات العرب : ٢٠٢ .
(٥) ينظر: دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي : ١٧٢ .

القلب حزناً وأسىً وضَجَّت جموع الشعب الغفيرة التي احتشدت على ضفتي النهر لوداع المعتمد بالبكاء والنواح)[1] .

ويؤرخ أبو بكر ابن اللبانة (٥٠٧هـ) شاعر المعتمد لهذا الحدث في قصيدة طويلة منها [2] : [من البسيط]

والناس قد ملأوا العبرين واعتبروا ... من لؤلؤ طافيات فوق أزباد
سارتْ سفائنهم والنوح يتبعها ... كأنها إبل يحدو بها الحادي
كم سال في الماء من دمعٍ وكم حملت ... تلك القطائع من قطعات أكباد

وأن عَبَرَ طارق بن زياد المضيق في أربع سفن فاتحاً الأندلس، وأحرق -كما يُروى- سفنه بعد عبوره - و الله اعلم -، فإن سفن معز الدولة سنة (٤٨٤هـ)، لم تعد للفتح والانتصار وإنما أُعدَّت للهزيمة والفرار، فقد (بادر الأمير معز الدولة باتخاذ أهبة الفرار، ثم ركب في أهله وأمواله في ثلاث سفن أعدها لذلك وأحرق السفن الباقية خشية المطاردة واستطاع مغادرة المرية قبل أن يطوقها المرابطون في رمضان (٤٨٤هـ- ١٠٩١م))[3] .

ونتجاوز كثيراً من انتصارات الأسطول المرابطي لنصل إلى نتائج معركة الزلاقة التي أدت إلى أن ينعم المسلمون بعدها بحياة جديدة في إسبانيا امتدت إلى أربعة

---

(١) المصدر نفسه : ٣٥٦ .

(٢) تاريخ ملوك العرب الشعراء، علي المصري: ٢٤٤/٥، دار الكتاب العربي، ط١، ٢٠٠١.

(٣) دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي: ١٧٣، وللمزيد من الاطلاع مراجعة كتاب (الحلة السيراء لابن الابار القضاعي : ٨٨/٢، وما بعدها، تح: د. حسين مؤنس، ط١، ١٩٦٣، لجنة التأليف والنشر، القاهرة .

قرون، ومهدت السبيل لسيطرة المرابطين على الأندلس وجعلت منها ولاية مغربية زهاء مئة وخمسين عاماً [١] .

وننتقل إلى انتصار الموحدين على المرابطين سنة (٥٤١هـ)، إذ سار الموحدون لاحتلال أشبيلية وحاصرتها من البحر سفن الأسطول الأندلسي، وسرعان ما اقتحم الموحدون المدينة وفرَّ المرابطون، واستولى الموحدون على غرناطة بدون حرب وقد حاصروا المرية براً وبحراً بمشاركة أسطول سبته الموحدي وأرغمت المرية على التسليم سنة (٥٥٢هـ) وعادت إلى سلطان المسلمين بعد أن أحتلها الفرنج عشرة أعوام[٢].

وتشير مسيرة البحرية الأندلسية إلى عبور الخليفة عبد المؤمن إلى الأندلس سنة (٥٥٥هـ) بعدِّها جزءاً لا يتجزأ من الأمبراطورية التي نذر الموحدون أنفسهم عليها، وقد سجل عبد المؤمن انتصاراته وفتح الأندلس وتسلم غرناطة بدون قتال، يقول [٣] : [من الطويل]

ولَمَّا قَضينا بالمشارق أمرنا — وتمَّ مراد الله في كل مطلب
وأشرقت الشمسُ المنيرةُ فوقنا — وأصبحَ وجهُ الأرض غير مُحَجَّب
أشرنا بأعناق المطي إليكم — فطار بها شأو السرور بمغرب [٤]

---

[١] ينظر: دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي: ٢٣٢ .

[٢] ينظر: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، محمد عبد الله عنان ٣/١: ٣٢٨، ٣٤٧، ٣٤٨، ٤٢٠، ط١، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ١٩٦٤م .

[٣] كتاب المن بالإمامة، لابن أبي صاحب الصلاة، تح: عبد الهادي التازي: ١١٧، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٩م .

[٤] فيه إشارة الى قول الشاعر ابن الطثرية :

ثم أمر الخليفة عبد المؤمن بتحصين قاعدة جبل طارق وعبر إليها بعد اكتمال بنائها وأمر باستدعاء الشعراء وكان يوماً عظيماً من أيام الشعر والشعراء، ومن القصائد التي أعجب بها عبد المؤمن قصيدة الشاعر ابن جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد، منها [1] :

[من الطويل]

تَكَلَّم فقد أصغى إلى قولك الدهرُ … وما لسواك اليوم نهيّ ولا أمرُ

ورُمْ كلَّ ما شئتهُ فهو كائن … وحاول فلا برٌّ يفوت ولا بحرُ

وحَسْبكَ هذا البحر فألاً فإنه … يقبل تراباً داسهُ جيشك الغمرُ

وتصل مسيرتنا التاريخية إلى انهيار الأندلس وسقوط قواعدها الكبرى عند ذاك تحول الدفاع عن أمة الأندلس إلى معارك داخلية وصراعات شخصية، بل إلى مصانعة وتسليم إلى الفرنج، مما دعا الأمير محمد بن يوسف بن هود إلى الانضمام تحت راية الخلافة العباسية، وكان يعمل على تحرير الأندلس من الموحدين ومن عدوان الفرنج، وفعلاً حصل ابن هود على مرسوم توليته على الأندلس من الخليفة المستنصر بالله العباسي سنة (٦٣٠هـ) بعد التاريخ هذا توالت حوادث سقوط القواعد الكبرى،ففي سنة (٦٣٣هـ) سقطت قرطبة عاصمة الخلافة القديمة وكبرى قواعد الأندلس بدخول الجند القشتاليين بعد أن حكمها المسلمون منذ افتتاحها سنة (٩٢هـ)[2]، ثم سقوط بلنسية الذي ما كان ينفع فيه استصراخ ابن الابار (ت ٦٥٨هـ) ، للسلطان الأندلسي الأمير أبي زكريا الحفصي لنجدتها، في قصيدته المشهورة.

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا … وسالت بأعناق المطي الأباطح

(شعر ابن الطثرية، صنعه : د. حاتم صالح الضامن: ٦٤، دار الطباعة والنشر، بغداد، ١٩٧٣) .

(1) عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، مج١: ٣٨٥/٣ .

(2) ينظر: المصدر نفسه، مج٢: ٤٢٥/٣ .

ومنها قوله : [من البسيط]

أدْرِك بخيلــك خيــلَ اللـــه أندلـــسا إن الـــسبيل إلى منجاتهـــا درســـا[1]
وهب لها مـن عزيـز النـصر مـا التمـست فلـم يـزل منـك عـــز النـصر ملتمـسا

وفي سـنة (٦٤٦هــ) تـسقط حـاضرة الأنـدلس العظمـى أشـبيلية بعـد أن حكمهـا المسلمون منذ افتتاحها على يد موسى بن نـصير، وسـقوط اشـبيلية بعـد قرطبـة يُعـدُّ تـصفية نهائية لسلطان الأندلس، ونذيراً لسقوط سائر القواعد، ولاسيما قواعـد الغـرب التـي أصـبحت معزولة عن بقية القواعد الأندلسية [2] .

بعد هذه الضربات الشديدة لسلطان الموحدين في الأندلس، تظهـر مملكـة إسـلامية جديدة في جنوب الأندلس هي مملكة غرناطة ويرجع قيامها في جنـوب الأنـدلس إلى عوامـل جغرافية وتاريخية (واستحال الوطن الأندلـسي الـذي كـان قبـل قـرن يـشغل نـصف الجزيـرة الأسبانية إلى رقعة متواضعة هي مملكة غرناطة)[3]، وفي رثاء

---

* ابن الابار : هو أبو عبد اللـه محمد بن الابار (ت ٦٥٨هـ)، ترك عدداً كبيراً من المؤلفات، بلغت (٤٥) كتاباً منها : (الحلة السيراء) و(التكملة لكتاب الصلة) و(أعتاب الكتاب) . (الحلة السيراء : ١٤١-١٤٢) .

قتله بيت شعر قاله في المستنصر بالله سلطان تونس (٦٤٧هـ)، فقد أمر أن تجمع كتبه التي وجدت بهـا رقعة فيها هذا البيت : [من المجتث]

طغــــــا بتـــــــونس خلــــــق ســــــموه ظلـــــــماً خليفــــــة

فاستشاط السلطان وأمر بقتله قمعاً بالرماح وأحرقت دواوينه وكتبه معه وهو صاحب هـذه القـصيدة المحزنة المؤثرة الصادرة من القلب يخاطب بها القلوب والعواطف. (ابن الابار حياته وكتبه، عبد العزيز عبد المجيد: ٣٤٣-٣٤٦، معهد مولاي الحسن، ١٩٥١) .

(١) الحلة السيراء: ١٤١-١٤٢ .

(٢) ينظر: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، ٣/٢: ٤٨٥-٤٨٨ .

(٣) نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين : ٤٩ .

الأندلس نظم الشاعر أبو الطيب صالح بن شريف الرندي (٦٨٤هـ) مرثيته الشهيرة [١] :
[من البسيط]

لكل شيء إذا ما تمَّ نقصان فلا يُغَرُّ بطيب العيش إنسان

تولى ولاية مملكة غرناطة، محمد بن يوسف بن الأحمر سنة (٦٣٥هـ)، بعد حوادث عديدة، وكان من غرائب القدر أن هذه المملكة الإسلامية الصغيرة استطاعت أن تعيد لمحة من مجد الأندلس الذاهب، وأن تسهر على تراث الإسلام في الأندلس زهاء مئتي وخمسين عاماً أخرى [٢] .

وبخصوص البحرية الإسلامية الأندلسية في مملكة غرناطة فقد اجتاح أراضي قشتالة السلطان أبو يوسف المنصور بعبوره إلى الأندلس للمرة الرابعة وزحفه إلى أراضي النصارى عام (٦٨٤هـ) وخضوع ملك قشتالة إلى شروط المنصور، وفي سنة (٧١٣هـ) تولى السلطان أبو الوليد إسماعيل عرش غرناطة واستولى على مدينة بيّاسة الحصينة سنة (٧٢٤هـ)، واسترد ولده أبو عبد الله محمد بن الأحمر سنة (٧٣٣هـ) مضيق جبل طارق بعد بقائه في حكم النصارى (٢٤) عاماً [٣] .

ظهرت مملكة غرناطة بمظهرٍ من القوة لم تعرفه من قبل وذلك

---

(١) نفح الطيب : ٢٤٥/٦، ط١، ١٩٩٥ .
(٢) ينظر: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين : ٤٠، ٥٤، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ١٩٨٧.
(٣) ينظر: المصدر نفسه : ١٢٤ .

تحرير بعض المدن آخرها مدينة جيان، وسار الغني بالله سنة (٧٦٩هـ) إلى الجزيرة الخضراء وحاصرها وأرغم النصارى على إخلائها [١] .

من هذا العصر المليء بالسؤدد والرخاء، انتقل متجاوزاً ملوكاً تعاقبوا على حكم غرناطة بين قوي وضعيف إلى الفصل الأخير من الصراع بين النصرانية والإسلام في إسبانيا، ولم يكُ ثمةَ شك في نتيجة هذا الصراع الذي أعد له الأفرنج العدة الحاسمة، بلدٌ إسلامي هو البقعة الباقية من دولة عظيمة يحيط به العدو كالموج من كل صوب، كان هذا موقف غرناطة آخر الحواضر الإسلامية بالأندلس وتم حصار غرناطة لمدة سبعة أشهر في صيف (٨٩٦هـ-١٤٩١م)[٢].

دبَّ اليأس في قلوب الناس جميعاً ونضبت الأقوات والمؤن، واشتد البلاء بالناس وغاض كل أمل في تلقي الأمداد من عدوة المغرب، وأصبح الشعب لا يقوى على تحمل ويلات الدفاع ولم يبق سوى التسليم أو الموت واتفق الجميع على وجوب التسليم، وانتهى الأمر بملك غرناطة أبي عبد الله الزغيبي ووزارئه والقادة إلى اختيار التسليم بعد مفاوضة ملك قشتالة وينقل محمد عبد الله عنان: (ولما رأى الزغيبي أبو عبد الله أن مدينة غرناطة لا تستطيع دفاعاً... ونزولاً على رغبة السواد الأعظم من الشعب ... أرسل يطلب الهدنة من الملكين الكاثوليكيين لكي يستطيع خلالهما أن يتفاهم على شروط الصلح التي يمكن التسليم بمقتضاها))[٣] .

تم تسليم غرناطة وأطلقت المدافع تدوي في الفضاء ثم انطلقت فرقة الرهبان ترتل صلاة (الحمد لله) (The Deum Laudamus) على أنغام الموسيقى

---

[١] ينظر: المصدر نفسه : ١٤٨-١٤٩ .

[٢] ينظر: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين: ٢٣٦ .

[٣] ينظر: المصدر نفسه : ٢٤٠-٢٤٣ .

وهكذا كان كل ما هناك يؤكد الصفة الصليبية العميقة لهذه الحرب التي شهرها الأفرنج على الأمة الأندلسية وعلى الإسلام في إسبانيا في ٢ ربيع الأول عام (٨٩٧هـ ٢ يناير عام ١٤٩٢م) .

أُختم هذه المأساة المروعة بموقف أبي عبد الله الزغيبي بعد أن تم تسليم مفاتيح الحمراء إلى الملك فرناندو، فقد أشرف على منظر غرناطة فوقف يسرح بصره لآخر مرة في هاتيك الربوع فانهمز في الحال دمعه وأجهش بالبكاء، فصاحت به أمُّه عائشة (أجل فلتبكِ كالنساء ملكاً لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال)وتذكر الرواية التاريخية الإسبانية كما يرويها محمد عبد الله عنان أن تلك الأكمة التي كانت مسرحاً سُمِيَّت باسم شاعري مؤثر (زفرة العربي الأخير)

El Ultimo suspiro delmoro واستطيع أن أعدَّ هذه المأساة نتيجة طبيعية لسوء تصرف حكام الأندلس منذ عهد الطوائف وحتي دولة بني الأحمر في غرناطة، وتكالب الحكام على السلطة والزعامة أو الانغماس في اللهو والمجون[1]، فضلاً عن كثرة الصراعات التي امتدت طويلاً بين المسلمين والفرنجة، وكان لهذه المأساة المروعة الأثر البالغ في قلوب الشعراء والأدباء (وانسكبت في عواطفهم الآلام والمواجع، ونظروا إلى تقلب الأحوال بعين التشاؤم)[2] .

إلا أن هذه المحنة الغامرة لم تثر وحي الشعر ذلك أن دولة الشعر الأندلسي كانت قد انهارت منذ زمن بعيد، وتحطمت الأقلام وعقدت المحنة كل لسان، ومع ذلك فقد صدرت في رثاء أمة الأندلس الإسلامية نفثات قوية تهز أوتار القلوب .

---

(١) ينظر: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين : ٢٤٣ و٢٦٠ و٢٦٧ .

(٢) في الأدب الأندلسي، د. محمد كامل الفقي : ١٣، ط١، دار الفكر العربي، ١٩٧٥م.

وإذا كُنَّا قد أسهبنا في هذا العرض التاريخي فشفيعنا في ذلك رسم صورة واضحة عن الأسطول الإسلامي (البحرية الأندلسية) تعين على تتبع مراحل قوة الأسطول في أُمة الأندلس، ومن هـذا التاريخ ننفذ إلى موضوع دراستنا في الأندلس من أوسع أبوابه، (البحريـة الإسـلامية في الـشعر الأندلسي) في معارك الجهاد ليكون مفتاحاً آخر لمعرفة هذا التاريخ .

الفصل الأول

مفهوم البحرية في اللغة
والتاريخ والتراث العربي

المبحث الأول: البحر لغة واصطلاحا ومفاهيم أدبية وجغرافية.

المبحث الثاني: البحر في التراث العربي قبل الإسلام

المبحث الثالث: البحر في القرآن الكريم

المبحث الرابع: البحر في التراث العربي الإسلامي.

المبحث الأول

البحر لغةً واصطلاحاً ومفاهيم أدبية وجغرافية

إذا ذكر البحر فلا بد من ذكر السفن والمراكب، مع أن القرآن الكريم يقرن بينهما في أكثر من موضع؛ كقوله تعالى في سورة إبراهيم: **[وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ]** [١] وقوله في سورة إبراهيم: **[وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ]**[٢] وقوله تعالى في سورة الإسراء: **[رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ]**[٣] ومن هنا يقتضي موضوعنا استحضار مفهوم البحر والسفن والفلك لغةً واصطلاحاً، ومفاهيم أدبية وتاريخية وجغرافية فقد تناول ابن منظور مفهوم البحر لغةً، يقول:

بَحَرَ: البَحْرُ: الماء الكثير، ملحاً كان أو عذباً، وهو خلافُ البَرِّ، سمي بذلك لعمقهِ واتساعهِ، قد غلب على الملح حتى قل في العذب، وجمعه أبحر وبحور وبحار. وماءٌ بحرٌ: ملح، قل أو كثر [٤]. وسمي البحر بحراً لسعته وانبساطه، ومنه قولهم أن: فلاناً لبحرٌ أي واسع المعروف؛ قال: فعلى هذا يكون البحر للملح والعذب [٥].

---

(١) البقرة: ١٦٤.

(٢) إبراهيم: ٣٢.

(٣) الاسراء: ٦٦.

(٤) لسان العرب، ابن منظور (بَحَرَ): دار صادر، بيروت، ط٣، ٢٠٠٤.

(٥) يستدل على ذلك قوله تعالى **[وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ]** أي هذا بحر ماؤه عذب وهذا بحر ماؤه ملح.

وقد أجمع أهلُ اللغة أن اليَمَّ هو البحر. وجاء في الكتاب العزيز: فأَلْقِيهِ فِي اليَمِّ؛ قال أهل التفسير: هو نيل مصر. والمنقول عن السهيلي وابن سيدة: وكل نهرٍ عظيم بحْـر. الزجـاج: وكل نهرٍ لا ينقطع ماؤه فهو بحر. قال الأزهري: كل نهر لا ينقطع ماؤه مثلُ دجلة والنيل ومـا أشبههما من الأنهار العذبة الكبار، وسميت هذه الأنهار بحـاراً لأنهـا مـشقوقة في الأرض شـقاً. ويسمى الفرس الواسع الجري بحراً [١]؛ ومنه قول النبي 6 عندما ركب فرساً لأبي طلحة، فلـما رجع قال: **(وجدنا فرسكم هذا بحراً)**، فكان بعد ذلك لا يجارى [٢].

والعرب تسمي المدن والقرى: البحار. وفي الحديث: وكتب لهم ببحرهم؛ أي ببلـدهم وأرضهم وبنات بحرٍ؛ ضربٌ من السحاب. (وكانت أسماء بنت عميس يقال لهـا البحريـة لأنهـا كانت هاجرت إلى بلاد النجاشي فركبت البحر، وكل ما نسب إلى البحر، فهو بحري)[٣].

أما الصغاني، فيأتي بمعانٍ للبحر منها:

البحرةُ: المنخفض من الأرض، ويقال للروضة: بحره، وقال الليث إذا كان البحر صغيراً؛ قيل له: بحيرة، ويقال للحارات والفجوات: البحار.

وقيل البحار: الارياف. وذو بحار: أرض سَهْلَةٌ تحفها جبال.

والبـاحر: الكـذاب، والبـاحر: الفـضولي. وأَبْحَـر الرجـلُ: إذا اخـذه الـسِّلُّ، وأبحـر: إذا اشتدت حمرة آنفه. وأبحرَ، إذا صادف إنساناً على غير اعتماد وقصد لرؤيته. وأبحرت

---

(١) لسان العرب، مادة (بحر).

(٢) صحيح البخاري: ٣٤٨، رقم الحديث ٢٨٦٧.

(٣) لسان العرب (بَحرً) .

الأرض، إذا كثر مناقع الماء بها. والبحار: الملاح. والبحارة: الجماعة والبحور من الخيل: الذي يجري فلا يعرق، ولا يزيد على طول الجري إلا جودة [١].

وجاء في المعجم الوسيط: (بَحِرَ) - بَحَراً: رآى البحرَ ففرق ودهش. و -أكثر من الشرب فأصابه داء البحر. (البحري): الملاح و - كل منسوب إلى البحر [٢].

وجاء في المنجد؛ البَحْرُ: ج أبحُر و بحور و بِحَار تصغيره (أُبيْحِرِ: الماء الملح. (البحر المحيط) هو المحيط بالقارات الخمس [٣].

أما (**البحر هو جهنم**) فهذا حديث شريف فيه معنى البحر: جهنم أو النار[٤]، وبعد تأمل للحديث الشريف رجعت إلى الآية الكريمة:[**وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ**] [٥] والآية الكريمة: [**وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ**] [٦]، فمعنى (البحر المسجور)، (أي الموقد، من السجر، وهو إيقاد النار في التنور، وقد روي أن البحار تسجر يوم القيامة فتكون ناراً)[٧].

أما الآية الكريمة:[**وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ**] أي: (أوقدت فصارت ناراً تضطرم)[٨].

وبهذا المعنى والرسول (ع) لا ينطق عن الهوى يكون معنى البحر، جهنم، أو النار كما جاء في الحديث الشريف.

---

(١) التكملة والذيل والصلة. الحسن بن محمد بن الحسن الصّغاني ٢/٤١٠- ٤١٣، تح: إبراهيم إسماعيل الانباري. القاهرة. مطبعة دار الكتب. ١٩٧١.

(٢) المعجم الوسيط. إبراهيم مصطفى و مجموعة ١: ٣٩- ٤٠ مجمع اللغة العربية - القاهرة.

(٣) المنجد في اللغة والإعلام: ٢٧. دار الشرق ١٩٨٨ ط٣٠.

(٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل: ٢٢٣/٥، دار صادر، بيروت، ط١، (د. ت).

(٥) التكوير: ٦.

(٦) الطور: ٦-٧.

(٧) زبدة التفسير، د. محمد سليمان عبد اللـه الأشقر: ٥٢٣، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، ط٢، ٢٠٠٤.

(٨) زبدة التفسير: ٥٨٦.

أما مفهوم البحر اصطلاحاً جغرافياً فـ(هو جزء من محيط يكون مسطحاً مائياً واسعاً، يتصل بهذا المحيط كالبحر المتوسط والبحر الأحمر والأسود، وبحر الشمال)[١].

ومفهوم السفن والفلك كما أوردها ابن منظور يقول: سَفَنَ: السَّفْنُ: النشر. سفن الشيء يسفنه: قشره [٢].

والسفينة الفلك لأنها تسفن وجه الماء أي تقشره، وقيل لها سفينة لأنها تسفن الرمل إذا قل الماء. قال: ويكون مأخوذاً من السفن وهو الفأس التي ينحت بها النجار. وقيل سميت السفينة سفينة لأنها تسفن على وجه الأرض أي تلزق بها، قال ابن دريد: سفينة فعيلة بمعنى فاعلة كأنها تسفن الماء أي تقشره والجمع سفائن وسفن وسفين. قال عمرو بن كلثوم:

ملأنا البر حتى ضاق عنا وماء البحر نملؤه سفينا [٣]

والسفان صانع السفن وسائسها. وحرفته السفانة ابن السكيت: السفن والمسفن والشفر أيضاً قدوم تقشر به الاجذاع.

والسفن: جلدٌ أخشن غليظ كجلود التماسيح يكون على قوائم السيوف. أبو عبيد: السوافن الرياح التي تسفن وجه الأرض كأنها تمسحه. والسفينة: اسم وبه سمي (عبد) أو (عسيف) متكهن كان لعلي بن ابي طالب. U وأخبرني أبو العلاء أنه إنما

---

[١] (البحر في القرآن الكريم) د. أحمد الشرباصي: ١٣، مجلة الهلال، العدد٨، ١٩٨٤.

[٢] لسان العرب (سَفَنَ).

[٣] شرح المعلقات السبع، للزوزني، تح: محمد علي حمد الله: ٢٥٩، دمشق، ١٩٦٣.

سمي سفينة لأنه كان يحمل الحسن والحسين أو متاعهما، فشبه بالسفينة من الفلك. [1] أما فلك: الفلك [2]: مدار النجوم والجمع أفلاك وفَلَكُ البحر: موجه المستدير المتردد. وقال أبو عبيد: وقال بعض العرب الفلك هو الموج إذا ماج في البحر فأضطرب. والفلك موج البحر. والفلك: جاء في الحديث أنه دوران السماء. والفلك: اسمٌ للجمع؛ قال سيبويه: وليس يجمع. والفلك، بالضم: السفينة تذكر وتؤنث وتقع على الواحد والأثنين والجمع، قال الله تعالى في التوحيد والتذكير: في الفلك المشحون، فذكر الفلك وجاء به موحداً، ويجوز أن يؤنث واحده كقوله تعالى: جاءتها ريح عاصف، وقال: وترى الفلك فيه مواخر، فجمع، وقال تعالى: والفُلْك التي تجري في البحر، فأنَّثَ ويحتمل أن يكون واحداً وجمعاً، وقال تعالى: **[حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ]**[3] فجمع وأنَّث فكأنه يذهب بها إذا كانت واحدة إلى المركب فيذكر وإلى السفينة فيؤنث، وقال الجوهري: إذا جعلت الفلك واحداً فهو مذكر لا غير، وإن جعلته جمعاً فهو مؤنث لا غير [4].

وزاد صاحب المعجم الوسيط على معاني السفينة. (السفانة): اللؤلؤة، ويقال للإبل سفائن البَرِّ [5].

ومفهوم الأبحار، فهو: (ركوب البحر على سفينةٍ أو نحوها، وهو أمر عريق في القدم)[6].

---

(1) لسان العرب، (سفن).

(2) لسان العرب، (فلك).

(3) يونس: ٢٢.

(4) لسان العرب (فَلَكَ) .

(5) المعجم الوسيط ١/ ٤٣٦.

(6) السفن في العراق، الشيخ كاظم افندي الدجيلي: ٩٣، مجلة لغة العرب، الأب انستاس ماري الكرملي، ج٣، أيلول ١٩١٢، المجلد الثاني ١٩١٢-١٩١٣، راجعها: جميل الجبوري، دار الحرية للطباعة، العراق - بغداد، ١٩٧٥.

ويرى الكاتب أن الذي ساق الإنسان إلى ركوب البحر رؤيته سير الأشجار أو جذوعها على ظهر الماء؛ فحاول حينئذٍ صنع شيء يتخذه من الخشب ليركبه ويسير به على الماء، تحدياً لما رأى، وقد انتقل الأبحار إلى طور النشوء البين، منذ أن أوحى الله I إلى نوح υ [1] في قوله تعالى: [أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ] [2]،

أمْا اشتقاق كلمة البحرية؛ فقد آشتق العرب كلمة (البحرية) من البحر، وهي كلمة تطلق على جميع السفن التي تملكها الدولة لغرض الحرب أو التجارة[3]. وهذا ما جاء في المعجم الوسيط: (البحرية) عده الدولة في البحر من سفن وغواصات وطائرات وجنود ونحو ذلك [4].

أما مفهوم (أدب البحر) اصطلاحاً، فيقصد به (الأدب الذي يستهدف التعبير عن عالم البحار والذي يكون البحر موضوعه الرئيس... وهو أدب هام يشكل جزءاً أساسياً من تراث البشرية، وحضارتها فيضم الأسطورة والملحمة والشعر والحكاية الشعبية وأدب الرحلات البحرية والقصة والرواية)[5].

ولنا مع نشأة السفن وركوب البحر وقفة يتوضح من خلالها؛ أول من صنع السفينة، وأول من ركب البحر، في هذا يقول أحمد بن ماجد: (أول من ركب البحر، وأول من رتب أسبابه، وأول من صنع السفينة، نوحٌ على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام، بإشارة من جبريل υ عن الباري Y، وقد رتب السفينة على صفة خمسة

(١) السفن في العراق: ٩٣.
(٢) المؤمنون: ٢٧.
(٣) السفن في العراق: ٩٣.
(٤) المعجم الوسيط: ١/٤٠.
(٥) أدب البحر، أحمد محمد عطية: ٧، طبعة دار المعارف، ١٩٨١.

أنجم من بنات نعش الكبرى)[1] ويذكر الكاتب (فلما أستوت السفينة وتعلمت الناس صنعة السفن على جميع سواحل البحر في جميع الأقاليم التي قسمها نوح بين أولاده يافث وسام وحام - وهو آدم الثاني - فصار كل يعمل السفن في البحران والخلجان وأطراف البحر المحيط، حتى انتهت الدنيا لعصر بني العباس. فكان استقامة ملكهم ببغداد، وهي عراق العرب، وكان خراسان جميعه لهم) [2] وقد نظم ابن ماجد ارجوزة سماها بـ(حاوية الاختصار في أصول علم البحار) يبدؤها بـ [البسملة و الحمد له] بعدها يقول:

[من الرجز]

يا أيها الطالب علم اليم	**إليك نظماً يا له من نظم** [3]
في العلم والهيئة والحساب	**وما هو استنبط للصواب**

وعلى ما ورد في القرآن الكريم من نظريات جغرافية لنا وقفه مع كراتشكوفسكي وبعض النظريات الجغرافية في البحر، وكان لها عند علماء الغرب اهتمام كبير، فقد جاء في كتاب (تاريخ الأدب الجغرافي) لعل النظرية القائلة بوجود بحرين تكاد تكون أعسر مشكلة في الأدب الجغرافي على الإطلاق، وقد وردت الإشارة إليها أكثر من مرة في القرآن الكريم وإن هذين البحرين يفصل بينهما برزخ يمنع تمازجهما وسرعان ما ظهرت الفكرة القائلة بأن المراد من هذا هو البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندي بخليجه الذي يتمثل في البحر الأحمر وأن البرزخ المقصود هو

---

[1] ينظر: كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد، أحمد بن ماجد بن محمد بن عمر بن أبي الركايب النجدي، تح: إبراهيم خوري: ٢٣/٤، كتاب الابحاث، سلسلة الملاحة العربية الفلكية، ١٩٨٩.

[2] المصدر نفسه: ٢٣/٤- ٢٤.

[3] كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد: ١١/٢-١٢

برزخ السويس)[1] وقد ذكر المؤلف تفسير الآية القرآنية **[مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ]** [2].

يقول: (أشار القرآن إلى أن أحد هذين البحرين (عذب) وأن الآخر (ملح)[3] ويذكر تفسير جديد للمستشرق فنسنك يقول: (فهو يلاحظ أن الآيات القرآنية المتعلقة بهذين البحرين تفترض وجود محيط سماوي، وهي فكرة متداولة بين الساميين الغربيين western semites وعرفها محمد ولو بصورة مبهمة))[4]
ويورد المؤلف أيضاً رأياً آخر لأحدهم يقول: (وقد بنى مجيك Mzik تفسيره على آية في القرآن [الكريم] لم تكن قد اجتذبت حتى تلك اللحظة أنظار الباحثين في نظرية البحرين ففي الآية ١٨ يدور الكلام على (مجمع البحرين) حيث ذهب موسى باحثاً عن (الماء الحي))[5].

وفي موضع آخر من القرآن - كما ذكر المؤلف - غلب فيه الجانب البلاغي دفع إلى ظهور نظرية عن البحار السبعة لم تلبث أن انعكست في الأدب الجغرافي **[وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ الله إِنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ]** [6] من الواضح جيداً إن الإشارة إلى البحار السبعة تمثل بدورها - كما يرى المؤلف - ترجمة دقيقة لحكمة عبرية [7]، إلا أن المؤلف سرعان ما يعترف بحقيقة ما

---

[1] تاريخ الأدب الجغرافي، اغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي ترجمة، صلاح الدين عثمان هاشم: القسم الأول: ٤٨ لجنة التأليف والنشر والترجمة، ١٩٥٧.

[2] الرحمن: ١٩.

[3] تاريخ الأدب الجغرافي، ق١: ٤٨.

[4] المصدر نفسه .

[5] تاريخ الأدب الجغرافي، ق١: ٤٨.

[6] لقمان: ١٧.

[7] ينظر: تاريخ الأدب الجغرافي، ق ١: ٤٩.

جاء في القرآن الكريم، يقول: (بيد أن هذا لم يمنع بقية الجغرافيين، بل وأحياناً العلماء الأوربيين من الكلام عن سبعة بحار مختلفة في القرآن)[١].

فإن حارتِ النظريات في قدرة الله I في ذكر (سبعة بحار) و(كلمات ربي) فليعلم أصحاب تلك النظريات **[وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ]** [٢] وهم لا يعلمون مفاتيح خزائن الغيب (لا يعلمها إلا هو) ولا علم لأحدٍ من خلقه بشيءٍ من الأمور الغيبية التي أستأثر الله بعلمها، وهذا ما يدفع أباطيل الكهان والمنجمين والرمليين وغيرهم من المدعين ما ليس من شأنهم)[٣] وهذا ما حدا الجغرافيين والعلماء الأوربيين إلى الكلام في نظرية القرآن الكريم عن سبعة بحار.

أما مفهوم السفينة وركوب البحر في المنظور الأدبي نثراً وشعراً، فننتقل من صورة السفينة* كوكباً [٤] إلى صورتها وقد رديت بالقار، يذكر النويري: (وكأن العشاريات وقد رديت بالقار، وحليت باللجين والنضار، عرائس منشورة الذوائب، مخضوبة الحواجب، موشحة المناكب،.... أو طواويس أبرزت رقابها ونشرت اجنحتها وأذنابها، وكأنها إذا جدت في اللحاق، نوافر نعام، أو حوافل أنعام، أو عقارب شالت بالإبر أو دهم الخيل واضحة الحجول والغرر)[٥] وينتقل إلى وصف المجاذيف: (وكأن المجاذيف طير تنفض خوافيها أو حبائب تعانق حبائب بأيديها)[٦] وزاد في وصف السفينة يقول

---

[١] المصدر نفسه، ق ١: ٤٩.

[٢] الانعام: ٥٩.

[٣] ينظر: زبدة التفسير: ٣٠٤.

* السفينة، من صور الكواكب الجنوبية... وهذه الصورة غير معروفة لدى العرب.

[٤] ينظر: فن الملاحة عند العرب، حسن صالح شهاب: ١٠٤، دار العودة، بيروت، ط١، ١٩٨٢.

[٥] نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين عبد الوهاب النويري ٢٦٠/١، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٣.

[٦] نهاية الأرب في فنون الأدب: ٢٦٠/١.

وهو يشبهها بجواد (....جواد يقطع البحر سبحاً، ويكاد يسبق الريح لمحاً، لا يحمل لجاماً ولا سرجاً، ولا يعرف غير اللجة سرجاً، فلله من جواد له جسم وليس له فؤاد، يخترق الهواء ولا يرهبه ويركض في الماء ولا يشربه)[1].

أما المقري فيرى في ركوب البحر وأهواله، يقول: إلى أن ركبنا البحر، وشاهدنا من أهواله... فسمعنا للجبال صفيراً، وللرياح دوياً عظيماً وزفيراً، والموج يصفق لسماع أصوات الرياح فيطرب بل ويضطرب، فكأنه من كأس الجنون قد شرب، والشراع في قراع مع جيوش الأمواج التي امتدت منها الأفواج بالأفواج، ونحن قعود كدود على عود. إلى أن يقول: إذا البحر وحده لا كمي يقارعه ولا قوي يصارعه ولا شكل يضارعه.[2]

وللبحر وركوبه وسفنه معانٍ في لغة الأدب شعراً منها: [من السريع]

وزاخـــــرٌ لـــيسَ لـــــهُ صــــولةٌ　　　إلاّ إذا مـــــا هَبَّــــتِ الـــــريحُ [3]
فهـــــو إذا مــــا ســــكنت ســـاكنٌ　　　كأنمـــــا الـــــريح لــــــه روح

وينقل النوري نصاً طويلاً لأحد الشعراء في البحر والسفن منه: [من الخفيف]

لم نــزل مـــشفقين مــذ قيـــل:ســـارت　　　بـــك دهـــمٌ قليلـــة الأوضـــاحِ [4]
أصــلها الـــبر وهـــي ســـاكنة في البحـــر　　　ســــــكنى اقامـــــة لا بـــــراَحِ

[1] المصدر نفسه.
[2] ينظر: نفح الطيب، للمقري ١/ ٣٩-٤٠،ط١، ١٩٩٥.
[3] نهاية الارب في فنون الأدب ١/ ٢٥٥.
[4] المصدر نفسه: ١ / ٢٥٦.

هـــي في المـــاء وهـــي صــفر مــن المـــاء ... ســــوى نفـــح موجهـــا النـــضَاحِ
وثراهـــــا في اللـــــجِّ ذات جنــــاحين ... وان لم تكـــــن بـــــذات جنــــاحِ
والــــداتٌ مولَّـــداتٌ بـــــلا حــــلِ ... نكــــاحٍ ولا حـــــرام ســـــفاحِ
شرعهــا البــيض كالغمامــات في الــصيف ... صـــحاحاً منهـــا وغـــير صـــحاحِ

فـــإذا البحـــر صـــالَ صـــالوا عليـــه ... بمـــواضٍ تمـــضي بغـــير جـــراحِ
يكـــثرون الـــصياح حتـــى كـــأن الـــسفن ... تجـــري مـــن خـــوف ذاك الـــصياحِ

وفي البيتين الأخيرين يشبه الشاعر الجنود داخل السزفينة ويقصد بهم الملاحين.

المبحث الثاني

البحر في التراث العربي قبل الإسلام

ساعدَ الموقع الجغرافي للجزيرة العربية في تطور الملاحة - شأنه شأن موقع شبه جزيرة الأندلس فشواطئ الجزيرة العربية. كما يذكر مؤلف كتاب (العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة) تحد من ثلاث جهات بخط ساحلي ولم يكن الاتصال بين دول السواحل؛ اليمن وحضرموت وعمان بحراً أشد هولاً من عبور الصحارى والجبال التي تفصل بينهما براً [1].

وسواحل الجزيرة العربية كانت في العصور التاريخية جميعها على اتصال بالبلاد الأخرى بحراً، والذي يؤكد ذلك ما تركته الشعوب الأخرى من آثار في المياه العربية منها، النقوش السومرية والأكادية [2] التي تتحدث عن صلات بحرية بين أرض الجزيرة وبلاد (دِلْمون) و(ماجَن) و(مُلْخَّا)، ولعل (دلمون) هي جزيرة البحرين و(ماجن) هي عمان ومنها أيضاً نقش من لجش [3].

---

(1) ينظر: العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة، جورج فضلو حوراني، ترجمة، د. السيد يعقوب بكر، مكتبة الإنجلو الأمريكية ١٩٥٨: ٢٣ - ٢٤.

(2) (اكاد) هي الجزء الشمالي من أرض بابل القديمة وسومر هي جزؤها الجنوبي،

(3) لجش؛ هي من أقدم المدن السومرية وأهمها (العرب والملاحة في المحيط الهندي، هامش ص ٢٧).

ويرى مترجم الكتاب: (إن ماجن ربما كانت الإحساء حالياً، وإن الاسم (ماجن) مركب من الكلمة السومرية **ما** MA (سفينة) يدل على أن أهل تلك البلاد وكانوا رجال بحر))[١].

وعلى الجانب الغربي من جزيرة العرب كانت السفن المصرية تمخر البحر الأحمر إلى الجنوب، وتعود سالكة الطريق نفسه في وجه الريح، وتسمي النصوص المصرية هذه السفن أحياناً (سفن جبال)[٢].

أما الحملات البحرية التي قام بها الفراعنة فيذكر المؤلف؛ قيام الفراعنة بحملات بحرية إلى بلاد punt في (١٥٨٠ ق. م) ولعلها ساحل الصومال الذي يواجه الجزيرة العربية؛ وإرسال رمسيس الثالث في (١١٩٨ – ١١٦٧ ق. م) أسطولاً من سفن كبيرة من ميناء يواجه (فقط) إلى punt [٣].

وينقل المؤلف عن أمر الملاحة في مصر قول سفر الملوك الأول: (وعمل الملك سليمان سفناً في عصيون جابر... فأرسل جرام في السفن عبيده النواتي العارفين في البحر مع عبيد سليمان)[٤].

ويذكر حوراني فضلو؛ في أمر بناء السفن في العهد القديم؛ يقول: وبعد انقسام ملك سليمان [حوالي ٩٣٥ ق. م] على مملكة إسرائيل في الشمال و مملكة يهوذا في الجنوب؛ حاول ملك يهوذا (٨٧٣ – ٨٤٩ ق. م) إحياءها فبنى السفن من جديد ولكنها

---

(١) العرب والملاحة في المحيط الهندي: ٢٧، ٢٨ وهامش ص: ٢٨

(٢) هي مدينة جبيل الآن: وهي منتصف الطريق بين طرابلس وبيروت (هامش، العرب والملاحة في المحيط الهندي: ٣٠).

(٣) العرب والملاحة في المحيط الهندي: ٣٠- ٣١.

(٤) الكتاب المقدس؛ سفر الملوك الأول؛ الاصحاح ٩: ٣٦- ٣٨، ص٥٥١، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، عمان، الأردن ١٩٩٠.

(تكسرت) في عصيون جابر والظاهر أنها تحطمت تحت وطأة الرياح العاتية في خليج العقبة [١].

وما يؤكد ركوب العرب البحر منذ ذلك الوقت ليس ما ذكرناه فقط، فقد أكد د. صلاح البكري ينقل عن المسيو cuillain: (قبض العرب منذ أقدم العصور على زمام التجارة البحرية وخاصة في الشرق فكانت سفنهم تجري في المحيط الهندي... ولما أرسل الاسكندر المقدوني قائد أسطوله (نيارك) في الخليج لإستكشاف بحر الهند، وجد بسواحل (جدروزيا) الواقعة بين كربيلا ومصب نهر السند آثاراً تدل على نفوذ العرب من مدنٍ وأساطيل)[٢].

وأورد صاحب كتاب (فن الملاحة عند العرب) اعتقاد الأعاجم من فرس ورومان بخوف العرب من البحر وكان هذا الاعتقاد مثار تندرهم وسخريتهم من العرب قبل الإسلام، وأورد قولاً ينسب إلى (أحيقار) حكيم الأعاجم: (لا تُري [البدوي] البحر ولا الصيدوي الصحراء [لأن عملها مختلف] [٣] ويرى أنه قولٌ يعكس وجهة نظرٍ باطلة، ترى أن رجل البادية ورجل البحر ضدان لا يلتقيان كالضبِّ والحوت، فهذا كبقية حيتان البحر، يخشى الخروج من البحر ويلفظ أنفاسه حال خروجه منه؛ وذاك كبقية حيوانات البر، يخشى البحر. فالعربي عند أصحاب هذه النظرية كالضبِّ يعيش بعيداً عن البحر)[٤].

---

[١] ينظر: العرب، والملاحة في المحيط الهندي: ٣٥- ٣٦.

[٢] فن الملاحة عند العرب: ٢٧-٢٨، نقلاً عن ترجمة لصلاح البكري في كتابه: في جنوب الجزيرة العربية: ١٠٢.

[٣] احيقار الحكيم، تحقيق وتقديم: المطران غريغوريوس بولس بهنام: ١٤٤، مطبوعات مجمع اللغة السريانية، بغداد، ١٩٦٩.

[٤] ينظر: فن الملاحة عند العرب: ١٥ .

ورد الكاتب على هذا الرأي بقوله بأن هذا (الزعم الباطل من رواة الأخبار الشعوبيين)[1].

وأرى أن ما نذكره لاحقاً من نصوص قرآنية ومن شعر جاهلي، والحقائق التاريخية التي أوردناها تدحض بما لا يدع مجالاً للشك، نظرية (احيقار) حكيم الأعاجم. وأرى في رحلة الشتاء والصيف خير دليل على فساد هذه النظرية، ذلك أن العربي جمع في شخصيته ضدين لا يتفقان؛ هما العيش في البادية، والعيش في البحر، في الصيف يقود سفينته في ظلمات البحار مسترشداً بالنجوم وفي الشتاء يقود إبله في ظلمات البادية على هدي النجوم، فصدق فيه قوله تعالى: **[وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ]** [2] ولأن هذه الآية الكريمة تخاطب عرب الجاهلية فالعربي في ضوئها ليس كالحوت إذا خرج من البحر هلك، ولا كالضب إذا ألقيت به في البحر يموت، والآية الكريمة تذكرنا (بأن الصحراء كالبحر ليست فيها مسالك مألوفة، ومن المحتمل أن العرب تعلموا أولاً فوق ظهور الإبل الاهتداء بعلامات السماء، إذا عدموا علامات الطريق، فليس من الغريب إن كان الوثنيون من عبدة النجوم)[3]. وما يراه الطبرسي في تفسير قوله تعالى **[لِإِيلافِ قُرَيْشٍ*إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ]** [4]، يقول: (وكانت لهم رحلتان في كل سنة رحلة في الشتاء إلى اليمن لأنها بلاد حامية ورحلة في الصيف إلى الشام لأنها باردة)[5].

---

[1] المصدر نفسه: ١٥.

[2] الانعام: ٩٧.

[3] العرب والملاحة في المحيط الهندي: ٢٧٦.

[4] قريش: ٢.

[5] مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بن الحسن الطبرسي، مج٩ -١٠: ٦٩٧ دار أحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٢.

ويذكر أيضاً: وقيل أن كلتا الرحلتين كانت إلى الشام ولكن رحلة الشتاء في البحر ورحلة الصيف إلى بصرى وأذرعات [١].

وأورد الطبرسي سبب تسمية قريش قريشاً فقال: لدابة تكون في البحر من أعظم دوابه يقال لها القرش لا تمر بشيء من الغث والسمين إلا تأكله، قيل أَفَتَنْشد في ذلك شيئاً فأنشد: [من الخفيف]

وقريشٌ هي التي تسكنُ البَحْرَ بها سمِّيتْ قريشٌ قريشا [٢]

وللدكتور نوري حمودي القيسي في رحلة الشتاء والصيف يقول: وتنهض رحلة القرشيين في الشتاء والصيف دليلاً ناصعاً على ما بلغه العرب من التواصل الحضاري مع شعوب الأرض القديمة من روم وفرس وهند وأحباش يتجهون إلى سواحل اليمن شتاءً... حيث يلتقون بأساطيل الروم وسواهم من الأمم [٣]. ويذكر د. نوري ما جاء في القرآن الكريم من إشارة إلى الرحلتين وما صَّرح به باسم الروم في سورة حملت أسمهم (ودلت على اهتمامات عالمية وفكرية وعسكرية،

ولو لم يكن العرب يومئذٍ يتطلعون إلى مثل هذه الاهتمامات ويطمحون إلى معرفتها واستقصاء أنبائها لما وردت السورة بهذا الوضوح وبهذا الشكل الواعي من دراسة الأحداث الفكرية والعسكرية)[٤].

---

[١] المصدر نفسه، مج ٩-١٠: ٦٩٧.

[٢] المصدر نفسه، مج٩-١٠: ٦٩٧.

[٣] ينظر: تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام، د. نوري حمودي القيسي: ٢٣٧-٢٣٨، وزارة التعليم العالي، ط٢، ١٩٨٩.

[٤] ينظر: تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام: ٢٣٧ – ٢٣٨.

ويرجع د. جواد علي إلى معجمات اللغة ليستعين بها في معرفة علم العرب بالبحر أيام الجاهلية، فمن الأسماء التي تطلق على السفن وأسماء الآلات المستعملة فيها على قلتها نصل إلى معرفة الأصول التي أخذت منها والمدارس التي تعلم فيها الجاهليون فن استخدام البحار فيها [١].

فمن الألفاظ ذات الصلة بالبحر ما جاء في كتب اللغة ومنها:

البرزخ: ما بين كل شيئين من حاجز [٢]، كما في قوله تعالى: **[بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ]**[٣] والبرزخ في علم الجغرافية: قطعة أرض ضيقة محصورة بين بحرين موصولة بين أرضين [٤].

الدردور: موضع في وسط البحر يجيش ماؤه لا تكاد تسلم منه السفينة، والماء الذي يخاف منه الغرق [٥]

العوطب: لُجَّة البحر، أعمق موضع في البحر [٦].

الخور: مصبُ الماء في البحر، ومصب المياه الجارية في البحر إذا اتسع وعرض [٧] والخور: الخليج [٨].

---

[١] ينظر: تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي: ١٠١/٨، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٦٠.
[٢] لسان العرب (برزخ) .
[٣] الرحمن: ٢٠.
[٤] المعجم الوسيط ١ /٤٨.
[٥] لسان العرب (دَرَرَ) .
[٦] المصدر نفسه (عَطبَ) .
[٧] المصدر نفسه (خَوَرَ) .
[٨] المعجم الوسيط: ١ /٢٦٠.

لجُّ البحر: عُرضه، وعُرْض البحـر: وسـطهُ [١]، واللُّجَّـةُ: معظـم البحـر وتـردد أمواجـه، ولَجَّجَت السفينة: خاضت اللُّجَّة، والتجَّ البحرُ: تلاطمت امواجهُ[٢].

ومن المصطلحات التي يشير ورودها في اللغة إلى معرفة عرب الجاهلية ركوب البحر مَخَرت السفينة: جرت تشق الماء مع صوت، وقيـل اسـتقبلت الـريح في جريتهـا فهـي مـاخرة **[وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ]** [٣] يعني جواري و مَخْرُ السفينة: شقها الماء بصدرها [٤].

جنحت السفينة: تجنح جنوحاً، انتهت إلى الماء القليل فلزقت بالأرض فلم تمض [٥].

جمحت السفينة: تجمع جموحاً، تركـت قـصدها فلـم يـضبطها الملاحـون [٦] ماهـت السفينة: دخل فيها الماء، وأماهت بمعنى ماهت [٧] شجت السفينة البحر: خرقته وشقته [٨].

حبابُ الماء: موجه الذي يتبع بعضه بعضاً [٩]

الجارية: السفينة، **[بِسْمِ اللـه مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا]** [١٠] من جرت السفينة ورست [١١].

---

[١] المعجم الوسيط: ٢ /٦٠٠.

[٢] المصدر نفسه: ٨٢٢/٢.

[٣] النحل: ١٤.

[٤] لسان العرب (مَخَرَ) .

[٥] المصدر نفسه (جَنَحَ) .

[٦] المصدر نفسه (جَمَحَ) .

[٧] المصدر نفسه (مَوَهَ) .

[٨] المصدر نفسه (شَجَجَ).

[٩] المصدر نفسه (حَبَبَ) .

[١٠] هود: ٤١.

[١١] مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي: ١٠١، دار الرسالة، الكويت،١٩٨٣.

من هذه الألفاظ والمصطلحات نخلص إلى أن العرب قبل الإسلام كانوا على معرفة واسعة في ركوب البحر، وهذا ما ذهب إليه د. جواد علي؛ في أن دلالة وجود هذه الألفاظ في كتب اللغة تعني (أن للعرب قبل الإسلام) وبعدهُ علم وفقه بالبحر فلا يعقل بالطبع ورودها في اللغة دون أن يكون للمتكلمين بها، ولاسيما سكنة السواحل علم بالبحر [1] وليس هذا فحسب، فما جاء في القرآن الكريم من ذكر للبحر والسفن والفلك لهو الدليل الأول على معرفة عرب الجاهلية البحر وركوبه.

ومن الألفاظ المرادفة للبحر، كما وردت في كتب اللغة:

الحَنْبَل و الحِنْبالة: البحر[2]، والبضيع: البحر، والبضيع: الجزيرةُ في البحر [3]. والخِضَمُّ: البحر لكثرة مائه وخيره، وبحرٌ خضَمٌّ؛ قال الشاعر

روافده أكرمُ الرافدات   بخٍ لك بخٍّ لبحرٍ خِضَمٍّ [4]

وأُلمُهْرُقَان: البحر لأنه يهريق ماءه على الساحل إلا أنه ليس من ذلك اللفظ، وهو اليَمُّ والقَلَمشَّ والنَّوفل و المهْرقان: البحر، وقيل المهرقان: ساحل البحر.

تمشى به نَفْرُ الضِّباء كأنَّها   جنى مُهْرُقانٍ فاض بالليل ساحله [5]

---

[1] تاريخ العرب قبل الإسلام: ١٠٤/٨.

[2] لسان العرب: (حنبل) ٢٤٢/٤.

[3] المصدر نفسه: (بَضَعَ) ١٠٠/٢.

[4] المصدر نفسه، (خَضَم): ٩٥/٥.

[5] المصدر نفسه، (هرق): ٥٥/١٥.

الرجاف: البحر، سمي به لاضطرابه وتحرك أمواجه [١].

والعيلم: البحر، والماء الذي عليه الأرض، وقيل: الماء الذي علته الأرض يعني المندفن [٢]. والكافر: البحر لستره ما فيه [٣]. وبحر قَلَمَّس: أي زاخر [٤].

وإن أرجع د.طه حسين معرفة عرب الجاهلية البحر إلى القرآن الكريم، دون الشعر الجاهلي بقوله: (فالقرآن يذكر الجواري المنشآت في البحر كالأعلام، وأذكر منها الصيد، ففي القرآن منٌّ على العرب بأنهم كانوا يستخرجون من البحر لحماً طريا وأذكر منها استخراج اللؤلؤ والمرجان)[٥]، ويقول: (فأين تجد هذا أو شيئاً من هذا في الشعر الجاهلي)[٦].

فالشعر الجاهلي كما سيأتي ذكره قد ذكر البحر وركوبه والسفن وأوصافها، وإن لم يذكر الشعر الجاهلي ذلك أو لم يصل إلينا منه شيء فما ذكرته كتب اللغة من ألفاظ ومصطلحات ومرادفات لا يعطي فرصة للدكتور طه حسين أن ينكر وجود ما يدل على ذكر البحر في الشعر الجاهلي أو إسهام الشعر الجاهلي في تلك الأهمية التي أولاها القرآن الكريم.

إلا أن د. جواد علي له رأي مغاير يقول: (أما الشعر الجاهلي فقد وردت فيه إشارات في أشعار بعض الشعراء كما في شعر عمرو بن كلثوم وفي شعر طرفة بن العبد)[٧]، ونستطيع اليوم من عرض النصوص الشعرية التي ضمها ديوان الشعر

---

(١) المصدر نفسه: (رجف): ١١١/٦.

(٧) لسان العرب: (علم) .

(٨) المصدر نفسه: (كفر) .

(٤) ينظر: المصدر نفسه (قلمس) .

(٥) في الأدب الجاهلي، طه حسين: ٧٩، دار المعارف بمصر، ط٢، ١٩٢٧.

(٦) المصدر نفسه: ٧٩.

(٧) تاريخ العرب قبل الإسلام: ١٢٤/٨.

الجاهلي والتي تمثل حياة البحر في أمةٍ متحضرةٍ راقية، يقول فيها د. طه حسين (وكيف يستطيع رجل عاقل أن يصدق أن القرآن الكريم قد ظهر في أمةٍ جاهلةٍ همجية)[1]. وأقول هل أن الأمة المتحضرة الراقية، لا يشكل الأدب أو الشعر ركناً من أركان ثقافتها وتحضرها ؟ وهل أن تشبيه الإبل وهي تتمايل بالرحل والهوادج بالسفن التي تدفعها الرياح فتتمايل فوق الأمواج المضطربة لا حقيقة له، وقد وردت في شعر ساعدة بن جؤيَّة:

[من الطويل]

تحملنَّ من ذات السليم كأنها ... سفائن يمٍ تنتحيها* دبورها [2]

أو قول أبي ذؤيب الهذلي: [من الطويل]

تروت بماء البحر ثم تنصبت ... على حبشيات لهن نئيج [3]

---

[1] في الأدب الجاهلي: ٨٠.

* تنتحيها دبورها: تعتمدها.

السُّليم: ذات السُّليم، موضع.

[2] ديوان الهذليين، القسم الثاني: ٢١١، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥.

[3] ينظر: المصدر نفسه، القسم الأول: ٥١- ٥٢.

يقول أن تلك الحمائم (الجرار) قد تروت بماء البحر، ثم ارتفعت على سحائب سود لهن نئيج،أي مرٌّ سريع الصوت.(تنصب على حبشيات):على سحائب سود. نئيج: أي مرٌّ سريعٌ

ويرى مترجم كتاب (العرب والملاحة في المحيط الهندي) في أبيات طرفة ابن العبد (٦٩ - ٦٦ ق. هـ) [١]: [من الطويل]

كأَنَّ حدوج المالكية غدوةً خلايا سفين بالنواصف من دد [٢]
عدولية أو من سفين ابن يامنٍ يجور بها الملاح طوراً ويهتدي
يشق حباب الماء حيزومها بها كما قسم الترب المفايل باليد

في وصف السفن بأنها (عَدُلية) أو (عَدَوْلية) فإذا كان يراد بهذا (سفن من أدولس) (دلَّ على وجود سفن أدولس في الخليج [العربي] فمياهه هي التي كان يعرفها شاعر الحيرة ويألفها)[٣].ويرى د. جواد علي أنه (يظهر من معلقة طرفة بن العبد أن رجلاً اسمه ابن يامن (ابن يامين) كان تاجراً يملك سفناً وأن سفنه كانت تمخر البحار))[٤]، ويورد؛ أن لفظة (عدولية) نسبة إلى (عَدَوْلي) وهي قرية بالبحرين [٥].
من شعراء الجاهلية الذين ألَموا بوصف السفن الشاعر آمرؤ القيس (٧٨- ٧٦ق.هـ) [٦] يقول:

بعيني ظُعْنُ الحيِّ لما تحمَّلوا لدى جانب الأفلاج من جَنْبِ تيمرى [٧]
فشبهتهم في الآل لما تكمشوا حدائق دومٍ أو سفيناً مقيرا

---

[١] شرح المعلقات السبع للزورني،تح:محمد علي حمد الله:٣١،المكتبة الأموية بدمشق،١٩٦٣.
[٢] شرح المعلقات السبع للزورني: ١٣٩.
[٣] العرب والملاحة في المحيط الهندي: ٩٩ - ١٠٠.
[٤] تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي: ١١٨/٨.
[٥] ينظر: المصدر نفسه: ١١٨/٨.
[٦] شرح المعلقات السبع للزوزني، تح، محمد علي حمد الله: ٣١، دمشق، ١٩٦٣.
[٧] مختار الشعر الجاهلي، شرح عبد المتعال الصعيدي: ٣٨ ط، ٤، القاهرة، ١٩٦٨.

وقد أشرنا إلى أبيات طرفة بن العبد (٦٩- ٦٦ ق. هـ) [١]. ولزهير بن أبي سلمى (٤ – ١ ق. هـ) [٢].

يغشى الحداة بهم وعث الكثيب كما يغشى السفائن موج اللجة العرك [٣]

ويذهب المرقش الأكبر إلى ذكر مجداف السفينة يقول: [من السريع]

تعـــــدْوُ إذا حُـــــرِّك مِجْـــــدافها عَـــدْوَ رَبَـــاعٍ مفـــردٍ كـــالزُّلَمْ [٤]

ومجداف السفينة هنا ما يستحث به لدفعها وكأنه السوط في زيادة سرعتها، ويشبه الظعن بالسفينة، يقول:

لمـــن الـــضُّعْن بالـــضحى طافيـــات شـــبهُها الـــدَّوْم أو خلايـــا ســـفين [٥]

وللنابغة الذبياني في وصف البحر والملاح يمدح النعمان ويعتذر، يقول: [من البسيط]

يـــا دارَ مَيَّـــةَ بالعليـــاء فالـــسَّنَد أقْوت وطال عليها سالفُ الأَبدِ [٦]
فـما الفـرات إذا هـب الريـاح لـه ترمـي غواربـه العـبرين بالزبـدِ

---

[١] شرح المعلقات السبع للزوزني: ٣١.
[٢] المصدر نفسه: ٣١
[٣] مختار الشعر الجاهلي: ٢٨٧.
[٤] ديوان المفضليات، اختيار: أبو العباس المفضل بن محمد الضبي، تح: محمد نبيل طريفي: ٢/ ٧، دار صادر، بيروت، ط١، ٢٠٠٣.
[٥] ديوان المفضليات: ٥٧٠/١.
[٦] ديوان النابغة الذيباني، ت، كرم البستاني: ٣٦. دار صادر، بيروت، ط٣، ٢٠٠٣.

يَمـــدُّه كـــلُّ وادٍ مُـــترعٍ لجـــبٍ فيه ركام مـن الينبـوت والخـضدِ
يظـل مـن خوفـه الملاح معتـصماً بالخيزرانةِ بَعْدَ الأيْن والنجـدِ [(1)]

تظهر هذه الأبيات صورة عطاء النعمان وكرمه، إلا أن الصيغة الشعرية حالـت دون وصول تلك الصورة بسبب المبالغة التي نفت أن يكون الفرات الذي جاشت مياهه وتلاطمت أمواجه ترمي جانبيه بالزبد، ويقف الملاح خائفاً مرتجفاً في سفينته متمسكاً بالـسكان، خـوف تلاطم الأمواج. أخلص من هذه النصوص إلى أن وصف الظعن بالسفن هو الذي تناوله معظم شعراء عصر ما قبل الإسلام وقد تناول هذا المعنى الشاعر عبيد بن الأبرص، يقول:

[من الوافر]

تَأَمـــلْ صـــاحبي أتَـــرى حمـــولاً تُـــساقُ كأنهـــا عـــوم الـــسفينِ [(2)]

وفي معنى تمايل السفن في خليج طاغٍ لبشر بن أبي خازم الأسدي، يقول: [من الكامل]

فكـــأنَّ ظُعْـــنَهمُ غـــداة تحملـــوا ســـفنٌ تكفـــأ في خلـــيجٍ مُغـــربِ [(3)]

---

(1) الخيزران: السكان وهو ذنب السفينة، الآيْن: الاعياء، النجد: العرق والكرب. (هامش الديوان).
(2) ديوان عبيد بن الأبرص، ت، كرم البستاني: ١٤٥، دار صادر، بيروت، ١٩٦٤.
(3) ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي، تح: د. عزة حسن: ٤٢- ٤٨ ، مطبوعـات إحيـاء الـتراث العـربي، طبـع دمـشق، ١٩٦٠.

إلا أن بشر بن أبي خازم أماز بوصف الرحلة البحرية التجارية، وتشكل هذه الأبيات قيمة تاريخية (لأنها تُبيِّن لنا الطريقة التي كان العرب يصنعون بها سفينتهم والوسائل التي كانوا يعتمدون عليها في صناعتهم)[1].

يقول وقد ركب سفينة: [من الوافر]

تغـــيرت المنـــازل مـــن سُـــليمى ... برامـــة* فالكثيـــب إلى بُطـــاح [2]
أجالـــدُ صَـــفَّهَمْ ولقـــد أراني ... عـــلى قـــرواء تـــسجد للريـــاحِ
معبـــدة الـــسَّقائف ذاتِ دسرٍ ... مـــضبرةٍ جوانبهـــا رداحِ
إذا ركبـــت بـــصاحبها خليجـــاً ... تـــذكر مـــا لديـــه مـــن جنـــاحِ
يَمُـــرُّ المـــوج تحـــتَ مُـــشجرَّاتٍ ... يلـــين المـــاءَ بالخـــشب الـــصحاحِ
ونحـــن عـــلى جوانبهـــا قعـــودٌ ... نغـــض الطـــرف كالإبـــل القـــماحِ
فقـــد أُوقـــرْن مـــن قـــسطٍ ورَنْـــدٍ ... ومـــن مـــسك أحـــم ومـــن ســـلاحِ
فطابـــت ريحُهُـــنَّ، وهُـــنَّ جـــونٍ ... جـــآجئهنَّ في لجـــج مِـــلاحِ

جسد الشاعر في وصفه هذا هول ركوب البحر الذي ذكره تعالى في محكم كتابه [**هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا**

---

[1] وصف البحر والنهر في الشعر العربي من العصر الجاهلي حتى العصر العباسي الثاني، د. حسين عطوان: ٢٨، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٨٢.

* (رامة)، (الكثيب)، (بطاح) : أسماء مواضع. القرواء: الناقة الطويلة السنام شبه السفينة العظيمة بها. معبدة: مقيرة. رداح: واسعة. المشجرات: السفن، القماح: الإبل التي تعاف الماء. أقرن: حملن. الأجم: الأسود. الجون: السود. اللج: جمع لجة وهي معظم الماء. الملاح: جمع ملح، أي الماء الملح (هامش الديوان)

[2] ديوان بشر بن أبي خازم : ٣٥.

بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللـه مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ] [١].

يصف الشاعر رحلته البحرية بعد وصف السفينة وصناعتها، وما حل بهم من فزع و خوف وقد تعالت الأمواج وظنوا (أنهم أحيط بهم) فتذكروا ذنوبهم في موقف خطير، كادت فيه الريح تحطم السفينة.

لقد شكل البحر أساساً من أسس أدب البحر عند الجاهليين في وصف كرم الممدوح، وهي صورة انتقلت إلى العصور التالية، كما في قول المسيب بن علس[٢]، يمدح القعقاع بن معبد بن زرارة التميمي يقول: [من الكامل]

ولأنـت أجـود مـن خلـيج مفعـم ... مـتراكم الآذي ذي دفـاعِ [٣]
وكـأن بلـق الخيـل في حافاتـه ... يرمـي بهـن دوالي الـزراعِ

يشبه القعقاع في جوده بهذا الخليج الذي يدفع فيه الماء بعضه بعضاً لكثرته. والمفعم: الملآن، والآذي: السيل أو الموج، والعبران: الشَّطان [٤].

---

[١] يونس: ٢٢.
[٢] المسيب بن علس، من شعراء بكر بن وائل، خال الأعشى وهو جاهلي لم يدرك الإسلام، ينظر، الشعر والشعراء لأبن قتيبة ت، أحمد شاكر: ١٧٤، دار المعارف، ١٩٦٦.
[٣] ديوان المفضليات: ١/١٤٧-١٤٨.
[٤] ينظر: المصدر نفسه: ١٤٧ – ١٤٨.

وقد أفاد الشاعر أُمية بن أبي الصلت من قصة الطوفان في القرآن الكريم فصور رحلة نوح υ على ظهر السفينة، يقول [1]: [من الطويل]

ترفــع [2] في جـــريٍ كـــأن أطيطـــه [3] صريـــف محـــال [5] تـــستعيد الـــدواليا
عــلى ظهــر جــونٍ [4] لم يعــد لراكــبٍ وســـتَّ ليـــالٍ دائبـــات غواطيـــا [6]
فــصارت بهـــا أيامهـــا ثـــم ســبعةً سراه وغـــيمٍ ألـــبس المـــاء داجيـــا
تـــشق بهـــم تهـــوي بأحـــسن إمْـــرةٍ كـــأن عليهـــا هاديـــاً ونواتيـــا [7]
وكـــان لهـــا الجـــودي نهيـــاً وغايـــةً وأصـــبح عنـــه موجـــه متراخيـــا

في هذا الوصف ذكر لسفينة نوح υ وهـي تجـري سريعـاً، والأصـوات التـي تتعـالى بفعل شقها للماء، وكثرة الماء الذي تجري فيه السفينة لأول مـرة والغيـوم التـي تغطـي سـماء المكان، وأيام الرحلة، وكأن هذه السفينة في دقة سيرها لها ربان يوجهها وملاحـون لهـم خـبرة بركوب البحار حتى وصولها إلى غايتها جبل الجودي .

(١) الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون: ٢/ ٣٢٣- ٣٢٤، ط١، ١٩٣٨.
(٢) أي تترفع، أي تسرع في جريها.
(٣) الاطيط، والصريف: الصوت.
(٤) المحال: بالفتح وهي جمع محالة، أي البكرة العظيمة.
(٥) جون: أراد به البحر وجعله أسود، لكثرة مائه.
(٦) غواطيا: غطّاه ! البسه ظلمته
(٧) النواتي: الملاح.

المبحث الثالث

البحر في القرآن الكريم

عندما يرد البحر مقترنا بالفلك مرة وبالسفن أخرى في القرآن الكريم بهذا الحشد من الآيات الكريمة [1] التي تظهر عظمة الخالق وقدرته، ودليل وجوده، لا بدَّ إذاً من وقفة تأمل وتفكر تظهر سر هذا الإهتمام بالبحر، ففي قوله تعالى **[وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ] [وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ *فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ]** [2].

جاء في التفسير (ويصنع الفلك) أي وطفق يصنع الفلك كما أُمِرَ، وكان قومه يستهزئون به ويضحكون منه لحسبانهم أنه مصاب بالهوس والجنون؛ واتخذوه سخرياً، ويروى أنهم كانوا يسألونه عمَّا يصنع فيجيبهم أنه يصنع بيتاً يجري على الماء، ولم يكن هذا معروفاً ولا متصوراً.

---

[1] منها: البقرة ١٦٤، الأنعام ٥٩، ٦٣، ٩٧. يونس ٢٢. إبراهيم ٣٢. الاسراء ٦٦، ٦٧، ٧٠. الكهف ٧١، ٧٩. الحج ٦٥، النور ٤٠. النحل ١٤، ٦٣. الروم ٤١، ٤٦. لقمان ٣١. الشورى ٣٢. الدخان ٢٤. الجاثية ١٢، الطور ٦. الرحمن ٢٤، ٥٥. الفرقان ٢٥،، هود ٣٧، المؤمنون ٢٢. الشعراء ١١٩، يس ٤١، العنكبوت ١٥، ٦٥، النمل ٦١، التكوير ٦، والانفطار ٣.

[2] سورة هود: ٣٧ – ٣٩.

إذن هنا تتجلى عظمة الخالق وقدرته، ذلك أن صناعة السفن قبل نوح U سبق لم يقدر عليه أحد، من قومه لأنه فوق عقولهم ومداركهم فكانوا يسخرون من قبل أن يتم نجاحه لرؤيتهم منه ما لايتصورونه [١].

ثم أن عظمة الخالق تعالى تتجلى في المشهد الرهيب: **[وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللـه مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ]** [٢] أي باسم اللـه جريانها وإرساؤها فهو الذي يتولى ذلك بحوله وقوته وحفظه وعنايته، لا بحولنا ولا قوتنا، ذلك أنها (تجري بهم في موج كالجبال) موج يشبه الجبال في علوه وارتفاعه وامتداده وهو ما يحدث في ظاهر البحر عند اضطرابه بفعل الرياح [٣].

ويتجلى دليل وجوده I في قوله: **[وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ]** [٤] ونظيره في قوله تعالى: **[وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ]** [٥].

فقد تحدث الإمام المفسر فخر الدين الرازي عن الاستدلال على وجود اللـه I عن طريق جريان السفن في البحار من وجوه تتمثل في؛ أن السفن وإن كانت من تركيب الناس إلا انه تعالى هو الذي خلق الآلات التي يمكن بها تركيب هذه السفن من شجر أو حديد، ولولا الرياح لما تكامل النفع بها، ولو لا تقوية قلوب من يركب هذه

---

(١) ينظر: تفسير المنار، للسيد محمد رشيد رضا: ٧٢-٧٧، دار المنار بمصر، ط٣، ١٩٥٢.
(٢) هود: ٤١.
(٣) ينظر: تفسير المنار للسيد محمد رشيد رضا: ٧٢، ٧٤، ٧٧، ط٣، دار المنار بمصر ١٩٥٢.
(٤) إبراهيم: ٣٢.
(٥) الشورى: ٣٢.

السفن، وتسخير الله I البحر لحمل هذه السفن وهو العالم بكيفية هذه البحار وما فيها من الحيوانات العظيمة وكيف يخلص السفن منها [١].

ثم إنَّ آي القرآن الكريم تعكس شعوراً بالبحر ينبض بالحياة، ويمثل لنعم الله تعالى بإشارات عديدة إلى منافع البحر وأخطاره بمعانٍ منها ما يدل على العبرة والموعظة، ومنها ما يعلمنا آداب السلوك كما في قوله تعالى: [**ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا**] [٢].

وفي معنى الآية الكريمة يقول لسان الدين بن الخطيب:

أيا راكب البحر الأجاج مخاطراً   تقدم باسم الله مرساك والمجرا [٣]

ومن المعاني أن الله I أعطانا البحر نعمة ورزقاً كقوله تعالى: [**أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ**] [٤].

وهذه الآيات القرآنية جميعها التي ذكرناها في المبحث وما ورد فيها من بيان عن البحر قد أثارت - كما يرى د. جواد علي - الشوق في نفوس المسلمين إلى ركوبه وإلى الاستفادة منه والإسلام هو الذي حمل العرب في الواقع على ركوب البحر والتجول

---

[١] ينظر: التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي، مجلد ٧: ج١٩: ٩٧- ٩٨ ط٤، ٢٠٠١ دار احياء التراث العربي، بيروت - لبنان.

[٢] هود: ٣٨.

[٣] نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، لسان الدين بن الخطيب، نشر وتعليق: د. أحمد مختار العبادي: ١٨٢، دار الشؤون الثقافية، بغداد، (د. ت).

[٤] سورة لقمان: ٣١، وجاء في سورة البقرة: ١٦٤. والأنعام: ٩٧، وإبراهيم ٣٢، والاسراء: ٦، ويس: ٤١.

في المحيطات وبناء الأساطيل الحربية لمقاتلة الأعداء وفتح السواحل وإنشاء المراسي ومواضع بناء السفن لمد المسلمين بالسفن الحربية وسفن التجارة على حد سواء [1].

ومتابعة سريعة لتاريخ البحرية الإسلامية فقد كانت لقريش صلات بحرية ببعض الدول، فكانت لها صلات مع الحبشة عبر البحر الأحمر بدليل هجرة نفر من المسلمين حوالي (٦١٥ م) إليها. إلا أن قريشاً لم تكن لها سفن خاصة بها، وما يؤيد ذلك ما ذهب إليه (جورج فضلوا حوراني) يقول: (ولعل الرسول الكريم قد كتب إلى نجاشي الحبشة يطلب إليه الدخول في الإسلام ولكن لم تكن لديه الأداة البحرية التي تمكنه من فرض طلبه)[2].

وأرى أن الحاجة لم تكن ماسة لإنشاء أسطول بحري في عهد الرسول ρ والخليفة الأول أبي بكر ψ ذلك أن الفتوحات كانت برية، أما بعد الفتوحات الواسعة في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه كانت الحاجة ماسة إلى أنشاء أسطول بحري للوصول إلى المدن الساحلية على البحر المتوسط ولمواجهة الأسطول البيزنطي الذي كانت له السيطرة على مياه البحر المتوسط.

أظهر العرب ميلاً إلى ركوب البحر وشنت أول الغارات البحرية من شواطئ جزيرة العرب عندما أبحر عثمان الثقفي والي البحرين من عمان في غارة جريئة على ساحل الهند، ووجه أخاه إلى هور الديبل عند مصب نهر السند (٦٣٦ م)، وما قام به العلاء الحضرمي خليفته في ولاية البحرين من إظهار جرأته وأقدامه بعبوره إلى

---

(١) ينظر: تاريخ العرب قبل الإسلام، ٨: ١٠٩.

(٢) العرب والملاحة في المحيط الهندي: ١٠٧.

فارس وتحطم سفنه واضطراره إلى عبور أرض العدو إلى البصرة ٦٣٨ م في رحلة محفوفة بالأخطار [١].

إلا أن هذا الميل لم يكن موجوداً أيام الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حرصاً منه على العرب (وشنت هذه الغارات رغم الأوامر الصارمة التي أصدرها الخليفة عمر بن الخطاب ٦٣٤ - ٦٤٤ م ناهياً عنها [٢].

وقد غضب رضي الله عنه على العلاء بن الحضرمي والي البحرين عام ١٧ هـ الذي خلف عثمان بن العاص وعزله لأنه لم يستأذنه في غزو بلاد الروم، ويرى الدكتور جواد علي أن الأخبار الإسلامية لم تشر إلى دخول أهل العربية الغربية البحار، ويفهم منها أن أهل الحجاز لم يكن لهم نصيب في البحر. ثم ترينا أنهم كانوا يخشون البحر ولا يريدون ركوبه بدليل ما ورد في الأخبار الإسلامية عن (عمر بن الخطاب).

وأرى أن سبب تخوف بعض العرب من البحر يرجع إلى ما في نفوسهم من رهبة والذي ترجمه عمرو بن العاص في تجنب المخاطرات البحرية التي آثرها الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد وصف طبيعة البحر وركوب مياهه وما يلاقيه المرء من صعاب في رسالة عمرو بن العاص رداً على سؤال الخليفة فقد جاء فيها (يا أمير المؤمنين أن البحر خلق عظيم يركبه خلق صغير إن ركن خرق القلوب، وإن تحرك أزاغ العقول يزداد فيه اليقين قلةً والشك كثرةً، ليس إلا السماء والماء وإنما هم كدودٍ على عود، إذا مال غرق وإن نجا برق)[٣].

---

[١] ينظر: المصدر نفسه : ١٧٦.

[٢] المصدر نفسه: ١٧٦.

[٣] جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، أحمد زكي صفوت: ١ / ٢١٢ مطبعة مصطفى البابي ط١ ١٩٣٧.

ينفي الدكتور جواد علي نهي الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن ركوب البحر بالخوف أو الرهبة يقول: (ومما يؤكد أن الخليفة عمر بن الخطاب لم يكن يرهب البحر وينهي المسلمين عن ركوبه، تلك الحملة البحرية التي أمر بتجهيزها عبر البحر الأحمر إلى ميناء (عدول) على ساحل أرتيريا للرد على هجمات الأحباش على سواحل تهامة)[١] وما كان نهي الخليفة عن ركوب البحر إلا الخوف على حياة المسلمين لعدم استكمالهم مستلزمات البحرية، يؤكد ذلك كتاب عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية وقد (هم أن يسكنها فكتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في ذلك فسأل عمر الرسول: هل يحول بيني وبين المسلمين ماء؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، فكتب عمر إلى عمرو: (إني لا أحب أن تنزل المسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف)[٢].

ويرى إبراهيم العدوي؛ أن رأي عمرو بن العاص حمل الخليفة على رد معاوية في غزوه لقبرص بقوله: (تالله لمسلم أحب إلي مما حوت الروم)[٣] ويضيف الكاتب؛ لكن معاوية آثر (أن ينفذ سياسته البحرية تدريجياً، جرياً على ما اتصف به من دهاء وحيلة)[٤].

ثم إن رهبة القوم من ركوب البحر لها ما يسوغها فقد ورد في القرآن من الآيات الشريفة ما يؤكد رهبة البحر كقوله تعالى: [**هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ**

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي: ٢٤٦/٧، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٧١.

(٢) جمهرة رسائل العرب: ٢١٠.

(٣) تاريخ الرسل والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم: ٥٢/٥، دار المعارف بمصر، ط٤، ١٩٧٧.

(٤) قوات البحرية العربية في مياه البحر المتوسط، إبراهيم العدوي: ٢٠، مكتبة نهضة مصر ، ١٩٦٣.

كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللـه مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ] [1] هذه الآية خطاب للمشركين وقراءة لما في نفوسهم من رهبة وخوف بدليل الدعاء المخلص الذي لا تشوبه شائبة لأن العرب قبل الإسلام كانوا يشركون أصنامهم في الدعاء [2].

وفي قراءة كثير من السور ما يصور شدة أهوال ركوب البحر ويظهر ما في صدور القوم من رهبة وخوف وهذا هو كشف رباني لنفوس القوم يمثل أروع بيان وأعظم إعجاز تمثل في قوله تعالى: **[أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللـه لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ]** [3].

ويرى د. جواد علي أن (هذه الآيات وإن كانت تشير إلى خوفٍ في نفوس القوم من ركوبه لكن هذا الخوف عام يدرك كل إنسان ولاسيما في ذلك العهد إذ كانت السفن بدائية صغيرة وما ورد فيها إنما جاء على سبيل الموعظة)[4] ويضيف الكاتب: (فلما تهيأت لهم الوسائل وأشرفوا على البحر واختبروه لم يجدوا فيه ما كانوا يخشونه فركبوه، كما ركبه غيرهم وبنوا السفن كالأمم البحرية الأخرى)[5].

فإن جعل اللـه I البحار مختبراً للإيمان واختباراً وبلاءً وتذكيراً للإنسان بأن اللـه هو المنعم على من يستحق النعمة وهو المنتقم ممن يستحق الانتقام فقد جمع القرآن الكريم المتناقضين - وهذا هو من أسرار إعجازه - فمرة يهلك أقواماً ويطويهم

---

(١) يونس: ٢٢، وكما جاء في سورة الاسراء: ٦٦، ٦٩ ولقمان: ٣٢، وغيرهما من الآيات الكريمة.

(٢) ينظر: زبدة التفسير: ٢١١.

(٣) سورة النور: ٤٠.

(٤) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٧: ١١٠.

(٥) المصدر نفسه، ٧: ١٢٤.

في أثنائه. وينقذ آخرين في ساعةٍ واحدة ويوم واحد وحدث واحد ومع القوم أنفسهم فقد أغرق فرعون وقومه ونجّا موسى ومن آمن معه **[وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ]**[(١)].

ومن إعجازه كما جاء في سورة القصص **[وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ]**[(٢)] فالبحر هنا صار أُمّاً حنوناً أمينة، ليس كعادته في إغراق الأقوام، وإن صور القرآن الكريم البحر بصور مفزعة فقد صوره بما ينفع الناس وهو رحمة للشاكرين الصابرين المؤمنين.

وقد يرتبط البحر بالغرق والهلاك، مقابل الأمان والنجاة، فالأولى ترتبط بمظاهر العقاب في حالة الشرك والمعصية، مقابل البر للمتقين في الثانية [(٣)]، كما في قوله تعالى: **[أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً * أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً * وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ]** [(٤)].

فإن كان الخسف هنا أن تنهار الأرض وهو تحذير من البحر أي يعيدكم تارة أخرى، ويغرقكم بسبب كفركم بعد أن يرسل عليكم الريح الشديدة، ثم يذكر I تكريم الإنسان وحمله في البر وفي البحر على السفن [(٥)].

---

(١) البقرة: ٥٠.
(٢) القصص: ٧.
(٣) ينظر: أدب الرحلات، د. حسين محمد فهيم: ٢٤٢، سلسلة عالم المعرفة، ١٣٨، الكويت، حزيران ١٩٨٩.
(٤) الإسراء: ٦٨-٧٠.
(٥) ينظر: زبدة التفسير: ٢٨٩.

وهنا تظهر ثنائية البر والبحر، العقاب والثواب، ويظهر (البحر وأن كان مكـان هـلاك إلا أنه مكان رزق وحياة)[١].

وقد أفاد ابن زيدون من قصة موسى υ وهو في السجن يقاسي مرارته يقول مخاطبـاً أُمَّهُ: [من الطويل]

أقـــلي بكـــاءً لـــستِ أول حـــرةٍ طَوَتْ بالأسى كـشحاً عـلى مـضض الثكـلِ[٢]
وفي (أم مـــوسى) عـــبرة إذ رمـــت بـــه إلى الـــيم في التـــابوت فـــاعتبري واســـلي

لعــل المليــك المجمــل الــصنع قــادراً لــه بعــد يــأس ســوف يجمــل صــنعاً لي

فالشاعر هنا يتذكر حال الأم تلقي بابنها في البحر بيدها ليلاقي مـصيره تهـون عليـه حاله، وإتمام للحالة الصعبة التي وضعت بها أم موسى، كما جاء في الآية أنه سـيأخذه عـدوٌّ لي وعدوٌّ له [٣] لكنها لا تعلم أن الحالة الصعبة هذه هي الفرج والطمأنينة التي وعدت بها.

وقد وردت لفظة (البحر) في القرآن الكريم منفردة في آيات، ومقترنة بلفظة (الفلـك) مرةً وبلفظة (السفينة) مرة أخرى. أما لفظة (الفلك) فلم تأت إلا منفردة. ولفظـة (الـسفينة) وردت منفردة أيضاً ومقترنة مع البحر لمرة واحدة.

---

(١) أدب الرحلات: ٢٤٢.

(٢) ديوان ابن زيدون ورسائله، تحقيق علي عبد العظيم: ٢٦٤، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٧.

(٣) أثر القرآن الكريم في الشعر الأندلسي منذ الفتح حتى سقوط الخلافة د. محمد شهاب العـاني: ١١٩ - ١٢٠ ط١ بغداد، ٢٠٠٢، دار الشؤون الثقافية العامة.

أما ألفاظ (البحر) و(الفلك) و(السفينة) فلم تأت مجتمعة. وقد وردت ألفاظ أخرى جزءاً من معجم البحر في القرآن الكريم وهي: (اليم) و(البحران) و(البحرين) و(البحار) و(أبحر) ووردت لفظة (الموج) كجزء من البحر.

والجدول الآتي يظهر عدد مرات ورود هذه الألفاظ في القرآن الكريم منفردة ومقترنة بغيرها.

جدول رقم (١)

البحر	الفلك	السفينة	اليم	البحران	البحرين	البحار	أبحر	الموج
٢٥	١٧	٤	٨	١	٤	٢	١	٦
البحر + الفلك		البحر + السفينة			البحر + الفلك + السفينة			
٦		١			×			

يُظهر الجدول أن لفظة (الفلك) أكثر دوراناً في آي القرآن الكريم من لفظة (السفينة) وبالرجوع إلى دلالة كل منهما نجد أن دلالة (الفلك) أوسع من دلالة (السفينة) لأنها (الفلك) اسم للجمع، وتذكر وتُؤنث، وتقع على الواحد والاثنين والجمع، فضلاً عن معانٍ أخرى لم تتوافر في لفظة (السفينة) كما هو مذكور في معاني الألفاظ لغة واصطلاحاً.

أرى أن مخاطبة الله I نوحاً υ [1] في بدء صناعة السفينة (وأصنع الفلك بأعيننا ووحينا لدلالة لفظة (الفلك) كما ذكرنا. وأرى أن لفظة (السفينة) جاءت تالية بدلالة قوله تعالى [**وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ**][2] جاء في معنى الآية: (وأخذ يصنع الفلك فيقولون يا نوح: صرت بعد النبوة نجاراً... ويروى

---

[1] هود: ٣٧.

[2] هود ٣٨.

أنهم كانوا يسألونه عما يصنع فيجيبهم أنه يصنع بيتاً يجري على الماء ولم يكن هذا معروفاً أو متصوراً)[١] ولم يقل ں أنه يصنع سفينة. أما لفظة (البحر) فقد جاءت أكثر دوراناً من لفظة (اليم) ومن خلال استعراض آي القرآن الكريم التي وردت فيها لفظة (اليم) فإن دلالة الآيات كانت سلبية إلا آية واحدة[٢] فقد جاء**[فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ]**[٣] و**[فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ]**[٤] و **[لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً]**[٥] و**[فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ]**[٦].

أما دلالة لفظة (البحر) فقد جاءت في كثير من الآيات ايجابية تارةً وجاءت سلبية.

أما دلالة لفظة (البحران) التي وردت لمرة واحدة في **[وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ]**[٧] فلم تكن دلالة تثنيته بقدر دلالتها النوعية و(عذب فرات) هو الأنهار وبعض البحيرات العذبة الماء و(ملح أجاج) هي مياه البحر المحيط والبحار المتفرعة منه[٨]. أما دلالة لفظة (البحرين) في قوله تعالى: **[وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ]**[٩] **[وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً]**[١٠] وقوله تعالى: **[مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَان بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ]**[١١]، وقوله تعالى: **[لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ]**[١٢] فدلالتها كما في دلالة اللفظة في (سورة فاطر:

---

[١] زبدة التفسير: ٢٢٦.
[٢] القصص: ٧.
[٣] الأعراف: ١٣٦.
[٤] طه: ٧٨.
[٥] طه: ٩٧.
[٦] الذاريات: ٤٠.
[٧] فاطر: ١٢.
[٨] ينظر: زبدة التفسير: ٤٣٦.
[٩] الفرقان: ٥٣.
[١٠] النمل: ٦١.
[١١] الرحمن: ١٩.
[١٢] الكهف: ٦٠.

١٢). أما دلالة (مجمع البحرين) فالمراد بالبحرين؛ بحر الأردن وبحر القلزم [أي ملتقى خليج السويس بخليج العقبة] و الله أعلم، وقيل مجمع البحرين عند طنجة[١]. أما لفظة (الموج) التي تعد من مكونات ألفاظ البحر فقد جاءت حقيقة في قوله تعالى: **[وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ]** [٢] ومجازاً في قوله تعالى: **[وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ]** [٣]. فالآية الأولى فيها بيان شدة الأهوال وقوة الريح وعظم الطوفان.

أما الأخرى ففيها بيان الاضطراب والاختلاط يوم خروج يأجوج ومأجوج[٤].

---

[١] ينظر: زبدة التفسير: ٣٠٠.

[٢] هود: ٤٢.

[٣] الكهف: ٩٩.

[٤] ينظر: زبدة التفسير: ٢٢٦ و ٣٠٤.

المبحث الرابع

البحر في التراث العربي الإسلامي

يعود الأمر في إنشاء الأسطول العربي الأول إلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح في مصر، ومعاوية في الشام، ففي سنة (٢٨ هـ) قاما بحملة بحرية على قبرص وفرضا عليها الجزية، وقد نجح معاوية في إقناع الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه بركوب البحر وغزو قبرص، وقد اشترط الخليفة عليه إلا يشرك أحداً خلاف رغبته وأن يشرك معه زوجته [١].

على أن هذا النصر ساعد في كسر حاجز الخوف عند المسلمين أولاً، وثانياً ساعد في تطور البحرية العربية الإسلامية.

فمجهودات عبد الله بن أبي سرح تعد الخطوة الإيجابية في بناء قوات البحرية العربية في مياه البحر المتوسط، فإذا كان معاوية قد نفذ الخطوات التمهيدية لبناء السفن وشحنها بالمقاتلة من العرب وغيرهم فإن عبد الله بن أبي سرح هو الذي بدأ بناء السفن الأولى التي تكونت منها نواة الأسطول العربي [٢] وكان هذا الجهد في مصر والشام.

---

[١] ينظر: المدخل إلى تاريخ الحضارة العربية؛ ناجي معروف: ٤٦ (ط١، ١٩٩٦ مطبعة العاني، بغداد).

[٢] ينظر: قوات البحرية العربية في مياه البحر المتوسط، إبراهيم العدوي: ٢٣، مكتبة نهضة، مصر: ١٩٦٣.

في سنة (٣٤ هـ) جهز معاوية أسطولا هاجم به الأسطول البيزنطي الذي كان يزيد على خمسمائة سفينة فأنتصر العرب عليه انتصارا رائعاً - لا يقل أهمية عن انتصارهم في اليرموك في معركة تعرف بـ (ذات الصواري) [١].

يروي الطبري عن هذه المعركة ذات الصواري يقول (.... فالتقينا في البحر فنظرنا إلى مراكب ما رأينا مثلها قط.... فدنونا منهم فربطنا السفن بعضها إلى بعض حتى كنا يضرب بعضنا بعضاً على سفننا وسفنهم، فقاتلنا أشد القتال ووثب الرجال على الرجال يضطربون بالسيوف على السفن. ويتواجأون* بالخناجر حتى رجعت الدماء إلى الساحل تضربها الأمواج وطرحت الأمواج جثث الرجال ركاماً [٢].

ويذكر المقريزي بطولة المسلمين في معركة ذات الصواري أن المسلمين توجهوا إلى المعركة في ضوء الآية القرآنية: [**كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللـه وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**] [٣]، فركبوا سفنهم التي كان عددها مئتي مركب، وكان عدد مراكب العدو ألف مركب، وبعد مناوشات بالسهام والنبال والحجارة، ربطوا المراكب بعضها ببعضها الآخر يقتتلون بالسيوف وكانت السفن إذ ذاك تقرن بالسلاسل عند القتال[٤].

وكان للنساء العربيات نصيب في هذه المعركة البحرية، كما يذكر المقريزي: أن أمير البحر عبد اللـه بن سعيد كانت معه امرأته (بسيسة ابنة حمزة بن يشرح)[٥].

---

[١] ينظر: المدخل إلى تاريخ الحضارة العربية: ٤٦.

* وجأه باليد والسكين: ضربه. (معجم الوسيط ١٠٢٣/٢).

[٢] تاريخ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ٢٩٠- ٢٩١ ت محمد أبو الفضل إبراهيم ط٤، دار المعارف بمصر ١٩٧٧.

[٣] البقرة: ٢٩٤.

[٤] ينظر: كتاب الخطط المقريزية، للمقريزي: ٢٧٣/١، مطبعة النيل، مصر، ١٣٢٤هـ

[٥] ينظر: المصدر نفسه: ٢٧٣/١.

وكان الناس يغزون بنسائهم في المراكب وكانت بسيسة تشارك في القتال وتعطي رأياً فيه [1] وكان الإسطول العربي يتكون من ثلثمئة سفينة كبرى تحمل كل منها ألف رجلٌ وخمسمائة آلاف طرادة تحمل كل منها مائة رجل [2].

وهذا يؤكد سرعة تطور البحرية العربية الإسلامية وضخامة عدد قطعات أسطولها، وقد تشكلت في العصر الأموي ثلاثة أساطيل مستقلة بعضها عن بعضها الآخر، أسطول مصر، وأسطول سورية، وأسطول شمال افريقية [3]، وقد اعتاد العرب ركوب البحر حتى صاروا من أمهر الملاحين يذكر د. ناجي معروف؛ أن الأمويين كانوا يغزون البيزنطيين بحراً كما كانوا يغزونهم في البر وتوسع أسطولهم حتى يذكر أنه أشترك في سنة (٩٩ هـ ٧١٧ م) حوالي (١٨٠٠) سفينة عربية في غزوة واحدة [4]، إلا أن الأسطول الأموي، ولعدم الاستقرار الذي مرت به الدولة وكثرة الحروب الداخلية كان لهما الأثر السلبي في نشاطه.

إلا أن عناية العباسيين بالأسطول أقل من عناية الأمويين به، وكان مركز الأسطول في هذا الدور في شمال أفريقية والأندلس ومنها وجهت الحملات لإخضاع جزر البحر الأبيض المتوسط، حتى أصبحت سواحله الشمالية عربية[5].

وبعد أن تمرس العرب بآفات البحار وتكررت ممارستهم للبحر - كما يذكر ابن خلدون - شرهوا إلى الجهاد فيه، وأنشأوا السفن والشواني، وشحنوا الأساطيل

---

(1) ينظر: المصدر نفسه. وهذا حق كفله الإسلام للمرأة قبل الغرب.

(2) ينظر: المرجع في الحضارة الإسلامية د. إبراهيم سلمان الكردي: ١١٥، منشورات ذات السلاسل، الكويت، ط٢، ١٩٨٧.

(3) ينظر: المرجع في الحضارة الإسلامية: ١١٦.

(4) ينظر: المدخل إلى تاريخ الحضارة العربية: ٤٦ - ٤٧.

(5) ينظر: المصدر نفسه: ٤٧.

بالمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر وما كان أقرب إلى هذا البحر مثل الشام والمغرب والأندلس [١].

وفي ذكر المعتصم الخليفة العباسي ونزعته للحرب البحرية يروي الطبري؛ أنه بنى سفينة كبرى سماها (الزو) ورغب أن يشهد العرض العسكري البحري[٢].

ولأبي نواس يمدح محمد بن الأمين بن هارون الرشيد من قصيدة فيها وصف السفن، يقول:

سَخَّر الله للأمين مطايا	**لم تسخر لصاحب المحراب** [٣]
فإذا ما ركابه سرن براً	**سارَ في الماء راكباً ليث غاب**
عجت الناس إذ رأوك عليه	**كيف لو أبصروك فوق العُقاب**
أسداً باسطاً ذراعيه يعدو	**أهرت الشدق، كالح الأنياب**
لا يعانيه باللجام، ولا السوط	**ولا غمز رجله في الركاب**
ذات سورٍ ومنسر وجناحين	**تشق العباب بعد العباب**
تسبق الطير في السماء إذا	**ما استعجلوها بجيئةٍ وذهاب**

وينقل الدكتور زكي المحاسني: (إن (العقاب) كان قطعة جبارة من قطع الأسطول عند الأمين وكان يركبها في حروبه البحرية)[٤].

---

[١] مقدمة ابن خلدون: ٣١٤.

[٢] ينظر: تاريخ الطبري، ١٠: ٣٠٦.

[٣] ديوان أبي نواس، برواية الصولي، ت. د. بهجت عبد الغفور الحديثي: ٣٦٥ - ٣٦٦ (دار الرسالة لطباعة، بغداد، ١٩٨٠).

[٤] شعر الحرب في أدب العرب، د. زكي المحاسني: ٢١٧، دار المعارف بمصر، ١٩٦١.

في العصر العباسي لم تكن العروض العسكرية البحرية سمة من سمات الحياة العسكرية للدولة، لذا فقد رسم د. زكي المحاسني صورة نثرية للنص الشعري في العرض العسكري البحري الذي رسمه أبو نواس، يرى عرضاً لاثني عشر ألفاً من الجنود في اصطفاف عسكري بحري يحملون سيوفهم ورماحهم ونشابهم يصطفون على ظهور سفنهم وبحركات عسكرية توازي موسيقى الشعر بأنغامها تسمعها الآذان وتعشقها وهي تعزف لحن النصر ونشيد الأمة [1].

أما المتوكل الخليفة العباسي فكان يملك أسطولاً جراراً ثقيلاً يقول فيه د.المحاسني؛ (لم يصفه المؤرخون - جرياً على عاداتهم في اقتضاب بعض الحوادث القيمة الخطيرة))[2]، أما الذي نهض بوصفه الشاعر البحتري: [من الطويل]

غدوت على الميمون صبحاً وإنما غدا المركب الميمون تحت المظفر [3]

وقد أكثر المؤرخون البيزنطيون من أنه لم يصف أحد من مؤرخي العرب هذه الحملة البحرية أيام المتوكل التي سار فيها الأسطول العربي نحو بيزنطية وأن البيزنطيين يسمون قائد أسطول المتوكل Apodenar وهم يعنون (أحمد بن دينار) قائد الأسطول البحري العباسي، وأن المؤرخين البيزنطيين يذكرون هذه الغزوة البحرية التي انتهت بهلاك الأسطول الرومي [4].

---

[1] ينظر: المصدر نفسه: ٢١٦.

[2] المصدر نفسه: ٢١٧.

[3] ديوان البحتري، تحقيق وشرح: حسن كامل الصيرفي: ٩٨٢/٢، دار المعارف، ١٩٦٣، وسنأتي على القصيدة وتحليلها لاحقاً.

[4] ينظر: شعر الحرب في أدب العرب: ٢١٨.

واستمرت انتصارات العرب التي كان لها الأثر الكبير في اهتمامهم بالأسطول البحري في بداية القرن الثامن الميلادي، فقد أصبح للعرب - كما جاء في كتاب المرجع في الحضارة العربية الإسلامية - (ملك واسع الارجاء ففي أواخر القرن السابع فتحوا بلاد ما وراء النهر أي بلاد العجم أو فارس وبلاد أفغانستان وبلاد الأندلس فأمتدت دولتهم من حدود الهند شرقاً إلى المحيط الأطلنطي غرباً ومن آسيا الوسطى وجبال القوقاز إلى صحارى أفريقيا)[١].

أما مصر فكانت في مقدمة البلاد العربية التي أسهمت في بناء الأسطول العربي، وقد أهتم الفاطميون بصناعة السفن وحققوا انتصارات رائعة ولا يغفل الأدب العربي قصيدة ابن هانئ الأندلسي التي سجل فيها هزيمة الأسطول البيزنطي على يد أسطول المعز الفاطمي في صور وطرابلس يقول مصوراً قوته وهيبته ونيرانه وأثره في نفوس الأعداء:

أمـا والجـواري المنـشآت التـي سرت لقـد ظاهرتهـا عـادة وعديـد[٢]

وتوضح قصيدة ابن هانئ الصورة المشرقة التي تدل على أن المسلمين الذين أخطأ (احيقار) في وصفهم والذين نشأوا في الصحراء العربية هم الذين أستطاعوا السيطرة على البحار وسجلوا مجداً بحرياً وظلوا سادة البحر يجوبونه دون خوف أو وجل.

---

[١] المرجع في الحضارة العربية الإسلامية: ١٣٣.

[٢] ديوان ابن هانئ الأندلسي، قدم له د. عمر فاروق الطباع ١٠٢، ط١، ١٩٨٨ دار الأرقم، بيروت - لبنان.

ولأن موضوع دراستنا هو البحرية الإسلامية في الشعر الأندلسي الذي دعانا إلى الوقوف سريعاً عند البحرية العربية في طور نشأتها وتطورها في المشرق استكمالاً لموضوعنا وكما يذكر د. نوري حمودي القيسي (لابد أن يقترن الشعر بالتاريخ والقتال بالرجال الأشداء الذين يستجيبون لنداء الجهاد)[١].

إلا أننا نفاجأ بقلة الشعر الذي صاحب معارك الجهاد البحرية في الشام ومصر.

يؤكد د. نوري حمودي القيسي؛ إن الشعراء الذين وصلت إلينا إشعارهم وهي مقطعات أو أبيات تؤكد أنها أجزاء من قصائد ومقاطع من صورة وجدانية متكاملة... ذكر طرف منها وأشير إلى بعضها الآخر على شكل إيماءات فسرتها الأبيات المتقطعة وعرضت لها المفاصل المبتورة وأذهب رونقها حدود الاستشهاد المطلوب [٢].

ومع ما ذكر إلا أننا واجدون في ديوان الشعر العربي الإسلامي إرثاً شعرياً بحرياً رائعاً صور ركوب العرب البحر في العصر الإسلامي منذ الفتح وحتى نهاية العصر العباسي الثاني، ونتناول نصوصاً في وصف السفن والبحر منها للشاعر المهذب بن الزبير في وصف السفن الحربية المعروفة بالشواني في عهد صلاح الدين الأيوبي [٣]، يقول:

وكأن بحر الروم خلق وجهه ... وطغت عليه منابت المرجان [٤]
ولقد أتى الأسطول حين غزا بما ... لم يأت في حين من الأحيان
أحبب إليَّ بها شواني أصبحت ... من فتكها ولها العداة شواني

---

[١] الشعر في ركاب المعارك التاريخية، د. نوري حمودي القيسي: ١٠٦ دراسات للأجيال، العدد الثاني، السنة السادسة، تموز، ١٩٨٦، بغداد - العراق.

[٢] الشعر في ركاب المعارك التاريخية د. نوري حمودي القيسي: ١١٦.

[٣] شعر الحرب في عصر بني أيوب، د. ناظم رشيد شيخو: ١١٣، آداب الرافدين، العدد ١٥، كلية الآداب - جامعة الموصل، ١٩٨٢.

[٤] خريدة القصر وجريدة العصر، عماد الدين الأصفهاني، شعراء مصر، تح: أحمد أمين، شوقي ضيف، إحسان عباس: ٢١١/١، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥١.

شـــبهن بالغربـــــان في ألوانهــــا وفعلـــن فعـــل كـــواسر العقبـــان
أو قرتهــا عــدد القتــال، فقــد غــدت فيهـــا القنـــا عوضـــاً عـــن الأشـــطان
فأتتـــك مـــوقرةً بـــسبيٍ بينــــه أسراهـــــم مغلولـــــة الأذقـــــان

ولبشار بن برد من قصيدة في مديح ابن هبيرة الملقب بشيخ العرب والي قنسرين في زمن يزيد بن عبد الملك، يصف السفينة وأهوال البحر يقول: [من السريع]

وملعـــب النـــون يـــرى بطنـــه مـــن ظهـــره أخـــضر مســتـــصعبِ[1]
ركبـــــت في أهوالـــــه ثيبـــــا إليـــــك أو عـــــذراء لم تركـــــبِ

وله من قصيدة في مديح المهدي وموسى[2] يقول: [من البسيط]

وقربـــت لمـــسيرٍ منـــك يومئـــذٍ مراكـــبُ منـــك لم تولـــد ولا تلـــدِ[3]
لا في الـــسماء ولا في الأرض مـــسلكها ولا تقـــوم ولا تمـــشي ولا تخـــد
ولا يـــذقن اكـــالاً مـــا بقـــين ولا يـــشربن مـــاء وهـــن الـــشرع الـــوردُ
فبـــات عرشـــك فـــوق المـــاء يحملـــه بحـــرٌ تلاطـــم فيـــه المـــوج والزبـــد
والـــريح مرســـلةٌ والمـــاء منـــصلت وأنـــت مرتفـــق والـــسير منجـــرد

---

(1) ديوان بشار بن برد، شرح محمد الطاهر بن عاشور، ١: ١٤٧، لجنة التأليف والنشر، القاهرة: ١٩٥٤.
(2) المهدي، ابن أبي جعفر المنصور، وموسى، ابن المهدي هامش الديوان ٢: ٢٧٧.
(3) ديوان بشار بن برد: ٢/٢٧٧-٢٨٣.

وقد تصدى لوصف البحر والسفن كثير من شعراء العصر العباسي [1]، ولمسلم بن الوليد قصيدة مشهورة يقول في وصف البحر وركوبه: [من الطويل]

وملتطم الأمواج يرمي عبابه ... بجرجرةِ الآذي للعبر فالعبر [2]
كشفت أهاويل الدجى عن مهوله ... بجارية محمولة حامل بكر
لطمت بخديها الحباب فأصبحت ... موقفة الدايات مرتومة النحر
إذا أقبلت راعت بقنة قرهبٍ ... وإن أدبرت راقت بقادمتي نسرِ
أطلت بمجذافين بعتورانها ... وقومها كبح اللجام من الدبرِ
فحامت قليلاً ثم مرت كأنها ... عقاب تدلت من هواءٍ على وكرِ
وحتى علاها الموج في جنباتها ... بأردية من نسج طحلبه خضر
ركبنا إليه البحر في مؤخراته ... فأوفت بنا من بعد بحر إلى بحر *

---

[1] منهم الشاعر الحسين بن الضحاك (٢٥٠ هـ)(ديوان الحسين بن الضحاك، تح، د. خليل العطية ط١، ٢٠٠٥ بغداد دار الجمل:١٧٠) وأبو الشيص (طبقات الشعراء، ابن المعتز، تح: عبد الستار أحمد فراج: ٨٢ - ٨٣، دار المعارف، ط٤، ١٩٨١، وأبو تمام (ديوان أبي تمام، بشرح التبريزي، تح، محمد عبده عزام: ٣٩٦/٢ - ٣٩٨ دار المعارف بمصر، ومهيار الديلمي (ديوان مهيار الديلمي، شرح أحمد نسيم، ١٧٩/١ و ٥١٢/٤ منشورات الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط١، ١٩٩٩.

[2] شرح ديوان صريع الغواني مسلم بن الوليد الأنصاري، تح: د. سامي الدهان، ١٠٥ - ١١١، دار المعارف، بمصر، ١٩٧٠.

* الجرجرة: صوت الماء، الآذي: الموج، والعبر: حافة النهر الملتطم الأمواج: المتناطح الأمواج. (كشفت أهاويل الدجى عن مهولة) أي: كشفت أهوال الليل عن مهولة (محمولة حامل بكر) بسفينة يحملها الماء وتحمل الناس في بطنها، والبكر التي لم تركب قط. الحباب: الموج، (موقفة الدايات): مخططة الظهر، استعار (الدايات) التي تكون للمواشي للسفينة، أي أن الماء جعل فيها خطوطاً خضراء (مرتومة النحر): أي في نحرها بياض (بقنَّة قرهب) أي: برأس ثور وحشي، راقتك (بقادمتي نسر) أي أعجبتك بمقاذف كأنها جناحا نسر.
الشطر الثاني من البيت: أراد باللجام رجل المركب وبه يقوِّم المركب كما يقوِّم الفرس باللجام، أي في أواخر ركوبه، بلغفا من بعد قطعنا البحر إلى رجل كالبحر في سخائه. (الديوان، هامش ١٠٥، ١٠٧، ١٠٩، ١١١).

ذكرنا في (اللغة والاصطلاح)[1]؛ أن كل نهر لا ينقطع ماؤه، مثل دجلة والنيل وما أشبههما فهو بحر ومسلم بن الوليد يصور رحلته النهرية، وكأن تلك السفينة تسير في بحر هائج زاخر بالحيتان، في تصويره وصف الرياح العاصفة وسرعة السفينة وكأن الفرات في ذلك الوقت ليسه اليوم، هذا النهر الذي غير لون السفينة بلون أعشابه، ويظهر هنا النهر عظيماً وقد تأثر الشاعر بوصف المعارك البرية فالسفينة رأسها رأس ثور وحشي وشبه مجذافيها بجناحي نسر، ويقترب أكثر من وصف بدوي صحراوي لمعركة برية. بوصف الملاح الممسك بدفتي السفينة كالفارس الممسك بلجام الفرس وحبالها بزمام البعير. ولأبي الشيص يمدح عقبة بن الأشعث بقصيدة فيها وصف للسفينة والرحلة، يقول:

وبحر يحار الطرف فيه قطعته ... بمنهوءة من غير عر ولا جرب [2]
ملاحكة الأضلاع محبوكة القرى ... مداخلة الدايات بالقار والخشب
موثقة الألواح لم يدم متنها ... ولا صفحتيها عقد رحل ولا قتب
يشق حباب الماء حد جرانها ... إذا ما تفرى عن مناكبها الحبب
إذا أعتلجت والريح في بطن لجةٍ ... رأيت عجاج الموت من حولها يثب

نلمس هنا وصفاً بدوياً بألفاظ أعيرت من الناقة إلى السفينة، إلا أنَّ الشاعر فضل السفينة على الناقة لأن السير لا يتعبها ولا تشكو إرهاقاً، وهذا ما ذهب إليه د.

---

[1] ينظر: المبحث الأول من الفصل الأول: ٣٣.
[2] طبقات الشعراء، ابن المعتز: ٨٢-٨٣ .

حسين عطوان (بحيث كنا بحاجة إلى استخراج معانيها، ظننا بعد قراءتنا السريعة للأبيات أنه إنما كان يصف ناقة لا سفينة وأنه شاعر جاهلي لا شاعر عباسي)[1].

وتعد قصيدة الحرب البحترية البحرية قصيدة مديح لكني أرى أن من دوافعها المديح بينما يتصدر دافع إعادة التوازن النفسي والروحي للمسلمين بإعلان النصر وهزيمة العدو المرتبة الأولى والأهم من خلال تطور مضامين القصيدة بصور فنية جديدة وكأنك وأنت تقرأها تعيش عرضاً سينمائياً أو مسرحياً حربياً بحرياً، ولم تأت للدلالة وإثبات براهين، بقدر ما جسدت حالة الزهو والفخر بجرسٍ لفظي وانسجام موسيقي منحها حق البقاء بما خلفته في المتلقي من تلذذ آثار عواطف قومية جياشة رافقت صور تلاطم أمواج البحر وعصف الرياح التي كانت وبالاً على العدو.

وقد تمثل دافع إعادة التوازن ببيتي القصيد في قوة اسطول المسلمين ورباطة جأش الجنود: [من الطويل]

تميل المنايا حيث مالت أكفهم ... إذا أصَّلتوا حدَّ الحديد المذكر

وفي هزيمة العدو يقول:

يسوقون أسطولاً كأن سفينه ... سحائب صيف من جهامٍ وممطر

[1] وصف البحر والنهر في الشعر العربي: ٦٤.

المنهوءة: المطلية بالقطران. العُر: داء يتمعط منه وبر الإبل. ملاحكة: ملتئمة، التئاماً شديداً. القرى: الظهر. الدايات: الواح هيكل السفينة. حباب الماء: معظمه. الجران: باطن العنق. تفرى: انفراج وتطاير. الحبب: طرائق الماء وفقاعاته التي تطفو على سطحه

أحسن الشاعر التخلص إلى القائد أحمد بن دينار في معركة البحرية:

بأحمـــد أحمـــدنا الزمـــان وأســـهلت   لنـــا هـــضبات المطلـــب المتـــوعر

وفي أبيات يمدحه فيها منها:

ولمـــا تـــولى البحـــر والجـــود صـــنوه   غـــدا البحـــر مـــن أخلاقـــه بـــين أبحـــر
أضـــاف إلى التـــدبير فـــضل شـــجاعة   ولا عـــــزم إلا للـــــشجاع المربـــــر
إذا شـــــجروه بالرمـــــاح تكـــــسرت   عواملهـــا في صـــدر ليـــث غـــضنفر

ثم ينتقل إلى حرب الأسطول يقول:

غـــدوت عـــلى الميمـــون صـــبحاً وإنمـــا   غـــدا المركـــب الميمـــون تحـــت المظفـــر

وينتقل إلى عرض بحري لسفن الأسطول وجنوده:

إذا زمجـــــر النـــــوتي فـــــوق علاتـــــه   رأيـــــت خطيبـــــاً في ذؤابـــــة منـــــبر
يغـــــضون دون الاشـــــتيام عيـــــونهم   وفـــوق الـــسماط للعظـــيم المـــؤمر
إذا عـــصفت فيـــه الجنـــوب اعـــتلى لهـــا   جناحـــاً عقـــابٍ في الـــسماء مهجـــر

وينتقل إلى وصف الجنود ويصور شجاعتهم:

وحولـــك ركـــابون للهـــول عـــاقروا كـؤوس الـردى مـن دارعـين وحسرِ
تميـــل المنايـــا حيـــث مالـــت أكفهـــم إذا أصـــلتوا حـــد الحديـــد المـــذكرِ

ويصور المعركة يقول:

إذا رشـــقوا بالنـــار لم يـــك رشـــقهم ليقلـــع إلا عـــن شـــواء مقـــتر
صـــدمت بهـــم صـــهب العثـــانين دونهـــم ضراب كايقـــاد اللظـــى المتـــسعر

وفي وصف أسطول العدو:

يـــسوقون أســـطولاً كـــأن ســـفينه سـحائب صـيف مـن جهـام ممطـر
كـــأن ضـــجيج البحـــر بـــين رمـــاحهم إذا أختلفـــت ترجيـــع عـــود مجرجـــر

وفي وصف لخطة القائد ابن دينار لجر اسطول العدو إلى منطقة القتل أو إلى مخنق قاتل يقول:

فما رمـت حتـى أجلـت الحـرب عـن طـلى مقطعـــة فـــيهم وهـــام مطـــير
عـــلى حـــين لا نفـــع يطوحـــه الـــصبا ولا ارض تلفـــى للـــصريع المقطـــر
جـــدحت لـــه المـــوت الـــذعاف فعافـــه وطـــار عـــلى ألـــواح شـــطبٍ مـــسمر

وبعد عودة الشاعر إلى مديح القائد يصور هزيمة ابن قيصر الذي ساعدته الرياح بأبعاده عن ساحة المعركة البحرية:

مضى وهو مولى الريح يشكر فضلها … عليه ومن يول الصنيعة يشكر
إذا الموج لم يبلغه إدراك عينه … ثنى في إنحدار الموج لحظة أخزر
تعلق بالأرض الكبيرة بعدما … تقنصه جري الردى المتمطر

ويختم القصيدة بالمدح أيضاً يقول:

وكنا متى تصعد بجدك ندرك الـ … ـمعالي ونستنصر بسيفك ننصر [1]

كانت القصيدة صدى للروح الإسلامية في الكفاح ضد المد الرومي، وقد مزج الشاعر بين الموضوعية والخيال، وكان بارعاً في إعلاء الجانب النفسي الروحي المعنوي كبراعته في مديح القائد وإظهار شجاعة الجنود وبلاء الأسطول وكأنه أوقف صور هذه القصيدة بوجهين لعملة واحدة فأنت تراه مادحاً مفتخراً مشيداً بالأسطول حتى جاء هذا اللون من المديح وكأنه فنون الشعر جميعاً. فكان أوفر حظاً في التعبير عن مشاعره وأخيلته وكان أكثر توفيقاً في نغمة القافية وملاءمتها لتعبر عن النمو الموسيقي والمعنوي للبيت الشعري الذي بدوره كون البناء المتنامي للقصيدة المتمثل في خلق علاقات جديدة في طريقة جديدة من التعبير.

---

[1] ديوان البحتري، تحقيق وشرح، حسن كامل الصيرفي: ٩٨٠ – ٩٨٥.

وللشاعر أبي الطيب المتنبي في معركة الدرب وهي آخر معركة وصـفها المتنبـي فيهـا هزم سيف الدولة الروم وسحقهم في قصيدته الميمية المستوحاة من المعركـة، عنـدما جـاوزت جيوش سيف الدولة نهر (ارسناس) وأمرهم أن يخوضوا النهـر لـيس بالـسفن وإنمـا بـالخيول، يقول د. زكي المحاسني معلقاً (فيالمنظر الموج وهو ينكشف عـن صـدور الخيـل فيجفـل منهـا وهي لا تجفل منه، وكان سيف الدولة في مقدمة الجيش أول الخائـضين.... يعـبر بـالجيش إلى بلدٍ مقدورٍ عليه بالحريق)[1] فيقول المتنبي في هذه الصورة الفنية [2]: [من البسيط]

ومـا يـصدك عـن بحـرٍ لهـم سـعةً — ومـا يـردك عـن طـودٍ لهـم شـمم
ضربتــه بــصدور الخيــل حاملــةً — قومــاً إذا تلفــوا قــدماً فقـد سـلموا
تجفــل المــوج عــن لبــاتِ خــيلهم — كــما تجفــل تحــت الغــارة الــنعم
غــبرت تقــدمهم فيــه وفي بلــدٍ — ســكانه رقــم مــسكونها حمــم

ويذهب المتنبي إلى تشبيه تلاطم الأمواج، بتشبيه حسي * يقول:

والمــوجُ مثــل الفحــول مزبــدةً — تهــدر فيهــا ومــا بهــا قطــم

[1] شعر الحرب في أدب العرب، ٢٨١.
[2] ديوان المتنبي، عبد الرحمن البرقوقي: ١٣٦/٤، دار الكتاب العربي، لبنان- بيروت، ١٩٨٠.
* وسبقه البحتري في قوله من قصيدته في مدح ابن دينار التي سنأتي عليها
كــأن ضــجيج البحــر بــين رمــاحهم — إذا اختلفــت ترجيــع عــودٍ مجرجــر

الديوان، هامش: ١٨٧-١٨٨.

يقول الشارح: ولك أن ترفع وتنصب (مزبدة) على أنها حال من الفحول أو خبر، والقطم: شهوة الضراب وهياج الفحل عند ذاك.

شبه الأمواج في اضطرابها وما يسمع من صوتها بالفحول إذا هاجت واشتهت الضراب فرمت بالزبد من أفواهها، ومعنى تهدر فيها: تصيح في البحيرة هديراً مثل هدير الفحول.

لا يصدك عنهم سعة بحارهم ولا ارتفاع جبالهم لا يهابون التلف، بل يتهافتون عليه، وفيه نظر إلى قول أبي تمام:

يستعذبون مناياهم كأنهم   لا ييأسون من الدنيا إذا قتلوا (1)

وفي البيت الثاني يصور انهزام الأمواج أمام صدور خيولهم وهي سابحة مسرعة كما تنهزم المواشي عند الغارة عليها فتجفل مسرعة.

---

(1) شرح الصولي لديوان أبي تمام، دراسة وتحقيق: د. خلف رشيد نعمان: ١٨٧/٢، منشورات وزارة الثقافة والفنون، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٨.

الفصل الثاني

البحرية الإسلامية في

الشعر الأندلسي

المبحث الأول: لمحة تاريخية عن البحرية الإسلامية في الشعر الأندلسي، ومدى تأثره بشعر البحرية في المشرق.

المبحث الثاني: البحرية الإسلامية في الشعر الأندلسي منذ الفتح حتى سقوط عهد الطوائف ٩٣- ٥٣٦هـ

المبحث الثالث: البحرية الإسلامية في الشعر الأندلسي في عهد المرابطين والموحدين ٤٩٣-٦٦٨هـ

المبحث الرابع: البحرية الإسلامية في الشعر الأندلسي في عهد مملكة غرناطة ٦٣٥-٨٩٨هـ

المبحث الأول

لمحة تاريخية عن البحرية الإسلامية في الشعر الأندلسي

ومدى تأثره بشعر البحرية في المشرق

ظهر غرض وصف معارك الجهاد البحرية في سماء الشعر الأندلسي كظهور شعر المرأة، ووصف الطبيعة، والموشحات والأزجال، وشعر الاستغاثة والاستنجاد، فإن احتلت هذه الأغراض الشعرية مساحة واسعة في ديوان الشعر العربي عامة والشعر الأندلسي بشكل خاص فلأنها سجلت حضوراً ميدانياً يُعدّها أغراضاً مستقلة، فشعر المرأة له شعراؤه وشاعراته وأفرد غرضاً مستقلاً ينظم فيه الشاعر مقطوعات في مقدمات القصائد، أو مقطوعات مستقلة، أو قصائد مستقلة بنفسها، وكذا وصف الطبيعة وما يصاحبها من مجالس اللهو والطرب والشراب، وكذا الموشحات والأزجال التي اكتسبت شهرة واسعة وأفرد لها ديوان الشعر العربي مساحة كبيرة ولها شعراؤها المشهورون، وكذا الحال في شعر الاستنجاد، وهو الذي يقوم على استنهاض عزائم الملوك في المغرب لنجدة الأندلسيين بسبب تخاذل أمرائهم وتفرق كلمتهم، وانشغالهم عن أمور الجهاد. فعند ذكر عمر بن أبي ربيعة من المشرق، وأبن زيدون من الأندلس فلا بد من أن يقفز الذهن إلى شعر الغزل في المرأة وعندما يذكر أبو نواس نتذكر شعر الخمرة أو الغزل بالمذكر، وعندما يذكر الصنوبري نتذكر شعر الطبيعة، أما إذا ذكرنا ابن حميدس أو ابن دراج القسطلي، أو ابن الآبار، أو ابن وهبون، أو ابن هانئ الأندلسي، فليس من الضرورة بمكان أن يقفز إلى الذهن شعر البحرية الأندلسية – وكما ذكرنا-

لم يكن غرضاً مستقلاً بنفسه تعاقبت عليه الأجيال، وأفردت فيه قصائد أو مطولات، على الرغم من أشغاله مساحة لا بأس بها في الأدب الأندلسي أثناء قصائد المديح أو رثاء المدن أو غيرهما. وحتى عند ذكر مسلم ابن الوليد أو البحتري وهما أول من وصف السفن البحرية الحربية من شعراء المشرق فلا يقترن أسم أحدهما أو كلاهما بشعر البحرية الحربية العربية، على الرغم من (أن قصيدة مسلم بن الوليد في وصف السفينة الحربية بارعة ممتعة وهي على شيء من الطول وكثير من الإمتاع الشعري والإبداع الأدبي)[1] منها:

كَشَفَتْ أَهَاويلُ الدُّجى عَن مَهولةٍ بِجَاريةٍ مَحمْولةٍ حامل بكر [2]

وقصيدة البحتري ومطلعها: [من الطويل]

غَدَوْتَ على آلميْوُنِ صُبحاً وإنَّما غَداآلمركبُ الميمونُ تحْتَ المظَفَر[3]

وقصيدة ابن هانئ الأندلسي، ومنها: [من الطويل]

لك البرُّ والبحرُ العظيم عبابة فسيان اغمارٌ تخاض وبيد [4]

---

(١) الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه: ٤٧٨.
(٢) شرح ديوان صريع الغواني مسلم بن الوليد الأنصاري: ١٠٥ .
(٣) ديوان البحتري: ٢ /٩٨٠ .
(٤) ديوان ابن هانئ الأندلسي: ١٠٢.

في وصف الأسطول الفاطمي الذي أنتصر على أسطول الروم في موقعه بحرية هائلة، (موقعة المجاز) هذا الأسطول الذي أعجز العباب وبث الرعب في قلوب الأعداء مع مدح للخليفة المعز الفاطمي، فإذا ذكر اسم ابن هانئ أو البحتري أو مسلم بن الوليد، فلا يقترن اسم أيٍ منهم بشعر البحرية العربية أو الأندلسية.

أما إذا تناولنا شعر البحرية الإسلامية في الأندلس الذي رافق الأساطيل الضخمة في غزواتها وهي تجوب البحار والمحيطات تؤَمِن الثغور البحرية وتطارد الأعداء وتردع المغامرين في الداخل والخارج فلم يسجل حضوراً سجلته الأغراض المذكورة آنفاً.

إن هذا النوع أو الغرض الشعري لم يكن غرضاً جهادياً عاماً كغرض شعر الجهاد البري الذي يمتلك مساحة أكبر من مساحة شعر الجهاد البحري، ذلك أنه يحتاج إلى مشاركة الشاعر في أحداث صاحبت الأساطيل البحرية بصورة فعلية ليتوافر النص الشعري على الصدق الفني، وليس من السهولة مشاركة الشعراء كلهم الذين نظموا في أغراض الشعر المذكورة آنفاً، لذا نجد من نظم في هذا الغرض شعراء معدودين منهم من كانت له المشاركة الميدانية في المعارك الجهادية البحرية الأندلسية، ومنهم من تأثر بانتصاراتها إيماناً منه بتلك الروح الجهادية، فوصف الأسطول مرة، والسفينة مرة أخرى في أثناء قصيدة المديح. ولم يقتصر هؤلاء على هذا النوع ليقترن اسم كل منهم به.

والحديث عن شعر البحرية الإسلامية في الأندلس يأخذ مسارين، الأول: الحديث عن شعر البحرية العربية، وكان موضوع دراستنا في الفصل الأول.[1]، أما الآخر فهو ولادة هذا النوع من الشعر، وأعني بالولادة هنا ؛ ظهور هذا النوع الشعري في

---

[1] ينظر: الفصل الأول، المبحث الرابع.

الأندلس، ولأن عهد الولاة سنة (٩٢- ١١٣ هـ) لم يخلف لنا آثاراً تدل على الحياة الفكرية.[١] لانشغال العرب المسلمين في تثبيت كيانهم والاستمرار في الفتوحات وردع العدوان، فضلاً عن إتكائهم على عدوة المغرب في سلاح البحرية. وكان عهد الأمارة الأموية قد أوجد اتجاهاً جديداً في الحياة الأندلسية وعد مدخلاً لحياة الاستقرار (ذلك أن العلم والأدب يحتاجان إلى الأرض، وحيث لا أرض فلا استقرار، وحيث لا استقرار فلا تأمل وحيث لا تأمل فلا ميثولوجيا ولا خيال ولا تفكير عميق)[٢].

وعلى الرغم من انشغال عهد الأمارة الأموية (١٣٨- ٤٢٢هـ) بالفتوحات ومقاومة الأسبان وإخماد الفتن والمنازعات الداخلية إلا أن الدولة بلغت (غاية كبيرة من الحضارة وخطب ودها ملوك الغرب وأصبحت قرطبة قبلة الملوك وكعبة العلماء وملاذ الحضارة والثقافة)[٣] فإن حمل طارق بن زياد في الفتح روح الإسلام لنشرها في الأندلس فقد (حمل العرب الأولون كما حمل الداخل ورجاله هذا الشعر المشرقي إلى الأندلس، حيث كانت الحاجة ماسة لبعث حياة فكرية تتجاوب مع اهتمام العباسيين بالأدب والشعر)[٤].

إلا أن الاهتمام بالقوة البحرية في الأندلس تأخر حتى تعرض المسلمون إلى نكبة (بلاط الشهداء) وبعدها إلى غزو النورمانديين وما حل بالمسلمين من رعب وخراب ودمار عندها ألتفت الأمير عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦ – ٢٣٨ هـ) إلى الاهتمام بأمر الأسطول والتحصينات البحرية فابتنى (حول أشبيلية سوراً ضخماً وأنشأ داراً عظيمة للصناعة، وأهتم بصناعة السفن الحربية الكبيرة وحشد لها المقاتلة من

(١) القطوف اليانعة من ثمار جنة الأندلس الإسلامي الدانية، عبد اللـه أنيس الطباع: ٢٤ ط١، دار ابن زيدون، بيروت ١٩٨٦.

(٢) القطوف اليانعة من ثمار جنة الأندلس: ٢٤.

(٣) تاريخ ملوك العرب الشعراء، علي المصري، ٥: ٣٤ ط١، ٢٠٠١ دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠١.

(٤) القطوف اليانعة من ثمار جنة الأندلس: ٢٥.

شواطئ الأندلس فكانت نواة الأسطول الأندلسي الكبير الذي بلغ في عهد عبد الرحمن الناصر [٣٠٠ - ٣٥٠ هـ] زهاء مائتي سفينة)[١] وقد فرضت طبيعة الأندلس الجغرافية هذا الاهتمام بالأسطول دفاعاً عن الثغور وصد هجمات الفرنج، وقد رسم هذه الطبيعة الشاعر ابن سفر المريني يقول: [من البسيط]

في أرض أندلسٍ تلتذ نعماء ... ولا يفارق فيها القلب سراءُ [٢]
قد ميزت من جهات الأرض حيث ... بدت فريدة وتولى ميزها الماء
دارت عليها نطاقاً أبحرٌ خفقتْ ... وجدا بها إذ تبدت وهي حسناءُ

وفي عهد الأمير الخامس محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨- ٢٧٣ هـ) الذي ((له في العدو وقيعة وادي سليط(وهي من أمهات * الوقائع لم يعرف مثلها في الأندلس مثلها)) [٣]
وفيها يقول الشاعر عباس بن فرناس**: [من الطويل]

ومختلف الأصوات مؤتلف الزحف ... لهوم الفلا عبل القنابل ملتف [٤]

فقد أعد دفاعاً بحرياً لصيد غارة النورمانديين إذ كان يتوقع هجومهم للمرة الثانية بعد وفاة أبيه فآتخذ أهبته لصد غارتهم بسياج ضخم من الوحدات الحربية

---

(١) دولة الإسلام في الأندلس، مج١: ١/٢٦٤ – ٢٦٦.
(٢) نفح الطيب:١ /٢٠٢، ط١، ١٩٩٥.
* والصحيح (أمات).
(٣) تاريخ ملوك العرب الشعراء: ٣٤/٥، ط١، ٢٠٠١.
** بربري الأصل من موالي بني أمية شاعر مشهور في أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن، سمي بحكيم الأندلس، حاول الطيران بجسمه. ينظر: معجم الحضارة الأندلسية: ٤١.
(٤) البيان المغرب في أخبار المغرب، الأندلس ، لابن عذارى المراكشي:١٦٦/٢- ١٦٨، بيروت- لبنان، ط٢، ١٩٧٤.

البحرية، ويذكر أنه أنشأ في البحر سبعمائة غراب وإن جيش المسلمين إنتهى في أيامه إلى مئة ألف فارس [1].

وللشاعر محمد بن شخيص* في هذا الأسطول مهنئاً الأمير الحكم بن عبد الرحمن الناصر، الملقب (بالمستنصر((٣٦٠ هـ) يقول: [من الطويل]

أساطيل هن الموت أو في طباعه   لإيقاعها بطشاً وإتباعها رسلا [2]

وفي عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم (عبد الرحمن الأوسط((٢٠٦-٢٣٨هـ)، كان ظهور السفينة العربية في الأندلس، وجاء في كتاب ترصيع الأخبار، من قادة الأساطيل عبد الرحمن بن رماحس، وغالب بن عبد الرحمن، والقاسم بن عبد الرحمن، وابن جرير، ومحمد بن حمدين،وعبد الرحمن بن رويش،وأفلح العبد وغيرهم [3]

وأورد ذكر السفن الحربية وبعض أنواعها، يقول: ((وفي سنة ثمان وعشرين وثلثمائة، نظر محمد بن رماحس في حربيَّيْن... وركب منها في عشرة مراكب حربية وهذين المركبين الواصلين من المرية وأربعة شواني وفتاشين... وغزا محمد بن

---

(1) تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس: ٦٣.

* أبو عبد الله محمد بن شخيص، كان من أعيان الشعر المشهورين في أيام المظفر بن أبي عامر، توفي (٤٠٠هـ). ينظر: معجم الحضارة الأندلسية، د. يوسف عيد، ود.يوسف فرحات: ٢٥، دار الفكر العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٠.

(2) المقتبس في أخبار بلد الأندلس، لابن حيان، تح: عبد الرحمن الحجي: ٦١، دار الثقافة، بيروت- لبنان، ط١، ١٩٨٣.

(3) ينظر: ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، للعذري المعروف بالدلائي، تح: د. عبد العزيز الاهواني: ٨٢، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية .

رماحس في سنة إحدى وثلاثين وثلثمائة إلى إفرنجة مع غالب بن عبد الرحمن وسهل بن أسيد في ثلاثين مركباً حربياً وستة شواني)) [١].

في الوقت الذي ظهر للسفينة الحربية في الأندلس وجودٌ يذكر سجل شعر البحرية الإسلامية انتصارات العرب المسلمين وهم يحملون راية الإسلام لبناء مجد لم تستطع أية قوة أن تناله خلوداً على مدى ثمانية قرون عاشها علماً في أرض أسبانيا وأوروبا ويعيشها إرثاً حضارياً في بطون أمات الكتب وفي عقول العرب والمسلمين والأوربيين على السواء، لقد عاشت البحرية الأندلسية في أحضان الشعر، وعاش شعر البحرية الأندلسية على قلة ما وردنا منه قياساً بالنتاج الشعري الأندلسي، ليس صورة تاريخية يعني تسجيل حدث السفينة في سجل الشعر، وليس صورة وكلمة في سجل التاريخ، بل هو صورة شعر أوحت به عاطفة صادقة وإحساس مرهف، وصدى لبيئة جديدة وأصالة في الخلق والإبداع، وهنا نلحظ الشاعر يحيى بن الحكم الغزال وهو يحرص على تأليف مجموعة من العناصر المختزنة في عقله في صورة مبتكرة يحقق معها نصاً شعرياً له كيان خاص أودع ذاته فجاء إبداعاً في وصفه لسفينته العسكرية في سفارته إلى بلاد الافرنج التي، جاءت بعد هزيمة أسطول النورمانديين [٢] على أشبيلية وبناءً على طلبهم الصلح مع الأمير عبد الرحمن الأوسط، يقول: [من الطويل]

---

(١) ترصيع الأخبار وتنويع الآثار: ٨١- ٨٣.

(٢) كان النورمان أمة بحرية عريقة ماهرة فيما يتصل بالبحرية وفنونها، وإذا كان قد أشيد بالعرب في مهارتهم في كل ما يتعلق بالخيل وركوبها كما وصفهم الشاعر بقوله:

فكأنَّما وُلِدت قياماً تحتهم ... وكأنَّهم ولدوا على صهواتها

فإن هؤلاء النورمان في مهارتهم البحرية وكأنهم ولدوا وترعرعوا في سفنهم الطويلة ذات الأشرعة السوداء والمجاذيف الخفيفة، لم يستطع الأندلسيون ردَّهم إلا بعد مدة وتضحيات.
(أندلسيات عبد الرحمن علي الحجي: ٦٨،دار الارشاد والطباعة والنشر، ط١ بيروت ١٩٦٩).

ولــبس كثــوب القـــس جبـــت ســـواده   عـــلى ظهـــر غربيـــب القمـــيص نـــآد [(١)]

لـــه ظلـــمات بعـــضها فـــوق بعـــضها   دآدئ موصــــــــول بهــــــــن دادي [*]

إنه نص في البحر، لكنك لا تجد للبحر ذكـراً، يفخـر الـشاعر بركـوب البحـر بـصور آجتماعية، أفاد بعضها من القرآن الكريم وهو نص يخلو من الصور البيانية فـيما عـدا الـصور الإخبارية. وفي أسـطول المنـصور بـن أبي عـامر** (٣٢٦-٣٩٢هــ)، يقـول ابـن دراج*** (٣٤٧-٤٢١هـ): [(٢)]   [من البسيط]

بحـرٌ سفـائنـه غـر مسومـة   والبيض والبيض والرايات من زبده[(٣)]

وقد ذكرنا اهتمام مجاهد العامري (٤٠١ – ٤٠٥هـ) بالاسطول، وتجديـد دار صـناعة السفن [(٤)] ثم نصل إلى دولة الموحدين حيث ورثوا أسطول الدولة المرابطية.

---

(١) ديوان يحيى بن الحكم الغزال، تح: محمد صادق البنداق: ١٨٧، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٩٧٩.

* لبس: اختلاط الظلام، الغريب: الأسود، ويعني به هنا السفينة، والمنآد: الداهية، الدآدي: الليالي الثلاث الأخـيرة من الشهر.

** المنصور بن أبي عامر، هو محمد بن عبد اللـه الملقب بالمنصور بن أبي عامر، كان وصياً عـلى (المؤيـد(هـشام الثاني بن الحكم الثاني بن عبد الرحمن الناصر، اسـتطاع أن يـصل بالأنـدلس إلى أوج قوتهـا وعظمتهـا، مـات عنـد منصرفه من غزواته الخمسين سنة (٣٩٣هـ). ينظر: تاريخ ملوك العرب الشعراء: ١١١/٥، ١١٣.

*** هو أبو عمر بن محمد بن العاصي بن دراج الأندلسي القسطلي نـسبة إلى مدينـة قـسطلة، وهـو مـن شـعراء الفتنة نال حظوة لدى المنصور بن أبي عامر، توفي في دانيه (٤٢١هـ) ينظر: معجم الحضارة الأندلسية: ١٨.

(٢) ديوان ابن دراج: ١٢٢ .

(٣) المعجم الوسيط: ٧٨/١. والبيض هنا: الكتيبة البيضاء التي عليها بياض الحديد، والبيض: جمـع البيـضة وهـي الخَوذة .

(٤) في التمهيد

وعلى الرغم من تقهقر دولة الموحدين إلا أننا نلحظ من خلال نص الشاعر ابن سهل الأندلسي* (٦٤٩ هـ) قوة أسطول الجزر الشرقية يقول في مدح الأمير:

[من الكامل]

يـــا بحـــرُ جـــاوزت البحـــارَ لعلـــةٍ حـــازت لهـــا الفخـــر الميـــاه عـــلى الـثرى [١]

وأعطانا أبو الفضل العمري وصفاً دقيقاً لأسطول غرناطة يقول (بالبلاد البحرية أسطول حراريق للغزو في البحر الشامي يركبها الانجاد من الرماة والمغاوير والرؤساء المهرة فيقاتلون العدو على ظهر البحر، وهم الظافرون في الغالب، ويغيرون على بلاد النصارى بالساحل أو بقرب الساحل)[٢].

أما سفن غرناطة فيصفها ابن الخطيب (٧٧٦هـ) في الوقعية البحرية بالروم عام (٧٤٠ هـ) يقول: [من الكامل]

تلـــك الجـــواري المنـــشآت صـــداقها مهـــج العـــدا وخلـــوفهن مـــن الـــدم [٣]

ويمدح ابن الخطيب قائد البحرية في غرناطة، يقول: [من الكامل]

ارفـــع قـــسي المنـــشآت بـــسعده واســـتنجز النـــصر العزيـــز لوعـــده
يستبـــشر الاســـطول منـــه بقائـــد كالبـــدر تحـــت شراعـــه أو بنـــده [٤]

---

* ترجمته في ص

(١) ديوان ابن سهل الأندلسي، تح: د. احسان عباس: ١٣٤، دار صادر، بيروت، ١٩٨٠.

(٢) تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس: ٣٠٣.

(٣) ديوان لسان الدين بن الخطيب، السلماني، تح: د. محمد مفتاح: ٥٣٨، دار الثقافة والنشر، ١٩٨٩. الخلوف: اللعاب

(٤) نفاضة الجراب: ١٩٤ (البند: العلم الكبير. المعجم الوسيط ١: ٧٠).

والبحـــــر يفخـــــر منــــه يـــــوم ولاده بملنــــده آبــــن ملنــــده آبــــن ملنــــده [(١)]

أما ابن زمرك* فيرى أن الاعلام الحمراء التي تخفق على السفن هـي شـعار أسـطول غرناطة في مدحة لمحمد الغني بالله، يقول: [من البسيط]

أعلامــك الحمــر فــوق الــسفن خافقــةٌ وريــح سـعدك تجريهـا عـلى قــدرِ [(٢)]

ولأبي عبد الـلـه محمد بن يحيى بن غالب لوحة في وصف أسطول غرناطة منها:

[من الكامل]

بعثـــــت لتـــــأمين البحــــور جنودهــــا بهـــا أمنـــت كـــالبر منهـــا بحورهـــا [(٣)]

أما تأثر شعر البحرية الأندلسية بشعر البحرية في الشرق، فأقول ؛ فمن يقلـد مـن ؟ فالذين دخلوا مع عبد الرحمن الداخل ومن قبله الذين دخلوا أيام الفتح مع طارق بـن زيـاد هم المجاهدون وكانوا شعراء أو من متذوقي الشعر، وكما يذكر د. ميشيال عاصي (وحين نـزل العرب في الأندلس كان بينهم ولا ريب، مجاهـدون شـعراء وكـان بيـنهم مـن يتـذوق الـشعر ويطرب له ويتأثر به، وكان هذا الشعر صورة عن شعر

---

(١) أورد ابن الخطيب في كتاب (نفاضة الجراب في غلالة الاغتراب تفسيراً لمعنى الشطر الثاني من البيت المذكور، والأبيات في تهنئة قائد الأسطول أبي القاسم بن ينج بطلوع ولده فقد جاء في مقدمـة هـذه الأبيـات رسـالة نثريـة للقائد المذكور يقول فيها: (....وأقرَّ عينيك منه بالقائد ابن القائد ابن القائد(نفاضة الجراب: ١٩٣ – ١٩٤.

* هو أبو عبد الـلـه محمد بن يوسف بن أحمد الصريحي، شاعر وكاتب معروف، ومن مشاهير رجال الـسياسة في مملكة بني الأحمر، قُتل مع أبنائه سنة (٧٩٧هـ)، برع في الموشحات، له أبيات شـعرية منقوشـة عـلى جـدران قصر الحمراء. ينظر: معجم الحضارة الأندلسية: ١٩٢-١٩٣.

(٢) ديوان ابن زمرك الأندلسي، تح، د. محمد توفيق النيفر: ٤٢٢، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٧.

(٣) الكتيبة الكامنة في من لقيناه من شعراء المئة الثامنة، لسان الدين ابن الخطيب، تح: د. احسان عباس: ١٠٣، دار الثقافة، بيروت - لبنان، ١٩٦٣.

المشرق في ظل الدولة المروانية آنذاك أو يشبهه إلى حد بعيد جداً)[1] نعم، هو صورة عن شعر المشرق في ظل الدولة العربية في أنواعه وأغراضه وأساليبه.

أما ما ذهب إليه عباس محمود العقاد في وصفه للأدب الأندلسي ؛ بأنه أدب تقليدي محض لم توحي به عاطفة ولم ينبض به إحساس وإنما أهَّلَهُ عالة على المشارقة فيما يقولون وما يفعلون فما هم بشيء إلا صدى لآثار المشرق وآدابه وأبواق تتجاوب فيها الأصوات المنبثقة من الشام أو العراق فلا ملكة ولا وجدان ولا مواهب ولا أستقلال [2] فلنا فيه رأي نعرضه لاحقاً.

وأما إشارة د. شوقي ضيف إلى الأدب الأندلسي، بقوله: (أن الأندلس كانت تستمد نهضتها وحياتها من بغداد... بل غرقت إلى آذانها في الثقافة العربية العامة التي نهضت بها بغداد([3] فيذهب عبد الله أنيس الطباع إلى أنه: (لا نستطيع أن نقرر بأن الأندلس العربي كان مقلداً في حياته الفكرية جميعاً للشرق العربي)[4] وهذا تأكيد أن الشعر الأندلسي في حياته الأولى كان من صميم الشعر العربي في المشرق، أو بعبارة أكثر دقة ؛ هو شعر عربي شرقي نظم في الأندلس، لأن ناظميه هم الفاتحون أو أبناء الفاتحين.

أما ما ذهب إليه عباس محمود العقاد في وصفه الأدب الأندلسي بأنه أدب تقليدي محض، فحقاً قد أجابه مصطفى صادق الرافعي، يقول ((لقد يخطئ من يزعم

---

(1) الشعر والبيئة في الأندلس، د. ميشيال عاصي: ٥١، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٧٠.

(2) يذكر الدكتور محمد كامل الفقي في توثيق (رأي العقاد)، يقول: (من مقال له((في الأدب الأندلسي: هامش ص ٤٠) ويذكر ما ذهب إليه العقاد، د. عبد المنعم خفاجة في (الأدب العربي في الأندلس ١٠٥/٢).

(3) الفن ومذاهبه في الشعر العربي، شوقي ضيف: ٤١٢، ط١٣، دار المعارف بمصر: ٢٠٠٤.

(4) ينظر: القطوف اليانعة من ثمار الأندلس الإسلامي: ٢٥.

أن شعر الأندلسيين يغيب في سواد غيره من شعر الأقاليم الأخرى، كالعراق والشام والحجاز... وذلك زعم من لا يعرف الشعر إلا بأوزانه ولا يميز غير ظاهره))[١].

وأرى أن د. أحمد هيكل، قد رد عليه أيضاً بقوله: ((وقبل أن نأخذ في الحديث عن السمات الخاصة للشعر الأندلسي المحافظ نوضح مسألة يغيب فيها الحق عن كثير من الباحثين، حيث يظنون أن سير الأندلسيين على النهج المحافظ في الشعر كان دائماً بدافع التقليد ولم يكن له ما يقتضيه من حياة الأندلسيين))[٢] ويسوغ ذلك بأن سير الأندلسيين كان له ما يسوغه من واقع الأندلسيين وظروفهم ذلك أن تلك الظروف كانت تتطلب الموضوعات التقليدية التي عُرف بها الشعر المحافظ في الفخر والحماسة والمدح والغزل، وهكذا فإن باقي أغراض الشعر التقليدية التي نظم فيها شعراء الأندلس يمكن عدها من متقضيات واقع الأندلس وظروفهم[٣].

ويسوغ الاستاذ غرسيا غومس أتجاه الشعر الأندلسي الذي جاء منسجماً والتراث العربي في المشرق، فيقول ؛ إذا أنشد الأندلسي شعراً يتغنى فيه بأشياء مشرقية أو بدوية ((فإنه يأخذ عناصر شعره في هذه الحالة من جوانب نفسه ومن طبيعة جنسه، لأن هذه العناصر مقتبسة من عالم قومه المثالي أو الأسطوري ولا يمكن تجريد شعره من هذه العناصر، ولا يمكن أن نحلل هذا الشعر إلى مواده الأولى، ونقول ؛ هذا أخذه من تراث أجداده العرب القدماء، وذلك أبتكره بنفسه أو أستوحى فيه طبيعة الأندلس لأن العنصرين متداخلان متشابكان تشابك اللحمة مع السدى))[٤].

---

[١] تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي: ٢٩٦/٣، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ط٢، ١٩٧٤.
[٢] الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة، د. أحمد هيكل: ٨٤، ط١٣، دار المعارف بمصر ٢٠٠١.
[٣] ينظر، المصدر السابق: ٨٥.
[٤] الشعر الأندلسي، غرسياغوس: ٢٨.

وأرى في الصورة التي رسمها الشاعر عاصم بن زيد أبو المخشي* (٦٥٨هـ) بعيدة عن التقليد المحض بوصفه الليل ومعاناته مبتعداً عن الصورة التي رسمها أمرؤ القيس، يقول:

[من الوافر]

وهـــم ضـــافني في جـــوف ليـــلٍ ... كـــلا مـــوجيهما عنـــدي كبـــيرُ [(١)]
فبنـــا والقلـــوب معلقـــاتٍ ... وأجنحـــة الريـــاح بنـــا تطـــيرُ

فالليل عند الشاعر الأندلسي بحر كبير ذو موج متلاطم في جوفه همٌّ ثقيل وبين هذين الموجين تبقى القلوب معلقة من الخوف وهذه الصورة أكثر إبداعاً من بيتي امرؤ القيس:

[من الطويل]

وليـــل كمـــوج البحـــر أرخـــى ســـدوله ... عـــليَّ بـــأنواع الهمـــوم ليبـــتلي [(٢)]
فقلـــت لـــه لمـــا تمطـــى بجـــوره ... وأردف أعجـــازاً ونـــاء بكلكـــل

ويؤكد ما ذكرناه في نفي التقليد المحض عن الشعر الأندلسي، ما ذهب إليه د. عبد العزيز عتيق، يقول: (وإن كانوا قد نظموا الشعر في فنونه [المتعارفة] من مدح

---

* هو عاصم بن زيد بن يحيى التميمي، والد الشاعرة حسانة التميمية، دخل أبوه الأندلس مع جند دمشق، كان جسوراً، قطع لسانه هشام بن عبد الملك أمير الأندلس. ينظر: معجم الحضارة الأندلسية: ٢٧.

(١) المغرب في حلىالمغرب، لأبن سعيد المغربي: ٢: ١٢٤ ط٤ ت: شوقي ضيف، دار المعارف بمصر.

(٢) جمهرة أشعار العرب، لأبي زيد القرشي، تح: الأستاذ خليل شرف الدين: ١٦٦/١، مكتبة الهلال، بيروت، ط٢، ١٩٩١. وجاء في شرح المعلقات للزوزني (بصلبه(: ١٠٧.

ورثاء وغزل وما أشبه فليس ذلك في حقيقته تقليداً ففنون القول هي هي في كل زمان ومكان([1]).

أما الدكتور محمد كامل الفقي فلا يرى في التقليد والمتابعة في المحيط الأدبي العربي جديداً ولا بدعاً، يقول: (والحق أن تقليد الشعراء بعضهم لبعض وأخذ لاحق منهم عن سابق، ليس مظهراً خاصاً بما بين الأندلسيين والمشارقة([2]) ويرى الكاتب (أن التقليد والمتابعة في المحيط الأدبي العربي ليس جديداً ولا بدعاً، وهو كذلك ليس عيباً يزري بالمتأخر ويغض من قدره ما دام له مع الأخذ تصرف)[3].

وبعد هذا العرض أستطيع القول أن الشعر الأندلسي امتداد طبيعي للشعر العربي من حيث الأغراض وقواعد القصيدة العربية في الوزن والقافية عدا الموشحات والأزجال.

أما من حيث الأفكار والموضوعات وتحديداً منذ القرن الثالث الهجري لم يعد الأدب في المشرق العربي يمد الأدب الأندلسي بما يعينه على فهم حقيقة الإنسان فاتجه اتجاهاً جديداً في بناء كيانه نتيجة تفاعله مع الثقافات التي هضمتها تلك البلاد كأدب الفندال والقوط والرومان وعاش أيضاً تاريخ تلك الأرض استقراراً، بعد عاصفة وهدوءاً بعد فتنة [4]، كما ذهب إلى ذلك عبد الله أنيس الطباع محقق كتاب (الحلة السيراء(ويضيف الكاتب وهكذا قدر للأدب الأندلسي أن يكوّن شخصيته منذ القرن الرابع للهجرة، ولو سلمنا جدلاً أن الشعر الأندلسي من أعماق الشعر في المشرق وأنه قلد

---

(1) الأدب العربي في الأندلس، د. عبد العزيز عتيق: ١٦٥، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٦.

(2) في الأدب الأندلسي، الفقي: ٣٢.

(3) المصدر نفسه: ٣٢.

(4) ينظر: الحلة السيراء، لابن الابار، تح: عبد الله أنيس الطباع: ٥٠٧.

أعلامه في الجزيرة، ودمشق وبغداد نكون قد أفقدناه خصائص شخصيته المتميزة، واعتبرناه مظهراً أو امتداداً للشعر العربي، وعندئذٍ ليس ثمة من حاجة لدراسة هذا الشعر كلون زاه من ألوان الأدب العربي[1].

وما أسلوب الشعراء في الأندلس والمتأخرين منهم الذي آتسم بالرقة والجمال ورشاقة الألفاظ ولطافة الخيال، الذي لم يعد مقصوراً على الأسلوب القديم إلا لظهور التجديدات في شعر المشرق على يدي كل من أبي نواس، وأبي العتاهية، وأبي تمام، والبحتري وغيرهم، فالثقافة واحدة ما زالت اللغة مشتركة والخلق والإبداع ما زال متأثراً بشعر العرب الأوائل لذا جاء الشعر الأندلسي بعد حين يتهادى بين الرقة والجزالة، يقول عبد الجليل بن وهبون (٤٨٤ هـ): [من الطويل]

رقيقٌ كما غنت حمامة أيكةٍ وجزلٌ كما شق الهواء عقاب [2]

فإن ألتقط كثيرٌ من شعراء الأندلس صور البداوة وتشبيهاتها ينم من مدى إتصال الشعر الأندلسي بالتراث الإنساني للعرب الذي أستمر طيلة وجود العرب في الأندلس، وإن نهل المغاربة من القرآن الكريم فهذا ليس تقليداً بقدر ما هو تقديس لكتاب الله تعالى.

وبراعة شعراء معارك الجهاد البحرية ليس تقليداً بقدر ما كان توظيفاً لأكبر قدر ممكن من السوابق الأدبية والفنية بطريقة مقتدرة، وأرى أنه ليس اقتدار ألأندلسي لوحده، على الرغم من القرون التي صاغته عربياً، فكراً وأسلوباً وأبداعاً

---

(١) ينظر: المصدر نفسه: ٥٠٦.

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لأبي الحسن علي بن بسام، تح: د. إحسان عباس، ق١ مج١: ١٤، بيروت.

فنياً، وإنما هو اقتدار العربي الذي لبث في الأندلس قروناً آخذاً بأيدي جيل شعراء الأندلس إلى مصاف شعراء المشرق.

ويرى الرافعي أن الشاعر الأندلسي انماز بمعانٍ مبتكرة أوحت بها حضارة الأندلس وتصرف في أدق فنون القول وأختيار الألفاظ وأبدعها في جمل وعبارات كأنها التوقيع الموسيقي، ولا يشاركهم في ذلك إلا من ينزع منزعهم ويتكلف أسلوبهم [١].

ويرى أن جزالة ألفاظهم هي (روعة موقعة.... وتلك هي فلسفة الجزالة ومن أجل ذلك أحكموا التشبيه وبرعوا في الوصف([٢].

على أن ما ذكرناه من آراء في موضوعة تقليد الشعر الأندلسي لشعر المشرق لا ينفصل عنه شعر البحرية الأندلسية لعدِّه ظاهرة شعرية ألبسها الأندلسيون ثوباً جديداً. بفعل البيئة وظروف المعارك الجهادية البحرية التي خاضها مسلمو الأندلس وجهاً لوجه أمام عدو له تجربة طويلة في ركوب البحر، بعد أن صار البحر ساحة قتال والأسطول البحري والسفن الحربية أدوات هذا القتال.

ومن الدلائل المهمة على نفي التقليد يذهب د. أحمد عبد القادر صلاحية إلى أن ((موضوع بحر الوجود في الخيال البحري الأندلسي يجدر القول بأنه ليس ثمة في الخيال البحري المشرقي وصف لبحر الوجود أو مجرد ذكر، وهذا أحد الدلائل المهمة على نفي كون الشعر الأندلسي مجرد تقليد للشعر المشرقي بل يتميز منه في الموضوعات - أيضاً- زيادة على الخيال والصور)) [٣].

---

[١] ينظر، تاريخ آداب العرب: ٣١١/٣.

[٢] المصدر نفسه : ٣١١/٣.

[٣] الحياة في الخيال البحري الأندلسي، د. أحمد عبد القادر صلاحية: ٥٦، مجلة الموقف الأدبي العدد ٣١٧-٣١٨ أيلول، تشرين الأول ١٩٩٧، مجلة أدبية شهرية يصدرها اتحاد الكتاب العرب بدمشق.

وأرى أن ما ذهب إليه د. أحمد عبد القادر صلاحية هو أن للأندلسيين وبعد عقود استطاعوا أن يخلقوا لهم شخصية متميزة، وكانت لهم خصوصية في الثقافة والأدب، وهذا ما أكده د. طه عبد المقصود عبد الحميد، يقول: ظلَّ الإعجاب بالمشرق إلى آخر عهد المسلمين بالأندلس، لكن هذا كله كان يطوي شعوراً غامضاً أحياناً، وبارزاً أحياناً بتفوق الأندلسيين، فهم بدأوا أولاً بالمجاراة للمشرق، ثم اتجهوا إلى محاولة تحقيق التفوق والتميز ببعض الخصائص، وكانت تلك ظاهرة نمت مع الزمن وهي ما يمكن أن يطلق عليه (بالأندلسية(أو (الشخصية الأندلسية)[1] ، وهذا ما ذهبتُ إليه في موضوع دراستنا لشعر البحرية الإسلامية في الأندلس بوصفه غرضاً واتجاهات ومعانٍ، وقد حسم (التناص) الأمر هذا.

---

[1] ينظر: الحضارة الإسلامية، دراسة في تاريخ العلوم الإسلامية، د. طه عبد المقصود عبد الحميد أبو عيبة، ٦٨١/٢، دار الكتب العلمية، بيروت، دمشق ، ط١، ٢٠٠٤.

المبحث الثاني

البحرية الإسلامية في الشعر الأندلسي منذ الفتح

حتى سقوط عهد الطوائف ٩٣ – ٥٣٦ هـ - ٧١١ – ١١٤١م

إن شعر هذه المرحلة بحسب التقسيمات السياسية يضم ثلاثة عصور، وذلك لصالح الدرس الأدبي موضوع بحثنا [١].

والعصور هي: عصر الولاة، الذي يبدأ بالفتح الإسلامي سنة (٩٣هـ -٧١٢م) وينتهي بقيام دولة بني أمية (٤٢٢هـ - ١٠٣١م)، وعصر الطوائف الذي يبدأ بسقوط الدولة الأموية وينتهي باستيلاء المرابطين على الأندلس بقيادة يوسف بن تاشفين[٢].

إلا أن الدولة الهودية في سرقسطة – آخر دول الطوائف – استمرت حتى سنة (٥٣٦هـ) وهي دولة عربية أشهر ملوكها المقتدر وأبنه المؤتمن [٣].

إن الدور الذي أسهمت به البحرية الإسلامية الأندلسية في المعارك الجهادية منذ الفتح حتى سقوط غرناطة، كان على جانب كبير من الأهمية، للمكانة التي تحتلها الأساطيل في دول البحار لأنها تعد (سياج الدولة وعمادها، وبه عزها، وعليه بعد الله اعتمادها، بل هو درعهما... وسلاحها الذي تطول به البحر وتصول... وإن دولة لم تعن العناية كلها بالأساطيل، وترسلها على متن هذا البحر طيراً أبابيل هي

---

(١) ينظر، التمهيد، ص   وفيه سبب قلة النصوص الشعرية في القرنين الأول والثاني، وهذا ما دعاني إلى ضم ثلاثة عصور في مرحلة واحدة من مراحل البحث.

(٢) ينظر: الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة، ٢٨.

(٣) في الأدب الأندلسي، د. جودت الركابي: ٢٣، دار المعارف بمصر ١٩٦٠.

لعمري دولة مقصوصة الجناح)[١]، لذا فإن أول عهد البحرية الأندلسية كان في عهد عبد الرحمن الأوسط [٢] إلا أن مؤسس البحرية الأندلسية هو عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠هـ) [٣].

وقد أنشأ أسطولاً زاحم به أسطول الفاطميين، وللشاعر إسماعيل بن بدر* في أسطوله في إحدى غزواته (٣٠١هـ) قصيدة وهي إشارة واضحة على إهتمام الناصر بضبط البحر وساحله إذ يقول: [من الوافر]

عـدمت البـين أرق طـرف عيني — وفـرق بـين مـن أهـوى وبيني [٤]
لقـد حلـت حميـا الـراح عنـدي — وطابـت بعـد فتحـك معقلـينِ
وهـذا البحـر يـذكر منـك عهـداً — سـقى مغنـاه نـوء المـرزمين
تحـن إليـك منـه طاميـاتٌ — مـن الأمـواج مـلء الخـافقين
لـئن جاشـت غواربهـا بمـاء — أجـاج لا يـسوغ لـلواردين
فأنـت البحـر عـذباً مـستهلاً — علينـا بالنـضار وبـاللجين

(١) حضارة العرب في الأندلس: عبد الرحمن البرقوقي: ٣٢، المكتبة اللتجارية، مصر، ١٩٢٣.
(٢) هو محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ولي الحكم بعد أبيه وحكم أربعاً وثلاثين سنة (٢٠٦ - ٢٧٣هـ)(تاريخ ملوك العرب الشعراء ٥/ ٩٠).
(٣) هو عبد الرحمن الثالث بن محمد، الملقب بالناصر، أول من تلقب بالخلافة من رجال الدولة الأموية في الأندلس، ولقب بأمير المؤمنين، الناصر لدين الله، حكم خمسين سنة وستة أشهر (تاريخ ملوك العرب الشعراء ٥: ٩٩).
* هو اسماعيل بن بدر بن إسماعيل بن زياد بن أبي بكر، ولي إشبيلية في عهد الناصر عبد الرحمن بن محمد (٣٠٠-٣٥٠ هـ)، غلبت عليه صناعة الشعر. ينظر: كتاب الحلة السيراء، تح: عبد أنيس الطباع: ٢٧٦-٢٧٧.
(٤) أخبار مجموعة في فتح الأندلس، مجهول، تح: إبراهيم الايباري: ١٤٢، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، ط٢، ١٩٨٩.

يذكر الشاعر في البيت الثاني ما قرره أمير المؤمنين في غزاته الثانية ((ألا يأنس بمنادمة حتى يفتتح معقلاً، فافتتح معقلين من معاقل ابن حفصون فكتب إليه بهذا الشعر)) [(١)]. وأنشد بعض الأدباء لعبد الله بن يعقوب الأنصاري من قصيدة في مدح الخليفة الناصر، يقول: [من الكامل]

فركبت بكراً حاملاً قد أثقلت وشققت بحراً زاخراً ببحور [(٢)]

فحللت [من] تدمير صاحب نعمةٍ فذهبت في تدمير بالتدمير [(٣)]

في استعراض شعر البحرية الأندلسية منذ الفتح وحتى سقوط عهد الطوائف، ثم تشخيص الاتجاهات التي نظم فيها الشعراء في هذا الغرض، الذي لم ينتظم بقصائد مستقلة وإنما جاء الشعر فيه في أثناء قصائد المديح أو الرثاء أو الاستنجاد، إلا بعض المقطعات. والاتجاهات رغم عدم خلوها من معانٍ مشتركة إلا نادراً فقد استطعنا أن نوزعها على ما يأتي:

١- **وصف الأسطول:**

شارك في هذا الاتجاه شعراء كثيرون منهم ؛ محمد بن شخيص (٤٠٠هـ) وابن مجاهد الاستجي (٣٦٣هـ) وابن هذيل (٣٨٩هـ) وابن دراج القسطلي (٤٢١هـ) وعبد

---

(١) المصدر نفسه: ١٤٢.
(٢) ترصيع الأخبار، للعذري: ١٢٨.
(٣) تدمير: بلدة أندلسية قاعدتها مدينة لورقة، وهي أطيب الأندلس فاكهة، أما اسم تدمير الثانية فهو اسم العلج الذي كان فيها وقد حاصره عبد العزيز بن موسى بن نصير، وقاتله قتالاً شديداً، وأقام بمدينة تدمير رجال من عسكر طارق بن زياد [عند الفتح]. (ينظر، ترصيع الأخبار، للعذري: ١ و ٤).

الجليل بن وهبون (٤٨٤هـ) وابن اللبانة (٥٠٧هـ) وعلي بن محمد الأيادي، وشاعر من بني رواحة [١].

ومن نماذج وصف الأسطول قول الشاعر محمد بن شخيص (٤٠٠هـ) في أسطول الحكم المستنصر [٢] (٣٥٠ - ٣٦٦هـ) الذي أستمر أهتمامه بالأسطول بعد أبيه الناصر يقول: [٣]

[من الطويل]

بسعدك يبلى غالب لا ببأسه	**فأنت ولي الشكر في كل ما أبلى**
وباسمك يغدو أعزل الجيش رامحا	**ولولاك كان الرامحون به عزلا**
رميت به جيش المجوس عنايةً	**بتحصينك التقوى وتأمينك السبلا**
ولما أحاطت بالمحيط جنوده	**فلم تبق من شطيه علواً ولا سغلا**
أساطيل هن الموت أو في طباعهِ	**لإيقاعها بطشاً وإتباعها رسلا**

وفق الشاعر في رسم صورة شعرية، وليس تسجيلاً لصورة تأريخية، تعنى بصورة السفينة أو الأسطول أو البحر في سجل التاريخ فقد مدح المستنصر عن طريق شجاعة قائده وبلائه، ومدحه بقوة جيشه وأظهر قوة الأسطول على النصر وسحق الأعداء بأن جعله هو الموت وذهب أكثر في أن الموت من طباعه.

---

(١) تم اختيار بعض النصوص الشعرية لهؤلاء الشعراء.

(٢) هو الحكم الثاني بن عبد الرحمن الناصر، لقب بالمستنصر تمييزاً له من الحكم الأول، ولد بقرطبة سنة (٣٠٢هـ) وتوفي فيها مفلوجاً بعد حكم دام خمسة عشر عاماً (تاريخ ملوك العرب الشعراء، ٥: ١٠٤).

(٣) المقتبس في أخبار بلد الأندلس: ٦١.

ويرسم ابن دراج القسطلي (٤٢١هـ) صورة للأسطول الأندلسي وهو يحرر الجزر الشرقية، جزر البليار وميورقة ويابسة في مدحةٍ لمجاهد العامري[١] (٤٠٠-٤٣٦هـ). يقول:

[من الطويل]

إلى أي ذكرٍ غير ذكرك أرتاح ... ومن أي بحرٍ بعد بحرك امتاح [٢]
جعلت عليه البر والبحر أسوةً ... ففي البر طيارٌ وفي البحر سباح
بفلكٍ كأفلاك السماء نجومها ... كميٌّ ونبالٌ وشاكٍ ورماح
وغرٌّ إلى الغايات هيمٌ نوازع ... تهيم بها في لجة البحر أشباح
قرعت بها أمواج بحر تركته ... وأمواجه تحت الكلاكل أطلاح
مفاتيح أقفال الفتوح التي نأت ... وأنت بها في طاعة الله فتاح

ولعبد الخليل بن وهبون* (٤٨٠هـ) في وصف الأسطول الأندلسي وهو في أستعراض عسكري، يقول:

[من الكامل]

يا حسنها يوماً شهدت زفافها ... بنت الفضاء إلى الخليج الأزرق [٣]
ورقاء كانت أيكة فتصورت ... لك كيف شئت من الحمام الأورق
حيث الغراب يجر شملة عجبه ... وكأنه من عزةٍ لا ينعق
من كل لابسة الشباب ملاءةً ... حسب اقتدار الصانع المتأنق
شهدت لها الأعيان أن شواهنا ... اسماؤها فتصحفت في المنطق

---

[١] مجاهد العامري، يكنى أبو الجيش ويلقب بالموفق، كان أحد القواد الصقالية في أيام المنصور بن أبي عام، ومن أعظم ملوك الطوائف، توفي (٤٣٦هـ) (هامش الديوان: ٤٠٤، ط٢).

[٢] ديوان ابن دراج: ٤٠٤-٤٠٦.

* هو عبد الجليل بن وهبون المرسي الملقب بـ(الدمعة المرسي) أحد الشعراء المشهورين في عصر ملوك الطوائف، توفي (٤٨٠هـ). ينظر: معجم الحضارة الأندلسية: ٩٨.

[٣] نفح الطيب: ٢٠٧/٥، ط١، ١٩٩٥.

مــــن كـــل نـــاشرةٍ قـــوادم أجـــنح وعـــلى معاطفهـــا وهـــادة ســـوذق
زأرت زئـــير الأســـد وهـــي صـــوامت وزحفـــن زحـــف مواكـــب في مـــأزق

وهنا يصور ابن وهبون الأساطيل في استعراض عسكري وكأنها عرائس بأجمل عدتها تمخر عباب البحر بزهو وفخر، ويصور نوعاً من السفن الشراعية (الغراب) بالاسود، وكأن المجاذف أفاعٍ رقطاء وهو وصف لا يخلو من إبداع وبراعة في وصف عددها وعدتها بتأثير طبيعة الأندلس التي وسعت مجال الوصف وأمدَّت الشاعر بصور حية وقد أظهر براعته بتشبيه المراكب وهي تزأر كالأسود، وقد أعتمد التورية في تسمية الأسطول مرة (حمامة) و مرة (غراب) وأشار إلى براعة صناعتها.

ويرسم الشاعر ابن اللبانة* (٥٠٧هـ) صورة لحملات بحرية جهادية يقوم بها الأسطول الأندلسي من حينٍ لآخر على شواطئ إيطاليا وفرنسا، وقد أرخ الشاعر لهذا الأسطول في مدحة لناصر الدولة: [1] [من الكامل]

بـــشرى بيـــوم المهرجـــان فإنـــه يـــوم عليـــه مـــن آحتفائـــك رونـــق
وعـــلى الخلـــيج كتيبـــة جـــرارة مثـــل الخلـــيج كلاهـــما يتـــدفق
وبنـــو الحـــروب عـــلى الجـــواري التـــي تجـــري كـــما تجـــري الجيـــاد الـــسبق
مـــلأ الكـــماة ظهورهـــا وبطونهـــا فأتـــت كـــما يـــأتي الـــسحاب المغـــدق
عجبـــاً لهـــا ! مـــا خلـــت قبـــل عيانهـــا أن يحمـــل الأســـد الـــضواري زورق
هـــزت مجاذيفـــاً إليـــك كأنهـــا أهـــداب عـــينٍ للرقيـــب تحـــدق

---

* هو أبو بكر محمد بن عيسى اللخمي المعروف بابن اللبانة، كان من شعراء البلاط العبادي، وكان من المفضلين عند المعتمد بن عباد. ينظر: معجم الحضارة الأندلسية: ٦٤.

(١) شعر ابن اللبانة، جمع وتحقيق د. محمد مجيد السعيد: ٧٠، منشورات جامعة البصرة، دار الكتب للطباعة والنشر، ١٩٧٧.

وكأنهـــا أقـــلام كاتـــبِ دولـــةٍ **في عـــرض قرطـــاس تخـــط وتمـــشق**

صورة استعراض الأساطيل البحرية التي غدت تقليداً في حالات السلم والحرب، تمثل عرضاً لقوة الأسطول وقد أحتشدت الصور متلاحقة مترابطة بجمالية فنية تتناسب وروعة العرض العسكري، بتوزيع المقاتلين الأسود، وإن أتصفت بالمبالغة فهي تمثل حالة شعورية حماسية لا بد منها بما تنطوي عليه من دلالات نفسية وشعورية وفكرية وعقلية فيما يتعلق بالجهاد والحرب والحياة الاجتماعية، عمد إلى المحسنات المعنوية واللفظية إذ كنى عند الجنود بالأسد الضواري وعن السفن بـ (بنات الماء) وشبه المجاذيف بأهداب وأقلام وصفحة الماء بقرطاس، وكان موفقاً.

ومن الصور الطريفة للأسطول الأندلسي في جزيرة صقلية، إنّ بعض بني رواحة وكان شاعراً ركب البحر في جماعة فصادفهم أسطول صقلية وأسر فوقف لملك صقلية وأنشد:

[من الطويل]

أيـــا ملكـــاً حالـــت أســـاطيل جيـــشه **فأعظمـــت القـــتلى وأكـــثرت الأسرى**(1)
وأجريتهـــا في لجـــة البحـــر إذ جـــرىٍ **فأســـكرته حريـــاً وأجريتهـــا بحـــرا**
وكنـــا لمـــا تجـــري المقـــادير عـــصبة **ركبنـــا بـــه المـــوج يحفظنـــا ذعـــرا**
وجـــاءت مـــن الأســـطول طـــير مـــسنفة **أحاطـــت بنـــا مـــن كـــل ناحيـــةٍ قـــسرا**
فقمنـــا إليـــه ثـــائرين لدفعـــه **نغالبـــه قهـــراً فعاجلنـــا قهـــرا**
ومـــا بي ســـوى أم عجـــوزٍ وصـــبيةٍ **كزغـــب القطـــا لاتعـــرف الـــصنع والـــضرا**
ولـــو أنهـــم أسرى لكـــانوا بغبطـــةٍ **فإنـــا لـــديكم لا نجـــوع ولا نعـــرى**

---

(1) المكتبة العربية الصقلية، ميخائيل أماري، ١٥٣. مكتبة المثنى، بغداد، ١٨٥٧.

فأطلقه ومن عليه ووهبه آلافاً وزوده وجهزه في مركب إلى أهله، لإبداعه في رسم بطولة أسطوله وشجاعة جنوده أولاً وحسن تخلصه في أظهار معاناة أولاده آخذاً بالمعنى من الحطيئة: [من البسيط]

ماذا تقول لأفراخ بذي مرحٍ ... زغب الحواصل لا ماءٌ ولا شجرُ [(١)]

ومدحه أنه لا يجوع عنده ولا يعرى.

٢- وصف السفن بأنواعها والمجاذيف والأشرعة:

شارك في هذا الاتجاه من شعراء وصف الأسطول وشعراء آخرون، منهم: ابن عبد ربه (٣٢٨هـ) وابن دراج القسطلي (٤٢١هـ) وابن الحداد (٤٨٠هـ) وابن الزقاق (٥٣٠هـ) وابن رشيق (٥٣٣هـ) وأبو بحر بن صفوان (٥٩٨ هـ) وتوزع هذا الاتجاه على محورين:

أ- **وصف السفينة والبحر،** يقول الشاعر ابن عبد ربه [*] (٣٢٨هـ): [من البسيط]

بحرٌ يسيرُ على بحر بجارية ... للبحر حاملة بالبحر تحتمل [(٢)]
كأنها جبل في الماء منتقل ... يا من رأى جبلاً في الماء ينتقل
تحكي العروس تهادى في تأوّدها ... وقد أطافت بها الدايات والخولُ

---

(١) ديوان الحطيئة، تح: أ. نعمان أمين طه: ٢٠٨، نشر مكتبة عيسى البابي الحلبي، (د.ت).

* هو أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه، يعد من رؤوس شعراء الأندلس في القرنين الثالث والرابع، شهرته كاتباً مصنفاً لا تقل عن شهرته شاعراً مقدماً. ينظر: الديوان: ٣-٥.

(٢) ديوان ابن عبد ربه: ١٣٥ .

ينتقل الشاعر من معنى إلى معنى بوجوه بلاغية من التشبيه فالسفينة بحـر وتـسير على بحر وهي تحمل الجود والكرم والشجاعة وهي جبل ينتقل من الماء يتهادى كما تتهـادى أيضاً العروس يحيط بها في يوم زفافها الوصيفات والخدم حيث شبه بها السفن الصغيرة.

أما ابن دراج القسطلي (٤٢١هـ) فعلى الرغم من ضعف البحرية الأندلـسية في عهـد سليمان المستعين بالله [١]، بعد توليته الخلافة (٤٠٣هـ).

إلا أن المشهد يظهر المستعين بالله في وقفة لم يهن فيها ولم يستكن، يقول:

[من الكامل]

شـــهدت لـــك الأعيـــاد أنـــك عيـــدها ... بـــك حـــن موحـــشها وآب بعيـــدها [٢]

وكتائـــــب الإفـــــرنج إذا كادتـــــك في ... أشـــياعها و اللـــــه عنـــك يكيـــدها

بـــــسوابح في لــــج بحـــــر ســـــوابغٍ ... فاضـــت عـــلى الأرض الفـــضاء مـــدودها

ولقـــــد أضـــــافوا نـــــسرها وغرابهـــــا ... وقـــــراهما طاغوتهـــــا وعميـــــدها

شـــــلوٌ لأرمنقورهـــــا* حـــــشرت بـــــه ... للزحـــف ثـــم إلى الجحـــيم حـــشودها

---

(١) هو سليمان بن الحكم الثاني بن عبد الرحمن بن محمد= الملقب بالناصر آخر خلفاء بني أميـة في الأنـدلس، لقب بالمستعين بالله، وتلقب بالظافر بحول اللـه (٣٥٤ - ٤٠٧هــ) (تـاريخ ملـوك العـرب الـشعراء: ١٢١/٥، ط١، ٢٠٠١).

(٢) ديوان ابن دراج: ٥١- ٥٥ .

* يعني بارمنقور: القومس قائد خيل الأفرنج، وتسميه المراجع العربية (ارمنقد(ينظر: هامش الديوان: ٥٥.

أَفاد آبن دراج في صوره ومعانيه من القرآن الكريم **[إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً*وَأَكِيدُ كَيْداً]** [1].

فالله يكيدهم بسوابح في لج بحر سوابغ ويعينه على كيدهم بهذه القوة التي فاضت على الأرض بأنواع السفن للقضاء على سفن الأعداء وإلى جهنم تلك الحشود، لأنهم يكيدون وما كيدهم إلا في ضلال وقد أختار الشاعر كلمة الجحيم لأنها تعطي دلالة أشد وقعاً وإيلاماً للأعداء من النار [2] أو جهنم.

ولابن دراج صورة مغايرة للسفن التي ذكر قوتها وبطشها في النص السابق فالفلك كأنها غربان خائفة يقول مخاطباً خيران العامري(٤١٩ هـ)*: [من الطويل]

إليك شحناً الفلك تهوي كأنها	**وقد ذعرت عن مغرب الشمس غربانُ** [3]
على لجج خضرٍ إذا هبت الصبا	**ترامي بنا فيها ثبيراً وثهلانُ**
موائل ترعى في ذراها موائلاً	**كما عبدت في الجاهلية أوثانُ**
يرددن في الأحشاء حر مصائب	**تزيد ظلاماً ليلها وهي نيرانُ**
إذا غيض ماء البحر منها مددنه	**بدمع عيونٍ يمتريهن أشجانُ**

الرحلة في هذا النص ليست رحلة بحرية حربية وإنما هي رحلة لطلب العطاء والنوال، فأظهر الشاعر الفلك خائفة كأنها غربان تهوي ساعةٍ الغروب، أما ركاب

(1) الطارق: ١٦.
(2) ينظر: أثر القرآن الكريم في الشعر الأندلسي منذ الفتح وحتى سقوط الخلافة: ٢٤٩.
* خيران العامري الصقلبي، كان من جُلَّة فتيان المنصورين أبي عامر، استقل بالمرية سنة ٤٠٥هـ وبقي فيها حتى توفي سنة ٤١٩ هـ هامش الديوان: ٨٦-٨٧، ط١، ١٩٦١.
(3) ديوان ابن دراج القسطلي: ٧٤، ط٢، ١٩٦١.

السفينة فهم ليسوا جنوداً أسوداً وإنما الخوف جعلهم كالأصنام ويصف خوفهم لتربص الأعداء بهم من الداخل ومن الخارج يقول على لسان النسوة في السفينة:

يقلن وموج البحر والهم والدجى	**تموج بنا فيها عيون وآذان**
ألا هل إلى الدنيا معادٌ وهل لنا	**سوى البحر قبرٌأوسوى الماء اكفان**

وقد وفق الشاعر في تصوير حال السفينة ومن فيها، يقول: في هذا الوصف د. أحمد هيكل: ((يصف أهوال الرحلة البحرية ويصور وقع تلك الأهوال على النفس فيجمع إلى الأوصاف الخارجية الانفعالات الداخلية، ويمزج بين الوصف الحسي والوصف النفسي مزجاً فنياً رائعاً)) [١] وإن مخاطبة الشاعر الممدوح بأتخاذ البحر سبيلاً لصلته والبحرية الأندلسية بـ (خيران العامري)، وكانت (المرية(من أهم قواعد الأساطيل البحرية (وأشهر مراسي الأندلس) [٢].

ب- وصف السفن والمجاذيف والأشرعة والمدافع:

لابن هذيل *(٣٨٩هـ) في وصف المدفع يقول: [٣] [من الطويل]

وظنوا بان الرعد والصعق في السما	**فحاق بهم من دونها الصعق والرعد**
غرائب أشكال سما هرمس بها	**مهندمة تأتي الجبال فتنهدُّ**
إلا أنها الدنيا تريك عجائباً	**وما في القوى منها فلا بد أن يبدو**

---

(١) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة: ٣١٦.

(٢) صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار، تح: إ. لافي بروفنسال: ١٨٣، دار الجيل، بيروت – لبنان، ط٢، ١٩٨٨.

* هو أبو بكر يحيى بن هذيل بن الحكم بن عبد الملك القرطبي الكفيف، أديب شاعر مشهور طال عمره، وكُفَ بصره. ينظر: معجم الحضارة الأندلسية: ٢٢.

(٣) تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، د. عبد العزيز سالم، ود. أحمد مختار العبادي: ٣٢١، دار النهضة العربية، بيروت – لبنان، ١٩٦٩.

وفي أسطول المعتصم أمير المرية يقول ابن الحداد** (٤٨٠هـ) في وصف السفينة والشراع والمجذاف وهي تخوض معركة بحرية ضارية خسرها العدو:[من الخفيف]

هــام صرف الــردى بهــام الاعــادي — إن ســمت نحــوهم لهــا أجيــادُ [١]
وتــــراءت بــــشرعها ***كعيــــون — دأبهـــا مثـــل خائفيهـــا ســـهادُ
ذات هـــدبٍ مـــن المجـــاذيف حـــاكٍ — هـــدب بـــاكٍ لدمعـــه اســـعاد
حمـــم فوقهـــا مـــن البـــيض نـــارٌ — كـــل مـــن أرســـلت عليـــه رمـــاد
ومـــن الخـــط في يـــدي كـــل درٍ** — ألـــفٌ خطهـــا عـــلى البحـــرِ صـــاد**

يصور ابن الحداد هذه الحراقة وقد خاضت معركة حقيقية من أعنف المعارك وقد جمع الشاعر هذا الوصف (بين رهبة الحرب ومتعة الشعر حين يجعل من مجاذيفها هدباً ومن رشاش الماء حولها دمعاً)[٢] ويظهر في النص صورة جنود المعتصم وهم متأهبون لأي طارئ واصف المجاذيف في حال سكونها وهي ترسم حرف الألف وفي حال خوضها الماء وهي ترسم حرف الصاد، وتلك المجاذيف يشبهها بأهداب باكٍ لتعلق قطرات الماء في حال ارتفاعها عن سطح البحر، فإن وصف سفينة واحدة من سفن أسطول المعتصم بهذا القوة والجرأة فالفتح بن خاقان يقول في هذا الأسطول ؛ إن المعتصم (اشتغل بترميق أساطيله... ولم يزد على أمر جواريه وفلكه) [٣] ويقرر

** هو أبو عبد اللـه محمد بن أحمد القيسي المعروف بابن الحداد، شاعر كبير وصاحب ديوان،اختص بالمعتصم بن صمادح صاحب المرية،ينظر:معجم الحضارة الأندلسية:٥٤.

(١) نفح الطيب: ٢٠٣/٥-٢٠٤، ط١، ١٩٩٥.

*** بشرعها أي بشرعها الماء، أي دخولها، والسهاد ؛ الارق والمراد هنا اليقضة.

**** ورد في هامش (النفح): وردت في الديوان (كلّ ذِمْرٍ).

(٢) الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه: ٤٨٥.

(٣) قلائد العقيان، للفتح بن خاقان: ٤٧، مطبعة التقدم العلمية، مصر، ١٣٢٠هـ

هنري بيرس (إن أسطول أمراء داينة والجزائر الشرقية يحتل مكانه لا بأس بها والأساطيل التي خلفها الأمويون.... أزدادت عدداً([1] ويضيف (علينا إلاّ نبالغ كثيراً في القوة الحقيقية لهذه الأساطيل لأن دائرة عملها كانت محدودة إلى حد كبير)[2] ويستشهد ببيتي مصعب الصقلي (٤٢٣هـ) الذي رفض ركوب البحر إلى أشبيلية ليلحق بالمعتمد بن عباد على الرغم من عرضه عليه خمسمائة دينار ذهباً: [3] [من البسيط]

لا تعجبن لرأسي كيف شاب أسىً　　　وأعجب لأسود عيني كيف لم يشبِ
البحر للروم لا تجري السفين به　　　إلا على غررٍ والبرُّ للعربِ

أرى أن هذين البيتين لا يمثلان حقيقة الأسطول الإسلامي الأندلسي، بقدر ما يمثلان حالة الشاعر النفسية، وإن كانت مسيرة البحرية الأندلسية لم تستقر على حال واحدة وأثبتنا نصاً لأبن دراج في أيام ضعف البحرية الأندلسية في عهد سليمان المستعين بالله كيف لم يهن ولم يستكن وأنتصر بأسطوله على الأعداء. ولنا فيما ذهب إليه ابن خلدون في بسط هذه الأساطيل والسفن نفوذها على البحر المتوسط والمحيط الأطلنطي وأحتلال جزر البليار، وشل نشاط الفرنسيين والإيطاليين [4]، وما ذكره ابن الخطيب من سيطرة مجاهد العامري على جزيرة (سردانية(وهي جزيرة الروم في

---

(1) الشعر الأندلسي في عهد الطوائف، هنري بيرس، ترجمة: الطاهر أحمد مكي: ١٩٥، دار المعارف بمصر، ط١، ١٩٨٨.

(2) المصدر نفسه: ١٩٥.

(3) المصدر نفسه: ١٩٥.

(4) ينظر، مقدمة ابن خلدون ٣١٥- ٣١٦.

مائة وعشرين مركباً حمل فيها ألف فارس ففتح أرضاً جليلة وفيها ملوك أربعة وضرب على بعض ملوكها جزية [١].

وهذا دليل على قوة أسطول البحرية الأندلسية، وما ذهب إليه غوستاف لوبون، في سيطرة أسطول البحرية الأندلسية على جنوب إيطاليا ونصف فرنسا، دليل آخر على ما يخالف ما ذهب إليه (هنري بيرس(يقول غوستاف لوبون):

((ولم يقتصر العرب بمقاتلتهم للروم، على غزو صقلية، فقد آستولوا أيضاً على جنوب إيطاليا، وبلغو في تقدمهم ضواحي رومه، وأستولى العرب على مدينة (برنديزي(الواقعة على شاطئ البحر الأدرياني، وصاروا سادة البحر المطلقين بفتحهم صقلية وأهم جزر إيطاليا ومالطا وجميع جزر البحر المتوسط))[٢].

وأورد أيضاً: ((استولى العرب بالتدرج على نصف فرنسة الحاضرة الذي يبدأ من ضفاف نهر اللوار وينتهي إلى مقاطعة فرانش كونته)) [٣].

وفي وصف السفينة والشراع والمجاذف ذكرنا بعضاً من أبياتها للشاعر علي بن محمد الأيادي يقول في السفينة: [من الكامل]

جوفاء تحمل موكباً في جوفها ... يوم الرهان وتستقل بموكبِ [٤]
شرعوا جوانبها مجاذف أتعبت ... شأو الرياح لها ولما تتعب
وعلى جوانبها أسود خلافةٍ ... تختال في عدد السلاح المذهبِ
سحروا جواهم بينهم فتقاذفوا ... منها بالسن مارج متلهبِ

---

(١) ينظر، أعمال الاعلام إ. ليفي: ٢١٩ .

(٢) حضارة العرب، د. غوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر: ٣٧٠، بيروت، ط٣، ١٩٧٩.

(٣) المصدر نفسه : ٣٨٤.

(٤) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق٢، مج ١: ٥٠٧.

مــن كــل مــسجور الحريــق إذا أنــبرى   **مـن سـجنه انـصلت انـصلات الكواكـب**
عريـــان يقدمـــه الـــدخان كأنـــه   **صـــبح يكـــر عـــلى ظـــلام غيهـــبِ**

وتظهـر مقـدرة الـشاعر في الأكثـار مـن الـصور البلاغيـة برسـم صـورة الـسفينة، والمجاذيف التي أتعبت الرياح ولم تتعب، والسلاح وعدة الحرب يختال بها الجنـود، وقـذائف الموت وكأن الواحد منها عريان ملتهب يخرج من وسط الدخان الذي يسبق انطلاقه، بما مثلـه البيت الأخير من لوحة فنية نادرة.

٣- وصف السفن والخيول:

يقـصر الحـديث في هـذا الاتجـاه عـلى شـاعرين فقـط هـما ؛ ابـن دراج القـسطلي (٤٢١هـ) وابن خفاجة الأندلسي (٥٣٣هـ) فإن فضل ابن خفاجة الخيـول عـلى الـسفن - كـما سنرى- فآبن دراج يذكر الخيل ثم ينصرف إلى السفن يفضلها على الخيل، يقول:

[من الطويل]

وكـــم عجـــزت عنـــا ذوات قـــوائم   **فعجنـــا بعـــوج مـــا لهـــن قـــوائم** [٢]
جـــاجئ [١] **غربـــانٍ تطـــير لنـــا بهـــا**   **عـــلى مثـــل أطـــواد الفيـــافي نعـــائم**
لهـــا مـــن أعاصـــير الـــشمال إذا هـــوت   **خـــوافٍ ومـــن عـــصفِ الجنـــوبِ قـــوادم**
يحـــاجي بهـــا، مـــا حامـــلٌ وهـــو راقـــبٌ   **ومـــا طـــائرٌ في جـــوه وهـــو عـــائمُ**
وشـــاهد لقـــم الحـــوت يـــونس فاقتـــدى   **فغـــادٍ وســـارٍ وهـــو للـــسفر لاقـــم**

---

(١) جمع جؤجؤ وهو الصدر. (هامش الديوان).
(٢) ديوان ابن دراج: ١٣٦ .

يظهر الشاعر عجز الخيول في هذه الرحلة وإنصرافه إلى السفينة لإظهار معاناته طلباً للنوال والإكرام، وظهر متطيراً خائفاً مما تصوره من أن مقدمة السفينة تشبه الغراب كعادة العرب في التطير، ثم ربط بين معاناته في الرحلة وذكر عصا موسى، ومحنة يونس في بطن الحوت.

وقد جاء مستشهداً لقوة السفينة وشاهدها هنا عصا موسى، التي فَلَقَ بها البحر، كما جاء في القصيدة نفسها:

سرت من عصا موسى إليه قرابة　　　فطب بفلق البحر والصخر عالمُ

والتقام الحوت ليونس في البحر أيضاً، وهما شاهدان على قوة السفينة كما ذكرنا وهيبتها في مملكتها البحر، بعد أن وصفها في سرعة جريانها بالخيول، لكنها بلا قوادم، وليس لها أرجل، وكانت ألفاظه من واقع البيئة، كما في تشبيه سرعتها بأعاصير الشمال إذا هوت، وقوادمها كعصف ريح الجنوب.

وعند استعراض شعراء هذه الحقبة لا بد لي من ذكر الشاعر ابن خفاجة الأندلسي* (٥٣٣هـ) إلا أننا نفاجأ - وهو من شعراء الوصف المشهورين في الأندلس - أنه لم يترك مساحة تذكر في شعره لوصف السفن أو الأسطول أو البحر، إن هي قيست بالمساحة التي أعطاها شعراء كثيرون منهم ابن دراج القسطلي، وابن حمديس، وابن هانئ الأندلسي وغيرهم، إلا أن أنصراف الشاعر عن شعر البحرية الأندلسية - ولا نرجع ذلك لعجزه في هذا المضمار - فله في وصف المعركة مستعيناً بأدواتها وبالطبيعة والخيول كما في النص الآتي:

[من الطويل]

* هو أبو إسحق إبراهيم بن أبي الفتح بن خفاجة، شهد بعض أحداث الأندلس ومنها خراب بلنسية، أنشد ليوسف بن تاشفين، توفي سنة ٥٣٣. ينظر: معجم الحضارة الأندلسية: ١١١-١١٢.

فيـــا رب وضـــاح المحاســـن أشـــقر ... رميـت بهـا الهيجاوقـد فغـرت فـما [1]

وبحـــر حديـــد قـــد تلاطـــم أخـــضرٍ ... إذا عــصفت ريـح الجيـاد بـه طمـى

أبي عِـــزُّ نفـــسٍ أن يجـــول فيجـــتلى ... وإشراف هـــادٍ أن ينـــال فـــيلحما

جـــرى الحـــسن مـــاءً فوقـــه غـــير أنـــه ... إذا مـــا جـــرى نـــارٌ الغـــضى متـــضرما

عـــدا فاســـتنار الـــبرق لونـــاً وسرعـــة ... وغـــبر في وجـــه النهـــار فغـــيما

بيـــوم تـــرى المـــوت أحمـــر قانيـــاً ... بـــه واســـتطار النقـــع أربـــد أقـــتما

نلحظ أن الشاعر ما ذكر البحر في الـشطر الأول مـن البيـت الثـاني، حتـى أنتقـل في الشطر الثاني من البيت نفسه إلى الجياد، وأنصرف كلياً عن البحر حتى نهاية النص.

وأرى في انصراف الشاعر ابن خفاجة عن وصف البحر والسفن إلا نادراً وانصرافه إلى وصف المعارك على الطبيعة الساكنة والمتحركة والاستعانة بأدوات المعركة وذكر الجياد ويذكر البحر في هذه الاشعار استطراداً إنـه أمـرٌ طبيعـي غير لافـت النظـر، لا كـما ذهـب إليـه د. مصطفى محمود الحلـوة في أن هـذا الانـصراف كـان سـببه أن الـشاعر ((اسـتبعد البحـر مـن موطن القوة وأدخله مـداخل الـضعف والـذم.... جريـاً عـلى مـذهب المتنبـي)) [2] ثـم يـصل الباحث إلى أن ابن خفاجة ((لم يذهب بها مذهب التقليد، وإنما قـصد بهـا أبعـاد البحـر عـن مركز القوة، وكأنها دعوة للجهاد دعا بها الأندلسيين بخاصة والعـرب بعامـة أن تكـون الخيـل رابطة في الأندلس لأن العدو متربص

---

(١) ديوان ابن خفاجة ، تح: د. سيد غازي: ١٧٤،

(٢) ابن خفاجة والبحر، د. مصطفى محمود الحلوة: ٤٢- ٤٣، مركز المعتصم، أربد، عمان، ١٩٩٥.

بهم))[1] أما ما عرف عن الأندلس ؛ أن السفن في البحر تقابل الخيل في البر، أو أنها أهم من الخيل في بلد كالأندلس وأن وصف السفن والأسطول أكثر ألفة من وصف الخيل [2].

فهل جهل ابن خفاجة هذا الأمر ؟ أما إذا نظرنا إلى طبيعة الأندلس فإنا واجدون أن طبيعتها الجغرافية فرضت أن يكون للأسطول الأهمية البالغة في حماية الثغور، وقد تطرق الباحث كثيراً وهو يقرر أن انصراف ابن خفاجة عن البحر حباً للعروبة يقول: ((ولنا الحق أن نجتهد الرأي فنقول أنها عاطفة حبه للعروبة والمشرق لأنها الأم ومصدر القوة عند الشاعر)) [3] ويصل الباحث في تطرفه بقوله: ((ويبدو لنا أن ابن خفاجة قد وضع الخيل عن يمينه لتدل على الايجاب والاعجاب ووضع البحر عن شماله للدلالة على السلب والنكران فالخيل عروبة أصيلة تقرب موطنه من أمه فيقوى بها، والبحر رمز البعد عن الموطن الأم فيضعفها ولهذا نراه حتى في ذكر البحر يذكر الخيل)) [4].

والذي أراه أن البحر لم يكن يوماً رمزَ البعد ذلك أنه يحيط بالأمة العربية كإحاطة السوار بالمعصم وفي الأندلس أكثر إحاطة، وإن ذكر ابن خفاجة الخيل في ذكره البحر فلا أرى ذلك انحيازاً إلى وصف الخيل وتأصيلاً للعروبة، بقدر ما هو تعامل موضوعي متوازن مع البيئة، والحاجة إلى الخيول في الثغور كحاجة الثغور إلى الأساطيل والسفن دفاعاً عنها أولاً، ولنقل الخيول إليها ثانياًَ، وربما انطلق الشاعر من قول الرسول الكريم محمد (ع): (الخيلُ معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة)[5].

---

(1) المصدر نفسه: ٤٣.

(2) ينظر: الأدب العربي في جزر البليار، د. عبد الرزاق حسين: ٧٤، دار الجيل للنشر، ط١، عمان، ١٩٩٤.

(3) ابن خفاجة والبحر: ٤٤.

(4) المصدر نفسه: ٤٥.

(5) صحيح البخاري: ٣٤٦، رقم الحديث (٢٨٥٠).

فالشاعر قد وفق في وصفه الجهاد بحراً وبراً في السفن أو على ظهور الخيل، يقول:

[من السريع]

ولجـــــة تفـــــرق أو تعـــــشق فماتنـــــي أحـــــشاؤها تخفـــــق [(١)]

شـــــارفتها وهـــــي بما هاجهـــــا مـــن الـــصبا مزبـــدة تقلـــق

فخلتنـــــي في شـــــطها فارســـــاً قـــرب منـــه فـــرس أبلـــقُ

لقد منح البحر والبر قدراً متساوياً في أبياته الثلاثة فقد صور اضطراب أمواج البحر واجتماعها وتفرقها في تلاطم وصخب، ولم ينس الفروسية في البر فكأنه فارس يمتطي فرساً أبلقا.

وهذا دليل موضوعية الشاعر في مواءمته في وصف السفن والبحر والخيل والسيف والرمح. وفي قوله مادحاً الأمير أبا اسحق، أمير المؤمنين ويذكر محاصرته حصناتً في أحد الثغور: [من الطويل]

أرأيـــك أمـــضى أم حـــسامك أقطـــع ومـــرآك أبهـــى أم حـــديثك أســـمع [(٢)]

ويـــارب جـــيش للعـــدو كأنـــه عبـــاب خـــضم قـــد طمـــي يتـــدفع

عرضـــت لـــه والليـــث دونـــك جـــرأة وأجفـــل إجفـــال النعامـــة تجـــزع

---

(١) ديوان ابن خفاجة: ١٣٧.

(٢) ديوان ابن خفاجة : ٨٧.

نعم أنه شبه الجيش بالبحر، وانصرف إلى ذكر الطبيعة ووقف عند الخيل طويلاً، وفي قطعة أخرى يذكر البحر وينصرف عنه إلى ذكر الطبيعة ويرجع إلى البحر، مطلعها:

[من الطويل]

أما والتفات الروض عن زرق النهر ... وإشراف جيد الغصنِ في حلية الزهر[1]
يعد عباب البحر في السلم والوغى ... ببذل اليد الغراء والفتكة البكرِ
سرى بين نوار لزرق أسنةٍ ... حدادٍ وأوراقٍ لراياته خضرٌ
يجول فتجري في عنانٍ به الصبا ... ويزخر في لبدٍ به البحر في البرِّ
وأشهب وضاحٍ تحمل رقعةً ... من الحسن لم تعثر بها العين في بشرِ

وفي قطعة أخرى وهو يتعرض لذكر البحر وركوبه وأهواله، لم ينس خفقات فؤاده لفراق أحبته في صورة يمتزج البحر وأهواله بأهوال الحب وارتجاف القلب لنأي الحبيب وهذه صورة قلما نجدها في وصف أهوال البحر وركوب السفن إلا نادراً فبعد انتقاله من حديث الرماح والسيوف يرسم صورةً رائعة مرة ومروعه أخرى نلمس هول البحر ليس من هيجان الرياح وإنما من رقتها فإن أثارت ريح الصبا البحر ورسمت فيه تدرجاً تتهم فيه العين مرة وتنجد أخرى فما بالك برياح هوجاء ؟ ينتقل من ألفاظ الحب إلى ألفاظ الموت بالجمع بين المتناقضات يقول: [من الطويل]

وأخضر عجاج تدرجه الصبا ... فتتهم فيه العين طوراً وتنجدُ[2]
كأن فؤاداً بين جنبيه راجفاً ... يقوم به نأي الحبيب ويقعدُ
سأركب منه ظهر أدهم ريضٍ ... مروعٍ بسوطِ الريح يجري فيزبدُ

---

(١) المصدر نفسه: ٢٦.
(٢) ديوان ابن خفاجة : ١٩٤.

وأمــضي فإمــا بيـــت نفـــسٍ كريمـــةٍ	يهـــدُّ وإمـــا بيـــت عـــزٍ يـــشيد

وقريب من معنى النص السابق وفي الحنين إلى الأخوان يصف سفينته يقول:[من الوافر]

وجاريـــــة ركبـــــت بهـــا ظلامـــــاً	يطـــير مـــن الـــصباح بهـــا جنـــاح[1]
إذا المـــاء آطـــمأن فـــرق خـــصراً	عـــلا مـــن موجـــه ردف رداح
وقـــد فغـــر الحـــمام هنـــاك فـــاهٌ	وأتلـــع جنـــده الأجـــل المتـــاحُ
فـــما أدري أمـــوجٌ أم قلـــوبٌ	وأنفـــاسٌ تـــصعد أم ريـــاحُ

وأرى أن تحليلاً لأبيات ابـن خفاجـة هـذه أورده د. أحمـد عبـد القـادر صـلاحية[2] تدعونا إلى وقفة نقدية، فقد ذكر الباحث، أن هذه الأبيات تتجلى فيها البدوات الحـسية منـذ انتقائه اسم (الجاريـة) ليعـبر عـن الـسفينة وفي (ركبـت بهـا ظلامـاً) يرمـز بـالظلام إلى البحـر وتصويره كامرأة، ويضيف الباحث: لذلك توهم [الشاعر] هدوء البحر ورقة مائه خصراً دقيقـاً والموج ردفاً ثقيلاً، وهذه الصورة على ما فيها من حـسية مفرطـة فهـي صـورة رائعـة ونـادرة، تشي بعقدة القمع الجنسي. ويرى الباحث في البيت الثاني أنها: تنهـدات حزينـة يمتـزج الحـب بالموت بالبحر امتزاجاً نادر المثيل. والذي أراه ؛ كيف نوفق أولاً بين (الحسية المفرطـة في رقـة الماء خصراً دقيقاً، والموج ردفاً ثقيلاً) وبين (امتزاج الحب بالموت بالبحر امتزاجـاً نـادر المثيـل) وثانياً ؛ أرى أن

---

[1] المصدر نفسه : ١٣٨.

[2] ينظر: ركوب البحر في الشعر الأندلسي، أحمد عبد القادر صلاحية: ٣٩ (مجلة التراث العـربي العـدد ٦٠ تمـوز ١٩٩٥ السنة الخامسة عشرة).

الشاعر أعطى انفراج الموج دفقه شاعرية بفتح الموت ذراعيه، وذهب بخيالة الخصب أكثر من هذا فشبه هذا الانفراج بجيد الفتاة المفتوح، وما يؤكد ذلك تساؤل الشاعر في البيت الأخير، فقد امتزج تلاطم الأمواج باضطراب القلوب بالانفاس التي تتصعد خوفاً ورهبة.

ولمحمد عبد المنعم خفاجة رأي في أبيات ابن خفاجة هذه يقول: ((فمن يقرأ هذه الأبيات ولا يقشعر بدنه من هول الموقف، بل هذا الذي لا يخيل إليه أنه راكبٌ بحراً لجياً عظم اضطرابه، وتلاطمت أمواجه، في ليل اشتد ظلامه وتراكم غمامه، فحبس عن العيون مسالك الأمان، فبدأ شبح الموت فاستسلم العقلاء لفضل القضاء، أما بالنجاة أو الفناء)) [1].

وابن خفاجة دائماً ما يذهب في تشبيه أمواج البحر هذا المذهب ومنها:[من الطويل]

وذيل رداء الغيم يخفق والصبا　　تخب وموج النهر ضخم الروادف [2]
يطير بنا فيه شراع كأنه　　إذا ضربته الريح أحشاء خائف

وأرى أن قراءة أولية في (... تملا من موجة ردف رواح) و (أتلع جيده الأجل المتاح) لا تعطي مساحة تذكر لعقدة القمع الجنسي والتي ذكرها الباحث، وإن من يعتريه الخوف من الموت في السفينة:

فما أدري أموجٌ أم قلوبٌ　　وأنفاس تصعد أم رياحُ

---

(1) قصة الأدب في الأندلس، محمد عبد المنعم خفاجة: ٢٣٤/٢.
(2) ديوان ابن خفاجة: ٢١٠.

لا يمتزج عنده الحب بالموت ولا يسمع إلا الانفاس تتصعد خوفاً من البحر:

[من البسيط]

بحـــــرٌ ونـــــوءٌ وطـــــولُ هـــــمٍّ ثلاثـــــة أطبقـــــت دجاهـــــا [1]

وماذا تقول في رائحة الموت وصورته التي تمثلت في (وقد فغـر الحـمام هنـاك فـاهُ)، وأرى النص يوحي بتنهدات حزينة أمتزجت رهبة الموت بالبحر امتزاجاً نـادر المثيـل، وذهـب الشاعر بخياله، كما ذهب عنترة بن شداد من بين السيوف والرماح إلى ثغر حبيبته يقول:

[من الكامل]

ولقـــد ذكرتـــك والرمـــاح نواهـــل منـي وبـيض الهنـد تقطـر مـن دمـي [2]
فـوددت تقبيـل السيـوف لأنهـا لمعت كبـارق تغرك المتبسمِ

٤- وصف المعارك البحرية والبرية:

لقد سجل شعر البحرية الأندلسية في تلك المرحلة وصفاً للمعارك البحرية تخللها في بعض النصوص وصفاً للمعارك البرية فجاءت القطعة مزيجاً من وصف المعركة بمعانٍ برية وأخرى بحرية صورت الجيوش في زحفها وانتصاراتها، ونذكر للعباس بن فرناس وهو يسخر من الأعداء في انهزامهم وكثرة قتلاهم، يقول: وقد ذكرنا البيت الأول سابقاً [من الطويل]

---

(١) المصدر نفسه: ٣٤٢.

(٢) جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام: ٣٣٧.

* اللهوم: الأكول (معجم الوسيط: ٨٤٩/٢) وأراد الشاعر يلتهم الفلا. العبل:: الضخم من كل شيء (المصدر نفسه: ٨٤٩/٢)، القراقير، القرقور: السفينة الطويلة (مختار الصحاح: ٥٢٨).

ومختلــف الأصــوات مؤتلــف الزحــف　　لهــوم* الفــلا عبــل القنابــل ملتــف [1]

إذا أومــضت فيــه الــصوارم خلتهــا　　بروقــاً تــراءى في الجهــام وتــستخفي

كــأن ذرى الأعــلام في ســيلانها　　قــراقير يــم قــد عجــزن عــن القــذف

فــما كــان إلا أن رمــاهم ببعــضها　　فولــوا عــلى أعقــاب مهزومــةٍ كــشفِ

قتلنــاهم ألفــاً وألفــاً ومثلهــا　　وألفــاً وألفــاً بعــد ألــف إلى ألــف

ســوى مــن طــواه النهــر في مــسلجّه　　فــأغرق فيــه أو تــدأدأ مــن جــرفِ

ولابن دراج القسطلي (٤٢١هـ) في مثاله القومي المنصور (٣٩٢هـ) وهو يفصح عن شعور قومي من الإعجاب بشخصية الممدوح ((وقد لا يجد* القارئ في تاريخ الأدب الأندلسي شاعراً أوقف جل أهتمامه وعنايته لتدوين دقائق الأحداث حتى غداً ديوانه وثيقة تاريخية يرجع إليها المؤرخون)) [2] لذا جاءت أكثر نصوص هذا المبحث من ديوان الشاعر. يقول ابن دراج في المنصور:　　　[من المتقارب]

نلاقــي الــسيوف إذا مــا فزعنــا　　ونــسقى الحتــوف إذا مــا ظمينــا [3]

فطــوراً نــرى العــيش ظنــاً كــذوباً　　وطــوراً نــرى المــوت حقــاً يقينــاً

وحقــاً إليــك ركبنــا الريــاح　　مطايــا رحلنــا عليهــا الــسفينا

كــأن عــلى لجــج البحــر منهــا　　هــوادج تَخْفُــق بالظاعنينــا

---

(١) كتاب العقد الفريد، ابن عبد ربّه الأندلسي، شرح أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الإبياري: ٤٩٥/٤، مكتبة النهضة المصرية، ط٣، ١٩٦٢.

* صوابه (ربما لا يجد).

(٢) القطوف اليانعة: ١٥٥.

(٣) ديوان ابن دراج: ١٩٤.

وينتقل من أهوال البحر إلى وصف الخيول:

ولله مـــــن أمهـــــات حنـــــين	علينـــا الظهـــور وجـــبن البطونـــا
تقـــود المنايـــا بهـــا حيـــث شـــاءت	وتثنـــي كـــلا كلهـــا حيـــث شـــينا
أهمنـــــا بغربتنـــــا أم هـــــدينا	ومتنـــــا بكربتنـــــا أم حيينـــــا
فـــإن يعجـــب الـــدهرُ أنـــا صـــبرنا	فأعجـــب مـــن ذاك أنـــا بقينـــا

٥- وصف البحر:

لم ينل البحر مساحة واسعة في شعر البحرية الأندلسية بقصائد مستقلة شأنه شأن الاتجاهات الأخرى، إلا أن المقري يصفه ببيتي ابن رشيق: [من الرجز]

البحـــر صـــعب المـــرام جـــداً	لا جعلـــت حـــاجتي إليـــه [(١)]
ألـــيس مـــاءً ونحـــن طـــينٌ	فـــما عـــسى صـــبرنا عليـــه

ومن هذين البيتين يقول فيه نثراً في صورٍ لا يرقى إلى معانيها كثير من الشعراء:

((.... إلى أن ركبنا البحر وحللنا منه بين السحر والفجر وشاهدنا من أهواله، وتنافي أحواله، ما لا يعبر عنه ولا يبلغ له كنه، فكم أستقبلنا أمواجه بوجوهٍ بواسر، وطارت إلينا من شراعه عقبان كواسر، فقد أزعجتها أكف الريح من وكرها، كما نبهت اللجج من سكرها، فلم تبق شيئاً من قوتها ومكرها، فسمعنا للجبال صفيراً، وللرياح دوياً عظيماً وزفيراً، وتيقناً أنا لا نجد من ذلك إلا فضل الله مجيراً وخفيراً [**وَإِذَا مَسَّكُمُ**

---

(١) ديوان ابن حمديس، قدم له: د. إحسان عباس: ٥٣٣، دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٩٦٠.

الـضُّرُّ فِي الْبَحْـرِ ضَـلَّ مَـنْ تَـدْعُونَ إِلَّا إِيَّـاهُ] [(١)] ، وأيـسنا مـن الحيـاة لـصوت تلـك العواصف والمياه فلا حيا اللـه ذلـك الهـول المـزعج ولا بيـاه والمـوج يـصفق لـسماع أصـوات الرياح فيطرب بل ويضطرب فكأنه من كأس الجنون [قد] شرب.... وقد أشرقت النفـوس عـلى التلف من خوفها واعتلالها، وآذنت الأحوال بعد انتظامها باختلافها، وساءت الظنـون وتـراءت في صورها المنون والشراع في قراع مع جيوش الأمواج التي أمدت منها الأفواج بالأفواج، ونحـن قعود كدود على عود: [من الرجز]

ثلاثـــــة لـــــيس لهـــا أمـــان البحـــر والـــسلطان والزمـــان [(٢)]

وبالرجوع إلى وصف البحـر اتـضح مـن خـلال اسـتعراض النـصوص الـشعرية التـي تناولها البحث، أن الشعراء قد أختلفوا في نظرتهم إلى البحـر فمـنهم مـن يـراه الكـرم والجـود والعطاء، ومنهم من يراه صعب المرام والموت الزؤام ومـنهم مـن نظـر إليـه بحـسب مناسـبة قصيدته.

للعبـاس بـن فرنـاس (٢٧٤هــ) في الأمـير محمـد وذكـر الحـرب في قلعـة (الحـنش) ومصابرتها يقول: [(٣)] [من البسيط]

كـــاليم تـــسمع حافاتـــه قـــصفاً مـــن كـــل أوبٍ لـــه كالرعـــد هينـــومُ
كأنمـــا بـــين لجيـــه وقـــد درجـــت ســـفينة عطبـــت في جوفهـــا رومُ

(١) الإسراء: ٦٧.
(٢) ينظر: نفح الطيب، للمقري التلمساني، تح: د. إحسان عباس، مجلد ١: ٣٤، دار صادر، بيروت ١٩٦٨.
(٣) البيان المغرب في أخبار المغرب (أخبار الأندلس): ١٦٦ – ١٦٨ .

صورة رسمها شاعر مبدع وأنت تسمع تلاطم أمواج البحر وصخب هذا التلاطم وتتراءى أمامك صورة سفينة قد عُطبت، لكن من فيها من الروم وأنت لا تفهم ما يتعالى من صخب أصواتهم وكأنها تلاطم أمواج البحر.

ولأبن اللبانة (٥٠٧ هـ) يمدح ناصر الدولة مبشراً العامري في أنتقاله إلى مدينته (ميورقة(ويصف رحلة البحر المرعبة، يقول: [من الطويل]

بكت عند توديعي فما علم الركب ... أذاك سقيط الطل أم لؤلؤ رطب[1]

وبحر سوى بحر الهوى قد ركبته ... لأمرٍ كلا البحرين مركبه صعبُ

هوى بين عصف الريح والموج مثلما ... هوىً بين أضلاع المعنى به قلبُ

كأني قذى في مقلةٍ وهو ناظرٌ ... بها والمجاذيف التي حولها هدبُ

بعد التوديع والدموع يتقاذف سفينته موجان عصف الريح ولج البحر، ويقرنهما بقلب المحب الخافق ثم ينتقل إلى وصف السفينة بالعين (المقلة) والشاعر قذى في هذه المقلة والمجاذيف حولها هدب.

والنص الشعري هنا في البحر لكنه في وصف البحر وهيجانه والسفينة وأهوال ركوب البحر في السلم وليس الحرب.

---

[1] شعر ابن اللبانة الداني: ١٧- ١٨ .

المبحث الثالث

البحرية الإسلامية في الشعر الأندلسي

في عصر المرابطين والموحدين (٤٩٣- ٦٦٨هـ)

دولة المرابطين والموحدين في الأندلس:

دولة المرابطين بدايتها حركة دينية تزعمها أحد الفقهاء الـذين قـاموا بنـشر التعـاليم الإسلامية بين اللمتونيين من قبائل صنهاجة، وصار هذا الفقيه أبو محمد عبد الـلـه بن ياسـين الجزولي (٤٥١هـ) سيداً وحاكماً، وأطلق على جماعته اسم المرابطين، وسموا بالملثمين [١].

دبَّ الانقسام في عهد ملوك الطوائف واحتدمت الخصومات والحروب بين الحاكمين، والاضطرابات التي حصلت في الأندلس نتيجة تدخل الفرنج في شؤون الامـارات، وبلـغ الـصراع أشده بين المعتمد بن عباد ((وهو أشد الناس اهتماماً بإنقاذ المنطقة من عدوان القـشتاليين)) [٢]، والفونسو السادس ملك قشتالة، وبعد فشل ابن عباد في أنقاذ الموقف عبر البحر لاستدعاء يوسف بن تاشفين.

---

(١) سبب تسميتهم بالمرابطين من ملازمتهم الثغور لدفع الأعداء آخذاً من قوله تعالى **[يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا الـلـه لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ]** (آل عمران:٢٠٠)، وسموا بالملثمين لعادتهم أن يضعوا لثاماً على وجوههم، (ينظر: الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس د. محمد مجيد الـسعيد: ١١، دار الرشـيد للنـشر، بغداد، ١٩٧٣).

(٢) دولة الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي: ٣٣٤.

جهز يوسف بن تاشقين ((جيشاً جراراً وأعد له أسطولاً عبر به في سنة (٤٧٩هـ) الزقاق وأتجه إلى أشبيلية وأنضم إليه المعتمد... وألتقى الجمعان في (الزلاقة) ودارت معركة حامية الوطيس سحق فيها جيش الفونس وفرَّ على وجهه مع الفارين[١]، في معركة الزلاقة الشهيرة.

وبعد عودة الفرنج الاغارة على الأندلس وعلم ابن تاشقين بذلك فجاز إلى الأندلس جوازه الثاني في (٤٨١هـ) وكاد ينزل بالفونس ما أنزله به في معركة الزلاقة غير أن الشتاء دخل فعاد إلى المغرب)) [٢].

بعد أن دب الشقاق والخلاف بين أمراء الطوائف جاز يوسف بن تاشقين مرة ثالثة سنه (٤٨٣هـ) وقد أنتهى إلى قرار بالغ الخطورة وهو الاستيلاء على الأندلس [٣] ((فأغزاها قائده سير بن أبي بكر، فأستولى على قرطبة وأشبيلية ومرسيه ودانية سنة (٤٨٤هـ ١٠٩١م) ودافع المعتمد بن عباد عن مملكته دفاعاً شريفاً، ثم أُسر وأقتيد إلى أغمات قرب مراكش، ومات فيها)) [٤].

حقق المرابطون انتصارات سياسية بعد معركة (الزلاقة(الشهيرة، فقد أنتصروا بقيادة تميم بن يوسف بن تاشقين نصراً عظيماً على القشتاليين في موقعه أقليش سنة (٥٠٢هـ) التي قتل فيها شانجة ابن ملك الفونسو وكثير من أقطاب الدولة

---

(١) ينظر، عصر الدول والإمارات (الأندلس) شوقي ضيف: ٣٩، دار المعارف بمصر، ط٣، ١٩٨٩.

(٢) عصر الدول والإمارات (الأندلس): ٣٩ - ٤٠.

(٣) ينظر، دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطين: ٣٣٤ - ٣٣٧.

(٤) أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، بطرس البستاني: ٢٨، دار المكشوف، ودار الثقافة، بيروت - لبنان، ط٦، ١٩٦٨.

القشتالية [1] والموقعة الثانية هي موقعة أفراغة (٥٢٨هـ) (وكان لنصر المرابطين في (أفراغه(صدى عميق في سائر أرجاء الأندلس وفي أسبانيا النصرانية بنوع خاص)[2].

أما إذا أنتقلنا إلى الأدب في عهد المرابطين فلا نجد تلك النهضة الفكرية والأدبية الزاهرة التي عاشتها الأندلس في عهد الدولة الأموية ودول الطوائف (كان هؤلاء المرابطون شديدي التعصب، قساة غلاظاً، الفوا الحرب والخشونة فلم تجد دولة الفكر والأدب في ظلهم مرتعاً خصباً)[3].

ويرى الباحث أن ظهور أسماء لامعة أمثال ابن عباس القرطبي (٥١٦هـ) والفيلسوف ابن باجة (٥٢٣هـ) والفتح بن خاقان (٥٣٥هـ) وابن بسام (٥٤٢هـ) (لم يكن إلا أمتداداً للنهضة الفكرية التي أزدهرت في عهد ملوك الطوائف)[4].

دولة الموحدين:

بعد موت يوسف بن تاشفين سنة (٥٠٠هـ ١١٠٦م) حيث كانت الأندلس ولاية للمرابطين، وأنتقلت أمارة المسلمين بعده إلى ولده علي، لم تنعم الأندلس في دولة علي بن يوسف بن تاشقين بالرخاء أو الهدوء (وفي أيامه ظهر المهدي محمد بن تومرت في جبال المصامدة بالمغرب فكان ظهوره وبالاً على دولة المرابطين وسبباً لقيام دولة الموحدين)[5].

---

[1] ينظر: الشعر في عهد المرابطين والموحدين: ١٦.

[2] عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس مج١: ١٢٣/٣- ١٢٥.

[3] في الأدب الأندلسي، د. جودت الركابي: ٥٥.

[4] في الأدب الأندلسي، د. جودت الركابي: ٥٦.

[5] أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث: ٢٨.

أنتعشت الحضارة الأندلسية في دولة الموحدين بالأندلس وبلغت ذروة نضجها وظهرت طائفة من أقطاب العلم والأدب وعدد من أعلام الشعر والأدب مثل ابن بشكوال القرطبي (٥٧٨هـ) [١]. وكما يذكر د. نوري حمودي القيسي (لا بد أن يقترن الشعر بالتاريخ والقتال بالرجال الاشداء الذين يستجيبون لنداء الجهاد([٢].

وقد استجاب الشعر في هذه الحقبة لحاجات المواطن الأندلسي وشارك في أحداث العصر ووقائعه ولاسيما في النكبات الوطنية التي أنعكست بشكل مآساوي طيلة هذه الحقبة.

وأرى في النصوص الشعرية التي عالجت موضوعات شعر البحرية في عهدي المرابطين والموحدين وعكست رؤى الشعراء في البحر وركوبه، وتصدت لوصف المعارك البحرية دفاعاً عن بلدٍ يأتيه الأعداء بأساطيلهم من كل حدب وصوب ضرورة لا بد منها لأن الشعر رأس الحربة في الدفاع عن الأندلس كما هو معروف.

والنصوص التي عالجت موضوع البحرية الأندلسية تم توزيعها على محاور مثلث اتجاهاتها وعلى وفق الآتي:

١- وصف الأسطول:

شارك في هذا الاتجاه الشاعر ابن حمديس (٥٢٧هـ) والشاعر إبراهيم بن سهل الأشبيلي (٦٤٩هـ) والشاعر ابن الابار (٦٥٨هـ).

---

[١] في الأدب الأندلسي: ٥٦.

[٢] الشعر في ركاب المعارك التاريخية، د. نوري حمودي القيسي: ١٠٦ .

يمدح الشاعر ابن حمديس [*] (٥٢٧هـ) القائد مهيب بن عبد الحكم الصقلي وأسطوله، يقول: [من الرمل]

كـــم بـــأرض الـــشرك مـــن معمـــورةٍ	**أصـــبحت في غـــزوه وهـــي يبـــاب** [(١)]
في أســـــاطيل ثـــــرى أحـــــشاءها	**لبنــــات الــــروم فــــيهن انتحــــاب**
ككنــــــاس بغمــــــت غزلانــــــه	**مــــن زئــــير راعهــــا مــــن أســــد غــــاب**
كــــل مـــسودٍ قـــــراه خلقـــــة	**لابـــساً مـــن ذلـــك الليـــل إهـــابْ**

إن ثعبــــــان سراه يقتــــــــدي	**في نعيـــب منـــه بـــالبر غـــراب** [(٢)]
شـــجرات ** حملهـــا البـــيض إذا	**نـــورت بالمـــشرفيات العـــضاب**
أثمــــرت بـــالعين في المـــاء وإن	**ثـــورت منـــه عجاجـــات العبـــاب**
تقـــرأ الأعـــلاج منهـــا للـــردى	**فـــوق طـــرس المـــاء أســـطار كتـــابْ**

يصور الشاعر غزو المسلمين ونتائجه والسفن وأفعالها، أشاع في هذا النص روح القوة والإخلاص باقتدار فني، بمعانٍ وألفاظ تظهر براعته في التعبير والخيال والصياغة، وقدرته على تكرار صور المديح بأثواب جديدة وأبدع في صورة الأعداء الاعلاج وجعلهم يقرأون الموت - في البيت الأخير - وكأنه مكتوب في بحر المنازلة وكان

---

* هو أبو محمد عبد الجبار بن حمديس، لم تُنجب مثله صقلية في الشعر، وربما لم ينشأ من شعراء المغرب من يضاهيه قوة وتنوعاً وقصائده ترق حتى تُشبه الطبيعة الأندلسية وتستطيل حتى تحاكي مباني قرطبة. ينظر: مقدمة الديوان: ١٧.

(١) ديوان ابن حمديس: ٦٥ .

(٢) يصف المركب (مسود القرا) فشبه حركته في الماء بحركة الثعبان وصوت مخره بالنعيب، ويجيبه الغراب في البر بالنعيب: أي ينذر الأعداء بالموت.

** أي تلك السفن شجرات (هامش الديوان: ٦٥).

وصفاً ينسجم وحقيقة انتصارات المسلمين والأحداث التاريخية التي مرت بها أمة الأندلس.

وإن ذكر الدكتور منجد مصطفى بهجت في شعر ابن دراج بأن قصائده توشك أن تكون ملاحم ولاسيما تلك القصائد التي نظمها في معارك الأندلس الفاصلة [1] فإن قصائد ابن حمديس لا تقل أهمية عن قصائد ابن دراج القسطلي (٤٢١هـ) وهي ملاحم أيضاً، وكما في قصيدته التي يعرض فيها بوجه للبطولة، وصورة للجهاد لإسطول صقلية وهو يقف أمام أقوى الأساطيل في زمنه. قال وهو يذكر عرباً صحبهم بأرض المغرب ويتشوق إلى بلده ويمدح قومه أهل سرقوسة صقلية، فمما مدح به قومه يقول: [من الطويل]

وكم لي بها من خل صدقٍ مساعدٍ	**مهينِ العطايا وهو للعرض مكرم[2]**
إذا فرت الأبطال كر وسيفه	**يحل بيمناه دم العلج محرم**
يموج به بحر كان حبابه	**عليه دلاص سردها منه محكم**
وطائرةٍ* بالذمر ملء عنانها	**لها الفضل في شاو البروق مسلم**
تعوم بها بين العلوج مظلةً	**كما حلقت فتخٌ على الجو حوم**
ومنسوبةٍ للحرب منشأةٍ لها	**طوائر بالآساد في الماء عومُ**
كأن قسياً في مواخرها التي	**يفوق منها في المقادم أسهمُ**
وترسل نفطاً يركب الماء محرقاً	**كمهلٍ به تشوى الوجوه جهنمُ**

---

(١) الاتجاه ألإسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين د. منجد مصطفى بهجت: ٤٧٥، مؤسسة الرسالة، بيروت، شارع سوريا، ط١، ١٩٨٦.

(٢) ديوان ابن حمديس: ٤١٣ – ٤١٤.

يمدح الشاعر أهله في (سرقسطة(بالـشجاعة والإقـدام، وملاحقـة الأعـداء الفـارين، ويصور حباب البحر دروعاً محكمة النسج وفي لون بلاغي يظهر شـجاعة قومـه بابتـسامتم في حال عبوس الحرب، وقد أجاد في هذا الطباق بين (عبس، تبسم) وله في تـشبيه الـسفن معانٍ تؤكد النصر والإقدام، طائرة تنـسب إلى الحـرب بما تحمـل مـن أسـود وبـذكر أدوات المعركـة وتأثيرها في حرق الوجوه وشيِّها.

ومن الذين خلدوا استبسال الأسطول الأندلسي الموحدي وهو يتصدى لأسطول الـروم الذي ما فتئ يهـاجم الأنـدلس مـن كـل جـدب وصـوب، الـشاعر القـرشي الأمـي ابـن عيـاش القرطبي، المعروف بالطليق [1] وكان قد صحب أسطول الأندلس، وأبو الحسن عبـد الملـك بـن عياش كاتب الخليفة (٥٦٨هـ) يحسن أبياته ويكررها، من هذه القصيدة:

[من البسيط]

حـــدث عـــن الـــروم في أقطـــار أنـــدلس — والبحـــر قـــد مـــلأ العـــبرين بـــالعربِ
مـــن كـــل مـــن يـــترك الهيجـــاء في حلـــك — جمـــر إذا أخـــضرت الغـــبراء بالعـــشبِ
مقلـــــب بـــــين مـــــشتاةٍ وهـــــاجرةٍ — تقلـــب الـــسيف بـــين المـــاء واللهـــبِ
يرمـــي بهـــم ظهـــر طـــرفٍ بطـــن ســـابحةٍ — فـــالبر في شـــغل والبحـــر في صـــخبِ

وتعـــبر المـــاء مـــنهم نـــارُ عاديـــة — يـــصلى بهـــا عابـــد الأوثـــان والـــصلب
وطـــود طـــارق قـــد حـــل الامـــام بـــه — كـــالطور كـــان لمـــوسى أيمـــن الرتـــب

---

* (الطيارة(من أنواع السفن المستخدمة في الأسطول البحري لها مكانة حيوية في المعارك لسرعتها، ويجعل ابـن حمديس من البحر عيناً ومن الطيارة بؤبؤ العين وأنسانه.

[1] (عُرف بالطليق بسبب جده الذي أطلقه رسول الـلـه ρ كتاب المن بالامامة لابن أبي صاحب الصلاة، ت: عبد الهادي النازني: ١٥٣ دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٧٩

لـو يعـرف الطـور [1] مـا غـشاه مـن كـرم　　لم يبــسط الغــور فيــه الكـف للــسحبِ
ولـــو تـــيقن بأســـاً حـــل ذروتـــه　　لعـاد كـالعهن مـن خـوفٍ ومـن رهـبِ

إلى أن يقول مادحاً الخليفة:

ملــكٌ إذا مــا دعتــه الحــرب مــن بعــدٍ　　طــار الــسفين أمــام الجحفــل اللجــب

يذكر صاحب كتاب (المن بالامامة(عندها تهلل وجه الخليفة لحسن أغراض القصيدة وقد هزته أريحية المعارف بما فيها من أوصاف.

إن الشاعر يقدم في هذا النص معاني ليست مستغلقة على الفهم وإنما هي حقائق يسردها، يستقصي معانيه من عالمه المادي المحسوس، في وصف أشد المواقف هولاً لمعرفة حقائق المعركة، وقد أهتم بتفاصيل المعركة وأوصاف أدواتها وقد أستعان بمعانٍ قرآنية ذكرناها في موضوع الاقتباس بالتفصيل.

أما ابن الآبار (٦٥٨هـ) فله في رسم صورة الأسطول وأظهار سطوته من المعاني والأفكار في وصف أنواع السفن الحربية وما فيها من مظاهر العنف والشدة والسطوة وتظهر في الصورة صورة للخيول التي ضمرها الجري يقول: [من الوافر]

ستـــــصدمكم وتـــــصمدكم خيـــــولٌ　　مـــن الأســـطول ضـــمرها الجـــراء [2]

---

(١) الطور الجبل العظيم الذي كلم اللـه موسى ‏U.
(٢) ديوان ابن الآبار، تح: عبد السلام الهواس: ٤٨، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٥.

كأمثـــــال المـــــذاكي ســـــابحاتٍ لهـــا عـــدوٌ لمـــن فيـــه أعتـــداء
مـــن الـــدهم الـــسوابق لا لغـــوبٌ [1] يثـــبط جـــريهن ولا عنـــاء

صـــحاح تـــشبه الآجـــال جريـــاً بآيـــة مـــا يجللهـــا الهنـــاءُ [2]
هـــي الغربـــان تـــسمية ومعنـــى ولـــيس لهـــا ســـوى مـــاءٍ هـــواءُ
نواعـــب أو نـــواعٍ للأعـــادي بمـــا عقبـــاه قتـــل أو ســـباءُ
بنـــات المـــاءِ حاملـــةً كـــماة بأهـــل النـــار ســـطوتها القتـــاءُ [3]
يـــسر بهـــا الهـــدى ويقـــر عينـــاً ولكـــن الـــضلال [4] بهـــا يـــساءُ

في وصف الأسطول قدم صورة الخيول التي اندفعت من السفن لتصدم وتغالب العدو ثباتاً في المعركة في نوع من الجناس المقلوب بين (تصدمكم و تصمدكم)، ولاظهار قوة المقاتلين أنهم يخوضون هذه المعركة بخيول سريعة ضامرة (لها عدو لمن فيها أعتداء) وقد وظف هذه المحسنات اللفظية لإكساب النص ايقاعاً قوياً يشد السامع ويرهب العدو، ويعطف بعد هذا الوصف إلى تصوير الأسطول بسفنه (الدهم) لطلائها القار حيث لا تعب ولا اعياء يوقف جريها لصدم العدو، ثم يوظف أسماء السفن بكنايات تظهر عظمة هذا الأسطول وقوته (تشبه الآجال) و (الغربان) و (نواعب ونواعٍ) و (بنات الماء).

---

(1) لغوب: التعب والإعياء (المعجم الوسيط: ٣١٤/١).
(2) الآجال: جمع آجل، وجمع الجمع: إجل، وهو القطيع من الضباء.
(3) الهناء: القطران، ومعنى تصمدكم من صادمه مصادمة أي غالبه في الصمود والثبات (المعجم الوسيط، ١: ٥٢٥).
(4) القتاء: الاقتدار.

٢- وصف السفن على إختلاف أنواعها:

برز هذا الاتجاه الشعري عند شعراء البحرية الاندلسية جميعهم، منهم الشاعر الأعمى التطيلي (٥٢٥هـ)، والشاعر ابن حمديس (٥٢٧هـ)، والشاعر ابن حريق (٥٧٠هـ) والشاعر إبراهيم بن سهل (٦٥٩هـ) والشاعر أحمد بن سيد الأشبيلي (٥٧٨هـ) والشاعر أبي عمر يزيد بن عبد الله الأشبيلي (٦١٢ هـ).

ففي مدحةٍ لابن زهر يصف الشاعر الأعمى التطيلي[*] (٥٢٥هـ) سفنه، يقول:

[من الكامل]

لبيك عن سري وعن إعلاني ... ما شئت من بوحٍ ومن كتمان [١]

ركاب أهوال قريع حوادثٍ ... طلاب أوتارٍ رفيع مبان

ركب اصطكاك الموج في أمثاله ... من حملهِ المتدافع الاركان

تسمو به حبلى [٢] عقيم أمكنت ... بصمات بكر في هداة عوان

من كل حاملة وقل محمولة ... لو لم تعم عدت من الغربان

طوع الرياح أو الرياح تطيعها ... حكمان متفقان مختلفان

فكلاهما فرسا رهان برزا ... سبقاً وإن لم يجريا لرهبان

تحنو على سكانها لا عن هوى ... وتضيع أنفسهم لغير هوانِ

---

[*] هو أحمد بن عبد الله بن أبي هريرة، يُنسب الى قبيلة قيس والى بلده فيقال التطيلي الأشبيلي،كان ضريراً لذلك لُقب بالأعمى،يمثل عصر المرابطين،ويتحدد نشاطه الشعري بعهد علي بن يوسف بن تاشفين أمير المسلمين(٥٠٠-٥٣٧هـ)الديوان: أ و هـ

[١] ديوان الأعمى التطيلي،تح:إحسان عباس:١٩٦،دار الثقافة بيروت - لبنان ١٩٦٣.

[٢] حبلى عقيم: كناية عن السفينة (هامش الديوان: ١٩٨).

وقد أجاد ابن حمديس في وصف السفن ومنها نوع يسمى بـ (الحربية) وأرى فيما ذهب إليه الباحث ؛ د. مصطفى محمود الحلوة في أن ابن حمديس وصف مظاهر الطبيعة كلها لكنه لم يصف زورقاً أو سفينة بقول: ((ولكن ما يجير البال أن ابن حمديس قد وصف كل مظاهر الطبيعة حتى البراغيث ووصف الأنهار والسواقي ولكنه لم يصف سفينة أو زورقاً لا في جده ولا في هزله)) [1] أنه لم يطلع على ديوان الشاعر كاملاً.

يقول ابن حمديس في وصف حربية: [من الوافر]

حسامك نور ذهنك فيه صقل — وعزمك في العناء له غرارُ [2]
لقد أضحى على دين النصارى — لدين المسلمين بك أنتصارُ
حميت ذماره براً وبحراً — بمرهفة بها يحمى الذمارُ

وينتقل إلى وصف السفن وفعلها بالعدو:

رأوا حربية ترمي بنفطٍ — لإخماد النفوس لها أستعارُ
كأن المهل في الأنبوب منه — إلى شي الوجوه له ابتدارُ
كأن منافس البركان فيها — لأهوال الجحيم بها أعتبارُ
نحاس ينبري منه شواظٌ — لأرواح العلوج به بوارُ
وما للماء بالإطفاءِ حكمٌ — عليه لدى الوقود ولا اقتدارُ

---

(1) شعر البحرية في الأندلس د. مصطفى محمود الحلوة: ٦٥، مطبعة البهجة، أربد، الأردن، ط١، ١٩٩٥.
(2) ديوان ابن حمديس: ٢٣٨- ٢٣٩ .

وأنت تقرأ هذا النص لأبن حمديس تعيش جو المعركة البحرية، من أشرعة ونيران وموت ووصف دقيق لأنواع السفن الحربية، وكأن المعركة تدور أمامك، وكأن البحر قد أزدحمت سفنه وتعالت فيه الأشرعة، وأنارت الحمم والقذائف تلاطم أمواج البحر المظلم، فصارت الأمواج ساحة قتال، غبارها دخان المدافع، فللبحر صورة تنطق وللسفينة صورة أخرى، أعطى الألفاظ لوناً وحركة وحياة فصار البحر ضعيفاً أمام قدرة النيران فلا حكم له بأطفائها:

وما للماء بالإطفاء حكمٌ ... عليه لدى الوقود ولا اقتدارُ

وأعطى للسفينة قوة واقتداراً كما في البيت الأول، وجعل خوف الأعداء وهزيمتهم وفرارهم من مظاهر قوة المسلمين بترابط أبيات النص والتلاؤم بين المعاني والألفاظ.

ولابن حمديس في تصوير (حربيته) التي أذاقت العدو الموت ألواناً، وجعلت الهلاك محيطاً بهم من كل جانب، مرة بالطعن، وأخرى بالنار، وبالنفط، يقول:

[من الطويل]

صقلية كاد الزمان بلادها ... وكانت على أهل الزمان محارسا [1]
هم فتحوا أغلاقها بسيوفهم ... وهم تركوا الأنوار فيها حنادسا
وساقوا بأيدي السبي بيضاً حواسراً ... تخال عليهن الشعور برانسا
يخوضون بحراً كل حين إليهم ... ببحر يكون الموج فيه فوارسا
(وحربية) ترمي بمحرق نفطها ... فيغشى سعوط الموت فيها المعاطسا

---

[1] ديوان ابن حمديس: ٢٧٥- ٢٧٦، ط٢.

تــــراهن في حمــــر اللبـــــود وصـــــفرها كمثــل بنــات الــزنج زفــت عرائـــسا

إذا عثننـــــت [1] فيهـــا التنانيـــــر خلتهـــا تفتـــح للبركـــــان عنـــــها منافـــسا

صورة لمعركة بحرية في جهاد العدو والانتـصار عليـه، تـتجلى فيهـا مظـاهر البطولـة والشجاعة مقترنة بذكر أدوات المعركـة مـن سـيوف وبحـر ومـوج وفـوارس وحربيـة والـنفط والتنانير ومنافس البركان التي جعلت أجواء المعركة أكثر عنفاً ورهبة، نلحـظ مـن هـذا الـنص صدى انتصار المسلمين، وصورة رائعة من صور الكفاح والبطولة الـصادقة يـوم ذاك بإحـساس وطني متدفق وقد خلع عليها من أصاله فنه وعمق شاعريته افتخاراً بقومه وبلائهم.

ولابـن حريـق (٥٧٠هــ) [2] معنـى طريـف في وصـف الـسفن، يقـول فيـه (المقـري التلمساني([3] (وما أحسن قول شيخنا ابن حريق في هذا المعنى) ويورد النص الآتي: [4]

[من الكامل]

وكأنمـــــا ســــكن الأراقـــم* جوفهـــا مـــن عهـــد نـــوحٍ مـــدة الطوفـــان

فـــإذا رأيـــن المـــاء يطفـــح نضنـــضنت مـــن كـــل خـــرتٍ حيـــةٌ بلـــسانِ

---

(١) عتننت: دخنت.

(٢) ذكر ابن الابار أن وفاة ابن حريق (٦٢٢هـ). (ابن الابار حياته وكتبه، تـح: عبـد العزيـز عبـد المجيـد: ١٢٩). وهو شاعر متبحر في اللغة والأدب حافظ أيام العرب وأشعارها. ينظر: معجم الحضارة الأندلسية: ١٤٩.

(٣) المغرب في حلى المغرب: ٣٢٠/٢ .

(٤) ديوان ابن سهل الأندلسي: ١٢٠.

أما الشاعر إبراهيم بن سهل الأندلسي (٦٤٩هـ) فقد أبدع في وصف السفن بأنواعها وما تحدثه في الأعداء من مدحة لأبي خلاص صاحب سبته، يقول**:

[من الطويل]

لمـــن خافقـــات قـــد تعـــودت النـــصرا ... هـــواف بهـــا الإســـلام والملـــك قـــد قـــرا [1]

لـــــئن لقبوهـــــا بالعقـــــابِ فإنهـــــا ... قـــد أتخـــذت قلـــب العـــدو لهـــا وكـــرا

لقـــد فتـــك الأســـطول في الـــشر فتكـــة ... غـــدا غبهـــا حلـــواً ومـــشهدها مـــرا

أتتـــــك بفـــــتح أورد الملـــــك عذبـــــه ... وأهـــدت بـــه الحـــرب العـــوان يـــداً بكـــرا

حكـــت في بـــديع الـــشكل عنقـــاء مغربـــاً ... وســـميت الغربـــان إذ نعـــت النكـــرا

جـــرى ابـــن خـــلاص والانـــام إلى مـــدى ... فقـــام جميعـــاً بالـــذي فـــاتهم طـــراًٌ

فـــشا خوفـــه في الـــروم حتـــى حـــسامه ... لهـــم صـــنم ســـنوا الـــسجود لـــه جهـــرا

وأحـــــسبهم قـــــد [ثلثـــــوه] فـــــأنهم ... يـــرون عليـــه النـــور والمـــاء والجمـــرا

غـــدا حيـــوان الـــبر والبحـــر ســـيفه ... فلـــو نطقـــت قامـــت تقرظـــه جهـــرا

بملحمـــــة في البحـــــر تـــــشبع حوتـــــه ... وفي الـــبر أخـــرى تـــشبع الـــذيب والنـــسرا

جـــوارٍ إذا المـــوج الخـــضم أزدهـــى بهـــا ... تخيلتهـــا الكثبـــان حاملـــةً زهـــرا

يفخر الشاعر بقوة أسطول المسلمين ويصف سفنه ويلقبها مرة بالعقاب وأخرى بالغربان ؛ ذلك أنها أتخذت قلب العدو لها وكراً ومستقراً بتحقيق أنتصاراتها

---

* الأراقم: ذكر الحيَّاة أو أخبثها، جمعه أراقم. (المعجم الوسيط: ٣٦٧/١). ونضننت الأراقم: أخرجت ألسنتها تحركها، والأراقم ؛ جمع أرقم، وهو الثعبان الكبير. (هامش الديوان: ٣٢).

** ابن سهل الأندلسي، هو الشاعر الرقيق الوشاح إبراهيم بن سهل الأشبيلي الأندلسي، يلقب قبل إسلامه بالاسرائيلي، وكان يهودياً وأسلم، ومات غرقاً سنة ٦٤٩هـ (قصة الأدب في الأندلس: ٢٨). واختلفت الروايات في وفاته ؛ مات في البحر غريقاً (٦٦٩هـ) وذكر (٦٤٣ و٦٤٦ و٦٤٩ و٦٥٠ و٦٥٩هـ). (الديوان، تح: إحسان عباس: ٤١).

[1] ديوان ابن سهل الأندلسي: ١٢٠-١٢١.

التي أكثرت في العدو قتلاً في البحر إذ أشبعت نونه وفي البر أشبعت حيوانه ثم يصف السفن وما توحيه أشرعتها بكثبان حاملة زهراً.

والسفن أسود تحمل أسوداً في تصوير للشاعر أحمد بن سيد الأشبيلي، (٥٧٨هـ) يقول: [من البسيط]

من كل عائمة في شكل طائرةٍ تشاكل الأمر فيها كل مشتكل [1]
هي الأوسادُ إلا أنها حشيت أسداً فطالت ولولا الأسد لم تطل
سما إلى الشرق يجتاب اليباب به عتق المهارة والمهرية الذلل
تعدو عليه ذكاءً وهي قد نهبت فتستجد أناةً من سنى المقل

يحار الشاعر في وصف سرعة السفن فهي عائمة وهي طائرة، وهي أسود تحمل الأسود.

وفي هذا الاتجاه نص للرحالة ابن جبير* نرحل معه على ظهر سفينة إلى جبال دانية من جزيرة الأندلس يقول فيها: [2] [من البسيط]

لي نحو أرض المنى من شرق أندلس شوق يؤلف بين الماء والقبسِ
لاحت لنا من ذراها الشم شاهقة تدني لزهر الدراري كف ملتمس

---

(١) تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين، لابن أبي صاحب الصلاة، تح: د. عبد الهادي التازي: ١٥١، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٩.

* كان بارعاً في العربية والآداب واللغات، وكان قائماً عليها متحققاً بصناعتها، هو صاحب الرحلة المشهورة (رحلة ابن جبير) توفي في الاسكندرية سنة (٦١٤هـ) ينظر: المغرب في حلى المغرب:٣٨٤/٢. البيت الأول ذُكر في النفح للمقري،٢٣٧/٣، ط١، ١٩٩٥.

(٢) دراسة في الرحالة ابن جبير الأندلسي البلنسي الكناني وآثاره الشعرية والنثرية: ٧٥، دار الغرب الإسلامي، ط١، ٢٠٠١.

وقــد أغــذت لنــا في الــيم جاريــة **سوداء لا تستطيع الجري في اليبس**
كأنهــا وعبــاب المــاء يزعجهــا **تنص جيد مراعي اللحظ مختلس**
كــأن بــيض نواحيهــا إذا أنتــشرت **لــواء صــبح بــدا في ســدفة الغلــس**
تنازعُ الـريح منهـا صعب مقودهـا **فترتمــي بعنــان مــسمع ســلسٍ**
لــولا حــذاري أن أذكي لهــا لهبــاً **زجيتها برياح الـشوق مـن نفـسي**

لم يأت الشاعر بجديد في وصف سفنه، وكانت أوصافه نوعاً من الحقائق (سـوداء لا تستطيع الجري في اليبس) وفي البيت الرابع نوع من الجدة والطرافة وتعارف الشعراء وصـف السفينة وشراعها الأبيض بـ (لواء صبح بدا في سدفة الغلس). أما شدة شـوقه فقـد دفعتـه إلى أن يزجيها من نفسه.

٣- وصف البحر والمعارك البحرية ومشاهد الحب والحنين:

صورة للبحر في وقت هدوئه ووقت هيجانه أبـدع رسـمها الـشاعر الأعمـى التطـيلي (٥٢٥هـ) في وصف البحر وركوبه وهو يرسم صورة لبأس الممدوح الوزير ابن زهـر. يقـول: [١]
[من البسيط]

والبحـــر مـــضطرم الأمـــواج زاخرهـــا **تـــرى المعـــارف فيـــه كالمنـــاكير**
مــوفٍ عــلى الــنفس مــستوفٍ حــشاشتها **يــصور المــوت فيهــا كــل تــصوير**

[١] ديوان الأعمى التطيلي: ٥٦- ٥٩.

قـــل مـــا بـــدا لـــك إلا في غواربـــه
تـــسمو بملء عيـــون مثلهـــا صـــورُ [1]

طـــوراً كـــما هـــز عطفيـــه ذوو خنـــث
نـــاغى الـــصبا بـــين تنزيـــف وتفتـــير

وتـــارة مثـــل مـــا يهتـــاج مختبـــلٌّ
عـــال الأسى [2] غـــب تعـــذيب وتعـــذير

إذا طـــما موجـــه أو طـــم قمـــت لـــه
بمخـــبر عنـــه في البأســـاء مخبـــور

وكلـــما أربـــد يستـــشري نـــداك لـــه
فطبـــق الأرض مـــسجورٌ كمـــسجورِ [3]

كـــما تخلـــل بـــرق عـــرض ساريةٍ
فلـــم يـــزده نـــداها غـــير تـــسعير

في التجاج البحر صورة تنكر فيها المعارف في معنى أهوال ركوبه، بهذه الألفاظ الدالة على عمق الخيال والافتتان في أكسائها المعاني المناسبة يصف البحر في حال هدوئه وهيجانه، يصور الموت ألواناً كتلون أمواجه في تلاطمها، هذا البحر الذي لا يبقي في نفوس راكبيه إلا الخوف والهلع هذه الصورة وظفها في خدمة مديحه للوزير ابن زهر، لأنه ركبه غير هياب بما انطوى عليه من مخاطر وأهوال. وقد جعل من ركوب البحر قيماً مدحية أجاد من خلالها في وصف بأس الممدوح في معاركه البحرية الجهادية.

ومن صور المعارك البحرية التي تظهر قدرة جنود البحرية الأندلسية على دحر العدو، قصيدة لأبن حمديس يمدح الأمير أبا الحسن بن علي بن يحيى الذي يعد

---

(1) هكذا وردت في الديوان.

(2) عال الآسى: أعجز الاطباء.

(3) مسجور: مملوء.

مثالاً قومياً للشاعر، كما المنصور كان مثالاً قومياً لابن دراج القسطلي. يقول ابن حمديس:[1] [من الكامل]

وعبيــــدك الغلـــمان إن نـــاديتهم — نهـــضوا مواثبـــة الأســـود وثـــارو
ومـــشوا مـــع التأييـــد قامـــات إلى — هيجـــاء مـــشي حماتهـــا أشـــبارُ
ســـبحوا إلى الأعـــلاج إذ لم ينزلـــوا — مـــن فلكهـــم فحجالهـــا تيـــارُ
ورمـــــوهم بجنـــادل فكأنهـــا — لأجورهـــا عنـــد الإلـــه جـــمارُ
وبكـــل ســـهمٍ واقـــع لكنـــه — بـــثلاث أجنحـــة لـــه طيـــارُ
وحمـوا حمـى الاسـوار وهـي وراءهـم — حتـــى كـــأنهم لهـــا الأســـوارُ
وكأنمـــا حـــر المنايـــا عنـــدهم — بـــردٌ إذا مـــا أشـــتد منـــه أوارُ

في إظهار بأس وشجاعة مقاتلي البحرية الأندلسية إذ ساروا إلى أعدائهم غير راجلين وهم في سفنهم أنزلوا بهم الهزيمة، بوصفه أدوات المعركة مؤيدة من الله I ومن بديع التصوير أنهم أسوارٌ لاسوار مدينتهم.

وللشاعر الأمير أبي الربيع سليمان الموحدي (٦٠٤هـ) في (صورة مقارنة) بين البحر وأمير المؤمنين عبد المؤمن بعد فتح الأندلس وتوقفه بجيشه على شاطئ المحيط عند مدينة الرباط يقول: [من الطويل]

ألا أيهـــذا البحـــر جـــاورك البحـــر — وخـــيم في أرجائـــك النفـــع والـــضر[2]

---

(١) ديوان ابن حمديس: ٢٦٢.

(٢) الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحدي، عصره، حياته، شعره، د. عباس الجراري: ١٠٥، ط١، دار الرواد الثقافية، المغرب ١٩٧٤.

وجاش على أمواهك العقل والحجا وفاض على أعطافك النهي والأمر
وسال عليك البر خيلاً كماتها إذا حاولت غزواً فقد وجب النصر
لعلك يطغيك اشتراك سمعته فذلك بحرٌ لا يشاكله بحرُ
فأنت خديم الشمس والبدر عنوه وتخدمه في أمره الشمس والبدرُ
ويحويك شطر الأرض تغمر بعضه وفي صدره الأفلاك والبحر والبر

مقارنة البحر الحقيقي بأمير المؤمنين عبد المؤمن الذي يسكن إلى جوار البحر، حيث يشبه كرم الممدوح البحر.

وإن ذكرنا لابن حمديس صوراً لسفينة تسمى (الحربية(وهي تشوي الوجوه، وترمي بنفط يحرق الأكباد، وقد أذاقت الأعداء الموت ألواناً، نذكر صورة مغايرة فمن مشهد حرب إلى مشهد حب وشوق وحنين ووجد متقد، ففي نص لابن حيان الأندلسي (٧٢٥هـ) وهو في البحر يصف أهواله ويجعل منه اطاراً مكانياً لذلك الشوق والحنين، يقول:

[من البسيط]

ولقد ذكرتك والبحر الخصم طغت أمواجه والورى منه على سفرِ [(١)]
في ليلةٍ أسدلت جلباب ظلمتها وغاب كوكبها عن أعين البشر
والماء تحت وفوق المزن وأكفه والبرق يستل أسيافاً من الشرر
والفلك في وسط الماءين تحسبها عيناً وقد أطبقت شفراً على شفر
والروح من حزن راحت وقد وردت صدري فيا لك من وردٍ بلا صدرِ
هذا وشخصك لا ينفك في خلدي وفي فؤادي وفي سمعي وفي بصري

(١) ديوان ابن حيان الأندلسي، جمع وتحقيق، د. أحمد مطلوب وخديجة الحديثي: ٤٤٨ ط١ بغداد ١٩٦٦ مطبعة العاني أذكر نص ابن حيان الأندلسي في هذا المبحث لمناسبته على الرغم من سنة وفاته.

يرى د. أحمد عبد القادر صلاحية في هذا المقطع ((إذا كان عنترة العبسي يذكر حبيبته في الوغى في بيتيه الرائعين المشهورين فإن أبا حيان يذكر حبيبته في البحر وهو في وغى أيضاً)) [١]

أما البيتان المشار إليهما فهما: [من الكامل]

ولقــــد ذكرتـــك والرمـــاح نواهـــل منـي وبـيض الهنـد تقطـر مـن دمـي [٢]
فـــوددت تقبيـــل الـــسيوف لأنهـــا لمعـــت كبـــارق ثغـــرك المبتـــسم

وإن ذكرنا طرفاً من هذه في المبحث الثاني إلا أني أرى ما ورد منها وما ذكره أبن حيان ما هو إلا من باب أكذب الشعر أعذبه، فالحرب والوغى باب والحب باب آخر لا يلتقيان إلا في الخيال، بإظهار مشهد الشوق والحنين في أثناء ظلمة الليل، ومشهد السفن يعلوها ويجري تحتها الماء وكأنها عين أطبقت جفنيها والشوق يختلج حواسه جميعاً، وربما كان ذكر الحبيبة دافعاً وحافزاً على ملاقاة العدو بشجاعة الفارس الذي يحمي حبيبته ويدافع عن الذمار فيموت دون وصول العدو إليها، ربما حصل هذا في تفكير الشاعر أن كان في ساحة المعركة، و اللـه اعلم.

ومن القصائد التي تعددت فيها الاتجاهات قصيدة للشاعر الرصافي البلنسي، أبي عبد اللـه محمد بن غالب * (٥٧٢هـ) في مدح عبد المؤمن عند نزوله جبل الفتح،

(١) ركوب البحر في الشعر الأندلسي، مجلة التراث العربي، العدد ٦٠، ١٩٩٥: ٤٠.
(٢) جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام: ٣٣٧.
* أبو عبد اللـه محمد بن غالب الرصافي، أصله من رصافة بلنسية، بها ولد ونشأ، كان في زمانه شاعر عصره المعترف له بالإجادة، شبهه بعضهم بابن الرومي. ينظر: الديوان: ٥-١٥.

ولم تكتمل للشاعر يوم أنشدها عشرون سنة. تداخلت فيها الصور وتعددت المعاني، يقول: [من البسيط]

لـو جئـت نـار الهـدى مـن جانـب الطـور — قبـست ماشئـت مـن علـم ومـن نـور[١]

تـسنم الفلـك مـن شـط المجـاز [٢] وقـد — نـودين يـا خـير أفـلاك العـلا سـيري

فـسرن يحملـن أمـر اللـه مـن ملـكٍ — بـالله مستنـصر بـالله منـصور

لمـا تـسابقن في بحـر الزقـاق [٣] بـه — تـركن شـطيه في شـك وتجبـيرِ

ذو المنـشآت الجـواري في أجرتهـا[٤] — شكل الغدائر في سدل[٥]وتضفير

مـن كـل عـذراء حـبلى في ترائبهـا — ردعـان مـن عنـبر وردٍ وكـافور [٦]

تخالهـا بـين أيـد مـن مجاذفهـا — يغـرقن في مثـل مـاء الـورد مـن حـور

وربمـا خاضـت التيـار طـائرةٍ — بمثـل أجنحـة الفـتح الكواسـير

كأنمـا عـبرت تختـال عائمـة — في زاخـر مـن نـدى يمنـاه معـصورِ

---

(١) ديوان الرصافي البلنسي، تح: د. إحسان عباس: ٧٧، ٨٠، ٨٣، دار الثقافة، بيروت- لبنان، ١٩٨٩.

(٢) المجاز: مضيق جبل طارق.

(٣) بحر الزقاق: مضيق جبل طارق، والشك والتحيير، يفسرهما البيت التالي:

أهـزٍّ مـن موجـهِ أثنـاء مـسرور — أم خـاض مـن لجـة أحـشاء مـذعور

يعني تحير الشطان هل كان بحر الزقاق سروراً أو ذعراً.

(٤) أجرة: جمع جرير وهو الحبل تقاد به الناقة.

(٥) سَدَل الثوب و الستر والشَّعر – سَدْلاً: ارخاه وأرسله (المعجم الوسيط: ١: ٤٢٥).

(٦) أختار العنبر والكافور للون الأسود لطلاء السفينة به (هامش الديوان: ٨٠- ٨١).

ثم يصف جبل الفتح، بعدها يعود إلى تصوير البحر متكأً على الموروث الديني في بيتين ذكرناهما في باب (الاقتباس).

وقد أفتن الشاعر في أوصاف السفن في أثناء المديح بربط دقيق بين ممدوحه وما جاء في قصة موسى U وفتاه يوشع في البيت الأول، وهي إشارات إيمانية تدل على ثقافة عالية وسعة إطلاع، ومناسبة النص في تصدي قوات البحرية الأندلسية لزحف الأسبان، وقد أحرز الأسطول الموحدي في عهد عبد المؤمن انتصارات رائعة كما في قصيدة الرصافي البلنسي هذه، فالسفن في قوتها وسرعة انقضاضها كالطائر في السماء، مما يؤكد روح الاستبسال والقتال، في جهاد الأعداء بـ (أمر اللـه)، (بالله مستنصر) وفق في استخدام المحسنات البلاغية من كناية وتشبيه وإستعارة (المنشآت الجواري) و (عذراء حبلى) وذكر المجاذيف و (خاضت طائرة)، (أجنحة الفتح الكواسير) و (تختال عائمة).

وقد أظهر الشاعر مقدرة فائقة في إثارة مخيلة المتلقي من خلال علاقة الصور الشعرية والمعاني التي ذهب إليها على محاكاة الممدوح والموصوف، ونقله إلى المتلقي كما لو كان يراه، وفي تشبيهه واستعاراته وفنون البلاغة التي أستخدمها جعلنا نشعر بشيء حسي أو نواجه شيئاً محسوساً.

المبحث الرابع

البحرية الإسلامية في الشعر الأندلسي في عهد مملكة غرناطة ٦٣٥-٨٩٨هـ ١٢٣٧- ١٤٩٢م

عرضت في المباحث السابقة ومن قبلها في التمهيد صوراً تاريخية وشعرية رائعة لجانب من انتصارات المسلمين وحياتهم الإيمانية المستمدة من دينهم الذي أبلغهم العزة والقوة بعد أن أرخصوا النفوس تضحية وشهادة، لكنهم يوم تولوا عن مبادئهم تولت عنهم قوتهم، وتفرقوا فاحبوا الشهوات وأنغمسوا في ملذاتها فغادرتهم عزيمتهم، فلم يجدوا إلا الذل والصغار، وضياع أمة الأندلس. وهكذا قضى الله، وزفر العربي زفرته الأخيرة عندما أجهش أبو عبد الله الزغيبي آخر ملوك غرناطة بالبكاء وحق لأمه عائشة إن صاحت به ؛ (أجل فلتبك كالنساء ملكاً لم تستطع أن تدافع عنها كالرجال [١]).

وفي الوقت الذي أخذ فيه سقوط المدن في أيدي الفرنج، كان محمد بن الأحمر يعمل جاهداً من أجل بسط سلطانه على القواعد الجنوبية، بعد انهيار سلطان الموحدين في الأندلس، وفي الوقت الذي حان فيه سقوط الأندلس ((وأنه لم يبق على أسبانيا النصرانية إلا أن تجتني بقية تراثها الممزق وأن تختتم هذه السلسلة من معارك الاسترداد))[٢] La Reconquista((العظيمة بضربة أخيرة... لولا أن شاء

---

[١] نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين: ٢٦٧.

[٢] عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس: ٣٣.

القدر أن تلتئم هذه الأنقاض المتناثرة من تراث الأندلس الكبرى وإن تبعث من بينها قوة فتية جديدة تتمثل في قيام مملكة غرناطة آخر دول الإسلام في الأندلس)[١].

أستطاع محمد بن يوسف ملك أرجونة *(٦٣٥هـ) ضم مدن عديدة إلى مملكته واستولى على مدينة غرناطة سنة (٦٣٦هـ) وجعلها حاضرة لدولته، وسميت مملكة غرناطة [٢]، وأن عُد هذا انتصاراً إلا أنه كان بداية انهيار دولة الأندلس.

لقد شكل ازدهار المسلمين في الأندلس ثم انهيار دولتهم وسقوط حضارتهم ظاهرة لافتة الانتباه من تاريخ الإسلام السياسي والعلمي والفكري... ثم أن هذا الانهيار الذي أعقب ذلك الازدهار لا نظير له كما يراه د. علي الكتاني يقول: أن الانهيار الذي تلا هذا الازدهار لا نظير له ولا مثيل في تاريخ سقوط الأمم وإنهيار الحضارات... لقد كان السقوط في تلك البلدان سقوطاً عسكرياً [٣]، وإنهياراً سياسياً فقط ولم يتعد إلى الجانب الفكري والنفسي والعاطفي والديني ولم يؤد إلى تصفية الوجود الإسلامي تصفية كاملة كما أدى ذلك في الأندلس [٤].

أما كيفية تصفية الوجود الإسلامي كاملة، فقد أشرنا إلى ظاهرة التنصير القسري للمسلمين بفعل محاكم التفتيش سيئة الصيت وقد مثل المأساة شاعر مجهول نظم وثيقة وصف فيها وضع الأندلسيين وصفاً مؤثراً، يقول: [من الطويل]

---

(١) ينظر: الأدب العربي في الأندلس: ١١٩-١٢٠.

* أرجونة مدينة أو قلعة بالأندلس، يُنسب إليها محمد بن يوسف بن الأحمر الأرجوني من متأخري سلاطين الأندلس. ينظر:صفة جزيرة الأندلس من كتاب الروض المعطار: ١٢.

(٢) عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس: ٣٣/١.

(٣) ينظر: انبعاث الإسلام في الأندلس: ٥-٦ (ويذكر الكاتب بعض الشواهد منها: كما حصل في نهاية دولة المغول الإسلامية على أيدي الهندوس والإنجليز في الهند، وسقوط حكومات إسلامية في بخارا وسمرقند، ومدن أخرى من مدن آسيا الوسطى - منطقة ما وراء النهر - وانهارت دول الإسلام المتعددة في بلاد أفريقيا).

(٤) ينظر: المصدر نفسه.

سـلامٌ علـيكم مـن عبيـد تخلفـوا بأنـدلس بـالغرب في أرض غربـةٍ [1]
احـاط بهـم بحـرٌ مـن الـروم زاخـرٌ وبحـر عميـق ذو ظـلامٍ ولجـةٍ
غـدرنا ونـصرنا وبـدل ديننـا ظلمنـا وعوملنـا بكـل قبيحـةٍ
وكنـا عـلى ديـن النبـي محمـد نقاتـل أعـمال الـصليب بنيَّـةٍ
فيـا ويلنـا يـا بـؤس مـا أصـابنا مـن الـضر والبلـوى وثـوب المذلـة

يظهر صورة المسلمين الأندلسيين الـذي لم يهـاجروا مـن الأنـدلس وقـد أحـاط بهـم بحران بحر الروم الزاخر وبحر معركة التنصير والتعذيب والمعاملـة التـي لا تخلـو مـن قبـائح الأعمال وما آل إليه وضع المسلمين في بلاد الأندلس.

ومـن الناحيـة الفكريـة والثقافيـة فقـد صـدر مرسـوم يقـضي بحـرق جميـع الكتـب الإسلامية والعربية فحرقت ألاف الكتب في ساحة الرملة أكبر ساحات غرناطة ثم تتـابع حـرق الكتب إلى أن وصل ما حرق منها حوالي مليون كتاب، ويشير المؤلف إلى هـذه الجريمـة بأنهـا: من أكبر جرائم الكنيسة والدولة الإسبانية في الأندلس وفي حق الحضارة الإنـسانية، وبالتنـصير الاجباري وظهور مأساة محاكم التفتيش، وبحرق النتاج الفكري الإسلامي العربي كانت تصفية الوجود الإسلامي، وأعلن الأسبان رسمياً انقراض الإسلام في الأندلس ولم يعـودوا يـذكرون أسـم المسلمين بهـا إلا بــ (النـصارى الجـدد(أو المورسـكيين وهـي كلمـة تـصغير (مـورو) للتحقـير، و(مورو(عندهم المسلم [2].

هذه النهاية المروعة شـكلت عنـد المـسلمين وعنـد الأوربيـين عقـدة أسـمها (عقـدة الأندلس(كانت وما تزال حتى يومنا هذا كما يرى ذلك محمد نمر المدني يقول: أن

---

(1) ينظر، انبعاث الإسلام في الأندلس: ٦٣ - ٦٥.
(2) ينظر: الأدب العربي في الأندلس: ١١٩- ١٢٠.

للأندلس عقدة عند المسلمين وعند الأوربيين على حد سواء فعقدة الأندلس عند المسلمين هي مقول ؛ غزو المسلمين القديم والقضاء على الجيوش الغربية - وهذا ما أشرنا إليه في التمهيد - وإقامة ممالك عربية أو إسلامية أستمرت لسبعة عقود من الزمن تلاها تآمر على المسلمين ودحرهم عن أوربا كافة وإبادة الأوربيين الذين أعتنقوا الإسلام تلك الأحداث التاريخية التي يصعب نسيانها ثم الحملات الصليبية... تسببت في أحداث عقد حقيقية لدى المسلمين، ويرى المؤلف أنه لحد الآن تختلط الصور الأوربية الحديثة بصورة الأندلس الغابر في أذهان المسلمين، يقول نزار قباني في طوائر ودروب غرناطة اليوم هي ذات طابع دمشقي خالص، ويرى في فتاة غرناطية حفيدة طارق بن زياد يقول:

في مدخل الحمراء كان لقاؤنا

وجه دمشقي رأيت خلاله أجفان بلقيس

وجيد سعاد

عانقت فيها عندما عانقتها

رجلاً يسمى طارق بن زياد [١].

ويعقب المؤلف على هذا النص يقول: نزار قباني يعكس صورة التطلع العربي الإسلامي نحو الأندلس... فهو كغيره يحمل عقدة الأندلس المؤلمة [٢].

أما العقدة الثانية عقدة الأندلس والغزو الإسلامي لأوربا ما زالت ماثلة في أذهان الأوربيين عموماً وهذه العقدة تحفز في الأوربيين دافعين هما ؛ دافع العدائية

---

(١) الأعمال الشعرية الكاملة، نزار قباني، مج٢، ج٣: ١٥٦-١٥٨ (د. ت).

(٢) ينظر، عقدة الأندلس وأسلمة أوربا، محمد نمر المدني: ٩ -١١، دار أرسلان، سوريا، دمشق، ٢٠٠٨.

للمسلمين والعرب، ودافع التفكير والتأمل بالتاريخ ودروسه، وهو التفكير في حقيقة الأحداث التاريخية وعلى حقيقة ما فعله المسلمون في الأندلس [١] وأرى كما يرى المؤلف أن (محرقة الموريسكوس مولدة العقدة)[٢].

كان للبحرية الأندلسية في غرناطة أو ما يسمى بـ (سلاح البحرية النصرية)[٣] وجود يذكر، وكان أمير البحر يعرف بأسم (قائد البحر(و(قائد الأسطول) وكان قائد البحر ابو الحسن علي الرنداحي مسؤولاً عن وحدات الأسطول، وفي (٧٠٦- ٧٠٨ هـ) عمد محمد الثالث النصري إلى مهاجمة جزر البليار، وسيطر على مضيق جبل طارق كما ضربت أساطيله مدن مملكة اراغون الساحلية [٤].

لقد أستطاعت هذه الدولة الوقوف بوجه التوسع الأسباني مدة قرنين ونصف في الوقت الذي كان فيه ملوك الأسبان ينشغلون عنها بمحاربة بعضهم الآخر، وكان ملوك غرناطة يستنجدون بملوك المغرب عند تعرضهم للخطر [٥] إذ مدت المراكب النصرية (جسراً بحرياً بين مملكة غرناطة وبلاد العدوة [المغرب] لإيصال المؤن ونقل الجيوش) [٦].

وأما سبب انهيار قوة غرناطة البحرية وأدى إلى سقوطها فهو سقوط المدن المقابلة للمغرب [٧].

---

(١) عقدة الأندلس وأسلمة أوربا: ١٣.
(٢) المصدر نفسه: ١٦.
(٣) غرناطة في ظل بني الأحمر د. يوسف شكري فرحات: ٩٦، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت- لبنان، ط١، ١٩٨٢.
(٤) ينظر: غرناطة في ظل بني الأحمر: ٩٦.
(٥) ينظر: في الأدب الأندلسي د. جودت الركابي: ٣٠.
(٦) غرناطة في ظل بني الأحمر: ٩٦.
(٧) المصدر نفسه: ٩٦.

إلا أن سماء الشعر الأندلسي في غرناطة التي أعادت الحركة الأدبية إلى أخذ دورها في الأحداث أطلعت لنا علمين ممتازين هما الوزير لسان الدين بن الخطيب (٧٧٦هـ)، والوزير ابن زمرك (٧٨٩هـ)، إلا أن الأستاذ غرسيا غومس يرى أن امتيازهما لم يكن شيئاً جديداً أتيا به وإنما لكونهما استطاعا أن يرددا أصداء الماضي في نغم نادر جميل [١].

وأرى أنه لو لم يكن لهما إلا هذا (النغم النادر الجميل) فهو فخر لهم لأن شعرنا ما هو إلا كلام مكرر ومنذ عصر ما قبل الإسلام. ويرى الكاتب ؛ أن ابن زمرك هو آخر وتر رجع أنغام ابن خفاجة وقد زينت أشعاره جدران قصر الحمراء، ويرى في ابن الخطيب ((كان كاتباً مكثراً وأديباً بليغاً ومؤرخاً وشاعراً)) [٢].

ومن شعراء الأندلس في عهد مملكة غرناطة الذين كانت لهم في البحر مساحة تذكر من غير ابن الخطيب وابن زمرك، ابن الابار (٦٥٨هـ)، وابن فركون (٧٤٧هـ)، وابن رضوان (٧٥٧هـ)، ومحمد بن يحيى بن غالب (٨١٩هـ)، وعبد الكريم القيسي (ق٩هـ).

وفي هذا المبحث كما المباحث السابقة توزعت نصوص شعر البحرية الأندلسية الجهادية في عهد مملكة غرناطة (٦٣٥- ٨٩٨هـ) على الاتجاهات نفسها، إلا أن نصوصاً في غرض بكاء المدن ورثائها، أو في الاستنجاد واستصراخ حكام دول الجوار المسلمين، تم التوسع فيها كنتيجة لما فرضته طبيعة الحياة السياسية والحروب التي خاضتها مملكة غرناطة فيما سمي بـ (معارك الاسترداد(، (La Reconquista(وما خلفته من

(١) ينظر: الشعر الأندلسي، غرسياغومس: ٧٢.
(٢) المصدر نفسه: ٧٢.

عوامل نفسية أثر في طبيعة الأمة الأندلسية التي أختزلتها مملكة غرناطة، والاتجاهات هي:

١- وصف الأسطول:

شارك هذا الاتجاه من شعراء مملكة غرناطة ؛ ابن الابار (٦٥٨ هـ)، وابن رضوان (٧٥٧هـ) وملك غرناطة يوسف الثالث (ت قريباً من ٨١٩هـ)[١] ولسان الدين ابن الخطيب (٧٧٦هـ).

خلد ابن الابار (٦٥٨هـ) توجه الأسطول العربي الأندلسي بقيادة السلطان ابن زكريا لنجدة (بلنسية)، يقول: [من الوافر]

جـوارٍ منـشآت في تبـارٍ ... إلى الفـوز العظـيم بما تـشاء[٢]
وجـردٌ مقربـات أيـدتها ... وقـد هبـت بإعـصاف رخـاءُ
كتائـب لا يحـيط بهـا كتـابٌ ... يـضيق برحبـه عنهـا الفـضاء
إذا نزلـت بـساحات الأعـادي ... صـباحاً لم تلبثهـا الـضحاءُ

يصف الأسطول بعد استجابة الممدوح لنداء الجهاد بألفاظ موحية فيها تأثير البيئة الأندلسية التي أضفت على النص جمالية فنية (الأرض، السماء، الرياح، الفضاء) وأظهر البيت الأخير شجاعة الأسطول العربي.

---

(١) مقدمة القصيدة العربية في الشعر الأندلسي، د. هدى شوكت بهنام: ٢٨٢
(٢) ديوان ابن الابار: ٤٩.

وللشاعر ابن رضوان (٧٥٧هـ) وهو يصف انتصار الأسطول الأندلسي، أسطول أبي عنان المريني، على الأسطول الأسباني في جبل طارق عام (٧٥٠هـ) يقول:

[من الطويل]

ولما استقامت بالزقاق أساطلٌ — واستقلت للسعودِ محافلاً [1]
رآها عدو الله فأنفض جمعه — وأبصر أمواج البحار أساطلا
ومن دهش ظن السواحل أبحراً — ومن رعب خال البحار سواحلا
ومن جندكم هبت عليه عواصفٌ — تدمر أدناها الصلاب الجنادلا
حداهم هواهم للأسار وللفنا — فما أفلتوا من ذا وذاك حبايلا
فهم بين عانٍ في القيود مصفدٍ — وفانٍ عليه السيف أصبح صايلا

يظهر الشاعر عظمة أساطيل المسلمين التي أرهبت العدو، فما أن رآها تفرقت جموعه، ولشدة خوفه تخيل أن أمواج البحر أساطلا خوفاً ورعباً وبخيالٍ راقٍ عطف على تخيلهم الأول تخيلاً ثانياً بأنهم توهموا السواحل أبحراً وبعدها الأبحر سواحلا وفي هذا اظهار لعظمة الأسطول الإسلامي، وقد نجح الشاعر بإختياره عباراته الموحية بهزيمة العدو (فأنفض جمعه) و (خال البحار سواحلا) و(عانٍ في القيود مصفد) وتحمل هذه العبارات انتصار المسلمين أيضاً، ونلحظ ترابط الأبيات بوحدة عفوية، بمشاعر صادقة.

---

(1) الاحاطة: ٣: ٤٤٣، وفي النفح: ٦: ١٠٧، وابن رضوان هو أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان بن يوسف كان من علماء العربية في غرناطة توفي ٧٥٧هـ

ولابن الخطيب * (٧٧٦هـ) يقول: وأنشدت السلطان - أيده الله- بالقصر من مالقه عند توجهه إلى تجهيز الأسطول لبعثهِ إلى الجزيرة الخضراء عام (٧٤٢هـ). لرد الافرنج بعد أن أستأسدوا على المسلمين في وقعة طريف ** سنة (٧٤٢هـ) واستولوا على الجزيرة يقول:

[من الطويل]

حثثت ركاب العزم في خير وجهةٍ ... أتيح بها الإسلام برد آعتلاله[1]
ولما أرحت السير في قصر ريةٍ ... بعزم تضيق الأرض دون مجاله
رأى منك بحر الماء بحراً من الندى ... فواصل منه الموج لثم نعاله
زجرت بها الأسطول يبتدر العدى ... ويمضي إلى ما اعتاده من فعاله
فلله عيناً من رآها صوافنا ... أفاض عليها القار سحم جلاله***
إذا ساعدتها هبة الريح أسرعت ... كما أنساب أيم الروض غب إنسلاله

وغربان** أثباج زجرت سنيحها ... ويظهر نجح الأمر في حسن فاله**
وغيل ليوثٍ غابه من سلاحه ... وآساده يوم الوغى من رجاله
جوارٍ غذاها الغزو در لبانهِ ... وحجبها الإسلام تحت حجاله

* هو لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني، درس الطب والفقه والآداب، وبرز شاعراً مجيداً وكاتباً بليغاً، أوقع بينه وبين السلطان ابن جياب سلطان غرناطة (٧٤٩هـ)، فسجن ثم قُتل خنقاً سنة (٧٧٦هـ) ينظر: معجم الحضارة الأندلسية: ٢٠٩.

** هي المعركة التي نشبت بين المسلمين بقيادة علي بن الجياب سلطان المغرب الذي بلغ أسطوله البحري مئة وأربعون سفينة، وقد لحق به السلطان يوسف ملك غرناطة (٧٤١هـ) وكانت معركة هائلة سالت فيها الدماء غزيرة من المسلمين، وذبح فيها أفراد عائلة السلطان بوحشية مروعة. ينظر: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين: ١٢٧-١٢٨.

[1] ديوان ابن الخطيب: ٢/ ٤٨٣- ٤٨٥.

*** الجلال: الثياب.

**** الغربان: كلمة مرادفة، قطع بمعنى السفن القديمة التي تسير بالقلوع والمجاذيف، وأُتباج: جمع الثبج: وسط الشيء إذا تجمع وبرز.

هـــوافٍ إلى حـــرب العـــدو وإنمـــا وثقـــن بنـــصر اللـــه يـــوم قتالـــهِ

ولابن الخطيب (٧٧٦هـ) في مدح السلطان محمد بـن أبي العبـاس واصـفاً الأسـطول يقول: [من البسيط]

إن يحـــسدوك أبـــا العبـــاس فهـــو لكـــم ذكـــرٌ جميـــلٌ وللحـــساد أشـــجان [1]
أعـــد توفيقـــك الأســـطول يقدمـــه نـــدبٌ أرى الملـــك عينـــاً وهـــو انـــسانُ
يرمـــي بـــه البحـــر في فلـــك زجـــرت بهـــا طـــيراً لهـــن مـــن الألـــواح أبـــدان
كأنمـــا البحـــر معنـــى مـــشكل صـــدعت عـــويص إشـــكاله مـــنهن أذهـــان
خـــضرٌ ودهـــمٌ وحمـــرٌ مـــذ بـــدت علمـــت بهـــا اعاديـــك إن المـــوت ألـــوان
فالخـــضر قـــضب لهـــا الأعـــلام عـــن ورقٍ لـــو أثمـــرت قبلهـــا بـــالحتف قـــضبان
والحمـــر يزهـــي بهـــا المـــوج الخـــضم كـــما تختـــال في زهـــرات الـــوردِ كثبـــان
والـــدهم تـــستوقف الأبـــصار حلكتهـــا كأنهـــا فـــوق خـــد المـــاء خـــيلان
كأنمـــا عـــدوها إثـــر الطريـــد بهـــا رقـــص بحيـــث (صـــليل) الهنـــد ألحـــان

يمدح السلطان بالذكر الجميل، وقدرته في تسيير الأسطول الذي ضاق به البحر عـلى سعته، جعل من أمواجه غرائب المـشكلات، ليظهـر عظمـة الأسـطول الـذي يمخـر بحـراً بهـذا الطغيان سفن بألوان طحالب البحر خضراً وبالقار طلاءً أذاقت العدو ألوان المـوت، أكـثر مـن الصور البيانية والبديعية بتوليد المعاني وتوسيع جوانب الصورة مما أظهرت النص لوحة زاهية ؛ أعلامك الحمر في البحر كزهرات الورد، إلى

---

[1] ديوان ابن الخطيب: ٣٤٢/١ – ٣٤٣.

سواد السفن كأنها الخال فوق خد الماء، بالانتقال مـن مواقـف الحـرب إلى مـشاهد حسية وصولاً إلى قدرة التخييل في إجادة الربط بين جـري الـسفن أثـر العـدو ورقـص ألحانـه صليل السيوف.

وللملك غرناطة يوسف الثالث (٨١٩هـ) واصفاً الأسطول أيـام عـز الدولـة وانتـصاراتها يقول: [من الكامل]

لمـــن الحمـــول وركبهـــا متـــضمخُ ... العـــز يعـــرب والمكـــارم أرســـخُ [١]
وســـوابح البحـــر الميـــامن صـــفقت ... أعلامهـــا ولهـــا الجنـــاح الأفـــتخُ

لكـــأن بهـــا وهـــي الـــسوابق للـــوغى ... وبهـــا بـــلاد المـــشركين نـــدوخُ
أمحـــدث عـــن عزمنـــا ومـــؤرخٌ ... الـــصدق ذلـــك [٢] أيـــة لا تنـــسخُ
نحـــن الألى لا تـــستفز حلومنـــا ... الطـــود أرسى والعـــزائم أرســـخُ

يفخر الشاعر بعروبته ومكارمها، ويظهر قوة الأسطول ومكانته الـسامية في المعـارك الجهادية التي دوخت الأعداء بعزيمة لا تستفز، ويبقى الطود يطاول الأعداء.

٢- وصف السفن بأنواعها:

شارك في هذا الاتجاه شاعران ؛ ابن الخطيب (٧٧٦هـ) وابن زمرك (٧٩٧هـ).

---

(١) ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث، تح: عبد كنون: ٣٧- ٣٨ ، معهد مولاي الحسن، ١٩٥٨.
(٢) هكذا وردت في الديوان.

لابن الخطيب في الوقيعة الحربية بالروم عام (٧٤٠هـ) يمدح السلطان ويصف السفن، يقول: [من الكامل]

فتحت سعودك كل بابٍ مبهمٍ ... وجلا يقينك كل خطبٍ مظلمِ (١)
يا عصمة الثغر الذي دارت به ... أعداؤه دور السوار بمعصمِ
ولك الجواري المنشآت سوابحا ... في اليم أمثال الصقور الحوم *
فتح القوادم للفنا قد أبرمت ... أمراً بها كف القضاء المبرم
من كل منصاعٍ كأن شراعه ... قطع السحاب سرت بنوء المرزم
ساح البياض البحت تحت جناحه ... فتراه في شية الغراب الأعصم
تلك الجواري المنشآت صداقها ... مهج العدى وخلوفهن من الدمِ

نصرت عباد الله، جل جلاله ... وسطت بعباد المسيح ومريمِ
يمتها والماء موجود لها ... نحر العدو فكان خير تيمم
حملت رجالاً كالليوث مصاعبا ... صبراً على لفح المصاع* المضرم
قصدت بهم (بحر الزقاق(عزيمةً ... قد جردت أسيافها لم تُلهم
فتركن أحزاب الصليب كأنما ... ثملوا بمختوم الرحيق المفدم**
تفلي مفارقها المياه كأنها ... في البحر نائمةٌ وليس بنومِ
صرعى على عفر الرمال وليمةٌ ... للحوت أو للطير أو للضيغم
فكأن صفح البحر مدت فوقهُ ... أيدي الرياح مطارفا من عندمِ

---

(١) ديوان ابن الخطيب، ٢: ٥٣٧.

(تماصعوا) في الحرب: تقاتلوا وتطاحنوا (المعجم الوسيط ٢: ٨٨٠).

** الفدام: المحكم الفلق (المعجم الوسيط: ٦٨٤).

***جاء في ديوان الصيب والجهام لابن الخطيب وفاة ابن زمرك (٧٩٣هـ) ص ٣٠٥.

يصف ابن الخطيب في هذه القصيدة بعد أن مدح السلطان، السفن التي شاركت في معركة سنة ٧٤٠هـ ضد الأسبان وكان الشاعر الأندلسي حاضراً فيها بكلماته يواكب الأخطار التي تحيط ببلاده من البر والبحر، فوصف المعركة بكثرة سفنها وشجاعة فرسانها الذين أبرموا عقداً بفناء الأعداء وصداق سفنهم دم الأعداء، في وصفه لهذه الواقعة نلحظ روحاً إسلامية أعتمد الصور البيانية والبديعية في تفصيل وأطناب وهي سمة من سمات الوصف الحربي الذي يبشر بالنصر في مقدماته ويظهر سقوط الأعداء صرعى حطاماً لحيوان البر والبحر.

ولابن زمرك (٧٨٩هـ) *** يقول في السلطان أبي العباس ابن السلطان أبي سالم المريني: [من الكامل]

هي نفحة هبت من الأنصار ... أهدتك فتح ممالك الأمصارِ [(١)]

هبت على قطر الجهاد فروضت ... ارجاءهُ بالنفحة المعطارِ

إلى أن يقول:

من كل خافقة الشراع مصفقٍ ... جهزته في وجهةٍ لمزار

ألقت بفضل الريح فضل عنانها ... منها الجناح تطير كل مطار

مثل الجياد تدافعت وتسابقت ... فتكاد تسبق لمحة الأبصار

لله منها في المجاز سوابحُ ... من طافح الأمواج في مضمار

---

(١) ديوان ابن زمرك الأندلسي: ٤٦٦.

لمـــا قـــصدت بهـــا مـــراسي ســـبتة وقفت عليك الفخر وهي جواري

بلغة اخبارية، بعد مدح السلطان بتوجيه الأسطول نحو العـدو معتمـداً التـشبيه في سرعة السفن وبتدافعها كالخيول وجعل مـن أمـواج البحـر مـضمار قتـال، وقـد أنـسنَ هـذه السوابح بأنها أوقفت الفخر عليه، وهي جوارٍ، كناية عن السفن، وفي جناس تـام كـان مقتـدراً في إظهار قدرة الأسطول دفاعاً عن مدينة (سبتة) فكان لأسوارها سواراً.

وله يصف غرباناً ويمدح السلطان أبا عبد اللـه محمد: [من البسيط]

أعلامـك الحمـر فـوق الـسفن خافقـة وريـح سـعدك تجريهـا عـلى قـدر [1]
مـا إن رفعـت قـسي الـسفن في وطـن ألا ونلـت قـصي الـسؤل في وطـر [2]
قـالوا الـسفائن فـوق الـبر ذا عجـبٍ مـن غـير مجـرٍ ولا مـوجٍ ولا غـرر
فقلـت آثـارُ مولانـا التـي سـفرت لنـا العنايـة عـن أيامهـا الكـبرُ
تجـري بـريح سـفودٍ في بحـار نـدى تغنـي بنانـك عـن بحـر وعـن مطـرِ

انماز شعر البحرية الإسلامية في غرناطة باتخاذه العلم الأحمر رمـزاً لـسفن أسـطوله، وقد تغنى الشعراء بهذا الرمز، وبمطابقة لطيفة أظهر قدرة الأسـطول وتحقيـق النـصر بقـدرة السفن حال اطلاقها السهام، إلا وبلغت أقصى ما عزمت عليه في

---

(1) ديوان ابن زمرك الأندلسي: ٤٢٢.

(2) القوس، جمع قسي وأقواس: آلة على شكل نصف دائرة ترمي بها الـسهام، (المنجـد: ٦٦٢ العمـود٢). الـوطر: الحاجة فيها مأرب وهمَّة (المعجم الوسيط، ١٠٥٣/٢).

همة عالية، ويعود إلى مدح السلطان باستعارة لطيفة فقد شبه الخيل بالسفن التي تموج في البر كما السفن في البحر إلا أن أمواجها والرياح التي تسيرها جود الممدوح وكرمه.

وعلى الرغم من اختزال أمة الأندلس العظيمة في مملكة غرناطة، واحتلال الأسبان لتلك الثغور ودور صناعة السفن، إلا أن غرناطة لم تزل تمتلك القوة والبأس ليس في مواجهة العدو لكن حتى في صناعة السفن، وكما هو واضح من نص للشاعر عبد الكريم القيسي (عاش في القرن التاسع الهجري) يقول واصفاً مدينة (مالقة) أهم المدن في صناعة السفن الحربية: [من الطويل]

وحيت بها ريح الصبا دار صنعةٍ ... بأكنافها شتى المحاسن تحسد [1]
بناءٌ بديع الشكل سام إلى السما ... قواعده بالأرض تبنى وتقعد
بها ثم من مبناه أعجب هيكلٍ ... يشير إلى عظم الفخار ويرشد
أعد لانشاء الأساطيل عدةً ... لها حبس منه عليها مؤيدُ
لغزو العدى في البحر أحكم صنعةٍ ... وأبدع مبناه البديع المشيدُ

٣- القصائد متعددة المعاني والأغراض:

نقصر حديثنا في هذا الاتجاه ذي المعاني المتعددة في القصيدة الواحدة على نصين للشاعر لسان الدين ابن الخطيب (٧٧٦هـ)، يقول في قصيدته التي كتبت على

---

(١) ديوان عبد الكريم القيسي، تح: جمعة شيخة: ٣٨٨، تونس، ١٩٨٨ ص .

جدران قصر الحمراء (نظمتها للسلطان [1] - أسعده الله تعالى - وأنا بمدينة (سلا) وسميتها (المنح الغريب في الفتح القريب([2]: [من الكامل]

الحق يعلو والأباطل تسفل ... و الله عن أحكامه لا يسألُ [3]
والآمر فيما كان أو هو كائن ... كالعلة القصوى فكيف يعلل
النور أنت وكل نورٍ دجيه ... والبحر أنت وكل بحرٍ جدولُ
وظعنت عن أوطان ملكك راكباً ... متن العباب فأي صبر يحملُ
والبحر قد خفقت عليك ضلوعه ... والريح تقطع الزفير وترسل
في موقف يا هوله من موقف ! ... يذوي له رضوى ويذبل (يذبلُ(
والروم لإسترجاع حقك شمرتٍ ... هذا هو النصر المعم المخول
واستقبلتك السابحات مواخراً ... تهوي إلى ما تبتغي وتؤمِّلُ
تبدي جوانبها العبوس وإن تكن ... بالنصر منك وجوهها تتهلل
هن الجواري المنشآت وقد غدت ... تختال في برد الشباب وترفل
من كل طائرةٍ كأن جناحها ... وهو الشراع به افراخُ تظللُ
جوفاء يحملها ومن حملت به ... من يعلم الأنثى وما [ذا] تحمل
أطلعن صبحاً من جبينك مسفراً ... يجلو الظلام وهن ليل أليل
وطلعن منك على البلاد (بطارق(... للفتح والنصر الذي يستقبل
وبقية من قوم (عادٍ(أهلكوا ... ببقية الريح العقيم وجدلوا

---

(١) أبو عبد الله إبراهيم بن نصر.

(٢) ديوان ابن الخطيب: ٤٩٥/٢- ٥٠٥.

(٣) المصدر نفسه: ٤٩٥/٢- ٥٠٥، أثبتها ابن الخطيب في (نفاضة الجراب في علالة الاغتراب(بلغت أبياتها ص ٢٨٧- ٢٩٧.

إلى قوله وهو يذكر الخليج وغرق الأعداء:

وخليج هند راق حسن صفائه ... حتى لكاد يعوم فيه الصيقل
غرقت بصفحته النمال وأوشكت ... تبغي النجاة فأوثقتها الأرجل [1]
فالصرح منه ممردٌ والصفحُ ... منه مورد والشط منه مهدلُ

بعد حكمة أستمد معانيها من الموروث الديني إنتقل إلى نظرة فلسفية في إحقاق الحق (كالعلة القصوى) وهي وجود الخالق I، ثم مدح السلطان بصور بلاغية من توكيد واستعارة وكناية، مظهراً قدرته في تحمل أهوال البحر ويصور تلاطم أمواجه بضلوع حانية عليه، ويظهر عظمة الممدوح بتصغير شأن جبلي (رضوي) و(يذبل) من جبال المدينة بنوع من الجناس و يذهب إلى أنتصار الأسطول بالخيول السابحات والجواري المنشآت ذوات الأشرعة الخفاقة وبما تحمله من جنود مقاتلين يعلم اللـه بأسهم، وفي هلاك الأعداء يقتبس من آي القرآن الكريم معانيه (وبقية من قوم عاد...) من قوله تعالى: [**فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ*وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ**] [2] ويصف الخليج وغرق الأعداء الذين أرادوا النجاة إلا أن الخلجان قيدتهم فلا يستطيعون حراكاً.

وفي قصيدة مدح الملك يوسف الأول [3] (٧٣٣ – ٧٥٥هـ) في الغزوة التي خرب فيها حصن (أسبتة)[4] وفتح معقل (بني بشير (عام (٧٤١هـ) يقول: [من الكامل]

---

(١) الناملة: السابلة: جماعات الناس، وأرى أن الشاعر كان يقصد جماعات جنود العدو. (المعجم الوسيط: ٩٦٤/٢) رِجْل البحر: خليجهُ (المعجم الوسيط: ١/ ٢٣٢).

(٢) الحاقة: ٥- ٦.

(٣) هو ابو الحجاج يوسف بن إسماعيل، على عهده عاشت دولة بني الأحمر عصرها الذهبي، تولى الملك وهو ابن ست وعشرين (أعمال الاعلام، ابن الخطيب: ٣٠٤)

(٤) أسبتة مدينة قديمة تقع الآن في مقاطعة أشبيلية.

السعد جندك والقضاء دليلُ   و اللـه بالنصر العزيز كفيلُ [1]

ومنها:

أزمعـــت في اللـــه الجهـــاد وطالمـــا   أرضى [الالـــه] جهـــادك المقبـــول
وأنفـــت للـــدين الحنيـــف وأهلـــه   مـــن أن يطـــيح نجيعـــه المطلـــول
ورجعـــت والنـــصر العزيـــز مـــصاحبٌ   لـــك والملائكـــة الكـــرام قبيـــلُ
في عـــسكر لجـــبٍ كـــأن جموعـــه   فـــوق الوهـــاد إذا زحفـــن سـيول
كـــالبحر إلا أنهـــن كتائـــب   والـــريح إلا أنهـــن خيـــول
والـــبرق إلا أنهـــن أســـنة   والرعـــد إلاَّ انهـــن طبـــولُ
فبكـــل بحـــر رايـــة منـــشورة   وبكـــل غـــور مقنـــب ورعيـــل *
كـــان افتتـــاح بنـــي بـــشير مبـــدءاً   ســـبب البـــشارة بعـــده موصـــولُ

مدح الشاعر الملك يوسف الأول بمفردات مستمدة من المعاني الإيمانية، واصفاً نصره مؤيداً بالملائكة، وبمعانٍ بلاغية يصف الجيش في تقدمه كالسيول وكالبحر ثم يستثني (إلا أنهن كتائب) وكالريح في سرعته الجري إلا (أنهن خيول(والرماح كالبرق، وأثارة الرعب في نفوسهم بضرب الطبول كالرعد القاصف، ويصور السفن منتشرة في البحر، وفي البر في حصن (أسبتة) جماعة من الفرسان والخيول مستعدة للأغارة.

نسدل الستار على أمة عرفت بحياة الرخاء وحياة القلق بنص يقول: ((رخاء داخلي وقلق يبثه في النفوس عدو متربص شعر بضعف الفاتحين واستسلامهم فأخذ

---

(1) ديوان ابن الخطيب، ٢: ٤٨٦- ٤٨٧.

ينزل بهم النكبة تلو النكبة، وفي هذه الغمرة رأيت النفوس الحساسة تنشر شعر الأنين حيناً وتجأر بشعر الاستنجاد والصريخ حيناً آخر))[1] لكن لا صريخ فقد نزلت بالعرب والمسلمين أعظم محنة على أيدي الأفرنج الذين محوا كل أثر للإسلام والعرب، إلا أثاراً وتماثيل وكتابات قديمة في قصور وقلاع كانت أكثر المعالم اشارة إلى ما تركه المسلمون، كما في ملامح الناس وعاداتهم وتقاليدهم حتى اليوم.

* المقنب: جماعة من الفرسان والخيل دون المئة تجتمع للغارة، جمعها مقانب. (المعجم الوسيط، ٧٦٧/٢) والرعيل: الجماعة القليلة من الرجال والخيل (المعجم الوسيط: ٣٥٦/١).

(١) في الأدب الأندلسي: ٣٢.

الفصل الثالث

مضامين البحرية الإسلامية

في الشعر الأندلسي

المبحث الأول : المضامين التقليدية.

المبحث الثاني : الرهبة من البحر.

المبحث الثالث : الحياة والموت.

المبحث الرابع : المعارك والتعبئة العسكرية البحرية.

المبحث الأول

المضامين التقليدية

تناول الأندلسيون في أغراضهم ما تناوله المشارقة من أغراض، فمدحوا، وهجوا ورثوا، وتغزلوا، وفخروا، أما في شعر البحرية العربية، فلا يعدُّ الأندلسيون أول من نظم فيه وأبدع، إذ سبقهم في ذلك المشارقة، و((كانت البحرية الإسلامية قد استوى عودها في المشرق بحيث جعلت من البحر المتوسط كله بحيرة إسلامية))[١].

ولا نغفل انتصار الأسطول الفاطمي على الأسطول البيزنطي، وما وصَفَ به من شعر بليغ إلا أن اللافت للانتباه ((هو ذلك الطعم الجديد الذي خرج به علينا الفنان الشاعر في الأندلس في نطاق الصيغ العديدة))[٢]، والمضامين الجديدة في صياغات ومعانٍ خاصة، أبدعوا فيها أيما أبداع في وصف البحر والأساطيل في الحرب والسلم، حتى يُخيَّل للإنسان أن ما يقرؤه من وصف لا يفترق عن حضور ميدان قتال أو استعراض بحري، منها لابن دراج : [من الطويل]

تَحَمَّلَ منه البحر بحراً من القنا ... يروع بها أمواجه ويهول[٣]

---

[١] الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه : ٤٦٧.

[٢] المصدر نفسه : ٤٦٨.

[٣] ديوان ابن دراج : ٤-٥.

ولابن حمديس : [من الوافر]

لَــكَ الفُلْــكُ التــي تجــري بــسعدٍ يَــدُورُ بــهِ الفَلَــكُ المُــدارُ [1]
تهــبُّ لــهُ الريــاح مــسخَّراتٍ وتُــسْكُنَ في تحركهــا البحــارُ

ومن المعاني الطريفة وصف ابن الحداد لأسطول العدو الذي يواجه أسطول المعتصم، صورة شعرية في لوحة فنية تظهر ضعف أسطول العدو وانكساره بعد مواجهته أسطول المسلمين : [من الخفيف]

وتــراءت بــشرعها كعيــون دأبهــا مثــل خائفيهــا سـهاد [2]
ذاتُ هــدبٍ مــن المجــاذيف حــاكٍ هــدب بــاكٍ لدمعــه إســعاد

وقد تناول شعراء البحرية الأندلسية - كما ذكرنا- الأغراض التقليدية، منها المديح الذي جاء تقليدياً مرةً بوصف معاناة الشاعر في رحلته في قطع المفاوز والقفار وآخر أندلسيٌّ يصف خوض البحر وأهوال ركوبه هذا إذا ما علمنا أن جلَّ شعر البحرية جاء مبثوثاً في أثناء قصيدة المديح ولم يكن غرضاً مستقلاً، أو في مقطوعات، كقول ابن دراج في مدحه للمنذر بن يحيى (٤٢٨هـ) يقول : [من الكامل]

ظُعُــنٌ ألفــن القفــر في غــول الــدجى وتــركن مــألوف المعاهــد مقفــرا [1]
يطلــبْنَ لُــج البحــر حيــثُ تقاذفــت أمواجُــهُ والــبرَّ حيــثُ تَنكــرا

---

(1) ديوان ابن حمديس : ٢٣٩.

(2) نفح الطيب : ٢٠٣/٥-٢٠٤، ط١، ١٩٩٥.

هـــيمٌ ومـــا يبغـــينَ دونـــك مـــورداً   أبــداً ولا عـــن بحـــر جـــودك مـــصدرا

وله مادحاً المنصور بن أبي عامر، ومفتخراً بإذلال العدو: [من البسيط]

إليـــك منـــكَ فـــرارُ الخـــائف الوجـــلِ   وفي يـــديك أمـــان الفـــارس البَطَـــلِ [٢]

فـــالبر والبحـــر مـــن آتيـــك في شـــغلٍ   والـــشرق والغـــرب مـــن راجيـــك في جـــذل

وقـــد تـــيمم (شـــنج(منـــك عائـــدة   تجـــيره مـــن ســـيوف الكـــرب والوهـــل
وقـــاد نحـــوك والتوفيـــق يقدمـــه   جيـــشاً مـــن الـــذل مـــلءَ الـــسهل والجبـــل
خاضـــوا إليـــك بحـــار المـــوت زاخـــرة   يمـــور فـــيهن مـــوج النقـــع كالظُّلـــل
لله يـــوم مـــن الأيـــام فـــزت بـــه   فـــرداً مـــن المثـــل فيهـــا ســـائرا لمثـــل

يؤرخ ابن دراج قدوم ولي عهد ملك قشتالة شامحة ابـن غرسـية بـن فردينانـد سـنة (٣٨٢هـ) موفداً على المنصور من أبيه مقدماً له الخضوع مرتقباً أمره [٣].

ولابن منقذ في مدح المنصور بعد أن أسعف طلب السلطان صلاح الدين يوسـف بـن أيوب بأن جهَّز له مئة وثمانين أسطولاً لمنازلة الأعداء في عكا وصور وطرابلس الشام لتحول بين أساطيل الفرنج وبين أمداد النصرانية بالشام يقول: [من الطويل]

---

(١) ديوان ابن دراج : ١٠٤.
(٢) المصدر نفسه : ٣٥٠.
(٣) ينظر: القطوف اليافعة : ١٥٦.

سَأشْكُرُ بَحرْا ذَا عُبَابٍ قَطعْتُهُ		إلى بحر جُود بالآخراه ساحلُ [1]
إلى معدن التقوى إلى كعبة الندى		إلى من سَمَتْ بالذكر منه الأوائل
قَطعْتَ إليك البرَّ والبحر موقنا		بأنَّ نداك الغمرَ بالنَجحِ كاملُ

ولابن حمديس يمدح الأمير أبا الحسن علياً بن يحيى، يقول مادحاً : [من الكامل]

يا أيها الممضي قواه وحزمه		ومحالف التأويب والإساد [2]
ملكٌ مفاخره تعدُّ مفاخراً		لمآثرِ الآباءِ والأجداد

ويذكر بلاءه في البحر ذاكراً الأسطول :

وإقامة الأسطول تؤذن بغتةً		بقيامة الأعداء والحساد
من كلِّ ذي زبد علته سفنه		يخرجن من جسد بغير فؤاد
ثعبان بحرٍ عظه بنواجذٍ		خلعت عليه من الحديد حِداد

وله في مدح علي بن يحيى ويهنئه بانتصاره يقول : [من الطويل]

كفى سيفك الإسلام عادية الكفر		وصلتَ على العادين بالعز والنصر [3]
بسير جيوشٍ في البحور إليهم		تحيط به زحفاً على المد والجزْر

---

[1] الاستقصا لاخبار ملوك المغرب الأقصى، لأبي العباس أحمد بن خالد الناصري، تح: جعفر الناصري ومحمد الناصري : ١٦٤/٢، دار الكتاب – الدار البيضاء، ١٩٥٤.
[2] ديوان ابن حمديس : ١٤٦ – ١٤٧. التأويب والأساد : سير الليل والنهار.
[3] المصدر نفسه : ٢٢٤- ٢٢٥.

وللأعمى التطيلي مادحاً ابن زهر، حيث رسم صورة أظهرت بأس الممدوح وعطاءه من خلال وصف البحر في هدوئه وهيجانه وطغيان أمواجه، يُظهر فيها الممدوح مؤدباً طغيان البحر بسفينته، وهي صورة مخالفة للأعراف، والمبالغة بينة لإظهار قدرته وهو يمخر عباب البحر غير هيَّاب ولا وجل، يقول:

ركبتــه تتــصدى المــوج عــن عُــرضٍ ... عــلى مبــاحٍ مــن الأهــواء محظــور [1]
تــراك كنــت عــصا مــوسى براحتــه ... أو كــان عزمــك هــول الــنفخ في الــصور

ولابن الخطيب يرسم صورةً لممدوحه وهو يخاطر بنفسه ويعبر بحرين بحراً من العدا، وبحراً زاخر الأمواج، يقول : [من الطويل]

وخــاطرت بــالنفس النفيــسة دونهــا ... وهــل فــاز بالأخطــار إلا المخــاطر [2]
ومــا كــان يــدري قيمــة الــدر ربــه ... لــو التزمــت أصــدافهن الجــواهر
عــبرتهما بحــرين بحــراً مــن العــدا ... وبحــراً مــن اللــج الــذي هــو زاخــر

---

[1] ديوان الأعمى التطيلي : ٥٦.
[2] ديوان الصبب والجهام: ٥٢٠،

ولابن زيدون* على ندرة مشاركته في شعر البحرية الأندلسية، في مدح المعتضد ملك اشبيلية بعد أن جعله وزيره (٤٤٥هـ)، يقول [من الطويل]

ولا قبـل عبـاد حـوى البحـر مجلـسٌ ... ولا حمـل الطـود المعظـم رفـرف[1]

سـتعتامهم في الـبر والبحـر بـالتوى[2] **... كتائـب تزجـى أو سـفائن تجـدف**

ولابن هانئ الأندلسي في مدح الخليفة المعز لدين الله يقول : [من الكامل]

أو مـا تـرى دول الملـوك تطيعـه ... فكأنهـا خَـولٌ لـهُ وإمـاء[3]
والفُلْـك والفَلَـكُ المُـدارُ وسـعدُهُ ... والغـزو في الـدأماء والـدَّأماءُ
أيـن المفـرُّ ولا مفَـرَّ لهـا ربٍ ... ولـك البسـيطان الـثرى والمـاء
ولَـك الجـواري المنـشآت مـواخراً ... تجـري بـأمرك والريـاح رُخـاء
والحـاملاتُ وكلُّهـا محمولـةٌ ... والناتجـات وكلهـا عـذراء

في هذه المدحة يظهر الممدوح مخدوماً من دول الملوك فهم خدم وعبيد وجوارٍ مملوكة، وليس هذا فقط فالنجوم والسفن، والغزو في البحر مملوكة له أيضاً ويستمر

* ابن زيدون، أبو الوليد أحمد بن عبد الله المخزومي، يعد من أسطع وجوه الأدب الأندلسي وأطولهم باعاً، لقب ببحتري المغرب، أكثر شعره شهرة النونية. ينظر: معجم الحضارة الأندلسية : ٥٧.

(١) تعتامهم : تشتاقهم، الثوى : الهلاك.

(٢) ديوان ابن زيدون، شرح وتحقيق : علي عبد العظيم، تقديم : محمد إحسان النص:٥٣٠-٥٣١، نهضة مصر للطباعة، ط٣، ٢٠٠٤.

(٣) ديوان ابن هانئ الأندلسي : ٢٢-٢٣.

في مدحته مقرراً أن لا مفر لهارب ولك الأرض والماء وهذه السفن تجري بأمره وهي سفن لا سابقة لها في طرافتها وجدتها.

وله يمدح جعفر بن علي يقول : [من المتقارب]

كرُمْتَ فكنت شجى للكرام فلم تترُكِ القطْر حتى لؤمْ [1]
فاشبهك البحر إن قيل ذا غطمٌ* وهذا جَواد خَضمْ
وأخطاك الشبه إن قيل ذا أجاجٌ وهذا فراتٌ شَبِم
إذا لم يَكُنْ مَنْهلاً للوُرُود فَلا خَيرَ في مُوجه الملتطم

في هذه المدحة نجد أن الممدوح هو المشبه به والبحر هو المشبه، وفي هذا قلب لإرادة المبالغة في المدح في : أن قيل ذا بحر عظيم العباب، ولأن البحر يشبهه ليس في كونه اجاجاً، وهنا يخطئه الشبه فإن لم يكن منهلاً عذباً فلا خير في أمواجه المتلاطمة، وفي هذا خروج على المألوف قصد المبالغة.

وله قصائد أخرى في المدح، للبحر فيها نصيب.

ولابن سهل الأشبيلي في مدح يحيى الرحيمي، وأصله من بني أُمية نسبوا إلى رحيمة وهي قرية من أعمال قرطبة. [من البسيط]

---

[1] ديوان ابن هانئ الأندلسي: ٢٨٤-٢٨٥.

* غطم، الغطم : البحر العظيم (المنجد : ٥٥٥) الأجاج : الماء المالح، الشبم : الماء البارد (هامش الديوان : ٢٨٥)

إذا طَغَـــى بحــرهُ يــوم الهيــاج تـــرى   عــداه أقــصر أعــماراً مــن الحبــب [1]

فهو لقوته وشدة بأسه أعداؤه أعمارهم قصيدة، فهو الموت الذي يلاقيهم ويدحرهم، فلسرعة دحره إياهم تجد حتفهم الموت كأنهم الفقاقيع التي تطفو وتدرس بسرعة.

ولابن زمرك في مدح الغني بالله (ت ٧٣٣هـ)، يقول من [مخلع البسيط] وهـو يـذكر السفن والتجاج البحر :

الطــــــاهر الظــــــاهر الهــــمام   أعـــــز مـــــن صـــــال وافتخـــــر [2]
لـــــسيفه في العــــــدا احتكــــــام   جـــــرى بـــــه ســـــابق القـــــدر
يـــــا مرســـــل الخيـــــل في الغـــــواري   لـــــو تطلـــــب البحـــــر تلحـــــق
لـــــك الجـــــواري إذا تجـــــاري   ســـــوابق الـــــشهب تـــــسبق
تـــــستن في لجـــــة البحـــــار   فـــــالكفر مـــــنهن يفـــــرَق
فالـــــدين وليقـــــصر الكـــــلام   بـــــسيفك اعتـــــز وانتـــــصر
كـــــذاك أســـــلافك الكـــــرام   هُـــــمْ نـــــصروا ســـــيد البـــــشر

والشاعر هنـا جعـل مـن الـشعر خـير أداةٍ لمعرفـة حقـائق تلـك المعـارك، وأسرارهـا وصورها الفريدة فإن كان هذا يمثل صدقاً فنياً - كما ذكرنا - إلا أنه من جهة أخرى

---

[1] ديوان ابن سهل : ٧٢.
[2] ديوان ابن زمرك الأندلسي : ٥٤٧ (ط١، ١٩٩٧، دار الغرب الإسلامي).

يمثل تصوير قوة المسلمين وانتصاراتهم، وهي ((صورة حيـة لأزهـى حقيقـة عاشـها الأنـدلس العربي تحت ظل الرماح وفي عنفوان وكبرياء العز والمجد والسلام)) [١].

ومن الأغراض التقليدية التي تناولها شعر البحرية الأندلسية، غرضا الرثاء والفخر أمـا بقية الأغراض فلم يكن لها مساحة تذكر، ومن الطبيعي أن يحتل غرض الرثاء في شعر البحرية الأندلسية مساحة مرموقة توازي أعداداً كبيرة من شهداء المسلمين الذين طواهم موج البحـر، ليس في انتصار الأعداء، وإنما التضحية التي قدمها المسلمون في انتصاراتهم، أما انتصار الأعـداء الذي أغفلناه في دراستنا، ولبيان عظم الفجيعة في إعداد الشهداء أذكر موقعة (بلاط الشهداء(واستشهاد القائد عبد الرحمن بن عبد اللـه الغافقي أمير الأندلس سنة (١١٠هـ)، من أبطـال المسلمين المعدودين، كان جيشه جراراً يرج الأرض، في بداية الزحف كـان عـدد قـتلى الأسـبان من الكثرة بحيث أن المؤرخ (الباجى(قال : أن اللـه تعالى وحده يقـدر أن يحـصيهم، وجـيش المسلمين الذي شبهه أحد المؤرخين بـ(ريح صرصرٍ تقتلع كل ما جاء أمامها(هذا الجـيش هُـزِم بعد مقتل قائده، وأن كنا لا نطمئن لروايات بعض مؤرخي الأسـبان الـذين قـدروا عـدد قـتلى المسلمين إلى ثلاثمئة وستين ألف من أصل جيش المسلمين المؤلف من خمـسمائة ألـف مقاتـل [٢]، وأن كنا لا نصدق الرقم المهول للشهداء إلا أن استعداد الفرنسيين يوحي برقم مقارب إليه كما يذكر شكيب ارسلان، ((كون فرنسه بأجمعها جمعت ذلك اليوم جموعها وجاءت بالشوك والشجر لمقابلة ذلك الجيش العربي المغير وأن هذه المعركة لا تزال حتى اليـوم شـاغلة أعظـم موقع في أذهان الأوربيين))[٣].

---

(١) القطوف اليانعة : ١٥٥.

(٢) ينظر: تاريخ غزوات العرب: ٩٧ – ١٠٣.

(٣) المصدر نفسه : ١٠٣.

ويشير محمد عبد الله عنان إلى مثل هذه المعارك في سلسلة كتبه [1] منها عام (٧٤١هـ) يقول : ((ونشبت معركة هائلة سالت فيها الدماء غزيرة وقتل من المسلمين عدد جم... وانتثرت قوات المسلمين وبددت... وكانت محنة عظيمة لم يشهد المسلمون مثلها منذ (موقعة العقاب(وكان لها أعمق وقع في المغرب والأندلس))[2] إذ بلغ أسطول المغرب يومئذٍ مائة وأربعين سفينة منها عدد كبير من السفن الحربية، ويذكر معركة حربية بحرية بعد سنتين أي عام (٧٤٣هـ) هُزِمَ فيها المسلمون ومُزقَ أسطولهم [3]، وفي مثل هذه الأحداث المتوالية يذكر الدكتور إحسان عباس شعراً لأبي القاسم بن عبد الله التميمي يؤرخ فيها حال صقلية أيام الفتنة، يقول : [من الطويل]

نَرُوحُ ونغدو في أمورٍ لو أنه ... رأى بعضها ما عاود النوم حالم [4]
كأن بحاراً بالوغى وكأنما ... معاركنا طول الزمان مواسم
فطوراً نذود الموت عنا وتارةً ... نموت كما مات الحماة الأكارم
أتونا ولكن بالدروع أساوراً ... ولكن أتينا والسيوف عزائم

ما ذكرناه من أحداث تاريخية، الهدف منه إظهار عدد شهداء معارك الجهاد البحرية، وبالمقابل كان يفترض أن تكون مساحة شعر الرثاء في شعر البحرية الأندلسية مناسبة، وأرى أن غرض الرثاء عامة، رثاء الملوك والوزراء والقادة والولاة والأفراد، قد ضاع تباعاً كما ضاعت مدن الأندلس وثغورها، أو أن ضياع المدن والثغور

---

(١) دولة الإسلام في الأندلس، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين : ١٢٧ وما بعدها.
(٢) المصدر نفسه : ١٢٨.
(٣) ينظر: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين : ١٢٨.
(٤) العرب في صقلية، د. إحسان عباس : ١٨٦، دار المعارف بمصر، ١٩٥٩، مكتبة الدراسات التاريخية.

أنسى شعراء الأندلس رثاء هؤلاء لأن هول الأول أكبر من هول الثاني، وسبب آخر هو أن كثيراً من القادة والولاة فضلاً عن بعض الخلفاء كان عزلهم، أو نفيهم أو حتى قتلهم قسرياً لذا لا رثاء لهؤلاء ثم أن الأحداث المتتالية والفتن والحروب والدفاع عن الثغور، لم تترك للشعراء مساحة لأن يلتفتوا لرثاء الموتى وهم كثير بدلاً من أن يستنهضوا همم الأحياء للدفاع عن البلاد، وهذا ما دعانا إلى ذكر بعض أحداث التاريخ التي استمرت ثمانية قرون وأظهرت رقماً مخيفاً ومرعباً خوف ركوب البحر، فمن الذي يرثى ومن الذي يشاد بشجاعته، فدماء المسلمين لونت أمواج البحار، كما أن جثثهم ابتلعتها البحار.

وللدكتور عبد العزيز عتيق رأي في رثاء القتلى يقول: ((وكان من أخلاق العرب ألا يَرثوا قتلى الحروب، لأنهم ما خرجوا إلا ليقتلوا، فإذا بكوهم كان ذلك هجاء أو في حكمه، ولكن الرثاء لمن يموت حتف أنفه، أو يقتل في غير حرب من حروب التاريخ كالغارة أو غيرها فعندئذ يعددون المآثر ويبالغون في الفجيعة، كأن هذا الموت غير طبيعي فيمن يستحق أن يموت)) [1].

وأرى في هذا الرأي حجة على ما انطوى عليه غرض الرثاء في قتلى المسلمين في المعارك الحربية البرية منها والبحرية، وفي الشعر الأندلسي إذا ما علمنا أن الشعر الأندلسي هو امتداد طبيعي لديوان الشعر العربي، ومن شواهد ذلك مراثي الخنساء في أخيها صخر في التراث العربي القديم ومراثي ابن حمديس في جاريته (جوهرة(في الشعر الأندلسي، ولا يعقل أن تكون هذه المراثي لابن حمديس في جاريته ولا تكون له مراثٍ في قتلى المسلمين وقد شهد وقائعهم البحرية ووصفها، إلا ما ذهب إليه د. عبد العزيز عتيق.

---

[1] الأدب العربي في الأندلس : ١٩٥.

أما د. منجد مصطفى بهجت الذي لم يجد للبحر صدًى عميقاً في قصائد الرثاء فيرى أن ((الضياع أتى على الكثير من تلك الأصداء ضمن ما أتى على كثير من تراث الأندلس)) [١]، ويرى ثانية أن عدداً من الشعراء رأى أهوال الموت في البحر رؤية حقيقية، لكن ذلك الموت اتصل بمعاني الشجاعة والشهادة في سبيل الله، وذلك في شعر الجهاد والوقائع البحرية)) [٢]، ومن خلال استعراض النصوص الشعرية في موضوع شعر الجهاد والوقائع البحرية لم ألحظ ما أشار إليه الباحث [٣]. وللشاعر ابن حمديس قصائد صادقة العواطف في جاريته (جوهرة(التي أغرقها موج البحر أمامه في صورة مريعة، منها ما ذكرناه في رائيته التي تحكي فاجعته وتصوِّر احتباس أنفاسه، واختناق عبراته تفيض بمعاني التفجع والتوجع : [من البسيط]

لا صَبْرَ عنك وكيف الصَّبْرُ منك وقد　　　طَواكِ عن عيني الموج الذي نشرك[٤]

وله قصيدة بائية أيضاً في رثائها يظهر فيها لوعته وأساه ويخاطب البحر والموج الذي أهتصرها يقول : [من المنسرح]

يـا بحـرُ أرخـصت غـير مكـترث　　　مـن كُنْـتُ - لا للبيـاع - أغليهـا [٥]
أبثهـا في حـشاك مُغْرَقَـةٌ　　　وبِـتُّ في سـاحِليك أبكيهـا

---

[١] البحر في شعر الأندلس والمغرب في عصري الطوائف والمرابطين، د. منجد مصطفى بهجت: ٣٢، جامعة الكويت، الحولية السابعة، الرسالة الأربعون، ١٩٨٦.
[٢] المصدر نفسه.
[٣] ينظر: المصدر نفسه : ٣٦-٤٤.
[٤] ديوان ابن حمديس : ٢١٢.
[٥] المصدر نفسه : ٥١٧.

وجه ابن حمديس خطابه إلى البحر يلومه في أن أمواجه طوت محبوبته وما يثير استغرابه في أن ماءه أصبح كدراً وهو لم يلتفت إلى جمالها ورقتها قبل أن يطويها ويبتلعها، وهنا يكون البحر طرفا في رسم مأساته في صورة شعرية إنسانية مأساوية.

وفي رثاء الغرقى للرصافي البلنسي يقول : [من الكامل]

خاضوا عليك حشا الخليج ضنانةً ... بِكَ أن تصنيع الدرة البيضاء [١]
عجباً لشخصِكَ كيفَ أعيا كُنهه ... حتى تجاذبك الثرى والماء

بعد أن شبه المرثي بالدرة، ويرى الشاعر أن حقيقة غرق المرثي وإخراجه من البحر ودفنه في جوف الثرى حقيقة محيرة، لذلك تجاذبه العنصران: الماء والتراب وكل يدعي انتسابه إليه.

ولابن سهل الأشبيلي يرثي أبا محمد بن غالب يقول: [من الطويل]

يَجِدُّ الرَّدى فينَا ونحنُ نهازِلُه ... ونغفو وما تغفو فواقاً نوازله [٢]
بقاءُ الفَتى سُؤل يعزُّ طلابه ... وريبُ الردَى قرنٌ يزل مصاولُه
وأنفسُ حظيك الذي لا تناله ... وأنكى عدويِّك الذي لا تقاتله
ألا إن صرف الدهر بحرُ نوائبٍ ... وكلُّ الورى غرقاه والقبر ساحله

---

(١) ديوان الرصافي البلنسي : ٢٥.
(٢) ديوان ابن سهل : ١٧٥.

رثاء وتعزية يظهر فيها الموت جادٌ في أمرنا ونحن غير جادين وهو متربص لا يترك وقتاً قصيراً لمنازلتنا بشدائد الدهر، يعزيه أن الموت خصم لا نستطيع منازلته وصروف الدهر بحر لكنه من النوائب وكلنا غرقاه.

ولأبي المطرف (٦٥٩هـ) أحمد بن عميرة في رثاء أبي القاسم محمد بن خلاص مشيراً إلى غرقه : [من الكامل]

خانته سابحة حسبنا أنَّها	**تردى به وعثارها أرداه** [١]
في حيث لا كفٌ إلى منجاته	**تهوي ولا أذنٌ الى نجواه**
بل في خضم تحت ليل منهما	**ومن الشدائد تلتقي الأشباه**
يا بحر ما أدهى عقوقك عندما	**أثكلت عن عمد أخاك أباه**

يصور الشاعر غرق المرثي كان بخيانة فرسه الذي مدَّ يديه في الجري وكنا نحسب أن يرجع به إلينا لكنه أرداه غريقاً، فلا كفٌ تستطيعه ولا أذن تسمع نجواه، وفي تورية لطيفة يجعل البحر عاقاً لأنه أمات من في الكرم يُعَدُّ أخاه.

أما في رثاء المدن فقد سَجَلَ الأندلسيون تفوقاً على الشرقيين، وصار هذا الفن لوناً وطنيا، اقترن ذكره بفجيعة الأندلس.

---

[١] أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي، حياته وآثاره، محمد بن شريفة: ٢٢٩، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، ١٩٦٦.

يرثي ابن اللبانة (٥٠٧هـ) بني عباد ومملكتهم، يقول : [من البسيط]

تَـــبْكي الســـماء بـــدمعٍ رائـــحٍ غـــادِ ... عَـــلى البهاليـــل مـــن أبنـــاءِ عبَّـــادِ [١]

عـــلى الجبـــال التـــي هـــدت قواعـــدها ... وكانـــت الأرضُ مـــنهم ذات أوتـــادِ
وكعبـــةٌ كانـــت الآمـــالُ تعمرهـــا ... فـــاليوم لا عـــاكفٌ فيهـــا ولا بـــادِ

إلى أن يقول :

نســـيتُ إلا غـــداةَ النَّهـــر كـــونهم ... في المنشـــآت كـــأمواتٍ بألحـــادِ
والنـــاس قـــد ملـــؤا العـــبرين واعتـــبروا ... مـــن لؤلـــؤٍ طافيـــات فـــوقَ أزبـــادِ
حـــان الـــوداع فضـــجت كـــل صـــارخة ... وصـــارخ مـــن مفـــدأةٍ ومـــن فـــاد
ســـارت ســـفائنهم والنـــوح يتبعهـــا ... كأنهـــا إبـــلٌ يحـــدو بهـــا الحـــادي

يصور الشاعر ذروة مأساة زوال حكـم بنـي عبـاد، بمشـاهد مؤلمـة ومنـاظر محزنة جسدت روح الوفاء والإخلاص والوطنية. وللشـاعر أبي الحســن جعفـر بـن عثمان المصحفي [٢] يصوِّر البحر في مشهد الفخر يقول : [من الطويل]

وكمْ مهمه لا يوجـد الركـب مشرعـاً ... قطعت، وبحرٍ شامخ المـوجِ أسـفعا [٣]
خضمٍ إذا استعلت به الشمس لم يـزل ... يطاولهـــا حتـــى تمـــلَّ فتخضـــعا

---

[١] شعر ابن اللبانة الدايني : ٣٩-٤٢.
[٢] الحلة السيراء، لابن الأبار، تح: د. حسين مؤنس : ١/١١٣، ط١، ١٩٦٣.
[٣] المهمه: المفازة البعيدة والبلد المقفر، وجمعه مهامه. المعجم الوسيط ٢/٨٩٧.

تغيـــب وتبــدو فيــه حتــى كأنّمــا غــدا مغربــاً تجـري إليــه ومطلعــا

إذا مــا آرتمــت أمواجــه خِلْـتُ أنّهــا ذُرى الشــمِّ أمّتنــا مــن الــبرِّ نُزَّعــا

صورة للبحر يفخر الشاعر من خلال منعطفاتها بنفسه، أبعاد الصـورة قطـع المفـاوز البعيدة التي تخلو من طريق ممهد وركوب أهـوال بحـر تـتلاطم أمواجـه حتـى يبـدو لونهـا أسوداً ثم صورة الشمس في صراع مع البحر وهو يطاولها إلى أن تخضع لإرادته وجبروته، وأراد بهذا الخيال إظهار إرادته وقوته واقتداره، فقد وظـف المجـاز وسـيلة للكشـف عـن الحقـائق الشعورية النفسية فرسـم حقيقـة الفخـر الـذي أراده لنفسـه وهـذا الفخـر لم يكـن بمواقفـه الحربية البحرية أو البرية بالسيف أو الـرمح وإنمـا في قدرتـه عـلى قطـع المفـاوز وركـوب لُـجِّ البحر* وأخطاره.

وأرى أن ابن حمديس أخذ معنى البيت الرابع من النص المصحفي.

في إظهار صعوبة ركوب البحر وهو يصف السـفينة، يشـبه لجـج البحـر جبـالاً تسـير العواصف فوقها، يقول :

كـــأنَّ جِبـــالاً بالعواصـــف فوقهـــا مســـيرةٌ مـــن موجهـــا المـــتلاطم [١]

سفع : كان لونه أسود مشرباً بالحمرة فهو أسفع، شرع الطريق : مدَّهُ ومهده، الخضـم : البحـر الواسـع. نُزَّعا، تَنَزَّع الشيء : اقتلعه. (المعجم الوسيط : ١/٤٣٦، ٤٨١، ٩٢١، ٤٨١، ٢٤١).

* لجِّ البحر: عرضه. المعجم الوسيط ٢/٨٢٢.

(١) ديوان ابن حمديس : ٤٤٥.

وله مفتخراً وهو يخوض لُجَّ البحر في تصوير بديع ويُظهر معاناتـه في رحلتـه البحريـة وصـولاً إلى الممدوح يقول : [من الكامل]

يـــا رُبَّ ذي مـــدٍّ وَجَـــزرٍ مـــاؤه لِلفُلـــكِ هُلـــك قطعـــه فتيـــسّرا [1]
نفـــح الـــدجى لمـــا رآه ميتـــاً فيـــه مكـــان الـــروح ريحـــاً صرصرا
يخـــشى لوحـــشته الـــسليك ســـلوكه ويلـــوك فيـــه الرعـــبُ قلـــب الـــشنفرى
خـــصننا حـــشاه في حـــشى زنجيـــةٍ كمـــسفةٍ شـــقت ســـكاكاً أغـــبرا
بحـــرٌ حـــكى جـــود ابـــن يحيـــى فيـــضه وطـــما بـــسيف [2] القـــصر منـــه فقـــصرا

في لهجة حماسية يهول الشاعر مـن أمـر هـذا البحـر وبـالريح الهوجـاء أعـاد البحـر حياته، وهو يصور صـعوبة رحلتـه البحريـة وإظهـار معاناتـه وصـولاً إلى الممـدوح وتوسـع في إظهار رعب البحـر والخـوف مـن ركوبـه مـن أن الـسُليك بـن الـسلكة، مـن شـجعان العـرب الصعاليك لو عاشه يخشاه، وكذا الحال عند (الشنفرى(وهو من شجعان الصعاليك وشعرائهم أيضاً، وهو ربط واعٍ للتراث العربي، وقد تحدث بصيغة (الجمع) (خضنا) للتفخـيم، ثـم يمـدح بأن هذا البحر مهما فاض فإنه يحاكي جود ابن يحيى، أما بأس الممدوح فيفوق بأس البحر.

وابن حمديس هنا يكبر الخوف من البحر، ويمقته لعاملين نفسيين هما، أن هذا البحر فصَل بينه وبين وطنه (صقلية) وأخذ منه حبيبته (جوهرة) غرقاً، يقول في هذه المعاني د. محمد غنيمي هلال ((وسيلة للكشف عن الحقائق النفسية

---

(1) المصدر نفسه : ٢٣٣،

(2) السِّيف : ساحِلُ البحر، ساحل الوادي (ينظر: المعجم الوسيط : ٤٧١/١) والمقصود هنا بجانب القصر أو محيطه و الـلـه أعلم.

والخلجات الشعورية، عن طريق الحدس والخيال فترسم الحقيقة واضحة محسوسة...يتعاون على رسمها المضمون والشكل كما تحيا الروح في الجسم))[1].

ولابن زياد اللـه بن إبراهيم بن الأغلب* (٢٢٣هـ) مفتخراً بنفسه، يقول: [من الطويل]

أنـــا النــــارُ في مـــــستكنةٍ ... فـإن كُنـت ممـن يقـدح الزنـدَ فاقـدح[2]
أنـــا الليـــث يحمـــي غيلــه بـــزئيره ... فـــإن كنـــت كلبـــاً حـــان موتـــك فـــانبح
أنـــا البحـــرُ في أمواجـــه وعبابـــهِ ... فـــإن كُنـــتَ ممـــن يـــسبح البحـــر فاســـبح

تشبيهات أدخل فيها البحر عنصراً أساسياً من خلاله يفخر بنفسه متحدياً خصمه، وقد عمد إلى تشبيه محذوف الأداة تحقيقاً للمبالغة، وكأنه في ساحة قتال، وقد مثلت هذه الأبيات حالة شعورية نفسية امتزجت الحماسة فيها إمعاناً في حالة التحدي والفخر. ويفخر ابن خفاجة (٥٣٣هـ) في صورة من صُور الخيال البحري الأندلسي، يقول :

[من الطويل]

فـــما أرتـــدي إلا بـــأحمرَ قـــانئ ... سـقته الطُّـلى مـن نـصلِ أبـيض صـارِم[3]
وقد فاض بحر للردى من دم العـدى ... فسال حيـاءً في وجـوه الصـوارم

يفخر بشجاعته بأن الدم لا يجف عن ردائه حتى يعاود الحرب وصورة الدماء تغطي صفحتي السيف.

---

[1] دراسات ونماذج في مذاهب الشعر ونقده، د. محمد غنيمي هلال: ٧٩، (دار النهضة، القاهرة، د. ت).

* هو أبو مضر زيادة اللـه بن علي بن حسين التميمي الطبني، أديب شاعر، كان من أهل العلم والأدب واللغات والأشعار. ينظر: معجم الحضارة الأندلسية : ٣٧، ومن شعراء بني الأغلب ملوك أفريقيا، كان من أجمل الناس وجهاً وأقبحهم فعلاً، وأعظمهم ظلماً. ينظر: الحلة السيراء لابن الابار، تح: حسين مؤنس : ١٦٣-١٦٥ ط١، ١٩٦٣.

[2] الحلة السيراء، لابن الابار القضاعي، تح: حسين مؤنس: ١٦٣-١٦٥.

[3] الديوان : ٣٥٢.

بالإفادة من مجلة (الموقف الأدبي : ٣٦٥، ٢٠٠١: ٤٠).

ويفخر الملك يوسف الثالث (٨١٩هـ) بأسطوله الذي يعود محملاً بالبشرى والنصر، يقول : [من الطويل]

أيـــا فئـــةَ الأنـــصار للغـــارة اركبـــي وبثـــي الـــسرايا مـــن جـــواد ومركـــبِ [١]
ولا تحـــسبي النكبـــاء يبطـــئ ســـيرها إذا مـــا شراع خـــاض بحـــرَ المنكـــبِ
ســـتبدي الريـــاح المرســـلات عجائبـــا وتهـدي مـن الـرحمن إلى خـير مـذهب
لنَـا الـسلفُ الأرضى حماهـا قـد ارتـضى وناهيـــك مـــن جـــدٍ كـــريمٍ ومـــن أبِ
فـــنحن نرجـــي بُعـــدهُ كـــلَّ ســـابح فمـــن مركـــبٍ يـــأتي بـــأيمن مركـــب
وتقـــدمنا البـــشرى لغرناطـــة وقـــد ظفرنـــا بمـــا نرجـــوه مـــن كـــلِّ مطلـــب

وله مفتخراً على أعدائه، يقول : من منظومنا على إثر استفتاحنا جبل الفتح في أول شهر جمادي الثانية عام سبعة عشر وسبعمائة : [من الكامل]

في الملحـــــدين عــــداتنا لنجـــاز حيـــثُ الحقيقـــة لم تـــدن بمجـــاز [٢]
عنــــا الكتائـــــب دائمــــاً أنجادهـــا متـــــضافر الأغـــــراء بالإيعـــــاز
وطريقنــــا الأهــــدى لحلــــة طــــارق لم يــــدر إلا عزمــــة الأجهــــاز
ومعادنــــا الأرضى مــــن اســــتفتاحه قـــد زان حلـــه فخـــره بطـــراز

وفخـر هـؤلاء الـشعراء نلمـس فيـه تعظـيم مكانـة المقـاتلين، والعمـل عـلى خدمـة الأهداف السامية وتعزيز الروح الإيمانيـة والفخـر عـلى الأعـداء، وقـد وثقـت هـذه النـصوص الأحداث الحربية البحرية التي أغفل بعضاً منها المؤرخون فأصبحت ((مساعداً قيماً للتاريخ)) [٣].

---

[١] ديوان ملك غرناطة، يوسف الثالث : ١٤-١٥.

[٢] المصدر نفسه : ١٠٩.

[٣] الشعر الأندلسي في عهد الطوائف، هنري بريس : ٨٧.

المبحث الثاني

الرهبة من البحر

بعد تناولنا الأغراض التقليدية في شعر البحرية الأندلسية نبحث في مضامين شخصية تناولها الشعراء تعبيراً عن تجاربهم وأحاسيسهم الإنسانية تجاه البحر وأهواله، وإزاء الحياة والدنيا والموت، وقد رصدت هذه المضامين من خلال تصوير الوقائع الحربية أو النظرة التأملية التي عاشها الشاعر الأندلسي ترجمة لنفسه إزاء مظاهر الحياة في مواقف نفسية تلونت بلوحات جميلة من الناحية الفنية، وإن كانت سلبية من الناحية الموضوعية والاعتبارية، وسنقصر الحديث على محورين من هذه المضامين هما ؛ محور وصف الرهبة من البحر، ومحور وصف الحياة والموت في الخيال الشعري البحري الأندلسي.

ومع أبي البقاء الرندي في رؤيته للبحر مرهوباً منه مرة ومرغوباً فيه أخرى، يقول :

[من البسيط]

البحـــر أعظـــم مـــما أنـــت تحـــسبه   مـن لم يـر البحـر بومـاً مـا رأى العجبـا [1]

طـــامٍ لـــه حبـــبٍ طـــافٍ عـــلى زرقٍ   مثـــل الـــسماءِ إذا مـــا ملئـــت شـــهبا

---

(1) نفح الطيب ٣١٠/٤، ط١، ١٩٩٥.

وقد أشارت الأساطير والأمثال قديماً إلى : (ثلاثة لا آمان لهم : السلطان والبحر والزمان([1]) ومن باب لا تجاور ملكاً أو بحراً فقد قيل (قد خاطر بنفسه من ركب البحر وأعظم منه خطراً من صحب السلطان)[2].

الرهبة من البحر تتمثل في وصف اثبتناه في فصل سابق، فيه اليأس من الحياة مع أصوات العواصف وتلاطم الأمواج، وكأن الموج من كأس الجنون [قد] شرب، وكأن الشراع في قراع مع جيوش الأمواج تتدافع فيها الأفواج بالأفواج (ونحن قعود كدود على عود([3])

[من السريع]

ثلاثة ليس لها آمان   البحر والسلطان والزمان

وفي ذكر أهوال البحر، وظلمته وتعاظم أمواجه يقول ابن خفاجة * [بسيط مخلع]

كم تملأ العين من قذاها   وتشتكي النفس من أذاها [4]
بحرٌ ونوءٌ وطول هم   ثلاثة أطبقت دجاها
فلو يد المرء وهي منه   أخرجها لم يكد يراها

---

[1] بهجة المجالس وأنس المجالس، ابن عبد البر، ت د. محمد مرسي الخولي ١ : ٣٥٣ الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة ١٩٦٩.

[2] المستطرف في كل فن مستطرف، شهاب الدين بن أحمد الأبشيهي شرح : إبراهيم أمين محمد : ١٠٤ المكتبة الوطنية (ب. ت).

[3] ينظر، نفح الطيب مجلد ١ : ٣٣. ط٢، ١٩٨٨.

* لم نعتمد في هذا الفصل الاستشهاد بنصوص الشعراء بحسب تواريخ وفاتهم. وإنما اعتمدنا مناسبة النص في التقديم والتأخير.

[4] ديوان ابن خفاجة : ٣٤٢.

أرتبط وصف أهوال البحر والخوف من ركوبه بالظلمة ليزيد من الرهبة ولتكون الصورة سوداوية شاحبة لإطباق ثلاث ظلمات في وقت واحد، البحر والموج و الغيوم، وهذا المعنى مقتبس من معنى القرآن الكريم في عظم الظلمات: **[أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا]**[١].

في هذا يقول الحميري : ((ولا يعلم أحدٌ ما خلف هذا البحر المظلم، ولا وقف منه بشر على خبر صحيح لصعوبة عبوره وإظلامه، وتعاظم موجه وكثرة أهواله وتسلط دوابه وهيجان رياحه))[٢] ويعلن ابن خفاجة، توبته من ركوب البحر يقول :

[من الوافر]

لئن كنا ركبناها ضلالاً فيا لله إنا تائبونا [٣]
فأخرجنا على المرغوب فيها فإن عدنا فإنا ظالمونا[٤]

لهول ما لاقاه من اضطراب أمواج حملت سفنهم ذات الشمال وذات الجنوب أعلن توبته بعد أن تاب إلى الله تضرعاً وخيفة بأنه لا يعود إلى ركوب البحر.

ويصور أمية بن أبي الصلت (٥٢٩هـ) وسواسه وخوفه وكأن السفينة تجري في بحر من دموعه لا في أمواج البحر وهو يودع أحبابه في رحلتهم البحرية، يقول :

[من المنسرح] [٥]

---

[١] النور : ٤٠.

[٢] صفة جزيرة الأندلس : ٢.

[٣] الديوان : ٣٤١.

[٤] إشارة إلى الآية القرآنية **[رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ]** (المؤمنون:١٠٧)،

[٥] ديوان أمية بن أبي الصلت، ت محمد المرزوقي : ١٠٤، تونس (ب. ت) دار الكتب الشرقية.

حتـــــى إذا لجلجـــــت ســــــفائنهم ولـــج وجـــدي بهـــم ووســـواسي
مـــا ركبـــوا البحـــر بـــل جـــرت بهـــم في بحـــر دمعـــي ريـــاح أنفـــاسي

أما الدهشة من البحر والرهبة والتعجب والحيرة في أمرهِ فقد صورها عبد الله بن يوسف بن رضوان البخاري، يقول [من الكامل] [1]

يـــارب منـــشأةٍ عجبـــت لـــشأنها وقـــد أحتـــوت في البحـــر أعجـــب شـــان
ســـكنت بجنبيهـــا عـــصابةُ شـــدةٍ حلـــت محـــل الـــروح في الجـــثمان
فتحركـــــت بـــــإرادةٍ مـــــع أنهـــــا في جنـــسها ليـــست مـــن الحيـــوان

وهذه الرهبة من البحر والخوف من ركوبه دفعت بكثير من الشعراء إلى الهروب منه وعدم الرغبة حتى في رؤيته إلا من بعيد يقول في هذا المعنى أمية بن أبي الصلت (٥٢٩هـ) :

[من الوافر]

تنـــاهى البحـــر في عـــرض وطـــولٍ ولـــيس لـــه عـــلى التحقيـــق كنـــه [2]
وأعجـــب كلـــما شـــاهدت فيـــه ســـلامتنا عـــلى الأهـــوال منـــه
فحـــسبي أن أراه مـــن بعيـــدٍ وأهـــرب فـــوق ظهـــر الأرض منـــه

يصف البحر وصفاً جغرافياً ولا يقف على حقيقة يسبر بها غور هذا البحر، ويصور ملاحقة البحر له وهو هارب منه.

---

(١) الكتيبة الكامنة : ٢٥٨.
(٢) ديوان أمية بن أبي الصلت : ١٥٧.

وأرى أن هذا المعنى قد ذهب إليه ابن الرومي يقول في البحر : [من الطويل]

فأيسر إشفاقي من الماء أنني — أمرُّ به في الكوز مر المجانب [1]
وأخشى الردى منه على كل شاربٍ — فكيف بأمنيه على كل راكبِ

وقد الجأ الخوف الدفين من ركوب البحر وأهواله الشاعر ابن حمديس فالتمس عذراً لركوبه وهو يحمل من مشاعر الرهبة والخوف ما يوهم بأنه يصف البحر إلا أنه يحذر من ركوبه يقول : [من الوافر]

أراك ركبت في الأهوال بحراً — عظيماً ليس يؤمن من خطوبه [2]
تسير فلكه شرقاً وغرباً — وتدفع من صباه إلى جنوبه
وأصعب من ركوب البحر عندي — أمور الجأتك إلى ركوبه

وله من طريف الرهبة من البحر خوفاً ورعباً وقد أدخل الريح عنصراً في اضطراب أمواجه وهيجانه، يقول :

رغا وأزبد والنكباء تغضبه — كما تعبث شيطان بمصروعِ [3]

---

(1) ديوان ابن الرومي، شرح قدري مايو : ٢٩٧/١، دار الجيل، بيروت – لبنان، ١٩٨٨.
(2) ديوان ابن حمديس : ٨.
(3) المصدر نفسه : ٣١١.

فكان البحر عنده شيطان تلبس بمصروع والمتأمل هنا لمعنى البيت يلحظ مدى الخوف والرعب من شدة غضب البحر بإتيانه صورة مرعبة تثير اضطراب الناس لمنظر المصروع وخوفهم عليه ومنه أي في حالي استكانته وهيجانه.

وفي محاورة شعرية يظهر ابن حمديس فلسفة الرهبة من البحر والخوف من ركوبه، يقول [1] : اجتمعت مع أبي الفضل جعفر ابن المقترح الكاتب فذكر لي قولاً حسناً لأبن رشيق يصف البحر : [من البسيط]

البحـــر صـــعب المـــذاق مـــرٌّ   لا رجعـــت حـــاجتي إليـــه
ألـــيس مـــاءً ونحـــن طـــينٌ   فـــما عـــسى صـــبرنا عليـــه

وهو من الأساليب الذكية ذي المحاكات العقلية بمطارحات شعرية شيقة تظهر مدى دهشتهم من أهوال البحر ومخاطره.

وهنا في هذا النص ورغم المخاطر إلا أنه يركبه على اسم اللـه فأنشدته لي:[من الطويل]

وأخـــضر لـــو لا آيـــة مـــا ركبتـــه [2]   ولله تـــصريف القـــضاء بمـــا شـــاء [3]
أقـــول حـــذاراً مـــن ركـــوب عبابـــهُ   أيـــا رب أن الطـــين قـــد ركـــب المـــاءَ

وقد وفق الشاعر في محاورته هذه على الرغم من بساطة معاني الأبيات لكنها تحمل سراً ذكره المتحاورون بمعنى واحد وبصيغ تكاد تكون متقاربة، وهكذا يرتبط

---

(١) ديوان ابن حمديس : ٥٣٤- ٥٣٥.
(٢) هود : ٤١.
(٣) ديوان ابن حمديس ٥٣٤- ٥٣٥.

البحر بالرهبة والخوف نتيجة لما تعرضوا له من عواقب سيئة تتصل بما يكتنفه من صعوبات واضطراب أمواج توصل مرة إلى ضلال السفن في البحر، كقول محمد بن خطاب النحوي، وهو يبث الخوف والرعب في صدور من يركب البحر، وكأن راكب البحر لا يعي ولا يبصر في ظلام دامس. [من البسيط]

ما أنت في البحر إلا راكب سفراً ... وقد تعمت عليه أوجه السفر[1]
كأنما أنت من عي ومن عمه ... ساري الظلام بلا نجم ولا قمرِ

ويرتبط أخرى بخطورة الرحلة البحرية ظاهرة في الشعر الأندلسي البحري، وفي مراحل تدهورها صارت الخشية من بحرين، بحرٌ من العدا، والبحر الحقيقي، كما في بيتي لسان الدين ابن الخطيب يقول : [من الطويل]

أعاينهما بحرين بحر من العدا ... له ثبج* من بيضه ومعاده[2]
وبحراً من الماءِ الأجاج تروعنا ... روائع من أهواله واشتداده

ومن قصيدة أخرى [من الطويل]

عبرتهما بحرين : بحراً من العدا ... وبحراً من اللج الذي هو زاخرُ[3]

---

(1) كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، لسان الدين بن الخطيب، تح: د. محمد الشريف قاهر: ٢٨٥، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط١، ١٩٧٣.

* الثبج : وسط الشيء، تحمع وبرزَ، ومنه ثبج البحر (المعجم الوسيط : ٩٣/١).

(2) ديوان الصيب والجهام : ٤١٢.

(3) المصدر نفسه : ٥٢٠.

هذه الخشية من البحر والخوف منه دفع بابن حمديس إلى تقليب صفحات التراث ليصل إلى السليك بن سلكة والشنفرى من صعاليك العرب وشجعانهم، يقول :

[من الكامل]

يخشى لوحشته السليك سلوكه ويلوك فيه الرعب قلب الشنفرى[1]

ولا يلوك الرعب قلب الشنفري كما لا يخشاه السليك وإنما هي إسقاط حالة الشاعر النفسية بإظهار رموز الشجاعة عند العرب بهذا الخيال.

ويصل الأمر بأبي جعفر أحمد اللماني إلى التمني بأن يجعله الله ملكاً ليغتصب كل سفينة غصبا ليخلص الناس من عناء ركوب البحر، يقول : [من الكامل]

قد قلت إذ سار السفين بهم وآلبين ينهب مهجتي نهبا[2]

لو إن لي ملكاً أصول به لأخذت كل سفينةٍ غصبا[3]

ويرسم الشاعر محمد بن أبي الحسين لوحة قاتمة للبحر تثير الرعب والخوف والرهبة، يقول : [من الطويل]

وملتطم الارجاء محلولك القرا كثيرٍ رزاياه قليل نوافله[4]

بساط من الآفات رخو كأنه غلالة ليل ما ثلات مهاوله

---

(١) الديوان : ٢٣٣.

(٢) المغرب في حلي المغرب، ابن سعيد ١ : ٤٧٧.

(٣) معنى البيت مأخوذ من قوله تعالى : **[وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً]** (الكهف: ٧٩).

(٤) كتاب التشبيهات : ١٧٣.

كــأن اصـــطفاق المـــوج في جنباتـــه خمـيسٌ تهـاوت بالـسيوف قنابلـه [1]

كــأن ســنا أمواجـــه في التجاجـــهِ لجـين جــرى فــوق الزبرجــد سـائله

فالبحر هنا كثير المصائب قليل الفوائد ملتطم الأمواج وهو بساط أسـود مـما زاد في لوحة الرعب والخوف، إذ يرى أحمد عبد القادر صلاحية أن البيت الثاني ضَمَّ صورتين رائعتـين بجعله البحر بساطاً رخواً يغري بهدوئه ولكنه بساط من الآفات وبـذلك تنتقـل الدلالـة مـن الإغراء إلى التحذير [2].

و ((أما الصورة الثانية فهي أكبر وأعظم أنها رؤيـة كونيـة خاصـة تجعـل الليـل ثوبـاً والبحر شعاراً * يلبس تحت الثوب يضم جسد الأرض ليغطيها بالمصائب ويطوقهـا بـالأهوال)) [3]. أما القيمة المعنوية لهذا النص فهو إحـساسٌ يعيـشه الأندلـسي مـع البحـر رفيقـاً وطبيعـة وصورة، قاتمة مرة في الأبيات الثلاثة الأولى وزاهية أخرى في البيت الأخير، وإن تـراءت للقـارئ أنها بعيدة الصلة عن الأبيات الثلاثة الأولى إلا أنها متنامية مع وجدان الشاعر وليست جزئية أو مرصوفة بدون ترابط، ودلالتها النفسية هي ذلك السلك من المشاعر النابعة من أثر البحـر في نفس الشاعر الأندلسي، وهذا يتطابق وما ذهب إليه عبد القـادر صـلاحية إذْ يقـول : ((إن هذه الصورة الغزيرة الكثيفة التي

---

(1) القنابل : طوائف الناس والخيل.

(2) ينظر، وصف البحر في الشعر الأندلسي، أحمد عبد القادر صلاحية : ١٥.

* الشَعَار والشِعَار : ما تحت الدثار من اللباس وهو ما يلي شعر الجسد (المنجد : ٣٩١، شراع للدراسـات والنـشر، دمشق، ط١، ١٩٩٤).

(3) المصدر نفسه.

تتوهج بين الغرابة والألفة وبين البساطة والعمق والمبالغة شديدة المناسبة للموضوع - خلا الصورة الأخيرة))[1].

وأرى هنا أنه حتى الصورة الأخيرة جاءت شديدة المناسبة للموضوع ذلك أن الشاعر لم يصف البحر في حالة حرب وتساقط قتلى واختلاط الدماء بالأمواج، وإنما يصف البحر في وقت السلم فكانت نظرته للبحر نظرة توجس واضطراب عند اصطراع أمواجه، ثم نظرة إعجاب عند هدوئه والتجاج صفحات أمواجه بأشعة الشمس.

أما صور البحر المرعبة والرهبة من ركوبه فتظهر جلية - فضلاً عن النصوص المذكورة - في بيان الرحلة إلى الممدوح، ولنا في وصف رحلة ابن دراج إلى خيران العامري خير دليل على ذلك [2]. فضلاً عن وصف رهبة البحر وأمواجه وتصوير حال راكبيه في مدحة لأبن زهر للأعمى التطيلي [3].

ويصور الشاعر عبد الجليل بن وهبون ركوب المعتمد بن عباد إلى المغرب يستنصر يوسف بن تاشقين بركوب داهية دهياء : [من البسيط]

---

(1) وصف البحر في الشعر الأندلسي: ١٦.

(2) ذكرت الرحلة في الفصل الثاني من دراستنا [من الطويل]

لـك الخيـر قـد أوفى بعهـدك خيـران وبـشراك قـد أواك عـز وسـلطان

الديوان : ٧٣.

(3) ذكرت القصيدة في الفصل الثاني من دراستنا منها [من البسيط]

والبحـر مـضطرم الأمـواج زاخرهـا تـرى المعـارف فيـه كالمنـاكير

الديوان : ٥٩.

ركبـت بـالله مـتن البحـر حـين طـما ... آذيـه بـسوط الـريح ينحـصر [1]
طـرف يـزل عليـه سرج فارسـه ... ولـيس مـما يـضم الحـزم والعـذر
حملـت نفـسك فيـه فـوق داهيـةٍ ... دهيـاء لا ملجـأ منهـا ولا وزر
كـأن راكبـه في مـتن ذي لبـدٍ ... غـضبان تقـدح مـن أنفاسـه الـشررُ

بعد أن يصور البحر بداهية دهياء يصوره مرة أخرى بالفرس الغضبان الـذي تقـدح أنفاسه شرراً وهو يموج مضطرباً براكبه.

والرهبة من البحر كانت أقوى من أداء فريضة الحج فقد تراجع الحافظ أبـو الوليـد هشام الوقشي (٤٨٩هـ) عن تأدية فريضة الحج رهبةً وخوفاً من ركوب البحر، يقول :

[من السريع]

لا أركـب البحـر ولـو أننـي ... ضربـت فيـه العـصا فـأنفلق [2]
مـا إن رآت عينـي أمواجـهُ ... في فـرقٍ إلا تنـاهى الغـرق

يظهر البيتان مدى الرهبة من ركوب البحر، والشطر الثاني مـن البيـت الأول مـأخوذ من قوله تعالى : [**فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ**] [3] وهي إشارة إلى معجزة موسى u.

(1) الحلة السيراء، تح: د. حسين مؤنس: ٨٦/٢.
(2) نفح الطيب ٢٤٥/٦، ط١، ١٩٩٥.
(3) الشعراء : ٦٣.

ومن المفارقات وطريف الصور أن نذكر صورة خفقان قلب الشاعر ابن شقرق السبتي ليس رهباً وخوفاً من ركوب البحر بل أنه بخلاف بقية الشعراء يحث على ركوبه، أما خفقان قلبه فكان رأفة وحنواً، يقول : [من الكامل]

فاركب على اسم الله متن ركوبةٍ خضراء تسبح فوق لج مترعِ [(١)]
اتخذت جناحاً مثل قلبي خافقاً وحوت قوادم كل طير مسرع
فكأنما ركبانها أبناؤها تحنو عليهم رأفة بالأضلع
وكأنما الملاح فيها آمرٌ يمضي أوامره لأول موقع

جعل الشاعر السفينة وهي تمخر عباب البحر بأم رؤوم تأخذ أولادها في أحضانها وقد ابتدأ (فأركب على اسم الله(مستفيداً من القرآن الكريم من سورة هود [**وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاها**] [(٢)].

أما اقتران صورة هيجان البحر والرهبة منه بذكرى الحبيبة فهي صورة يبدو فيها التقليد واضحاً لبيتي عنترة بن شداد : (ولقد ذكرتك والرماح نواهل) ففي اضطراب الموج وهيجان البحر يتذكر ابن حيان حبيبته، يقول : [من البسيط]

ولقد ذكرتك والبحر الخضم طغت أمواجه والورى منه على سفر [(٣)]
هذا وشخصك لا ينفك في خلدي وفي فؤادي وفي سمعي وفي بصري

(١) الخريدة : ١ / ٣٤٧.
(٢) هود : ٤١.
(٣) شعر ابن حيان الأندلسي : ٤٤٨.

لا أتفق في الرأي مع د. أحمد عبد القادر صلاحية في ((أن هذا الموقف برمته مصنوع صنعاً وأن الشاعر قد أجتهد في صنعه وكاد ينجح ولا يعكر صفو هذه الصورة المناسبة للموقف سوى لفظة (هذا(التي تقرب النص الشعري من الأسلوب النثري الخطابي والاقناعي)) [1].

وأرى أن جمالية النص تكمن في اسم الإشارة (هذا) الذي أختصر هول المعركة وصراع الأبطال، والموت الذي يتلقف المحاربين (هذا) كله وأنت لا تغيبين عن بالي أيتها الحبيبة، بل أن تذكري إياك شجعني على مقارعة العدو.

وأستطيع القول مجازاً أن لفظ (هذا) قد تصدر البيت الثاني ليودي وظيفة عطف الصور اللاحقة لها إلى الصور المتقدمة عليها ولا يستطيع أي حرف عطف أن يؤدي الوظيفة هذه إلا (هذا) أن جاز (المجاز)، وشخصك لا ينفعك في خلدي.... كلها تابعة أو معطوفة (مجازاً) على (ولقد ذكرتك(. هذا وقد أغنى حرف الروي الراء الصورة الشعرية وقعاً حسناً في النفس وفي السمع.

وأختلف فيما ذهب إليه من ((أن المشهد كله ليس تحويراً ذكياً لبيتي عنترة بل هو مشهد مماثل))[2] بل أن المشهد تقليد بيِّن وليس تحويراً ذكياً، وكذا الحال فيما صنعه ابن رشيق القيرواني ٤٥٦هـ يقول : [من الكامل]

ولقد ذكرتك في السفينة والردى ... متوقع بتلاطم الأمواج [3]

وعلت لأصحاب السفينة ضجةٌ ... وأنا وذكرك في الذٍّ تناجِ

والجو يهطل والرياح عواصف ... والليل مسود الذوائب داجي

---

[1] ينظر : ركوب البحر في الشعر الأندلسي، أحمد عبد القادر صلاحية : ٤١، التراث العربي.

[2] ركوب البحر في الشعر الأندلسي: ٤١

[3] ديوان ابن رشيق القيرواني، جمع د. عبد الرحمن ياغي : ٤٨، دار الثقافة، بيروت (ب. ت).

وعلى السواحل للأعادي غارةً يتوقعون لغارةٍ وهياجِ

فالتقليد هنا بين أيضاً، وإن كان لا يراد من الشاعر كما يراد من الأنبياء من صدق، كما قيل لبعض الفلاسفة فلان يكذب في شعره فقال : ((يراد من الشاعر حسن الكلام، والصدق يراد من الأنبياء)) [1] ومع تداخل المشاهد في هذا النص بالإفادة من بيتي عنترة بن شداد فقد أختار البحر مكوناً من مكونات الصورة لإظهار شوقة ولواعج قلبه، وهذا الاستغراق في التناجي، والإخطار عواصفٌ وأمطار وليلٍ داجٍ وغارة محدقة، ذلك أنه جعل من المرأة هنا رمزاً للأرض والخضرة والأمان فكان تذكرها دافعاً إلى التقدم والدفاع.

أما الشاعر أبو الحسن الحصري حتى إذا ركب البحر مرتاحاً فإن رهبة ركوب البحر لا تفارقه يقول : [من البسيط]

أمر بالبحر مرتاحاً إلى بلدٍ تموت نفسي وفيها منه حاجات [2]

وأسأل السفن عن أخباره طمعاً وأنثني وبقلبي منه لوعات

وابن حمديس ما قرأت له في البحر نظماً إلا وكأنه في ذنب عظيم لا يغفره الله له، يقول: [من الطويل]

ومشحونةٍ بالخوف لا أمن عندها كأنك فيها حيث سرت مريبُ [1]

---

[1] نصوص النظرية النقدية في القرنين الثالث والرابع للهجرة جمع وتبويب، د. جميل سعيد و د. داود سلوم : ٦٥، دار الشؤون الثقافية – العراق- بغداد، ط٢ ١٩٨٦.

[2] الذخيرة : ٤ / ٢ : ٢٧٧ ت، د. إحسان عباس.

كأنـــك في ذنـــبٍ عظـــيمٍ بقطعهـــا   فأنـــت إلى الـــرحمن منـــه تتـــوبُ

وغالب بن عطية يردد في ركوبه البحر (إنا لله وإنا إليـه راجعـون(والخـوف الـدفين والهم يذيبان قلبه، يقول :   [من السريع]

إنـــا إلى اللــــــه لقـــد نالنـــا   هـــم يـــذيب القلـــب أحداقـــه [2]
يـــا عجبـــاً مـــما دهينـــا بـــهِ   نـــسكن في المـــاء ونـــشتاقهُ

هنا داهية تثير العجب من ركوبه أولاً ومن أنه يـسكن المـاء ولا يـستطيع أن يـروي ظمأه منه.

ومن الصور الطريفة التي لا تخلو من عذوبة تشبيه الشاعر أبي جعفر أحمد بن عبد الولي البني (ق ٨ هـ) قلبه خافقاً حال ركوبه السفينة كالشراع ليس خوف البحر ورهبته بقدر ما هو شوق المحب لأحبته. يقول :   [من الوافر]

أقـــول وقـــد صـــدرنا بعـــد يـــومٍ   أشـــوقٌ بالـــسفينة أم نـــزاعُ [3]
إذا طـــارت بنـــا حامـــت علـــيكم   كـــأن قلوبنـــا فيهـــا شراعُ

---

(1) ديوان ابن حمديس : ٣٩.

(2) جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، أبو عبد اللـه محمد بن فتوح الحميدي : ٢٠٦، الدار المـصرية للتـأليف والترجمة، ١٩٩٦.

(3) المغرب في حلى المغرب : ٣٥٩/٢،

رأينا في النصوص الشعرية ما ينم عن الخشية من البحر سواء أكان في رحلة بحرية واقعية أم خيالية، حربية أم غير حربية وإن عبارة (أهوال البحر(مادة أساسية في بناء النص الشعري، وعلى الرغم من أن شعور الخوف من البحر وعدم الثقة به جاء في كثير من آي القرآن الكريم، وأكد ذلك في بعضها[(١)]، الأمر الذي يجعلنا نتساءل هل الخشية من ركوب البحر تشكل سمة ثقافية حضارية تقليدية ؟

أشار إلى ذلك د. منجد مصطفى بهجت، يقول : ((إن الدارس يجد إحساس (الرهبة من البحر) شعوراً عاماً، ومفهوماً مطرداً، في أشعار الأندلسيين وقد تفننوا في عرض هذا المفهوم وتباروا في ذلك)) [(٢)].

وقبل الإجابة على هذا السؤال أرى أن الشعراء المشارقة والأندلسيين في وصفهم للبحر وأهوال ركوبه لم يجاوزوا الشكل والصورة، ولم ينفذوا إلى أسراره العظيمة ولم يتعمقوا أسرار طبيعته وفلسفتها.

وهل أنَّ الخشية من ركوب البحر تشكل سمة ثقافية حضارية تقليدية ؟ وللإجابة عن ذلك وعلى الرغم من أن الشعراء ظلوا يركبون البحر على خوف ويتصورونه سبيل المضطر، وأنه يأخذ ضعف ما يعطي، كقول أمية بن أبي الصلت :

[من الكامل]

يا من تخوض البحر مقتحماً — ما بين لجته إلى الشط [(٣)]
لآيطمعنك ما حباك به — فالبحر يأخذ ضعف ما بعطي

---

(١) ينظر، أدب الرحلات، د. حسين محمد فهيم، ٢٣٤، عالم المعرفة، ١٣٨، حزيران ١٩٨٩.

(٢) حوليات كلية الآداب – الرسالة الأربعون - : ١٦ / ١٩٨٦.

(٣) ديوان أمية بن أبي الصلت : ١٥٧.

فإنَّ عناية اللـه I دفعتهم من خلال رسالته المجيدة إلى التحرر مـن هـذه الأفكـار، إذا ما علمنا – ومن منظور التحديات البيئية فإن ((خوض البحر وركوب العرب له كان تحدياً كبيراً لبيئة مخالفة وأنه حتى لو كان هناك خشية منه فهـذا أمـر طبيعـي تجـاه أي شيء غـير مألوف)) [١].

وقد أستطاع المسلمون تجاوز خوفهم من البحر لعوامل ثلاث هي :

١- تحقيق أهداف الرسالة الإسلامية ونشر حضارتها.

٢- مساعدة تعاليم الإسلام، كـما جـاء في القـرآن الكـريم مـن آيـات، المـسلمين عـلى التحرر من الخوف [٢] فـضلاً عـن أحاديـث الرسـول ρ في الحـث عـلى الجهـاد في البحر – كما مر بنا في التمهيد -.

٣- إرشاد اللـه I العرب إلى النجوم للاستعانة بها في الملاحة.

أما تأكيد القول بتأصيل الخشية من البحر – كـما ذهـب إلى ذلـك كتَّـاب الغـرب في مؤلفاتهم – في الفكر العربي الإسلامي وما ترتب عليه من آثار تاريخية وحـضارية فـما ذكرنـاه مستفيدين من بحث د. حسين محمد فهيم، وما أطلعنا عليـه مـن خـلال دراسـتنا انتـصارات البحرية الإسلامية في الأندلس والفتوحات الإسلامية في أوروبا وأفريقيا، وإن كنا لا ننفي وجود مثل تلك المخاوف التي أشار إليها القرآن الكريم قبلهم، إلا أننا ننفي ذلـك الانطبـاع الخـاطئ من أن الخوف يشكل سمة ثقافية حضارية تقليدية لدى العرب والمسلمين، ولو كان موجـوداً لما أندفع العرب من الجزيرة فاتحين ولم يتوقفوا أمام أمواج البحار لتجاربهم السابقة في البحر الذي لم يكن بعيداً عنهم في الشمال والجنوب، ويأتي ما ذكرناه أيـضاً رداً عـلى مـا ذهـب إليـه الدكتور منجد مصطفى بهجت.

---

(١) أدب الرحلات : ٢٤١.

(٢) كما جاء في الآيات منها : الأنعام : ٦٢-٦٣، إبراهيم : ٣٢، الحج : ٦٥، النمل : ٦٣، البقرة : ١٦٤، الروم : ٤٦.

المبحث الثالث

الحياة والموت

الحياة نقيض الموت، والمحيًا : مفعل من الحياة. وتقول : محياي ومماتي، وقوله تعالى : [**فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**] [(١)]، قال نرزقه حلالاً، وقيل : الحياة الطيبة الجنة، وروي عن ابن عباس قال : فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً هو الرزق الحلال في الدنيا، والحي من كل شيء : نقيض الميت، والجمع أحياء، والحي : كل متكلم ناطق، وقوله تعالى : [**وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلا الْأَمْوَاتُ**] [(٢)] ؛ فسره ثعلب فقال : الحي هو المسلم والميت هو الكافر قال الزجاج : الأحياء المؤمنون والأموات الكافرون.

وتأتي (حياة(بمعنى منفعة، أبو عبيدة في قوله : ولكم في القصاص حياة ؛ أي منفعة، وآستحياه: أبقاه حياً، وفسر قوله تعالى: [**وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ**][(٣)]؛ أي يستبقونهن، وقوله : [**إِنَّ الله لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً**] [(٤)] ؛ أي لا يستبقي. [(٥)]

---

(١) النحل : ٩٧.

(٢) فاطر : ٢٢.

(٣) البقرة : ٤٩، والأعراف : ١٤١، وإبراهيم : ٦.

(٤) البقرة : ٢٦.

(٥) ينظر : لسان العرب (دَنَا):.

والدنيا من، دنا : دنا الشيء : دُنُّواً ودناوةً : قرب وفي حديث الإيمان أدنه؛ هو أمر بالدنو والقرب والهاء فيه للسكت، وسميت الدنيا لدُنوها، ولأنها دنت وتأخرت الآخرة، وكذا السماء الدنيا هي القربى إلينا [١]، وهي مصطلح مأخوذ من الدنو والاقتراب اللذين يمثلان الحياة، ليكون نقيضاً للتنائي والابتعاد اللذين يمثلان الآخرة[٢].

أما الموت : فهو خلق من خلق اللـه تعالى، والموت والموتان ضد الحياة، والأصل فيه مَوتَ، بالكسر يموتُ، قال تعالى **[إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ]** [٣]

ونجد فكرة حتمية الموت أساسية في ملحمة كلكامش ؛ قال الـ(سابيتم((صاحبة الحانة) لكلكامش :

يا كلكامش أي شي تسعى إليه ؟

الحياة التي تنشد لن تجدها

حينما خلقت الآلهة البشرية

قدرت الموت على البشرية

وضبطت الحياة بأيديها [٤]

أما الخيال البحري في العصر الجاهلي والعصر الإسلامي والأموي فقد ورد بألفاظ تدل على الحياة وأشغالها إلا أنها وبصيغها المحددة توسعت في العصر

---

(١) لسان العرب (دَنَا)،

(٢) المصدر نفسه : ٤/ ٢٩٢ - ٢٩٣

(٣) الزمر : ٣٠.

(٤) ملحمة كلكامش، طه باقر: ٤٠، شركة الوراق المحدودة، لندن، ط٢، ٢٠٠٩، (سابيتم(بالبابلية بائعة الخمر.

العباسي [1]، ذلك أن العربي نشأ شأنه شأن أي إنسان مجبولاً على الفطرة على حبه الحياة، وغدا الموت الذي لا مفر منه الحقيقة الكبرى أمام الحياة، وقد تختلف وجهات النظر في مفهوم الحياة والموت قبل الإسلام وبعده، فهذا طرفة بن العبد ينظر إلى الحياة كأنها كنزٌ ناقص كل يوم والموت عنده لا خروج عن سلطانه، يقول : [من الطويل]

أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلةٍ وما تنقص الأيام والدهر ينفد [2]
لعمرك أن الموت ما أخطا الفتى لكا لطول المرخى وثنياه باليد
متى ما يشأ يوماً يقده لحتفه ومن يك في حبل المنية ينقدِ

ويقترب زهير بن أبي سلمى في موضوعة الحياة من طرفة يقول : [من الطويل]

بدا لي أن الناس تفنى نفوسهم وأموالهم ولا أرى الدهر فانيا [3]
أراني إذا مابتُّ بتُّ على هوى وإني إذا أصبحت أصبحتُ غاديا
إلى حفرةٍ أهدي إليها مقيمةٍ يحث إليها سائق من ورائيا

---

[1] ينظر : الموقف الأدبي، العدد : ٣١٧- ٣١٨ : ٥٠.
[2] شرح المعلقات السبع، للزوزني ٤٨٦ هـ : ١٦١.
[3] شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، ت، د. أحمد طلعت : ١٨٨ دار القاموسي الحديث و دار الفكر للجميع، بيروت ١٩٦٨.

وبمقابل هذه الصورة صورة الحياة التي لا خلود فيها مهما طالت، فقد عاشها لقمان، وذو القرنين، ونوح، وفرعون والنجاشي، إلا أن حبل المنية كانت (ثنياه باليد)، يقول زهير :[1] [من الطويل]

ألم تـر أن اللـه أهلـك تبعـاً وأهلـك لقمان بـن عـادٍ وعاديـا
وأهلـك ذا القـرنين مـن قبـل مـا تـرى وفرعـون جبـاراً طغـى والنجاشـيا

ويرى طرفة بن العبد في مقابل الموت ؛ أن يحيا الحياة التي لا يريد ولا يبالي بعد ذاك وهذه فلسفته في الحياة رداً على الموت - إن صح التعبير -[من الطويل]

فـإن كنـت لا تـسطيع دفـع منيتـي فـدعني أبادرهـا بمـا ملكـت يـدي[2]
ولـولا ثـلاث هـن مـن عيـشة الفتـى وجـدك لم أحفـل متـى قـام عـودي

أما أمرؤ القيس فيقرن الحياة بمفهوم الفناء [من الطويل]

تمتـع مـن الـدنيا فإنـك فـانٍ مـن النـشواتِ والنـساء الحـسانِ [3]

وأرى أن شعراء الجاهلية لم يبتعدوا بفلسفتهم في منظومة الحياة والموت عن هذه المعاني وبهذه الألفاظ التي لا تخرج عن دائرة محاولة أبعاد شبح الموت والتمتع

---

(1) المصدر نفسه : ١٧٧.
(2) شرح المعلقات السبع للزوزني : ١٥٧- ١٥٨.
(3) ديوان أمرئ القيس، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم : ٣٤٥ دار المعارف، بمصر، ط٣، (د. ت).

بالحياة إلا أن الإسلام الذي خلق في المسلم روح التأمل والتفكر في الكون والحياة والموت، جعل من قطري بن الفجاءة يرى في الموت حياة وخلوداً يقول : [من الوافر]

فصبراً في مجال الموت صبراً　　　فما نيل الخلود بمستطاعِ [١]

وقد ركزت النظرة الإسلامية هذا المفهوم وهو مفهوم الشهادة ومبعثها الإيمان واليقين بالحياة الآخرة، إذ أن موت المؤمن التقي هو الخلود، كقول سابق البربري : [٢]

موت التقي حياة لا آنقطاع لها　　　وقد مات قومٌ وهم في الناس أحياءُ

ويأتي هذا رداً على قول عبد الله بن الزبعرى : [من الوافر]

يخبرنا الرسول بأن سنحيا　　　وكيف لقاءُ أصداءٍ وهامِ [٣]

وما هذا إلا نتيجة القلق والخوف من الموت الذي سيطر على وعي الجاهلي، الذي لا يرى بلقاء (الأصداء(جمع صدى بقية الميت في قبره أملاً أو حقيقةً.

---

[١] شعر الخوارج، تح: د. إحسان عباس : ٤٢، دار الثقافة، بيروت، ١٩٢٣.

[٢] شعر سابق البربري، تح: د. بدر أحمد ضيف : ٨٨ (دار المعرفة الجامعية، الأسكندرية، ١٩٨٧).

[٣] السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق وضبط وشرح : مصطفى السقا وآخرين، دار القلم بيروت : ٣٠/٣، (د. ت).

أما خلود المؤمن المجاهد أمام ما يناله من قلق وجزع وخطر في البحر والذي يحتاج فيه إلى إيمان عميق وعقيدة راسخة تقتضي حب الجهاد والإيمان بالقضاء والقدر، يقول يحيى الجزار : [من الكامل]

البحـــر أصـــعب ميتـــة لغريقـــهِ ... مـــن ميتـــة بعوامـــل وشـــفارِ [(1)]
أو لـــيس أفـــضل أن أمـــوت مجاهـــداً ... مـــن أن أمـــوت لقـــي غريـــق بحـــارِ

وإن كان الموت واحداً فقد تميز الشاعر في إظهار صورة الموت التي يرتئيها وقد فضل الشهادة على غيرها بعد أن وجد أنه مهما تعددت الأسباب فالموت واحد.

أما الخيال البحري في الشعر الأندلسي فقد فرق بين مدلول الحياة والدنيا والوجود، فكانت صورة الحياة واضحة المعالم عند الشاعر الأندلسي لثقافته الواسعة ونظره الثاقب وصنعته اللطيفة فكانت الحياة لديه ذات دلالة إيجابية والدنيا ذات دلالة سلبية، أما الوجود فدلالته صوفية [(2)].

ومن أمثلة صورة الحياة في الخيال البحري في الشعر الأندلسي، قول ابن دراج : [من الكامل]

وفعمـــــت لي بحرالحيـــــاة مبـــــادراً ... بحيـــاة ذابلـــةِ الكبـــودِ ظـــوامي [(3)]

---

(1) البحر في شعر الأندلس والمغرب في عصر الطوائف والمرابطين: ٦٥، كما ذكر في كتابه.
(2) ينظر : الحياة في الخيال البحري الأندلسي، د. أحمد عبد القادر صلاحية : ٥١، الموقف الأدبي العدد ٣١٧- ٣١٨.
(3) ديوان ابن دراج : ١٨٠،

فقد شبه الشاعر حياته الخاصة ببحرٍ ناضب قبل وصوله إلى ممدوحه، وبعد وصوله تتبدل الصورة فالممدوح يملأ بحر الحياة بعد أن كان فارغاً ليعجل بإرواء الاكباد الذوابل وتستحيل هنا ملوحة البحر إلى عذوبة، إذ لا يمكن أن تحيا النباتات بماء أجاج، كما يرى ذلك د. عبد القادر صلاحية ويقول : ((فالشاعر بخياله الخلاق يقلب في موازين الطبيعة لأجل ممدوحه فيجعل البحر ناضباً ويجعل الممدوح قادراً على ملئه ثم يحوله عذباً.... وهو هنا على خلاف العادة التي درج عليها الشعراء بجعل البحر عنصراً إيجابياً خيراً وكان لا بد أن يغيّر دلالته المعهودة لأنه جعل ماء البحر من جود ممدوحه وكرمه وليس من الممكن كونهما ذوي دلالة سلبية)) [1] وإن كان الشاعر قد أفاد من الموروث الشعري المشرقي الذي يشبه الحياة بالبحر إلا أن هذا لم يكن نسخاً حرفياً أو مسخاً للصورة فقد صاغ الشاعر تشبيه الحياة بالبحر (بأسلوب التشبيه البليغ فيغدو(بحر الحياة ((والممدوح يملؤه باللُّها وهي صورة خيالية لا مثيل لها في الخيال البحري المشرقي))[2].

وهذه سمة من سمات البحرية الإسلامية في الشعر الأندلسي إذ أنها تجاوزت حدود المشرق الذي أقتصرت فيه صورة (الحياة) في شعر البحرية على ألفاظ تدل على الحياة كما عرضنا بعضاً منها.

ويظهر تفوق الأندلسي في مفهومي الحياة والدنيا في شعر البحرية على الشاعر المشرقي فقد أعطى الشاعر (الوادي آشي) للحياة صورة في بيت واحد ما أستطاع غيره في المشرق بلوغها يقول : [من الطويل]

---

(1) الموقف الأدبي، العدد ٣١٧ – ٣١٨ : ٥١.

(2) الموقف الأدبي، العدد ٣١٧ – ٣١٨ : ٥٢.

إلا أنما الدنيا بحار تلاطمت فما أكثر الغرقى على الجنبات [١]

أعطى الحياة صورة تقابل ثلاث صور للدنيا، فمن خلال صورة البحر العابسة، والاضطراب و الهيجان والغرق والهلاك فالدنيا ليست سوى بحار ويأتي بالمشبه به بصيغة الجمع (بحار) ليهول الأمر ثم يصف هذه البحار بالتلاطم، وهذه صورة استعارية جديدة فالمعهود هو تلاطم الأمواج وليس البحار ثم تأتي النتيجة بأسلوب (مراعاة النظير(فيها المبالغة والتحسر وهي تصور كثرة الغرقى، صورة تنم عن دقة في التعبير بأختيار صور متعددة تتسم بالتناغم والانساق والصدق الفني والإغراب والمبالغة وأتساع الخيال، صورة تشي بعمق الثقافة ودقة استعمال الأدوات الفنية في لوحة مكثفة يظهر فيها آنفة البحار من احتواء الجثث فلفظتها ونثرتها على الشطآن، وصورة تلاطم البحار [٢]، وهنا لا أرى أن الصورة التي رسمها أبو العتاهية ترقى إلى مستوى صورة الوادي آشي، يقول أبو العتاهية :

[من الخفيف]

كل أهل الدنيا يعوم على الغفـ ـلة منها في غمرِ بحرٍ عميقِ [٣]
يتبارون في السباح فهم من بين ناجٍ منهم وبين غريقِ

---

[١] مختارات من الشعر الأندلسي : ١٩١.
[٢] ينظر : الموقف الأدبي : ٣١٧- ٣١٨ : ٥٣.
[٣] ديوان أبي العتاهية : ٢٤٧.

فالصورة الأولى هي أظهر وأعمق وأكثر إجادة في الرسم التعبيري من صورة أبي العتاهية.

أما الصورة التي رسمها الشاعر الأعمى التطيلي من قصيدة رثاء، يقول :[من البسيط]

عـــزاؤكم، إنمـــا الــــدنيا وزينتهـــا بحـــر طفونـــا عـــلى آذيـــة* زبـــدا [(١)]

فتختلف عن الصورة السابقة، وقد عّدها د. صلاحية [(٢)] معادلاً موضوعياً لمعنى العزاء فقد يزهد في الحياة وينقص من قيمة الاحياء ليهون المصاب على أهل الفقيد، وكانت الصورة التي رسمها حزينة قاتمة متشائمة لمرحلة ما قبل الموت أو الحياة، بالإفادة من قوله تعالى : [**فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ**] [(٣)] والمتأمل لتشبيه الأعمى التطيلي ؛ الإنسان بالزبد الطافي على امواج البحر يلحظ عمق التأمل ودقة التعبير والحث على التفكير.

ذكرنا أن صورة الحياة في الخيال الشعري البحري الأندلسي واضحة المعالم لثقافته الواسعة وصنعته اللطيفة وحسن تدبيره، ودليل على التطور الفكري وغنى الخيال الذي يمتلكه الشاعر الأندلسي، ففي صورة رسمها أبو بكر الطرطوشي (٥٤٢هـ) يتحدث فيها عن أهل الآخرة الذين هجروا زخارف الدنيا، يقول : [من الرمل]

---

(١) ديوان الأعمى التطيلي : ٢٧.

* الأذي : التيار.

(٢) ينظر، الموقف الأدبي، ٣١٧- ٣١٨ : ٥٤.

(٣) الرعد : ١٧

إن لله عبـــــــــــاداً فطنــــــــــا   طلقـــوا الـــدنيا وخـــافوا الفتنـــا [1]
فكـــــروا فيهـــا فلـــما علمـــوا   أنهـــا ليــــست لحــــي وطنـــا
جعلوهـــــا لجـــــة وأتخـــــذوا   صـــالح الأعـــمال فيهـــا ســـفنا

نلمس القدرة الفنية في إظهار صورة ثنائيـة للجـة الـدنيا وسـفن الأعـمال الـصالحة، لهؤلاء الذين صيروا الدنيا لجة لأنها ليست دار قـرار ولم يجـدوا إلا الـصالح مـن الأعـمال لهـم سفناً توصلهم إلى ساحل الأمان وهي صورة (فريدة في بابها)[2].

أما صورة الموت في الخيال البحري الأندلسي فإنها تفوق صورة الحياة لطغيان النظرة القاتمة إلى البحر - كما هو معروف - ففي وصف وقائع الحروب ومعارك الفتح والدفاع عـن الثغور تطورت بعض قيم المديح التي مثَّلها الشعر الأندلسي البحري حتـى صـار خـوض غـمار البحر أحد القيم البارزة في غرض المديح وصار دليلاً على شجاعة الممـدوح وجرأتـه، وتطـورت هذه القيمة ((فلم يكتف الشعراء بجعـل ممـدوحيهم يخوضـون غـمار البحـر العـادي حتـى جعلوهم يخوضون بحار الموت غير هيابين)) [3] من ذلك في مدحة لابن دراج يقول :

[من الطويل]

صَـــليتَ ونـــارُ الحـــربِ يـــذكر ســـعيرها   وخُـضت ومـوج المـوت تطفـو غواربـه [4]

---

[1] الصلة في تاريخ أئمة اللغة وعلمائهم ومحديثهم، ابن بشكوال : ٥٧٥/١، الدار المصرية للتأليف، القاهرة، ١٩٥٥، ونفح الطيب ٣٠١/٢، ط١، ١٩٩٥.

[2] الموقف الأدبي : ٣١٧- ٣١٨ : ٥٥.

[3] الموت في الخيال البحري الأندلسي، د. أحمد عبد القادر صلاحية : ٣٤، (الموقف الأدبي، العدد ٣٦٥، ٢٠٠١).

[4] الديوان : ٢٠.

صورة بلاغية نلحظ فيها التوازن اللفظي والموسيقي (صليت، يذكو= وخضت، تطفو) وصور مترادفة متقابلة بمعنى واحد ((فالصلي هو الدخول في النار، والخوض هو الدخول في الماء، ونار الحرب تماثل موج الموت وكلاهما يعتمد الجملة الحالية في تشكيل الصورة، والصورة توحي بأن الممدوح يغشى نار الحرب وهي تضطرم اشتعالاً، ثم يخوض غمارها غير مبالٍ بأمواج الجيوش التي تخفي الموت في أثنائها، والتهويل هنا لتعظيم صورة الممدوح [1].

ويتوسع ابن دراج في رسم صورة الموت : [من الطويل]

صليتَ وقدْ أذكى الطعان وقودها وفار بنيران السيوفِ سعيرها [2]
وخضتَ وقد أعيت نجاة غريقها وهالت بأمواج المنايا بحورها [3]

أوجد ابن دراج الموازنة اللفظية، ومدَّ الصورتين بلون جديد من المبالغة وتهويل الخطر، فالممدوح يخوض أمواج الموت ولا يخشاها، ولم يعد الموت بحرً بل غدا أمواجاً كل موجة تحمل موتاً [4]. يقول : [من البسيط]

خاضوا إليك بحار الموت زاخرةً يمور فيهن موج النقع كالظلل [5]

---

[1] ينظر: الموت في الخيال البحري الأندلسي، د. عبد القادر صلاحية: ٣٤، الموقف الأدبي، العدد ٣٦٥، ٢٠٠١.

[2] ديوان ابن دراج : ٢٢، ط١، ١٩٦١.

[3] معنى البيت مأخوذ من قول المتنبي

بناها فأعلى والقنا تقرعُ القنا وموج على أعدائه وتحومُ [3]

[4] ينظر : الموقف الأدبي : ٣٦٥، ٢٠٠١ : ٣٥.

[5] ديوان ابن دراج : ٢٢، ط١، ١٩٦١.

ومن الموت، والغبار، والجيش صنع صورة متعددة المعاني، وبمفارقة لطيفة في صورة رائعة جعل البحر (بحر الموت) لا يسيل ماءً وزبداً بل يسيل سيوفاً ورماحاً يقول من القصيدة نفسها :

وأضحت الأرض في رحب الملا لججاً   سالت عليهم ببيض الهند والأسل

وإن منح ابن دراج القسطلي النص عدداً من المعاني تحتاج إلى شرح وتوضيح ليدركها المتلقي فقد عمد الأعمى التطيلي إلى الدلالات الإيحائية والبلاغية وطورها تطويراً فيه القدرة الفنية على الإبداع ماثلة للعيان، يقول: [من الطويل]

تَدَفّقتَ دون الدين بحر منيةٍ   تموجُ على أعدائِهِ وتحوم [1]

جعل الشاعر الممدوح هنا (بحر الموت) ولم يشبهه به، فالصورة هنا، فنية مركبة فريدة والممدوح يتدفق ويموج بحراً على سبيل الاستعارة التصريحية، والموت بحرٌ، في تشبيه بليغ، وصورة ينهض بها الفعل يحوم، ويستحيل بحر المنية طيراً أما روح الحماسة والصدق فبادية في الأفعال (تدفقت، تموج، تحوم).

ويرى أبو الشيص في رحلة السفينة أن للموت غباراً، يقول: [من الطويل]

إذ اعتلجت والريحُ في بطن لجةٍ   رأيتَ عجاج الموت من حولها يشب [2]

---

(1) ديوان الأعمى التطيلي : ١٦٢.

(2) طبقات الشعراء المحدثين: ٨٣.

ونرى أن طبيعة البيئة الأندلسية فرضت على الشاعر الأندلسي ثقافة تتلاءم وظروف الحياة حرباً وسلماً، فمن هذه الظروف صار البحر في جانب منه مقبرة بحرية استقر فيها من الأحبة وأفلاذ الأكباد ما دعا الشعراء إلى تطوير فن الرثاء ذلك برثاء غرقى البحر، يقول المعتمد بن عباد وهو يبكي أبناءه وأصدقاءه ممن طوى بعضهم البحر في معارك الجهاد البحرية :

[من الطويل]

بكت واحداً لم يشجها غير فقده ... وأبكي لآلاف عديدهم كثرُ [(١)]

بنيَّ صغير أو خليل موافق ... يمزق ذا قفر ويغرق ذا بحرُ

ولابن حمديس قصة طويلة حزينة مع البحر الذي طوى جاريته (جوهرة) في رحلتها إلى أفريقية، يقول : [من البسيط]

أماتك البحر ذو التيار من حسدٍ ... لما درى الدر منه حاسداً تغرك [(٢)]

وقعتُ في الدمع إذ أغرقت في لججٍ ... قد كان يغمرني منه الذي غمرك

أقول للبحر إذ أغشيته نظري ... ما كدَّر العيش إلا شربها كدَرَكْ

هذه الأبيات التي صدر عنها ابن حمديس في شهيدة البحر جوهرة نفثة مصدور، وغصة حارقة لمشهد غرق الحبيبة التي كان رفيقها ونجا، صدرت من قلب جريح يرتجف عصفوراً بلله القطر مفعماً بتيار متلاحق من الصور الفنية فيها

---

(١) تاريخ ملوك الأندلس الشعراء : ٢٧/٥.

(٢) ديوان ابن حمديس : ٢١٢.

للعاطفة مكان ملحوظ، ولا يجد نفسه إلا هائماً على وجهه أمام شاطئ البحر يرقب أياب سفينة جوهرة، فيصير هو بحر ((فيتمازج مع البحر ويتوحد معه فيصير هو نفسه بحراً تطفح عيونه بلالئ الدمع))[1]. يقول : [من الكامل]

كم ذا يزور البحر بحر أسً في العين منك جمانه رطب[2]

والمتتبع لصورة الموت في الشعر الأندلسي في المعارك الجهادية البحرية يلمس سلبيتها إلا ما ندر، علماً أن طبيعة الشاعر هي التي تحدد نظرته إلى الموت وتتلون بألوان شتى تتضح من خلالها رؤيته وعمق إدراكه.

---

(1) مجلة التراث العربي، دمشق : ٥١.

(2) الديوان : ٨.

المبحث الرابع

شعر معارك الجهاد البحرية والأسلحة

وتعبئة الأساطيل

١ - معارك الجهاد البحرية :

ظلت الأندلس على مدى قرون دار جهاد ورباط، ولم تكـن حيـاة الأندلـسيين حينئـذٍ كما تُصوَّر غناءً وجواري وظلال وبساتين، فكما أحاط البحر بهم، أحاط بهد الأعداء وليس الـبر أهون من البحر، فعاشت الأندلس والعدو مـتربص بهـا والجهـاد فـرض عـين صـاحب رجالهـا، فكان شعر الجهاد البحري صوراً من الحروب لاسترداد مـدن أو ثغـور وصـد هجـمات العـدو، كفاح فيه عدمت محطات الراحة بحراً وبراً، في هذا يقول ابن دراج : [من الطويل]

تَحمَّــل منــه البحــر بحــراً مــن القنــا	**يــــروع بهــــا أمواجــــه ويهــــول** [١]
إذا ســابقت شــأو الريــاح تخيلــت	**خيــولاً مــدى فرســانهن خيــول**

فابن دراج يصف البحر ويتعثر بالبر والمـوج يـأسر غـضبه وتفكـيره ويغتـصب فرحـه وسعادته، ثم أنَّ احتلال عدد مـن المـدن الأندلـسية كـان باعثـاً وطنيـاً ودينيـاً لتحريرهـا مـن سيطرة الأسبان، ومنذ حكم ملوك الطوائف، وهذه المدن في احتلال

---

(١) الديوان : ٤-٥ من نصٍ ذكرناه في المبحث الثالث من الفصل الرابع (الصورة الفنية).

آخر، وتحرير ثانية وكان للشعر الأندلسي عامة وشعر البحرية الأندلسية حضور بارز في حث المسلمين على الجهاد واسترداد المدن من خلال الإعداد الروحي أولاً بنبذ الانغماس في الملذات والدعوة إلى الصلاح والوقوف صفاً واحداً لمواجهة العدو، يقول ابن العسال :

[من الكامل]

لولا ذنوب المسلمين وأنهم ركبوا الكبائر ما لهُنَّ خفاءُ [١]

ما كان ينصر للنصارى فارسٌ أبداً عليهم فالذنوب الداءُ

أراد الشاعر تطهير النفوس أولاً وكبح شهواتها وصولاً إلى الوقوف بوجه الأعداء والجهاد في سبيل إعلاء كلمة الدين لتحقيق النصر، وكان الشاعر يعتقد أن سبب استمرار اعتداء الأسبان هو انصراف الأمراء والقادة عن الجهاد على الرغم من قوة المسلمين واستعدادهم للتضحية، من ذلك ما ذكره الشاعر مرج الكحل [٢] مشيراً إلى قوة الجيش الموحدي الذي غزا الأسبان في عقر دارهم يقول: [من الكامل]

أوطأت أرض المشركين كتائباً كادتْ تميدُ الأرض من وطأتها [٣]

كالبحر يطفحُ موجه جرياً إذا هبت رياح النصر في راياتها

نلمح إرادة النصر في قوة الجيش الذي (كادت تميد الأرض) و(كالبحر يطفح) ويظهر الشاعر مقاومة الجيش الإسلامي للأسبان وغزوهم في عقر دارهم.

---

(١) الروض المعطار في خبر الأقطار،تح: إحسان عباس:٤١،بيروت-لبنان،ط٢،١٩٨٤.

(٢) ولد محمد بن إدريس الملقب بـ(مرج الكحل الأندلسي) في بداية الحكم الموحدي وتوفي قبل بضع سنوات من انتهائه : مرج الكحل الأندلسي سيرته وشعره، د. صلاح جرار : ١٣، دار البشير، عمان – الأردن، ط١، ١٩٩٣.

(٣) ينظر: المقتضب من كتاب تحفة القادم، ابن الأبار : ١٣٨، تحقيق : إبراهيم الإيباري، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥٧.

إن وصـف المعـارك البحريـة متمـثلاً بوصـف الـسفن بأنواعهـا والأسـاطيل البحريـة الأندلسية، من الأغراض المهمة في ديوان الشعر العربي الأندلسي الموظـف للمـديح في معظمـه إذ اقترن بوقائع الجهاد البحرية، وواكبها مواكبة حية تفصيلية، وهـو لا يقـل شـأناً عـن شـعر الوقائع الجهادية البرية.

وقد ذهـب إلى ذلك د. أحمد عبد القادر صلاحية إذ يـرى أنـه : ((اسـتقطب حماسـة الشعراء الجارفة ليصبوا فيه ألوانـاً مـن الإبـداع في التـصوير وليكـون في جملتـه وثيقـة أدبيـة تأريخية قيمة وسجلاً حافلاً للأحداث والغزوات البحرية التي جرت، والأساطيل التي صنعت... إلى جانب غيرها من الأحداث ذات العلاقة بالبحر)) [1].

إن ما وصلنا من شعر المعارك البحريـة الإسـلامية في الأنـدلس الـذي واكـب الوقـائع والغزوات، قياساً بشعر المعارك البرية من القلة بحيث ليس من الـسهولة أن نعقـد لـه مبحثـاً كاملاً ثم أن النصوص المتوافرة لا يكـون معظمهـا خالـصاً لوصـف المعـارك والوقـائع البحريـة لتوافره على أكثر من معنى، ففي نص لأبن حمديس يمـدح الأمـير أبـا عـلي الحـسن عـلي بـن يحيى من أربعة أبيات، يقول [من الخفيف]

وإذا الحـــــرب أقبلــــــت بالمنايــــــا	**كـــــر، والـــــذمر لائـــــذ بـــــالفرار** [2]
واليعابيــــــب حولـــــــه تتعـــــــادى	**كالـــــسراجين بالأســـــود الـــــضواري**
كـــــل بحـــــر يـــــسطو بجـــــدولٍ غمـــــرٍ	**جامـــــدٍ فيـــــه وهـــــو بالـــــسيل جـــــاري**
والأســـــاطيل في الزواخـــــر يرمـــــي	**بلـــــدً الـــــروم غزوهـــــا بالـــــدمار**

---

[1] وصف البحر في الشعر الأندلسي : ٥٢

[2] ديوان ابن حمديس : ٢٣٠.

في البيت الأول يصف الحرب والموت والكرُّ، وفرار الشجعان من الأعداء وفي البيت الثاني يصف الخيول السريعة الطويلة يشبهها بالنهر الشديد الجريان الكثير الماء وهي كالذئاب تعدو بين الأسود الضواري، ثم ينتقل إلى البحر وقوته وجرفه الأنهار عظيمة المياه في سيل جارف، في البيت الثالث ويصف جيشان الأساطيل البحرية وقوتها في غزو الروم وتدمير بلدهم في البيت الرابع، أما عن قلة النصوص فأذهب إلى ما ذهب إليه د. منجد مصطفى بهجت بقوله : (إن شعر معارك الجهاد البحرية واكبَ الوقائع مواكبة حية تفصيلية وهو في ذلك لا يقل شأناً عن شعر المعارك البرية، ومواكبتها للوقائع والغزوات، وما وصل من أشعار الصنف الأول قليل يجعلنا نظن أن جزءاً كبيراً مفقوداً، ومما يدلنا على ذلك وصول مقطعات شعرية في كتب الاختيارات على أنها جزء مما قيل في تلك الوقائع)[1].

ومن تلك المقطعات في وصف الحروب والطعان والضراب والجيوش لجعفر بن عثمان * يقول : [من الكامل]

كتائب أمثال البحار زواخراً تفيض على طول البلاد وعرضها[2]
تزيلُ الكرى عمن تؤم كأنما هواجلها بين الجفون وغمضها

(1) البحر في شعر الأندلس والمغرب في عصري الطوائف والمرابطين : ٤٤.
* هو أبو الحسن جعفر بن عثمان بن نصر بن فوز قلده المستنصر بالله خطة الوزارة، أحد شعراء الأندلس المحسنين، مات مسجوناً في عهد الحاجب المنصور بن أبي عامر سنة (٣٦٧هـ). ينظر: معجم الحضارة الأندلسية : ٣٣.
(2) التشبيهات : ٢٠٣.

وفي هذا المعنى لمحمد بن عبد العزيز يقول : [من الوافر]

وكـــم جـــيش تجـــيش بـــه الفيـــافي كمـــوج البحـــر يـــضطرب إضـــطراباً [1]
كـــأن الـــصور ضـــمت نفختـــاهُ إليـــه كـــل مـــن ســـكن الترابـــا

ثم أنك تقرأ نصاً للشاعر غالب بن عطية (٥٤٢هـ)، يقول: [من الطويل]

ونحـــو أمـــير المـــسلمين تطامحـــت نـــواظرُ آمـــال وأيـــدي رغائـــب [2]
مـــن النـــاس تـــستدعي حفيظـــه عدلـــهِ لـــصدمة جـــورٍ في ميورقـــة ناصـــب
مقـــيم فـــإن لم يـــرغم الـــسعد آنفـــه ألم فـــوافى جانبـــاً بعـــد جانـــب
لقتـــلٍ وســـبي واصـــطلام شريعـــةٍ لقـد عظمـت في القـوم سـود المـصائب
ألـــيس جـــديراً أن يـــشيع ذكـــرهم بأمـــة قلـــبٍ في المـــدامع ذائـــبِ

فلا نلحظ أنه نص في شعر الجهاد البحري أو البري لكن مناسبة النص - وهي قليلة في دواوين شعراء الأندلس - تجلي الموقف فهذه القصيدة نظمت بعد حصار ميورقه سنة (٥١٨هـ) حيث أجتمع أهل بيشة وجنوه عليها بثلاثمائة مركب... فلما شعر العدو بخروج ذلك الأسطول أخلى المدينة وصدر عن الجزيرة، إذن هو نص ليس فيه للأسطول البحري صورة، وكان للأسطول في النصر حضور.

وأرى أن نصر المسلمين في المغرب والأندلس أو في مصر يمثل نصراً ورداً حاسماً للعدو المتربص بالمسلمين شراً في الضفة الثانية وهذا ما دفع الشاعر ابن هاني الأندلسي

---

(1) المصدر نفسه : ٢٠٣.

(2) الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي : ٢٧٠.

* (٣٢٦-٣٦٢هـ) إلى تصوير أسطول المعز لدين الله الفاطمي وإظهار قوته وهيبته في نفوس الأعداء، مما جعل تلك الأساطيل مرهوبة الجانب أظهرت رعب ملك الروم، يقول :

[من الطويل]

أمـا والجـواري المنـشآت التـي سرت ... لقـد ظاهرتهـا عـدة وعديـد
قبـاب كـما تزجـى القبـاب عـلى المهـا ... ولكـن مـن ضـمت عليـه أسـودُ
ولله مـمـا لا يـرون كتائـب ... مـسومة تحـدو بهـا وجنـودُ
أطـاع لهـا أن الملائـك خلفهـا ... كـما وقفـت خلـف الـصفوف ردود
وإن الريـاح الـذاريات كتائـبٌ ... وأن النجـوم الطالعـات سـعودُ
ومـا راع ملـك الـروم إلا اطلاعهـا ... تنـشر أعـلام لهـا وبنـودُ

ثم أن هذه السفن تشق عباب البحر، ويشبهها بالجبال قوة وعظمة وسموقاً وسرعة لصيد نفوس الأعداء، ويصور نيرانها التي تهزم الأعداء، ولا تخمد وهي تزفر غيضاً كنار الجحيم أو الصواعق، يقول

مـواخر في طـامي العبـاب كأنـه ... لعزمـك بـاس أو لكفـك جـودُ
أنافـت بهـا أعلامهـا وسـما لهـا ... بنـاءٌ عـلى غـير العـراء مـشيدُ
ولـيس بـأعلى كبكـب وهـو شـاهق ... ولـيس مـن الـصُّفَّاح وهـو صـلودُ
مـن الراسـيات الـشم لـولا أنتقالهـا ... فمنهـا قنـان شـمخ وريـود
مـن الطـير إلا إنهـن جـوارحٌ ... فلـيس لهـا إلا النفـوس مـصيدُ
لهـا شـعل فـوق الغـمار كأنهـا ... دمـاءٌ تلقتهـا ملاحـفُ سـودُ

---

* هو أبو القاسم محمد بن سعدون الأزدي المعروف بابن هانئ الأندلسي من شعراء المغرب والأندلس المشهورين، لقب بمتنبي المغرب، أكثر شعره في المدح. ينظر: معجم الحضارة الأندلسية : ٢٢.

ومع أن هذه السفن ليست بالخيول إلا أن أعنتها هي الرياح، ثم شبهها بالغيد الحسان في انثناء أعناقها على صدورها ثم يذكر مجاذفها وما يتبعها من زوارق صغيرة ويصف نقوشها ويعود إلى تصوير قوتها بالأسود في اندفاعها ويصور الموج حين يشتد ويعلوها بزبده بأشكال من الألبسة والأردية يقول :

فليس لها إلا الرياح أعنةٌ ... وليس لها إلا الحبابُ كديدُ
ترى كل قوداءِ القليل إذا آنثنتْ ... سوالف غيد للمها وقدودُ
رحيبة مد الباع وهي نتيجةٌ ... بغير شوى عذراء وهي ولودُ
لها من شفوفِ العبقري ملابسٌ ... مفوفة فيها النضار جسيدُ

إلى أن يقول :

لبوسٌ تكف الموج وهو غطامِطٌ ... وتدرأ بأس اليم وهو شديدُ [(١)]
فمنها دروع فوقها وجواشنٌ ... ومنها خفاتينٌ لها وبرودُ

ويرجع إلى وصف الموج ومواجهة السفن ودرأها بقوة، ويرجع أخرى إلى حالة الوصف الإيجابي.

لقد وصف ابن هانئ الأسطول في معركة حربية بحرية فاصلة، كأنه شهدها وأحاط بجوانبها، أو كأنه واحد من أولئك الجنود الذين عاشوا المعركة البحرية في

(١) ديوان ابن هانئ الأندلسي : ١٠٢ – ١٠٤.

حجمها ومسيرتها وقذائف نيرانها وما تركه انتصار المسلمين في نفوس الأعداء من فزع ورهبة ورعب وخوف، وهذا الموقف الذي أشرنا إليه في مبحث (الرهبة من البحر(الذي يخلق في راكب البحر الفزع والرهبة والرعب والخوف من ركوبه.

فإن ذكرنا هذا النص لابن هانئ الأندلسي (٣٦٢هـ) بوصف أسطول المعز فقد أكتمل وصف الأساطيل الحربية البحرية في القرن الخامس الهجري على يد كبار شعراء الأندلس، ابن دراج القسطلي، وابن وهبون، وابن حمديس.

وقد وصف ابن دراج الحروب ووقائعها، والفرسان وملابسهم من خوذٍ ومن دروعٍ مسردة، كما أبدع في وصف آلات الحرب وأدواتها من سيوف ورماح وخيول، وأجاد في وصف السفن والحروب البحرية الجهادية، كما وردت ألفاظ الحروب وصورها في البر أو في البحر في السفينة أو الخيول، في لغة شعرية راقية، يقول : [من الطويل]

جنود كأن الأرض من لمعانها بروقٌ تلالا أو حريق تضرما [١]
سحابٌ من البيض الخوافق قد علا وبحرٌ من السرد المضاعف قد طمى

ويصور ابن دراج (شانجة بن غرسية(وإتباعه وهم يخوضون الموت تحت غبار الحرب، يشبه الأرض من كثرة قتلى العدو كأنها أمواجٌ متلاطمة، يقول :

[من البسيط]

وأضحتِ الأرض في رحب الملا لججا سالت عليهم ببيض الهند والأسلِ [٢]

---

(١) ديوان ابن دراج : ٣٩٨.

(٢) المصدر نفسه : ٤١٥،

وفي وصف حال المسلمين يخاطب المنصور :

مستبشرين بما أحييت من أملٍ ... مستسلمين لما أمضيت من أجلِ

وبهذا يعبر عما يختلج عواطفه من فرح وزهو بانتصار المسلمين، يشبه كتائب الجيش لججاً لتموجه وشدة لمعانه وهذا البحر لا يسيل ماءً وزبداً فقط بل سيوفاً ورماحاً، كما هو واضح في الشطر الثاني، ومعاني ابن دراج وصوره الشعرية مستمدة من البيئة الاجتماعية، وثقافته التراثية، وثروته اللغوية.

ولنا مع ابن حمديس في المسيرة الشعرية الجهادية وقفة أخرى إذا ما علمنا أنه يمثل القطب الثاني مع ابن دراج في هذه المسيرة وله فيها ما للأول من وصف الحرب وآلاتها كالسفن والسيوف والدروع والخيول والإبل، وتصوير لجوانب الحياة السياسية في صقلية بشكل خاص والأندلس عموماً بما ينسجم مع الأحداث التاريخية، فهو يصور قتال مسلمي صقلية ضد الغزو النورماني، وقتال مسلمي الأندلس مع المرابطين ضد القشتاليين، ويصور قتال مسلمي أفريقيا ضد الروم.

ولابن حمديس في تصوير (حربيته(معانٍ كثيرة يقول : [من الخفيف]

وبحربيةٍ لها نفط حربٍ ... يحرق الماء تارة باضطرامِ [١]
وذبالٍ على القنا مشعلاتٍ ... مطفئات الأرواح في الأجسامِ

---

[١] ديوان ابن حمديس : ٤٦٨- ٤٦٩.

وله في وصف الناقة قائلاً :

بنـــت بـــرٍ في البحـــر تركـــب فيهـــا ... كلكـــلاً يالموجـــه مـــن ســـنامِ
تتقـــي مـــن جنوبهـــا وقـــع ســـوطٍ ... فهـــي كالـــسهم طـــار عـــن قـــوس رامِ

كان شعره صدىً للروح الإسلامية في الكفاح ضد المد الإسباني الكافر، الذي أخذ يتزايد من ذلك قصيدته في مدح علي بن علي باستخدامه الأسطول البحري والجهود التي بذلها لمقارعة نورمان صقلية في قلب البحر الرومي بعد الخلاف بينه وبين رجار الثاني (٥١١هـ)، يقول في وصف السفينة النورمانية : [من الوافر]

أراك اللـــــه في الأعـــــلاج رأيـــــاً ... لهـــم منـــه المذلـــة والـــصغارُ [١]
فـــردَّ اللـــــه بأســـــهم علـــيهم ... فـــربحهم بـــصفقتهم خـــسارُ
لـــك الفلـــك التـــي تجـــري بـــسعدٍ ... يـــدور بـــه الفلـــك المـــدارُ
تهـــب لـــه الريـــاح مـــسخراتٍ ... وتـــسكن في تحركهـــا البحـــارُ
وهـــل يلقـــى مـــصادمة حـــصاهم ... جبـــالاً ســـحقها لهـــم دمـــارُ

يبدو الشاعر متحمساً للمدح مخلصاً فيه، فهذه مناسبة تبعث في نفسه الفخر والقوة لأنها تتصل بوطنه. وهي صورة رائعة من صور الكفاح والبطولة وقد عودنا ابن حمديس في مدائحه النظم القوي المحكم الذي يدل على تمكنه من صناعة الشعر في التعبير والصياغة، كما في : [من الطويل]

---

[١] المصدر نفسه : ٢٣٩.

رمينـــا عـــداة اللـــه في عقـــر دارهـــم ... بعاديـــة في غمـــرةِ المـــوت تقحـــم [1]
مـــدائن تغـــزو للعلـــوج مـــدائناً ... فتفـــتح قـــسراً بالـــسيوف وتغـــنم

وله أيضاً :

إذا مـــاجَ بحـــرٌ في شـــوانيهم بهـــم ... أتى مـــددٌ منـــا فـــماج بـــه الـــبر [2]

وله في مدح الحسن بن علي في معركة الديماس (٥١٧هـ) وهو يعرض صورة للأسطول ناطقة بالشجاعة وصدق العزيمة في مجاهدة العدو وانتصاره على تلك القوى التي جاءت في جموع من كل فجٍ عميق، ويذكر هزيمتهم، يقول:[من الطويل] [3]

أبى اللـــه إلا أن يكـــون لـــك النـــصر ... وأن يهـــدم الإيمـــان مـــا شـــاده الكفـــر
وأن يرجـــع الأعـــلاج بعـــد علاجهـــا ... خزايـــا عـــلى آثارهـــا الـــذلُّ والقهـــرُ
بنـــو الأصـــفر أصـــفرت حـــذاراً وجـــوههم ... فأيـــديهم مـــن كـــل مـــا طلبـــوا صـــفرُ
تنـــادوا كـــأسراب القطـــا في بلادهـــم ... وكـــان لهـــم في كـــل قاضـــية ثغـــرُ
ولمـــا تنـــاهى جمعهـــم ركبـــوا بـــه ... قـــراً زاخـــرَ الآذي آفاقـــه غـــبرُ
تولـــت جنـــود اللـــه بـــالريح حـــربهم ... ولـــيس لمخلـــوق عـــلى حربهـــا صـــبرُ
فكـــم مـــن فريـــقٍ مـــنهم إذ تفرقـــوا ... لـــه غـــرق في زخـــرة المـــوج أو أسر
وظلـــت ســـباع المـــاء وهـــي تنوشـــهم ... فـــلا شـــلو مـــنهم في ضريـــحٍ ولا قـــبرِ

---

(1) ديوان ابن حمديس: ٤١٥.
(2) المصدر نفسه : ٢٥٧.
(3) المصدر نفسه : ٢٥٢.

أتـــــوا بأســـــاطيل تمـــــرُّ كأنهـــــا جرادٌمظـــلٌ ضـــاق عـــن عرضـــه البحـــرُ

وخيـــل حـــشو منهـــا الـــسفين ولم يكـــن لهـــا في مجـــال الحـــرب كـــرٌّ ولا فـــرُّ

وقـــد ركبـــت فرســـانها صـــهواتها فـــأرجلهم منهـــا التـــذلل والـــذعرُ

هنـــاك شـــفى الإســـلام مـــنهم غليلـــهُ بطعـــنٍ لـــه بـــترٌ وضربٌ لـــه هـــبرُ

أرى أن هذا النص ملحمة وطنية قومية يتمثل فيها انتصار أمة الأندلس الإسلامية على العدو، تصوير المعركة فيه تفصيل وأطناب وتوليد معانٍ بث من خلالها أحساسة الوطني الصادق ولم يغفل الروح الدينية، بعد أن أتاح له القدر في أواخر حياته أن يرى مغتصبي وطنه وقد هزموا شر هزيمة، بهذه الروح مضى يصف القتال واستعداد العدو وما جاؤوا به من أساطيل ضاق بها البحر على سعته، لكن جنود البحرية الإسلامية أرجلت هؤلاء من مراكز قوتهم، ولم يغادر الشاعر مفردة إلا وذكرها في هذه الملحمة، وقد أثنى على القبائل العربية من بني رياح وبني دهمان وبني زيد الذين استجابوا لداعي الجهاد، يقول :

كتائـــب مـــن كـــل القبائـــل أقبلـــت لفـــرضِ جهـــادٍ مـــا لتاركـــه عـــذرُ

وأنت تقرأ هذا النص تلمس صورة إيمانية بانتصار شفى الإسلام غليله من العدو، وتلمس صورة لفعل جنود الله في غرق جنود العدو أو أسرهم، وجعل من بطون حيوان البحر قبراً لهم، وصورة تظهر قوة العدو عدةً وعدداً في أساطيل ضاق البحر بها وصورة تقابل صورة هذا العدد وهذه العدة نلمس من خلالها قدرة المسلمين على إنزال العدو من قلاعه في تذلل وذعر بعد أن تبدد جمعهم واصفرت وجوهم، (**خزايا على آثارها الذل والقهر**).

٢- معجم ألفاظ البحرية الأندلسية

إن الحديث عن السلاح في المعارك الحربية البحرية في الأندلس، يعد استكمالاً لأسباب النصر، بوصفه عنصراً مهماً في بناء النص، إذ لم يخلُ أي نص شعري بحرياً كان أم برياً منه، ولا تقل أهمية السلاح في قصيدة المعارك الحربية عن أهمية الرجال الأشداء الذين يحملونه (فللسيف قوته وجدته، وللرمح صولته وقدرته، وللقسي فعلها ودقتها ورجالها وللخيل فرسانها وصولاتها([١] وبالسفن منايا الأعداء في لجٍّ بحورها :

وخضت وقد أعيت نجاة غريقها وهالت بأمواج المنايا بحورها[٢]

إن الأسلحة البحرية التي تزودت بها الأساطيل الحربية عديدة، وتكاد تتفق مع الأسلحة البرية فيما عدا بعض التعديلات التي تتناسب وطبيعة الحرب البحرية، فكانت الأسلحة الرئيسية لرجال الأسطول هي السيوف والدروع يقول : علي بن الحسين في وصف السيف : [من الطويل]

ومرهف كالقبس المؤجج كأن فوق متنه المدرج [٣]
جلدَ شجاعٍ أو فتوق زبرجٍ* تحسب في فرندهِ المرجرج

لجة بحرٍ زاخرٍ مموج

[١] شعر الحرب في الأندلس من الفتح حتى سقوط الخلافة : ٨٣، رسالة ماجستير على الآلة الكاتبة : ١٩٨٧.
[٢] ديوان ابن حمديس : ٢٠.
[٣] كتاب التشبيهات : ١٨٩.
* الشجاع : الحية، الزبرج : الذهب والسحاب والرقيق.

وله في وصف الدروع، يقول :   [من الطويل]

ومـــسرودةٍ مـــن نـــسجٍ داود تحتهـــا   أســـودٌ لهـــا منهـــا عليهـــا غلائـــل [1]
تخـالُ بهـا موجـاً مـن الزعـف سـائلاً ** **   لـــه الأرض بحـــرٌ والبحـــار ســـوائل

والقسي البحرية، والمجانيق، والعرادات، وهي أصغر من المنجنيق وتستخدم في رمـي الحجارة، وكذلك السهام البعيدة المرمـى، وقـدور الـنفط وغيرهـا مـن المـواد الملتهبـة، كالنـار البحرية التي توصل علماء العرب إلى أسرارها، بعد أن كان قد استخدمها الروم في بـادئ الأمـر وتطورت هذه النار إلى ما يشبه (المفرقعات)[2]، في هذه الأسلحة وغيرها يقـول ابـن حمـديس في وصف قطعة من قطع الأسطول (الحربية):   [من الطويل]

و(حربيـــة(في طـــالع الـــسعد أنـــشبت   فنيرانهـــا للحـــرب دائمـــة الوقـــد [3]
جبـــال طفـــث فـــوق الميـــاه وغيـــضت   بـــسمر القنـــا والمرهفـــات عـــلى الأُســـد

فمـــن كـــل ذي قوســـين يرســـل عـــنهما   ســـهام المنايـــا فهـــي مـــصمية تـــردي
وترمـــــي بـــــنفط نـــــاره في دخانـــــه   بـــه المـــوت محمـــر يـــؤوب بمـــسود
وتحـــسب فيـــه زفـــرة مـــن جهـــنم   تـــصعد عـــن فتـــل اللوالـــب بالـــشد

---

(1) كتاب التشبيهات : ١٩٧.
** الزعف : الدرع أو الدروع الملساء اللينة (يطلق على المفرد و الجمع)
(2) ينظر : قوات البحرية العربية في مياه البحر المتوسط : ١٧٧-١٧٨.
(3) ديوان ابن حمديس : ١٥٣.

و(حربية) هي سلاحُ له شأن في قذائف النـار الإسـلامية ذات التـأثير الكبـير في هزيمـة العـدو، يشبهها بجبال طفت فوق الماء لعظمتها والموت لها وسيلة قوته في تلك النار المحرقة التي لهـا بحبهم صلة قربى.

وفي صناعة النار الحربية (النار الإسلامية).

يقول ابن فركون : [من الطويل]

وفي معـــدن البـــارود أعظـــم آيــةٍ بــدت فــالنهي فيهــا بطــول اعتبارهــا [1]

نــصبتُ بهــا للــنفط أبرجهــا التــي يـــضاهي بـــروج النـــيِّران جـــدارها

فكيـــف منـــه اللـــه للحـــرب عـــدةً ففــي القفــر منــه مــا إليــه افتقــارهما

وتزود السفن عادة بنوع من (الكلاليب) تستخدم عندما تـدنو منهـا سـفن الأعـداء، توقف سفن العدو ويرمون عليها الألـواح أشـبه بالجـسر وينتقـل عليهـا الجنـد للقتـال ومـن الأسلحة ما يسمى بـ (التوابيت) وهي صناديق مفتوحة مـن أعلاهـا في أعـلى الـصواري ترمـي سفن الأعداء بالحجارة [2].

يقول الرمادي : [من السريع]

كأنمــــــا أبراجهــــــا في الــــــوغى ترمـــــي مـــــن الـــــنفط ببركـــــانِ [3]

---

[1] ديوان ابن فركون، تح: محمد بن شريفة : ١٤٢-١٤٣، مطبوعات أكاديمية المغرب- سلسلة التراث، ط١، ١٩٨٧.

[2] ينظر : قوات البحرية العربية في مياه البحر المتوسط : ١٧٨.

[3] كتاب التشبيهات : ١٩٢.

ويستخدم في المعركة (جرار النورة) وهو مسحوق ناعم من مـزيج الكلـس والـزرنيخ يرمى بها جند الأعداء بقصد أن يعمي غبار هذا المسحوق أعينهم، وتسلحت السفن الحربيـة في مقدمتها بـ(اللجام) يشبه سنان رمح بارز من مقدم السفينة لإحداث خـرق فيهـا وإغراقهـا [(١)]، ومن البديهي أن الأسلحة التقليدية المعروفة كالسيوف والرماح والسهام والقسي والـتروس والدروع، والخناجر وغيرها من آلات الحرب البرية لا يستغني عنها المقاتل بعد الالتحام بجند الأعداء.

وقد جمع ابن اللبانة وصف الأسلحة هذه في بيت واحد، يقول : [من الطويل]

رميـــــت لي فـــــضفاضتي ومهنـــــدي وخطيتـــي والنبـــلُ والقـــوسُ والترســـا [(٢)]

أما قطع الأسطول فهي ((أجرام هندسية صنعت على قالب الحـوت واعتبـار سـبحه في الماء بقوادمه وكلكله ليكون ذلك الشكل أعون لها على مصادمة الماء))[(٣)] وأعينـت بحركـة المقاذيف. واشتهرت السفن العربية بضخامتها وكثرة مجاذيفهـا ليـسهل توجيههـا، كقـول ابـن الحداد : [من الخفيف]

ذاتُ هـــدبٍ مـــن المجـــاذيف حـــاكٍ هـــدب بـــاك لدمعـــه إســـعادُ [(٤)]

(١) ينظر : قوات البحرية العربية في مياه البحر المتوسط : ١٧٨.

(٢) شعر ابن اللبانة الدايني : ٥٨.

(٣) مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، تح: د. حامد أحمد الطاهر: ٤٩٤.

(٤) نفح الطيب : ٢٠٤/٥، ط١، ١٩٩٥.

وفي الوقت نفسه بنيت سفن أخرى خفيفة الحركة لخدمة الأسطول، ومن هذه السفن:

الشواني : وهي أهم قطع الأسطول. الواحدة منها تسمى (شيني) أو (شونة) تمتاز بالطول، تجذف بمائة وثلاثة وأربعين مجذافاً، مزودة بأبراج وقلاع للدفاع والهجوم أشبه بالقلاع البحرية تحاصر العدو وترميه بالنفط [١].

الأغربة : سميت بهذا الاسم لأن الواحدة منها تشبه في مقدمة هيكلها رأس الغراب، وهي سفن حربية لا تختلف عن الشواني، اشتهرت بالبأس الشديد تنزل الرعب في قلوب الأعداء [٢]، وهي الروافع أو (ونشات(Grames طويلة ذات أطراف مدببة، تقذف فوق ظهور السفن المعادية فتنغرز فيها الأطراف المدببة فلا تستطيع السفن حراكاً فينقض عليها الملاحون الجنود، وقد شبهت هذه الروافع بالغربان لأنها كمنقار الغراب في الشكل [٣].

وقد سميت معركة ذات الصواري بمعركة الغربان لأن سفن الرومان التي اشتركت فيها كانت مجهزة بتلك الروافع أو الـ(ونشات)[٤].

للشاعر أبي عبد الله القاضي، أبو عبد الله محمد بن يحيى بن غالب [*] من شعراء المئة الثامنة يصف الأسطول ويذكر الشواني التي يستعمل لها أسم خاص (غربان) يقول :

[من الكاملِ]

(١) ينظر : قوات البحرية العربية في مياه البحر المتوسط : ١٦٧.

(٢) قوات البحرية العربية في مياه البحر المتوسط : ١٦٧.

(٣) العرب والملاحة في المحيط الهندي، هامش ص ١٨٥.

(٤) المصدر نفسه.

(*) لقب بابن الرومي الأندلسي، كان شاعر الأندلس بما اشتهر به عند الخاصة والعامة، توفي سنة (٥٧٢هـ). ينظر: معجم الحضارة الأندلسية : ١٥٨، وكان ممن ينتحل الأدب في جيله. ينظر: الكتيبة الكامنة : ١٠٣.

بعثـــت لتـــأمين البحـــور جنودهـــا **بهـــا أمنـــت كـــالبر منهـــا بحورهـــا** [(١)]
شـــواني تحكيهـــا آنقـــضاضاً شـــواهنٌ **وإن صرصرت يومـــاً حكاهـــا صريرهـــا**
وإن قيـــل غربـــان فمـــن أجـــل أنهـــا **نواعـــب أرواح العـــدا إذ تغيرهـــا**

في البيت الثالث نلحظ الشاعر يتحمس لتسمية تلك السفن بالغربان ويرفض أن يسميها عقبان.

الحراريق : تعرف أحياناً باسم الحراقات لأنها اختصت بقذف العدو بالأسلحة النارية وأنابيب النفط، وتمتاز بوجود المجانيق عليها لقذف العدو بالنار المحرقة [(٢)]. ذكرها يوسف بن هارون في قوله : [من السريع]

كأنمـــــا أبراجهـــــا في الـــــوغى **ترمـــي مـــن الـــنفط ببركـــان** [(٣)]

[من الكامل]

وقدحت فوق الماء نـاراً تلتظـي **وسفحت فوق البحر بحراً من دم**[(٤)]

الشلنديات : هي مراكب حربية كبيرة، مسطحة لحمل المقاتلة والسلاح وتستخدم في نقل البضائع [(٥)].

البطس : وتختص بنقل الجند المحارب، تشتمل على عدة طبقات يشغل كل طبقة منها فئة معينة من الجند، وتسيرها قلوع [(١)] كثيرة تقدر بأكثر من أربعين قلعاً.

---

(١) الكتيبة الكامنة ممن لقيناه من شعراء المئة الثامنة : ١٠٤.
(٢) ينظر: قوات البحرية الإسلامية في مياه البحر المتوسط : ١٦٧.
(٣) كتاب التشبيهات : ١٧٣.
(٤) ديوان ابن الخطيب : ٥٣٧/٢.
(٥) ينظر: قوات البحرية الإسلامية في مياه البحر المتوسط : ١٦٨.

القراقير والحمالات : سفن مهمتها نقل المؤن والذخيرة [٢].

أما توابع الأسطول فتشتمل على سفن أقل حجماً ولكن لها أهمية عظيمة في المعارك البحرية من ذلك (الطرادات(تستعمل في مطاردة العدو لسرعتها و(الشبابيك) جمع (شبك) أو (شباك)، ذات ثلاثة قلاع وأحياناً تسير بالمجاذيف و(الفلايك) جمع (فلوكه) و(القوارب) و(الزوارق) تتحرك بالمجاذيف وتستعمل في نقل الأشخاص [٣].

أما (الطرائد) وواحدتها (طريدة)، فهي مخصصة لحمل الخيل وتتسع لأربعين فرساً وهي لذلك تفتح من الخلف، كما أنها تحمل المقاتلين والذخائر [٤].

وقد أفتن الأندلسيون في وصف السفن بأنواعها ومهامها في تحقيق النصر، كما أفتنوا في وصف الخيول وصولاتها في الحروب البرية والبحرية أيضاً من ذلك في وصف السفن ومعداتها يقول الرمادي : [من السريع]

والسفن قد جللها قارها — كأنها أعراء حبشانِ [٥]
كأنها في دار مضمارها — خيلٌ يصنعن لميدانِ*
كأنها والماء ميدانها — في الجو منقضة عقبانِ
ترى المقاذيف بأحنائها — كأنما ترمي بميزان

---

(١) ينظر: المصدر نفسه. القلع : شراع السفينة، المنجد : ٦٥٠.
(٢) ينظر: قوات البحرية الإسلامية في مياه البحر المتوسط : ١٦٨.
(٣) ينظر: المصدر نفسه : ١٦٨-١٦٩.
(٤) الأدب الأندلسي : ٤٩٠.
(٥) التشبيهات : ١٧٢- ١٧٣. الاعراء : الجماعات، والمفرد : عرو.
* يصنعن : يضمرن، ويهيأن (هامش الكتاب ١٧٢).

والسفن هنا مستعدة للحرب حالها حال الخيول في نزالها لمقاتلة الأعداء وكالعقبان في انقضاضها عليهم.

وقد استمد معجم ألفاظ البحرية الإسلامية في الشعر الأندلسي بعض الأسماء والصفات من تقنية أداة المعركة وأدائها : فالسفينة عندما تكون مسرعة تسمى (الجارية) أو السابحة، ويطلق اسم (الشراع) على السفن التي تسير بالقلاع، و(المجذاف) على التي تستخدمه في الحركة، ويشبهون سرعة السفينة في سيرها بالحصان الأصيل أو الطائر، وتسمى بالغراب، وهو الطائر الأسود الذي لم يرجع إلى سفينة نوح ، والسفن ذات الصاريين وهي الحراقة والفرقاطة، ولون أشرعتها يضرب إلى اللون الرمادي فتختلط بالضباب والأمواج، وعندما يكون الشراع كله من القماش الأبيض تشبه بالحمام، أما إذا كان لونه رمادياً فاتحاً فتسمى بألفاظ (شوذق) أو (شودق) و(شاهين) وهو الصقر الأبيض،وأحياناً ورقاء.(١)

وسميت السفن بالأجفان كقول الشاعر ابن فركون* :

وأتتك الأجفان منها ببشرى كل وجهٍ يبدي لها استبشاره (٢)

وله أيضاً في المعنى نفسه يقول :

وحكــــت صـــــفحة البحــــار محيـــــا فيـــــه تلغـــــى أجفانهـــــا أجفانـــــه (٣)
والـــــذي جـــــاء بالبـــــشارة منهـــــا رفع اللـه في الشواني شأنه

(١) ينظر : الشعر الأندلسي : ١٩٦.

* هو أحمد بن سليمان بن فركون، كاتب وشاعر، عاش في عهد محمد الخامس بن يوسف النصيري (الغني بالله) (٧٥٥-٧٦٠هـ) وكان الشاعر من الزمرة التي تآمرت على لسان الدين بن الخطيب، وكان من تلاميذه. ينظر: معجم الحضارة الأندلسية: ٢٠٣ وغرناطة في ظل بني الأحمر : ٤٥.

(٢) ديوان ابن فركون : ١٦٦.

(٣) المصدر نفسه : ٩

٣- الخطط الحربية البحرية، وتعبئة الأساطيل

عَبَرَ طارق بن زياد البحر باستخدام أربعة مراكب تجارية قدمها له حاكم سبته (جوليان(ومما سهل عملية النزول بعد العبور على الصخور الوعرة استخدام المجاذيف وبراذع الخيول التي ألقيت على الصخور للتقليل من خطرها [١].

أن عملية العبور هذه تعد من أروع العمليات العسكرية في التاريخ العسكري العربي، وذلك بالاختيار الموفق لميناء العبور، فضلاً عن اختياره للمراكب التجارية بدلاً من السفن الحربية، لإيهام العدو، يزاد إلى ذلك عنصر المفاجأة في نزول القوات في جهة وعرة لا يحسب العدو لها حساباً [٢].

إن عملية العبور بالشكل الذي أوردناه وخوض معركة واحدة حاسمة، والحصول على موطئ قدم للجيش العابر، وجر العدو إلى المعركة أدى إلى نجاح القائد، ((هذا الالتحام المقدس الذي وحد بين أروع العبقريات العسكرية الإسلامية المتمثلة بموسى بن نصير وطارق بن زياد خلق هذا الانتصار العسكري الذي ترك أثره في شبه الجزيرة الأيبيرية على شكل حضارة إنسانية باهرة استمرت مزدهرة ثمانية قرون))[٣].

وكما اضطر الأندلسيون إلى اعتماد أسلوب الحروب الجبلية اضطروا إلى اعتماد أسلوب الحروب البحرية أيضاً.

من تلك الخطط، حملة المنصور على جليقية (٣٨٧هـ)، فقد أمر المنصور ان يسبقه الأسطول فيدخل من المحيط الأطلسي إلى موضع حدده له على نهر (دويره) وهناك التقى الجيش البري بالأسطول البحري الذي شكل جسراً عبر عليه الجنود إلى

---

[١] ينظر : دراسات أندلسية : ٢١

[٢] المصدر نفسه : ٢٧.

[٣] دراسات أندلسية : ٢٨.

الجانب الآخر [(١)]، ونص ابن عذاري يقدم لنا وصفاً للخبرة التي اكتسبها الجيش الأندلسي في الحروب الجبلية بالتعاون مع الأسطول البحري عندما أراد المنصور الوصول إلى (شنب ياقب(((... فقطع أرضين متباعدة الأقطار وقطع بالعبور (أنهاراً كباراً) * وخلجان يمدها البحر الأخضر... وعبروا وادي منية سباحة إلى جزيرة من البحر المحيط، وانتهى العسكر إلى جبل مراسية المتصل من أكثر جهاته بالبحر المحيط)) [(٢)].

في نص للشاعر أبي بكر الصيرفي من شعراء القرن السابع الهجري ينصح فيه المرابطين بعد هزيمة تلقوها على يد الأسبان استخدام التقنيات الخاصة بالأندلسيين، يقول :

[من الكامل]

واركَبْ من الخيلِ السَّوابق عدةً — حصناً حصيناً ليس فيه مدفع [(٣)]
خندقْ عليك إذا ضربت محلَّهُ — سيان تتبع ظافراً أو تُتبع
والوادِ لا تعبره وانزل عنده — بينَ العدو وبين جيشك يقطعُ
واجعل (منازلة) الجيوش عشيةً — ووراءك (الصف) الذي هو أمنعُ
وإذا تضايقت الجيوش بمعركٍ — ضنك فأطراف الرماح توسِّعُ
واصدمه أوَّل وهلةٍ لا تكترث — شيئاً فإظهار النكول يضعضعُ

درسٌ في التخطيط الحربي في صورة شعرية في التهيئة وإعداد المستلزمات الأولية قبل الهجوم ثم كيفية الإمساك بأرض المعركة، ونزول الجيش في أرض المعركة عند اختلاف تضاريسها، ثم اختيار وقت الهجوم ليلاً ونوع الأسلحة المستخدمة في

---

(١) دراسات في التاريخ الأندلسي، د. عبد الواحد ذنون: ٧٠، مطبعة دار الكتاب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، ١٩٨٧.

* جاء في النص (عدة أنهار كبار) وما أثبتناه هو الصحيح.

(٢) البيان المغرب في أخبار المغرب أخبار الأندلس، ابن عذاري المراكشي : ٢/٤٤٠-٤٤٢، مكتبة صادر، بيروت.

(٣) مقدمة ابن خلدون، تح : د. حامد أحمد الطاهر : ٣٣٩.

الصولة الأولى على العدو، وهذا التخطيط يظهر معرفة المسلمين العلوم العسكرية وهو الذي أوصلهم إلى قلب أوربا.

ونذكر من الخطط العسكرية التي يشكل البحر والأساطيل مكوناً مهماً من مكوناتها، إلا أنها لم تنفذ بناءً على أمر الخليفة الوليد بن عبد الملك محذراً موسى بن نصير من التوغل بالمسلمين في دروب مجهولة، وكانت الخطة كما يوردها محمد عبد الله عنان هي: اختراق أوربا بعد عبوره الأندلس وصولاً إلى دمشق[1]. وهذا المشروع العسكري يضاهي مشاريع عسكرية غربية يذكرها (عنان(كمشروع قيصر في افتتاح المشرق [2].

أما تعبئة الأساطيل فكانت ((عبارة عن قلب وجناحين ومقدمة وساقة، أشبه بالجيش البري، تصطف السفن على هيئة بنصف دائرة حتى إذا حاول العدو الاقتراب منها أحاطت به وحطمته وفي بعض الأحيان تقف سفن الأسطول صفوفاً مستقيمة لتنطح مراكب العدو بـ(اللجام(وتغرقها)) [3].

وأسلوب آخر هو اقتراب السفن الحربية من سفن العدو وجذبها إليها بوساطة الكلاليب ثم وضع الألواح بين جوانب السفن والانتقال إلى العدو ومحاربته وجهاً لوجه على نحو ما حدث في معركة (ذات الصواري).

---

(١) ينظر: دولة الإسلام في الأندلس، مج١ : ٥٣/١-٥٤.

(٢) ينظر : المصدر نفسه : ٥٤/١.

(٣) قوات البحرية الإسلامية في مياه البحر المتوسط : ١٨٥.

الفصل الرابع

الدراسة الفنية

المبحث الأول : النسيج اللغوي (اللفظ، المعنى، الأسلوب) .

المبحث الثاني : المعجم الشعري (لغة الشعر، الإقتباس، التضمين) .

المبحث الثالث : الصورة الشعرية .

المبحث الرابع : الموسيقى الشعرية .

المبحث الأول

النسيج اللغوي

اللفظ، المعنى، الأسلوب

خُصَّ شعر المتقدمين بـ((... متانة الكلام، وجزالة المنطق وفخامة الشعر))[١] ومرد ذلك راجع إلى ما يُعرف بنظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني، التي أجمل بعضها د. عبد الإله الصائغ مختزلاً جملة آراء نقدية يذكر ؛ وأن كان ((لكل معنى لفظ يليق به، ولا يمكن للشاعر أن يعتبط ألفاظاً لمعانيه لا تنهض موسيقاها لمحاكاة المعنى الذي ترمي إليه النفس، فالشاعر يختار لمعانيه ألفاظاً حسنة، لأن المعاني متداولة بين الناس، وإنما الشاعر هو الذي يلبس معانيه حلةً من الألفاظ التي تناسبها)) [٢] .

ويرى الباحث في الزمن عاملاً مؤثراً في اختيار الألفاظ وانسياب إيقاعاتها، يقول : ((تجد إيقاعات بعينها تستغرق حالات وجدانية محددة بينما تستغرق إيقاعات أخرى حالات أخرى، فقد ينماز شاعر بمعانٍ تمثل نظرته للزمان والناس والحياة والموت فنراه مُؤثِراً ألفاظاً وبحراً بما يناسب تأمله))[٣]، والشعر الأندلسي شأنه

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، تح: محمد أبو الفضل وعلي محمد البجاوي: ١٦ (مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط٤، ١٩٦٦) .

(٢) الزمن عند الشعراء قبل الإسلام، د. عبد الإله الصائغ : ٢٨٠، دار الرشيد، العراق، ١٩٨٢.

(٣) المصدر نفسه : ١٦ .

شأن الشعر العباسي - لا يخرج عن دائرة الشعر العربي أغراضاً ومعاني، والشاعر الأندلسي لتحضره وتأدبه وظرفه وتأثره بالبيئة اختار من الكلام ألينه وأسهله واختار من الأسماء أحسنها وقعاً على السمع وألْطَفَها من القلب موقعاً، ذلك أن مقياس الذوق بحسب الدلالات الفكرية والاجتماعية قد تغَيَّرَ كثيراً بعد تطور أسلوب حياة شعراء الأندلس من العرب الفاتحين ومن أهل البلاد وتطورت بهم الحياة الاجتماعية... فكان لابد أن تتأثر لغتهم بهذه البيئة المتحضرة وأن تواكب المجتمع الجديد ما زالت اللغة الشعرية، كما يراها د. صلاح فضل، ((عملاً فردياً يعتمد على الخلق والإبداع ويرتكز على أساسين : أحدهما هو التقاليد الشعرية الراسخة، والثاني هو لغة الحياة المعاصرة)) [١] .

وعملية التعبير - كما يراها د. جابر عصفور - ما هي إلاّ ((فكرة ذهنية محددة يتشارك فيها الناس جميعاً لكن الشاعر بوجه خاص يتميز بقدرة ذهنية من نوع خاص عن طريق ما يحدثه في هذه الأفكار من صياغة تتجاوز مرتبة الإفهام... إلى مرتبة التأثير)) [٢] .

ذلك أن الشاعر الجيد هو الذي يستمد موسيقاه من اختيار الألفاظ ومن ترتيبها ، وهو ما يدعوه الجرجاني بعملية النظم .

من ذلك ما ذهب إليه ابن دراج في اختيار (حلم العقلاء) ليصف به الجيش من حيث قوته، وببحرٍ أحكمت ريح (الصَّبا نسجه) من حيث كثرته، يقول: من البسيط]

جَيْشاً إذا آدَ مَتْنَ الأَرضِ تَعدلُهُ بِحْلَمِ أرْوَعَ راسِي الحِلمِ مُتَّئِدهْ [٣]

---

[١] نظرية البنائية في النقد الأدبي، د. صلاح فضل : ١١٨ (دار الشؤون الثقافية، ط٣، بغداد، ١٩٨٠) .
[٢] الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي : ٣٩ .
[٣] ديوان ابن دراج : ١٢٢-١٢٣ .

كـــالبحرِ تَنْـــسِجُهُ ريـــحُ الـــصَّبا حُبُكـــاً إذا تَرَقْـــرَقَ في المـــاذِيِّ مـــن زَرَدِهْ
بَحْـــرٌ سَـــفائِنُهُ غـــرٌّ مُـــسَوَّمَةٌ والبَـيْضُ والبِـيضُ والرَّيـاتُ مـن زَبَـدِهْ [1]
وجــاحِمٌ مــن حريــقٍ لا خُمــودَ لَــهُ إلاّ ونفــسُ (ابــن شَــنْجٍ) وسْــطَ مُفْتــأدِهْ
كَتَائِبـــاً تركَـــتْ عُبَّـــادَ مِلَتِـــهِ لا تَعـرفُ الـسبت في الأيـام مِـنْ أحَـدِهْ
إنْ ضاقَ عَنْ مَرِّها رَحْبُ الفضاءِ فقد نَفِـــذْتَ مِـــنْ قَلبــهِ فيهـــا إلى كَبِــدِهِ

صورة نلمس فيها ساحة المعركة من رايات مرفوعة، والخوذ والسيوف كأنها زبد البحر بياضاً، ونفس العدو (ابن شنج) تراها وسط هذا الجمر المتقد، وهذه الحيرة والرهبة التي لفت عقول العدو من أنه لم يفرق بين السبت والأحد، وظف المجاز وسيلة للكشف عن الحقائق النفسية والخلجات الشعورية ... تعاون على رسمها المضمون والشكل، ونلمس في البيت الأخير صورة الانفعال بالتجربة التي ولدت لنا صورة تعبيرية بإظهار الفضاء ضعيفاً على تحمل سلاح المسلمين فكان القصد أن تستقر في كبده مروراً بقلبه، مظهراً روح المشاعر الدينية والوطنية، وقد وفق في توظيف البحر في صورة (نسج أمواجه) و(الماذي) و(السفائن والزبد) وأحسن في انتقاء قيم تعبيرية لقيمه الشعورية والغاية التي إليها قصد .

بعد هذا التقديم الذي تناول ديوان الشعر العربي والشعر الأندلسي جزءٌ منه، وشعر البحرية الأندلسية لا يخرج عن دائرته، لا نقرر أن الشاعر الأندلسي قد أدرك وظيفة التعبير الأدبي بأنها لا تنتهي عند الدلالة المعنوية للألفاظ والعبارات بل بها حاجة إلى مؤثرات أخرى تكمل بها صورة النص الشعري، ألا بعد الإجابة عن تساؤل د.

---

[1] البيض : البَيضة : الخوذة من الحديد لوقاية الرأس . البيض : السيوف . (المعجم الوسيط ٧٨/١) .الجاحم : الجمر الشديد الاشتعال . (المصدر نفسه : ١٠٨/١) . المفتأد: موضع الوقود. (المنجد : ٥٦٦) .

محمد مجيد السعيد : ((هل استطاع شاعرنا الأندلسي أن يضفي تلك الغلالة الوردية والظلال الموحية بالفن والجمال، وهل أدرك أسرار الأصوات والإيقاعات الموسيقية التي يمكن أن يحققها البناء الشكلي للكلمات والتناسق والائتلاف في حسن علاقات بعضها ببعض)) [1] ؟.

للإجابة أرى في نص ابن عبد ربه الذي أجاد في وصف المعارك الجهادية البحرية بألفاظ ألبسها معاني بديعة يقول فيها : ((وقد وصفنا الحرب بتشبيه عجيب لم يتقدم إليه، ومعنى بديع لا نظير له، وذلك قولنا)) : [من الطويل]

وَجَيْشٍ كظهرِ اليمِّ تنفحه الصَّبا يعبُّ عُيوباً من قَناً وقنابلِ [2]
فتنزلُ أولاه ولَيْسَ بنازلٍ وترحلُ أخراه وليس براحِلِ

فأنت تلمس الروح السحرية الخفية في نبرة المفردات كأصوات (يعب عبوباً) و(تنزل) و(ترحل) مع التعاطف الذي يلفها مع ما جاورها بتلاحق بعضها ببعضها الآخر بهذا التطابق مرة وبهذا التكرار الذي أكسبها مع الجناس نجاحاً ليس في الشكل فقط وإنما في توليد المواقف المطلوبة والإفصاح عن المعنى المراد إيصاله إلى المتلقي، ذلك الجناس في (قنا وقنابل)، والمقابلة في (تنزل وليس بنازل) و(ترحل وليس براحل).

وذروة ما أراد الشاعر إيصاله من عظمة الجيش تكمن في (وليس بنازل، وليس براحل) من أنك لا تعرف نزوله لاندهاشك في عظمته ولعظمته أيضاً فإنه ليس براحل وكأنه أراد أن يقول أنه جيش جرار لا أول له ولا تستطيع عدَّهُ وهنا تكمن

---

(1) الشعر في عهد المرابطين والموحدين في الأندلس : ٣٣٢ .
(2) ديوان ابن عبد ربه: ١٣٤ .

قدرة الشاعر في أنه يستطيع أن يوظف كلمةً، أو لفظاً واحداً لا عبارةً كاملة برسم صوره شاخصة، هذا ما ذهب إليه سيد قطب يقول : ((إن لفظاً منفرداً هو الذي يرسم الصورة تارة بجرسه الذي يلقيه في الآذان، وتارة بظله الذي يلقيه في الخيال وتارة بالجرس والظل معاً)) [(١)] .

ومن الروح السحرية الخفية التي انماز بها أسلوب ابن عبد ربه في النص السابق إلى روح السخرية التي تظهر في أسلوب يحيى الغزال في قوله : [مجزوء الرمل]

قــــالَ لي يَحيـــــى وصِرْنـــــا   بــــين مـــوج كالجبـــال [(٢)]
وتولتنـــــا عـــــــصوف   مــــن جنـــوبٍ وشـــمالٍ
شــــقت القلعــــين* وانبتـــت   عُـــرى تِلـــك الحبـــال
وتمطـــــى ملـــــك المـــوت   إلينـــا عــــن حيـــال
فرأينـــا المـــوت رأي الــــ   عـــين حـــالاً بعـــد حـــالِ
لم يكـــــن للقــــوم فينـــا   يــــا رفقــــي رأس مـــالِ

نص ينصرف فيه الشاعر إلى تصوير هيجان البحر وعصف الرياح التي أدت إلى تمزيق شراعي السفينة صورة أظهر فيها تعرض وجوده وهو يخاطب صاحبه [(٣)] إلى الموت في وحدة موضوعية وشعورية راقية مستفيداً في تصويره من معاني القرآن

---

(١) النقد الأدبي، سيد قطب : ٣٨ .

(٢) ديوان يحيى بن الحكم الغزال، محمد صالح البنداق : ١٩٩-٢٠٠، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٩٧٩ .

* القلع: شراع السفينة، والجمع قلاع، لسان العرب، مادة (قلع) .

(٣) صاحبه، أندلسي عالم يسمى يحيى بن حبيب (الأدب الأندلسي هيكل : ١٥٥) .

الكريم (الموج كالجبال)، وتظهر روح الإبداع من خلال هول الموقف، وإنماز أسلوب الشاعر بروح الدعابه والمرح في (وتمطى ملك الموت ولم يكن للقوم فينا ...).

وتتمثل رصانة الأسلوب وقوته في بيتي أبي البقاء الرندي في وصفه للبحر قائلاً :

[من البسيط]

البُحرُ أعْظَمُ مِمَّا أنتَ تَحسُبهُ　　مَنْ لمْ يرَ البحرَ يوماً ما رأى العَجبا[1]

طامٍ على حببٍ طافٍ على زرقٍ　　مَثلَ السَّماءِ إذا ما مُلِّئَتْ شُهبَا

فقد وفق في توظيف لفظتي (طامٍ) و(طافٍ) بما لايخفى بما فيهما من إيحاءٍ وشعرية ومناسبة المقام ما منحهما امتداداً ظريفاً ممتعاً مرةً، ومخيفاً أخرى وهذا ما يسمى في البلاغة (توليد المعاني) الذي جعل من البيت الثاني تفسيراً لما ذهب إليه في البيت الأول فقد تعجب بمعنيين مختلفين تماماً، تعجب منه رهبةً وخوفاً في البيت الأول وتعجب به امتاعاً وبهجة في البيت الثاني وبتقسيم داخلي بمنظر رائع شبه فيه السفن الراسيات كالشهب ملأت السماء وكأن الشاعر يرصد هذا المنظر البديع الليلي من الجو .

أما الشاعر عبد الجليل بن وهبون فقد أمدَّ ألفاظه على بساطتها بزخم حيوي أهَّلها لأن تلامس مشاعر المتلقي وتثير عواطفه وهي تدور في المدار الذي رسمه الشاعر، يقول في وصف الأسطول :　　[من الطويل]

لبسوا من الزرد المضاعف نسجهُ　　ماءً طفت للبيض فيه حباب [1]

---

[1] نفح الطيب: ٣١٠/٤، ط١، ١٩٩٥ .

صــــف كحاشــــية الـــرداء يؤمـــه صـــف القنـــا فكأنـــه هـــدَّابُ

فقد جمع الـشاعر الألفـاظ بنـاءً وأصـواتاً، وتمثـل إبداعـه في اختيـاره للألفـاظ ومـن ترتيبها وتناسقها وتعاطف بعضها ببعضها الآخر وأنت تلاحـظ أصـطفاف الأسـطول واسـتقامة سفنه في البحر كحاشية الرداء جمالاً وذوقاً وكأنه في نظامه أهدابٌ، وانظـر مـا أشـاعته لفظـة (يؤم) من سحر وجمال وشاعرية وتذكر لصفوف صلاة المسلمين .

ولنا مع ابن سفر المريني في نص يفسده التفسير يقول: [من الكامل]

جئـــتُ الجزيـــرة والخلـــيجُ يحفُّهـــا يـــشكو إليهـــا كي تجيـــب جـــواره [2]
شَـــقَّ النَـــسيمُ عليـــه جيـــب قميـــصه فانـــساب مـــن شـــطَّيه يطلـــب ثـــاره
فتـــضاحكتْ ورقُ الحـــمام بدوحـــه هـــزءاً فـــضَّم مـــن الحيـــاء إزاره

بهذه اللغة التي تجنح إلى التلميح الذي هو أكـثر بلاغـة مـن التـصريح، وتجـنح إلى الإيماءة الخاطفة والهمسة اللطيفة شكل الشاعر، لوحـة رائعـة بألفـاظ رقيقـة ألبـسها معـاني شفافة، صورة طالب ثأرٍ بالشكوى وليس بالسيف رجاءً وحياءً يضم آزار قميصه خجلاً، يقـول فيها سيد نوفل ((وصف لا يتأتى إلا إلى شاعر أعجب بذلك النهر ومدِّه الطويـل وجـزره وأن لم يستطع كل شاعر أن يصفه على هذا النحو البديع الذي

---

(1) فضائل الأندلس وأهلها، لابن حـزم ومجموعـة : ٥٠-٥١، نـشرها وقـدم لهـا د. صلاح الـدين المنجـد، ط١، دار الكتاب الجديد، ١٩٦٨، وذكرت الأبيات في عصر الدول والإمارات الأندلس، شوقي ضيف : ٣٢٢ .

(2) عصر الدول والإمارات (الأندلس)، شوقي ضيف : ٣٢٢ .

تهيأ لابن سفر المريني))[1]، فالخليج يشكو الجزيرة والنسيم شق جيب قميصه يا له من خيال بارع وإبداع راقٍ تظهره الاستعارة المكنية من خلال التشخيص والكناية الثانية أعظم وأجمل من الشكوى فقد استحيا الخليج وضم آزاره وهي كناية عن (الجزر(بهذا الخيال يصور ابن سفر المريني ظاهرة المد والجزر بين الخليج ومصب النهر .

هذه هي رسالة الشاعر في اختياره ألفاظاً تؤدي دورها في ترجمة العواطف الوجدانية من خلال التآلف بين هذه الألفاظ داخل العبارات والحروف داخل المفردات بمعانٍ تترجم نظرته للحياة والوجود الإنساني وهذا ما ذهب إليه (مارتن هيدجر) في أهمية اللفظ لإقامة معايير الوجود الإنساني يقول في طبيعة الشعر هو ((رسالة كبرى حرص على أدائها منذ البداية ومؤداها أن يُسَّخِرَ [الشاعر] الكلمة لإقامة ما هو باقٍ وما هو ذو قيمة لوجود الإنسان))[2]، والشعراء عنده يستطيعون أن يقيموا للناس معايير الوجود الإنساني بحسن اختيارهم للألفاظ [3] .

من خلال ما تقدم ندرك أن شعر البحرية الأندلسية أنماز بسهولة ألفاظه وسلامة تراكيبه لعدم تكلف من نظم في هذا الاتجاه في القول وانسياب معانيهم بلا تصنع، فضلاً عن كونهم لم يبالغوا في استخدام الفنون البلاغية من تورية وجناس وطباق وغيرها، كما ذهب إلى ذلك محمد عبد المنعم خفاجة ((لأن الشعراء كانوا لايأخذون من هذه الأنواع البديعية إلا ما كانت تجود به قرائحهم من غير تعمل ولا إجهاد خاطر))[4] .

---

(1) شعر الطبيعة في الأدب العربي، سيد نوفل : ٢٦٠ (ط٢، دار المعارف بمصر، ١٩٧٨م) .

(2) في الفلسفة والشعر، مارتن هيدجر، ترجمة وتقديم: د. عثمان أمين: ٢٤ ، دار الثقافة العربية للطباعة، القاهرة، ط١، ١٩٦٣.

(3) ينظر: المصدر نفسه .

(4) قصة الأدب في الأندلس : ٦٣/٢ .

أما معاني الشعر فكانت واضحة جلية حتى أنك تنسى اعتماد بعضها على التراث وتحسبه معنى جديداً أبدعه الشاعر الأندلسي وهذه سمة عامة في الشعر الأندلسي عموماً يذكرها عبد المنعم خفاجة فيقول : ((ذلك هو عرض المعنى في ثوب جديد والتأنق في رسمه وتلوينه، حتى أنك لتنسى أصله وتحسبه معنىً جديداً وإحساساً طريفاً فهم يأخذونه بالتحوير أو النقص أو الزيادة حتى تحس بشخصيتهم واضحة جلية وتعترف لهم بالتجديد في هذا التصرف وماذا نطلب منهم غير هذا))[1] .

وبلفظ رقيق ومعنى رائع وتركيب دقيق في معركة برية لم ينس البحر فيها في مدحة للسلطان يوسف الثاني (٧٩٣هـ) أظهر ابن زمرك قوة العدو أولاً ثم هزيمته بنصر المسلمين :

[من الكامل]

كانوا جبالاً قَدْ عَلَتْ هَضَباتُها	**تَسْتَفهمُ ريحُ الجِلادِ فزلزلوا** [2]
كانوا بِحَاراً من حديدٍ زَاخرٍ	**أذكتْهمُ نارُ الوغى فَتَسيلوا**
كان الحديدُ لِباسَهم وشفارهم	**واليوم لا تلْبَسُهُ إلا الأرجلُ**

كانوا متسربلين مدججين بالسلاح فكأنهم لكثرة سلاحهم حديد، إلا أن هذا الجيش المدجج بالسلاح قد اذكته نار الحرب فسال وذاب، وبدلاً من لبسهم الحديد الذي علا صدورهم ورؤوسهم وامتشاق السيوف تحول في أرجلهم قيوداً .

في هذه المعاني المبتكرة التي تحسبها معاني جديدة فاق الأندلسيون المشارقة في وصف الحروب البحرية، ولو أن المعنى عند المشارقة والمغاربة وعند غيرهم موجود قبل التعبير عنه أيضاً، وأن علة الخلاف تحصل بعد التعبير - كما أشار إلى ذلك د. جابر عصفور، يقول : والخلاف في المعنى محصور بعد التعبير فيما يحصل فيه من

---

(١) قصة الأدب في الأندلس: ١١٤/٢ .

(٢) ديوان ابن زمرك : ٤٦٦ .

تزيين قد تسمى إيجازاً أو توكيداً كما يسمى في أحيان أخرى مجازاً أو تشبيهاً أو استعارة أو كناية [1] .

وأن كانت لغة شعر البحرية الأندلسية قديمة في ألفاظها وتراكيبها إلا أنها تأثرت بصورها بالبيئة الأندلسية الغنية وجاءت بثوب جديد، يخيل إلى القارئ أنها جديدة بصيغها ومعانيها ولا تمت إلى المشرق بصلة .

في هذا يقول عبد المنعم خفاجة : ((وليس يعيبهم تناول المعاني القديمة في شعرهم فقد لونوها بصور بيئتهم وأبرزوا بالتجديد فيها شخصيتهم، وليس الفن بالإبداع والاختراع بقدر ما هو في حسن التأليف ودقة الانسجام وإنما يمتاز الشاعر على الشاعر إذا اشتركا في معنى، بما يبدعه أحدهما من الألوان وما يوافق إليه من التعبير عن ظلال المعاني ودقائقها)) [2] .

فمن تأثير البيئة في حُسْن معانيهم ما ذهب إليه الفقيه الكاتب أبو القاسم أحمد بن يامن في سعيد بن الحكم، يقول : [من الطويل]

بدا للعيان البَحر عيناً بصيرة منرقة فيها مقلةٌ أنتَ نُورها [3]

---

[1] ينظر: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، د. جابر عصفور : ٣٩٢، دار الثقافة والنشر، القاهرة، ١٩٧٤ .

[2] قصة الأدب في الأندلس : ١١٨ .

[3] اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى، لابن سعيد، اختصار أبي عبد الله محمد بن عبد الله، تحقيق : إبراهيم الإيباري : ٥٧، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٨٠.

*العبران: عبرت النهر والطريق أعبره عَبراً وعبوراً إذا قطعته من هذا العبر الى ذلك العبر (لسان العرب، مادة عبر) .

من المعاني الرائعة تصوير البحر عيناً ومدينة منورقة مقلة وسعيد بن الحكم نورها .

وفي هذا المعنى اللطيف بلفظ رقيق يقول ابن حمديس :   [من البسيط]

طيــــارةٌ ولهـــا فرخـــان واعجبـــاً   إذ لا تـــــزفهما حتـــــى ترقاهـــا
كــانَ البَحْـــرَ عـــينٌ وَهـــي أَسْـــودُها   فَـــسَبْحُها فيـــه، والعـــبران* جَفْنَاهـــا [١]

فقد جعل ابن حمديس البحر عيناً و(عَبْرية(الجفنـين وأمـا (الطيـاره (أي الـسفينة فهي بؤبؤ العين وأنسانه .

أدرك شعراء البحرية الأندلسية أن وظيفـة الـنص الـشعري الجهـادي لا تنتهـي عنـد الدلالة المعنوية لألفاظه وعباراته، من أجل التأثير في استنهاض الهمم دفاعاً عن الوطن المهدد بالاجتياح وتأكيد حب الاستشهاد، فكان من الضروري اسـتخدام التقنيـة اللغويـة ليكمـل بهـا الأداء الفني وليزيد من وقع النص الشعري في نفـوس المتلقـين بمـا يمكـن أن يثـيره فـيهم مـن إقدام في المعركة واستهانة بـالموت مـن أجـل كرامـة الـوطن وإعـلاء كلمـة الـدين، فالجملـة الشعرية التي يأتي فيها الجناس والطباق والتورية وحسن التعليل وغيرها مـن وسـائل بلاغيـة بشكل متناسق متعاطف من دون تكلـف أو تـصيّد تـضفي عـلى الـنص فـضلاً عـمّا ذُكـر مـن الناحية التعبوية، دفقة موسيقية تزيد من جمال الصورة، وقد أدرك ذلـك د. منجـد مـصطفى بهجت يقول : ((لقد عمد الشعراء في قصائدهـم البحريـة إلى اسـتخدام المحـسنات البديعيـة، بقدر لا يختلف كثيراً عن استخدامهم إياها في موضـوعاتهم الأخـرى وجـاء اسـتخدامهم دون تصنع أو تكلف فأما

---

[١] ديوان ابن حمديس : ٥٦٠ .

الجناس والطباق فهما لا يحتاجان إلى إشارة لوضوحهما)) [١]، وهذا هو سر الاختلاف في صورة الحقيقة العلمية التي يمكن التعبير عنها في صور مختلفة دون أن تنقص دلالتها أو تزيد، أما الحقيقة الشعورية فكل تغيير في الألفاظ أو نظامها أو في تنسيق العبارات وترتيبها، أو في طريقة تناول الموضوع والسير فيه [٢] .

فمن المحسنات اللفظية لابن الخطيب يقول في ذكر جبل طارق : [من الكامل]

ولــو أنـنــي أمْـسَكتُ أجفــاني وقــدْ ... ذكــروا العهــود لقلــتُ مــا أجفــاني [٣]

جــبلاً [لطــارق] [٤] مُــذْ أقــلَّ ركابَــهُ ... لم تَهُـــنْ عنـــه طـــوارقُ الحـــدثانِ
[ولكَــمْ] حَمــيمٍ قــدْ وَرَدْتُ جِمامَــه ... فــــشرقت منهـــا بـــالحميم الآن

جاء ابن الخطيب بالجناس في الأبيات الثلاثة بشكل متناسق من دون تكلف أعطى النص دفقة موسيقية تزيد الصورة جمالاً وبهاءً فقد وردت لفظة (أجفاني) في الشطر الأول من أجفان العينين، أما في الشطر الثاني فمن الجفاء ضد البرّ[٥]، وهو جناس تام، أما البيت الثاني فجاء بلفظي (طارق) و(طوارق)، فالأول: طارق بن زياد،

---

(١) ينظر: البحر في شعر الأندلس والمغرب في عصري الطوائف والمرابطين : ٥٤ .
(٢) ينظر: النقد الأدبي أصوله ومناهجه : ٣٢ .
(٣) ديوان الصيب والجهام : ٦٠١ .
(٤) وردت لفظة (الطارقٍ)، هكذا في الديوان، والصحيح ما أثبتناه .
(٥) مختار الصحاح : ١٠٦ .

أما الثاني فهو جمع (طارق) أي الحادث ليلاً [(١)]، وحدثان الدهر نوائبه وحوادثه [(٢)].

أما البيت الثالث فيشتمل على جناس تام بين لفظي (حَميم) في الشطر الأول والمراد به : القريب الذي توده ويودك و(الحميم) في الشطر الثاني : الماء الحار، وفي القرآن الكريم:[**لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلا شَرَاباً*إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً**] [(٣)]، والحميم الآن: الماء الحار البالغ في الحرارة [(٤)]، وهو جناس تام .

ولابن الأبار في إظهار روح الفروسية بألفاظ تنبع من شعور شخصي وإحساس صادق في قهر العدو والانتصار عليه، وكأنك تعيش أجواء المعركة جاء بجناس قلب بين (تصدمكم وتصمدكم) موظفاً ذلك لإكساب البيت إيقاعاً قوياً يقول: من الوافر]

سَتَصدِمُكمْ وَتَصْمِدُكم خُيولٌ   مِن الأسطولِ ضَمَّرهَا الجِراء [(٥)]

وقد جانس الشاعر ابن الدقون، أحمد بن محمد بن يوسف الصنهاجي (٩٢١هـ) بين (عُدد وعَدَد) في قوله :   [من البسيط]

سَطَا بجيشٍ كَموجِ البحر في عُددٍ   نُعْمٍ وفي عددٍ من رهْطِ أبْطَال

(١) المعجم الوسيط : ٥٦٢/٢ .
(٢) المصدر نفسه : ١٦٠/١ .
(٣) النبأ : ٢٥-٢٦ .
(٤) ديوان الصيب والجهام، هامش ص ٦٠٢ .
(٥) ديوان ابن الأبار : ٤٧ .

ولابن الخطيب من قصيدة في الوقيعة الحربية بالروم عام (٧٤٠هـ) والتي جاء فيها وصف السفن الحربية، مفتخراً بنظمه يقول : [من الكامل]

لَـوْ قـال في (هـرمٍ(زُهَـيرٌ مِثلَهـا هَـرِمَ الزَّمـانُ وذكـرهُ لم يَهْـرَمِ [١]
أو مَـرَّ عنـترة عليهـا لَـمْ يَقـلْ (هَـلْ غـادَرَ الـشعراءُ مِـن مُـتردِّم)

فقد جانس – مستفيداً من ثقافته التراثية التاريخية – بين لفظي (هـرم) والمقصود به (هرم بن سنان) ممدوح زهير بن أبي سلمى في معلقته المشهورة، و(هَـرَمَ) الثانية من تطاول العمر، والجناس جناس تام .

أما الشطر الثاني فجاء بطباق سلب بين (هَـرِم ولم يهرم) وهذا تمكن من الشاعر واقتدار وقد جاء في البيت الثاني بنوع من المحسنات اللفظية تمثل بتضمين (هل غادر الشعراء من متردم) من معلقة عنترة بن شداد، وجاء متوافقاً مع ما أراد من فخر بقصيدته .

ولابن زمرك في الجناس يقول : [من البسيط]

سـلا ملـك الأمـلاك مُـذْ حَـلَّ في سَـلا أقـام عـلى عهـدِ الأحبـةِ أمْ سَـلا [٢] ؟

---

[١] ديوان ابن الخطيب : ٥٤٠/٢ .

[٢] ديوان ابن زمرك الأندلسي: ٤٢٢ .

فقد جانس بين لفظ (سَلا) الأولى بمعنى طابت نفسه، و(سَلا) الثانية، مدينة في الغرب تقع في الجنوب من مراكش و(سلا) الثالثة بمعنى نسيهُ وطابت نفسه بعد فراقه [1] .

وللشاعر الأسواني في وصف سفن الأسطول يقول: [من الكامل]

أحبــبْ إليَّ بَهــا شــواني أصْــبَحتْ   مِــن فُلْكِهــا ولَهَــا العــداة شــواني [2]

شِــــبَهْنَ بالغربــــانِ في ألوانَهــــا   وفَعَلْــنَ فعــلَ كــواسر العُقبــانِ

المقصود بـ(شواني) الأولي ؛ نوع من أنواع السفن الحربية البحرية، و(شـواني) الثانيـة فهي جمع شانئ بمعنى كاره أو مبغض والجناس جناس تـام، وفي البيـت الثـاني جنـاس نـاقص بشكل الحروف بين (الغربان والعقبان) .

ولابن دراج في وصف أهوال البحر ومدح المنصور يقول:[من البسيط]

للهِ يــومٌ مــن الأيــام فُــزْتَ بــه   فَــرْداً مــن المِثــلِ فيهــا سـائِرُ المثــلِ [3]

جانس في الشطر الثاني بين (المِثْل) من المشابهة و(المَثّل) الثانية بمعنى ما يـضرب بـه من الأمثال أي صار مثلاً .

ولابن دارج وقد ذكرناه سابقاً : [من الطويل]

بحــــرٌ ســــفائنه غــــرٌ مــــسومةٌ   والبَيْضُ والبيضُ والرايات من زبده [4]

---

[1] المعجم الوسيط : ٤٤٩/١ .

[2] الكتيبة الكامنة في من لقيناه من شعراء المئة الثامنة، لسان الدين بن الخطيب، تح: إحسان عبـاس : ٢٥٨، دار الثقافة، بيروت – لبنان، ١٩٦٣.

شَنأهُ : أبغضه وتجنبه، وقال تعالى : [**إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرَ**] المعجم الوسيط: ٤٩٨/١.

[3] ديوان ابن دراج: ٣٥٢ .

[4] ديوان ابن دراج: ١٢٢ .

فقد جانس بين لفظي (البيض) بمعنى الخوذة لوقاية الرأس [1] و(البيض) السيوف بجناس ناقص بالحركات .

أما (الأقتباس(وهو ضرب من المحسنات اللفظية فقد أفردنا له دراسة مفصلة في المبحث الثاني [2] .

أما المحسنات المعنوية وأن لم يبالغ في استخدامها شعراء البحرية الأندلسية أو معظمهم - فإنهم لا يأخذون من هذه الأنواع البديعية إلا ما تجود به قرائحهم [3]

فمن هذه المحسنات التي تنسى اعتمادها على التراث، وتحسبها معنى جديداً لأنهم يأخذونها بالتحوير أو النقص أو الزيادة [4] منها ما جاء في (التورية):

[من الكامل]

جفْنـــي غريـــقٌ في بحـــارِ مَـــدامعي   قَــدْ غَــال فيــهِ الخــوفُ حَــسْنَ رَجــائي

فقد ورى عن كثرة البكاء بالدموع الغزيرة في (جفني غريق في بحار مدامعي) .

ولابن الخطيب في وصف السفينة الراسية في البحر، يقول :   [من الطويل]

فَلِلَّـــهِ عَيْنـــاً مَـــنْ رآهَـــا صَـــوافِناً   أَفَــاضَ عَليهــا القــارُ سُــحْم جَلالِــهِ [5]

فقد اختار الشاعر مفردة (العين) ليشبه بها سفينته الراسية في البحر، وأن كانت العين بعيدة في معناها القريب، إلا أن طلاءها بالقار أكسبها المعنى المطلوب .

---

(1) المعجم الوسيط : ٧٨/١، ١٠٨ .

(2) المبحث الثاني تناول دراسة (الاقتباس والتضمين كنوع من المحسنات اللفظية .

(3) ينظر: قصة الأدب في الأندلس : ٦٣/٢ .

(4) المصدر نفسه : ١١٤/٢ .

(5) ديوان ابن الخطيب : ٤٨٤/٢، الجلال : الثياب (الديوان هامش، ص٤٨٤) .

وللشاعر المرواني يقول في رثاء المعتمد بن عباد : [من الطويل]

وكَيــفَ تَــوارى البحــرُ في قعــرِ مَلحَــدٍ وقــد كــان لا يُلقــى للجنــهِ قعْــرُ [1]

تــوارت بــه تلــكَ الجلالــةُ في الــثرى كــما يتــوارى في ثــرى المعــدن التــبرُ

فقد ورّى عن المعتمد بن عباد لعظمته وبأسه بـ(البحر) ليس من باب الكرم وإنما من باب المكانة والمنزلة وعبارة (في قعر ملحد) قربت المعنى المطلوب .

---

[1] التشبيهات : ٢٦٠ .

المبحث الثاني

المعجم الشعري

لغة الشعر، الاقتباس، التضمين

شاع في معجم شعر البحرية الأندلسية شأنه شأن شعر المعارك البرية، نوعٌ من الألفاظ، والصياغات التعبيرية التي ترتبط بمكونات روح الثقافة الإيمانية بحب الجهاد دفاعاً عن الوطن، بفارق بيئة المعارك وأدواتها وأساليبها والأجواء التي تجري فيها، وهذا الفارق هو الذي حدَّدَ هوية شعر المعارك البحرية واتجاهاته التي انعكست بدورها في لغة الشعر بما شاع فيها من ألفاظ وعبارات كان البحر ولجُّه والأساطيل والسفن وأنواع الأسلحة البحرية مكوناً أساسياً من مكوناتها تركت آثارها في صياغاتهم، ثم تأثرهم بالقرآن الكريم بصيغة الاقتباس، وتأثير الموروث التاريخي والأدبي بصيغة التضمين، هذه الأمور الثلاثة هي مكونات المعجم الشعري للبحرية الأندلسية .

وعلى الرغم من أن ألفاظ الشعر وتراكيبه واحدة إلا أن شعر البحرية الأندلسية له خصوصية في عملية النظم، فإن كانت أغراض الشعر من مديح وهجاء وفخر وغزل ورثاء، وما إلى ذلك من بواعث الانفعالات والعواطف تحتاج إلى قوة الإيحاء

والتوصيل، فإن شعر المعارك الجهادية البرية والبحرية بحاجة ماسة أكثر إلى الإيحاء والتوصيل .

والأمر هنا يستدعي لغة تثير الخواطر وتستفز النفوس لتكون لها نتائجها المباشرة في نفوس المقاتلين وتقودهم إلى النصر أو الشهادة، وقد كان لمعارك الجهاد البحرية الأثر اللافت للانتباه في لغة من نظم في هذا الاتجاه حتى في مواقفهم غير الجهادية، كما ذهب ابن دراج متغزلاً وقد توشحت صوره بلغة ألفاظها المعارك البحرية، يقول :

[من الكامل]

أَوْجَفْتُ خَيْلي في الهَوى وَركابي ... وقَذَفْتُ نَبلي بالصَّبا وحِرابي [1]

وسَلَلْتُ في سُبِلِ الغوايةِ صارماً ... عضباً ترقرقَ فيه ماءُ شبابي

وَرَفَعْتُ للشَّوق المبرِّح رايةً ... خَفَاقةً بِهوائجِ الأَطْرابَ

فاسأل كُميَّ الوَجِد كيف أثرتَهُ ... بِغُروبِ دمعٍ صائبِ التَسكابِ

واسألْ جنود العذلِ كيفَ لَقَيتُها ... في جَحْفَلٍ البُرَحاءِ والأَوْصَابِ

ولَقَد كَرَرْتُ على الملامِ بِزَفْرةٍ ... ذَهَلَ العِتابُ بها عَنِ الأعْتابَ

فقد حشد الشاعر ألفاظ (خيلي، ركابي، نبلي، حرابي، صارماً، راية، خفاقة، جنود، جحفل، كررتُ) وهي ألفاظ حربية في غرض الغزل وقد حقق بينها وبين بعضها وبين الغرض تآلف وانسجام أضفى على نسيج القطعة ظلالاً فنية ومنحها إيقاعات موسيقية وكأنه ألبس ألفاظ الحرب هذه غلالة وردية موحية حققها هذا البناء الشكلي والتناسق والائتلاف في حسن علاقات بعضها ببعضها الآخر خلق لغة

---

[1] ديوان ابن دراج : ١٥٠ .

شعرية موحية أثارت في نفس المتلقي خيالات وعواطف امتدت امتداداً جديداً فيه من الخيال ما يبعث على النشوة والغبطة .

ومن شعره في الجهاد والقتال نلحظ لغة شعرية أخرى كما مرَّ بنا سابقاً .

وقد تنحدر لغة الشعر عند بعض الشعراء وحتى في مضامين الحروب والجهاد ووصف المعارك إلى مستوى لغة الحياة اليومية الاعتيادية او تقترب من اللغة الشعبية وأن كانت ألفاظها تنتمي إلى دائرة فصاحة الألفاظ لكنها بعد التركيب تفقد انتماءها لهذه اللغة وتدخل في دائر التعبيرات الاعتيادية، ومثل هذه اللغة ليس لها حظ كبير من الجمال والتأثير في المتلقي، وعمرها قصير لعدم صلتها الوثيقة بلغة الكتابة الفنية، لغة الشعر التي تمتلك قدرات خاصة تحمل المعاني والرؤى التي يحاول الشاعر التعبير عنها بشكل يوحي بتفرده الأدبي، من ذلك نص لابن الابار في وصف الأساطيل التي تحاك بها الأساطير يقول : [من المديد]

دع أساليب النَّسيب وَخُذْ ... في أساطير الأساطيل [1]
أخوات الخيل سابحة ... ذاتَ تزيين وتزييل
وبنات الماء صائلة ... كالأفاعي الأفاعيلُ

....

لم تدع يوماً أعاديها ... دون تعقير وتعقيل
مذ رمتهم قد رمت بهم ... وسط سجين بسجيل
بالجواري المنشآت لهم ... جري تبتير وتبتيل
في سبيل الله مسبحها ... تحت توكيد وتوكيلِ

---

[1] ديوان ابن الابار : ٢٣٣-٢٣٤ .

إذ لم يوفق الشاعر - على الرغم من شاعريته الفذة وعبقريته - في هذا النص في إقامة علاقات بين القيم التعبيرية، والقيم الشعورية فجاء بالغث والسمين، فلا موسيقى ولا اختيار ألفاظ، ولا ترتيب أو نظم، وجاءت القافية مخالفة للغاية المطلوبة، فبدلاً من أن تكون مرتبطة بالبيت ارتباطاً وثيقاً وأن تكون متوقعة بحيث لا ينوب عنها غيرها، نجدها جاءت متكلفة، وبدلاً من أن تتوحد العلاقة بين الفكرة والقافية، فقد أُبعدت القافية الأفكار وأفسدتها، لأن الشاعر بحث عن الأفكار من أجل القوافي، فنشأ من ذلك شعر متكلف لا تطرب له الآذان ولا تستسيغه النفوس، بسبب افتقاره إلى المحتوى وقوة الإيحاء والتأثير .

ذلك أن اللغة الشعرية لغة فردية في مقابل اللغة العامة التي يستخدمها العلم، وهذه الفردية هي السبب في أن ألفاظ الشعر أكثر حيوية من اللغة العامة، ويشكل اتصالها ببعضها إلى نوع من التلوين الإيقاعي الذي يؤدي إلى الغاية المطلوبة [١].

أما في جعل هذه المفردات والتراكيب صورة شعرية غطاؤها لغة تمتزج بأحاسيس ومشاعر يوظفها الشاعر لقلب موازين الأفكار، فيكون موفقاً في استخدام المجاز الذي يحتل موقعاً حسناً في القلوب والأسماع، ويكون تأثيره في المتلقي أبلغ من الحقيقة، كوصف ابن هذيل للأسطول، يقول: وقد ذكرت سابقاً [من الطويل]

[١] من محاضرة أ.د. علي السامرائي على طلبة قسم الدكتوراه أدب، في ٢٠٠٦/١٢/٢٤ كلية التربية - ابن رشد، جامعة بغداد .

وصــفت كــأنَ البحــرَ تحــت صــدورها قــد اسـتأسرت أمواجــه فهــو أبكــم [١]

فقد جعل السفن تقهر البحر وأمواجه، بينما البحر هو الأقوى في الأعـراف والأفكـار، وقد مر بنا وصف طغيان البحر وأهوال ركوبه في وصف كثـير مـن الـشعراء، وبيـنهم الأعمـى التطيلي في نص ذكرناه سابقاً، يقول : [من البسيط]

والبحــــر مــــضطرب الأمــــواج زاخرهــــا تــــرى المعــــارف فيــــه كالمنــــاكير [٢]
مــوفٍ عــلى الــنفسِ مــستوفٍ حــشاشتها يــصور المــوت فيهــا كــل تــصوير

لقد أعطى الأعمى التطيلي للنص لوناً وحركة وحياة، فقد جعـل مـن البحـر وتلاطـم أمواجه من مظاهر القوة والعنف والشدة بحيث جعل الموت ضعيفاً عاجزاً يتلاعب به البحـر وتبدو لغة الشعر في هذا المقطع مضادة للغة النثر أو لغة العلم، ولكل منهـا قطـب تنجـذب إليه، فقد استطاع الشاعر في النصوص المتقدمة أن يصل بقارئه إلى أن يرى معه قدراً كبيراً مما يراه هو حتى لو كانت منطقة الرؤيا مشوبة بجانب من الـضباب، وتلـك واحـدة مـن سـمات لغة الشعر، ليس في جانبها الـصوتي فقـط، وإنمـا في محتواهـا العقـلي، وإيحاؤهـا عـن طريـق المخيلة - كما ذكرنا ذلك للدكتور السامرائي - على أن المصادر الأساسية البالغة الأهميـة التـي تكون لغة الشاعر وتمنحها الأصالة والتدفق والالتـصاق لمعطيـات الأدب الـذي هـو جـزء مـن تكوين الأمة وجزء من تاريخها، ووجودها هو الشاعر المقتـدر الـذي يتمثـل المـوروث ويعيـد خلقه خلقاً جديداً

---

(١) كتاب التشبيهات : ١٧٢ .

(٢) ديوان الأعمى التطيلي : ٥٦-٥٩ .

يحمل خصائصه الفردية وطابع عصره ولا يبدو تقليداً منتمياً إلى عصور ماضية [١] .

ولنا في اقتباس شعراء البحرية الأندلسية وتضمينهم من الألفاظ والمعاني والقصص والأسماء بالإفادة من المصادر الدينية والتاريخية من القرآن الكريم، ومن الموروث الأدبي ما يعزز ما ذهبنا إليه من إبداع شعراء البحرية الأندلسية في أوصافهم وبلغة شعرية وقوافٍ تتجاوب ولغة الأسلاف وقوافيهم، ولا تخلو من حكمه، ولا نشك في أنها قريبة من الموروث الأدبي لغةً وأسلوباً، من دون الوقوع في التقليد لمعانيها الجديدة المشرقة .

والاقتباس هو ضرب من الصناعة البلاغية يضمن فيه الشاعر أو الناثر كلامه شيئاً من القرآن أو الحديث، وقد عده البلاغيون ضرباً من البديع بوصفهم إياه واحداً من المحسنات البلاغية التي يعني بها [٢] .

والاقتباس أنواع منها: الاقتباس النصي ((هو أن يلتزم الشاعر بلفظ النص القرآني وتركيبه))[٣] . والاقتباس الإشاري وهو ما أشار إليه الشاعر من الآيات من غير أن يلتزم بلفظها وتركيبها، ((أو ما عرف فيه أن الشاعر يشير إلى آية من الآيات القرآنية)) [٤] .

---

[١] ينظر: دير الملاك، د. محسن أطيمش : ١٨٧، ط٢، ١٩٨٦، دار الشؤون الثقافية، العراق- بغداد .

[٢] معجم آيات الاقتباس، صنع وترتيب : حكمت فرج البدري : ٨ (سلسلة كتب التراث، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٩) .

[٣] المصدر نفسه : ٢١، وهناك نوع ثالث يسمى الاقتباس التوجيهي وهو ما أشار فيه الشاعر الى قاعدة مشهورة من العلوم النقلية العقلية من غير القرآن والحديث وهو ما أدخله علماء البلاغة تحت باب (التوجيه((المصدر نفسه : هامش ص٢٩) .

[٤] معجم آيات الاقتباس : ١٩ .

لقد استطاع شعراء البحرية الأندلسية تطعيم بنائهم الشعري بتقاليد الشعر الموروثة، وحفل شعرهم بإحالات مكثفة للنصوص القرآنية التي عرفت بالاقتباس الإشاري والاقتباس النصي نتيجة تأثره في صوره وتشبيهاته بالقرآن الكريم لأن موضوعه يستدعي استحضار آي القرآن الكريم لسرعة تأثر المتلقي به في مواقف الجهاد، ففي أبيات تنسب لطارق بن زياد يقول : [من الطويل]

ركبنا سفيناً بالمجاز مقيراً   عسى أن يكون الله منا قد اشترى[1]
نُفُوساً وأموالاً وأهْلاً بجنةٍ   إذا ما اشتهينا الشَّيء فيه تَيَسَرا

تعدُّ هذه الأبيات وقد ذكرناها سابقاً أول ما وصل إلينا من شعر البحرية الأندلسية، عمد القائد إلى الاختصار والتكثيف اقتصاراً على دلالة الآية القرآنية : **[إِنَّ اللَّه اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ]** [2]، والنفوس هنا كما يذكر المقري ؛ الدماء وهي التي تسيل [3] .

ولابن هانئ الأندلسي يقول، من نص ذكرناه سابقاً : [من الطويل]

أما والجواري المنشآت التي سَرَتْ   لقد ظاهَرَتْها عُدَّةٌ وَعَديدُ [4]
قِبابٌ كما تُزجى القبابُ على المها   مُسَوَّمَةٌ تَحْدُو بِهَا وَجُنُودُ

---

(1) نفح الطيب، : ٢٥٥/١، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٩٩٥ .

(2) التوبة : ١١١ .

(3) نفح الطيب : ٢٥٥/١ .

(4) ديوان ابن هانئ الأندلسي : ١٠٢ .

لتأثير البحر في شعر البحرية الأندلسية ذكر الشاعر (الجواري المنشآت) من الآية **[وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ]** [1]، أما لفظة (مُسَومة) فمقتبسة من قوله تعالى : **[زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ]** [2] .

لقد كثُر الاقتباس من القرآن الكريم في شعر المعارك الحربية في مدح الخلفاء والقادة ذوي الغزوات المتواصلة منهم عبد الرحمن الناصر الذي خلَّد ابن عبد ربه غزواته في أرجوزته منها : [من الرجز]

سُبْحانَ مَنْ لَم تَحوهِ أقْطَارُ ... وَلَمْ تَكُنْ تَدركُهُ الأَبصارُ [3]

عَمَدَ الشاعر إلى الاقتباس الإشاري، إذ اقتبس من الآية الكريمة : **[لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ]** [4] .

ولابن دراج القسطلي : [من الطويل]

سَرَتْ مِنْ عَصَا مُوسى إليهِ قَرابَةٌ ... فطَبٌّ بَفَلْقِ البحرِ والصَّخرِ عالِمٌ [5]
وَشَاهَدَ لَقْمَ الحُوتِ يُونُسَ فاقتدى ... فغادٍ وسارٍ وهو للسَّفرِ لاقِمُ

---

(1) الرحمن : ٢٤ .
(2) آل عمران : ١٤ .
(3) العقد الفريد، لابن عبد ربه الأندلسي، تحقيق وشرح : محمد التنوبخي : ٥٠١/٤-٥٠٢، دار صادر، بيروت، ط٣، ٢٠٠١ .
(4) الأنعام : ١٠٣ .
(5) ديوان ابن دراج : ١٣٧ .

الاقتباس في البيت الأول من قوله تعالى : [**فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ**] [1]، أما البيت الثاني من قوله تعالى : [**فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ**] [2] .

ولجعفر بن المقترح في الحياة والموت في البحر يقول : وقد ذكرناه سابقاً :

[من المجتث]

إنَّ ابـنَ آدمَ طـينٌ ... فـالبحرُ مَـاءٌ يُذيبُـهُ [3]

لـولا الـذي فيـهُ يُـتْلَى [4] ... مَـا جَـازَ عِنْـدي ركوبَـهُ

في خوفه من ركوب البحر في البيت الأول اقتباس من قوله تعالى : [**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ**] [5] .

أما الشطر الأول من البيت الثاني من قوله تعالى : [**وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا**] [6]، وكانت إشارة الشاعر هنا إشارة رمزية لايدركها إلا مطلع عن كثب على آي القرآن الكريم .

---

(1) الشعراء : ٦٣ .

(2) الصافات : ١٤٢ .

(3) يعني قوله تعالى : [**وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا**]

(4) ديوان ابن حمديس : ٥٣٤ (محاورة شعراء) .

(5) المؤمنون : ١٢ .

(6) هود : ٤١ .

وللشاعر الطليق ابن عياش القرطبي، وقد ذكرناها سابقاً: [من البسيط]

وَتعْـــبرُ المـــاءَ مِـــنهم نـــارُ عادِيـــةٍ — يَـصلى بَهـا عابـدُ الأوثـانِ والـصُلَبِ [1]
وَطـودُ طـارق قـد حَـلَّ الإمـام بـه — كـالطَّورِ كـانَ لمـوسى أيمـنَ الرُّتَـبِ
ولـــو تَـــيَقَّنَ بأســـاً حـــلَّ ذروتـــه — لعـادَ كـالعِهْنِ مـن خَـوفٍ ومِـنْ رَهـبِ

البيت الثاني مقتبس من قوله تعالى : **[وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً]** [2]، والشطر الثاني من البيت الثالث مقتبس من قوله تعالى: **[وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ]** [3]. ولابن حمديس يقول : [من الكامل]

نَفَـــخَ الـــدُجَى لمـــا رَآهُ مَيِّتـــاً — فيـه مكـانَ الـروحِ ريحـاً صَرْصَرَا [4]

من قوله تعالى: **[فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ]** [5].

وللرصافي البلنسي يقول : [من البسيط]

فـالبحرِ قـد عـاد مـن ضرب العـصا يبـساً — والأرض قـد غرقـت مـن فـور تنـور [6]
والشَّمْسُ إنْ ذَكَرَتْ موسى افمّا نَسِيتْ — فتـاهُ يُوْشَـعَ قَمَّـاعَ الجَبابِيـر

---

(1) تاريخ المن بالإمامة : ١٥٤ .
(2) مريم : ٥٢ .
(3) القارعة : ٥ .
(4) ديوان ابن حمديس : ٢٣٣ .
(5) فصلت : ١٦ .
(6) ديوان الرصافي البلنسي : ٨٦ .

جاء في قصص القرآن الكريم في قصة موسى ﷺ وفتاه (يوشع بن نون) الذي طال انتظاره عودة موسى : ((ولكن لم يعد موسى وها هي الشمس تجنح للغروب ... فسار يوشع وحده حتى وصل إلى وادٍ مخيفٍ مليءٍ بالسباع فأمر اللـه سبحانه الشمس أن تقف فوق الأفق حتى يعبر يوشع ذلك الوادي، ولهذا تسمى الشمس بـ(أخت يوشع)))(١)

أما الشطر الثاني من البيت الأول فمقتبس من قوله تعالى : **[حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ]** (٢) .

ولمحمد بن عبد العزيز في وصف الجيش بموج البحر ذكرناها سابقاً : [من الوافر]

وكَمْ جيشٍ تجيشُ بهِ الفيافي … كموج البحر يَضْطَرِبُ اضطرابَا (٣)
كأنَّ الصُّورَ ضَمَّتْ نَفْختاهُ … إليه كَلَّ مَن سَكَنَ الترابا

البيت الثاني مقتبس من قوله تعالى:**[وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللـه ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ]**(٤). ولابن زيدون في الاقتباس الإشاري، يقول : [من الطويل]

وَفي (أمِّ مُوسى(عِبْرَةٌ إذْ رَمَتْ بهِ … إلى ألْيَمِّ في التابوت فاعتَبري وآسلي (٥)

(١) قصص القرآن الكريم، أ.د. أحمد الكبيسي : ٣١٦-٣١٧ (ط١،، وزارة الثقافة والإعلام، العراق - بغداد، مراجعة : أ.د. عبد المنعم أحمد صالح، ٢٠٠٠م) .
(٢) هود : ٤٠ .
(٣) كتاب التشبيهات : ٢٠٣ .
(٤) الزمر : ٦٨ .
(٥) ديوان ابن زيدون ورسائله: ٢٦٤ .

من قوله تعالى : [**أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ**] [١]

ولابن حمديس في الخوف من ركوب البحر يقول، وقد ذكرناها سابقاً:[من الطويل]

وَمَشْحونَةٍ بالْخَوفِ لا أَمنَ عِندهَا كأنَّك فيها حيثُ سِرْتَ مُريب [٢]
كأنَّكَ في ذَنبٍ عَظيمٍ بِقَطعِها فأنت إلى الرحمن منهُ تَتُوبُ

اقتبس معنى البيت الثاني من قوله تعالى : [**قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ**] [٣] .

ولابن زمرك يقول، ذكرناها سابقاً : [من البسيط]

هَذِي المعالِمُ لَفْظٌ أنْتَ مَعْناهُ كلٍ يقولُ إذا استَنْطَقْتهُ اللهُ [٤]
بَحرُ الوجودِ وفُلْكِ الكونِ جَاريةٌ وباسْمِكَ اللهِ مَجْراهَا ومَرسَاهَا

ويكاد يكون اقتباس ابن زمرك إشارياً ونصياً في بعضها فقد أشار في الشطر الثاني من البيت الأول إلى الآية الكريمة : [**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ**] [٥]، أما الشطر الأول من البيت الثاني فمقتبس من قوله تعالى : [**وَسَخَّر**

[١] طه : ٣٩ .
[٢] ديوان ابن حمديس : ٣٩ .
[٣] الأنعام : ٦٣ .
[٤] ديوان ابن زمرك الأندلسي: ٥٠٦ .
[٥] لقمان : ٢٥ .

لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ] [١]، والشطر الثاني من البيت الثاني مقتبس من الآية الكريمة : **[وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللـه مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا]** [٢] .

أما الاقتباس النصي فنصيبه لا يقل عن سابقه، فلابن خفاجة يقول ذكرناها سابقاً:

[من الطويل]

لَئِنْ كُنَّا رَكِبْناهَا ضَلالاً … فَيَا لله إِنَّا تائِبونَا [٣]
فَأَخْرِجْنَا على المرغُوْبِ منْها … (فإِنْ عُدْنَّا فإنَّا ظالِمُونَا)

فالاقتباس من الآية الكريمة: **[رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ]**[٤] وليحيى الغزال* في الاقتباس النصي يقول : [من الطويل]

لَهُ ظُلُمات بَعْضُها فَوقَ بَعضِها … دَادِيٌّ موصولٌ بِهِنَّ دآدي** [٥]

---

[١] إبراهيم : ٣٢ .
[٢] هود : ٤١ .
[٣] ديوان ابن خفاجة : ٣٤١ .
[٤] المؤمنون : ١٠٧ .
* هو يحيى بن الحكم الجياني الملقب بالغزال لوسامته وجماله وأناقته، من أكبر شعراء القرن الثالث الهجري، وهو شاعر الأمير عبد الرحمن الثاني (٢٠٦-٢٣٨هـ)، له سفارتان الى القسطنطينية مرة وإلى المجوس - النورمان -، توفي (٢٥٠هـ) . ينظر: الديوان : ١٧، وما بعدها .
** (الدأداء) آخر أيام الشهر، ويقال ليلة دأداء: شديدة الظلمة، جمعها دآدئ (المعجم الوسيط: ٢٦٧/١) .
[٥] ديوان يحيى بن الحكم الغزال : ١٨٧ .

اقتبس الشاعر الشطر الأول من البيت من قوله تعالى : [**أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ**] [١] .

هذه الإحالات لمضمون الآيات القرآنية التي جاءت متوافقة مع مضمون الخطاب الشعري حفلت بها نصوص كثيرة من شعر البحرية الإسلامية في الأندلس وهي تعكس مدى الثراء الثقافي والروح الإيماني الذي ينسج في فضائه الشاعر الأندلسي الذي كان اقتباساً إشارياً أثار به ذاكرة المتلقي لمرجعيته الثقافية الدينية بأقل عدد من الألفاظ وأكبر عدد من المعاني، وهذا دليل اقتدار عندما يأتي مضمون الآية القرآنية متوافقاً مع المعنى المقصود، وهذا الإبداع البلاغي يُعدُّ من أجمل الصور الشعريية التي تكمن في إشارات سريعة مكثفة، اقتصد الشاعر فيها بحيث مكنته من توظيف تراكم نصي في نص واحد، وهي ((محاولة التقرب من تلك الذروة العالية وكلما أكثر الشاعر من اقتباسه كان أقرب إلى تلك الذروة))[٢]، واستطيع أن أعد هذه الظاهرة الإيمانية الفنية ديواناً شعرياً يفخر به كل عربي، يمثل اقتدار الشاعر الأندلسي في شعر البحرية الجهادي وثقافته ومدى تفاعله مع كتاب الله وتأثير هذا الكتاب المقدس في بنائه الشعري ألفاظاً وتعابير ومعاني، شكل معجماً شعرياً خالداً ويعدُّ وثيقة تاريخية إيمانية لشعراء الأندلس .

أما التضمين، وهو أن يأخذ الشاعر أو الناثر آية أو حديثاً أو حكمة أو مثلاً أو شطراً أو بيتاً من شعر غيره، بلفظه ومعناه [٣]، والشاعر الأندلسي في شعر البحرية يستعين بمخزونه من الأفكار والمعاني التي استمدها من ثقافته الدينية والأدبية

---

(١) النور : ٤٠ .

(٢) اقتباس شعراء صدر الإسلام من القرآن الكريم، د. سامي مكي العاني : ١٧، (مجلة آداب المستنصرية، العدد ٢٠-٢١، ١٩٩١) .

(٣) المعجم الوسيط : ٥٤٧/١ .

واللغوية والتاريخية لتغذية مضامين شعره وإثرائها [١]، وقد اثبتنا ما جاء في شعر البحرية الأندلسية فقط من شواهد التضمين لتشكل أحد مرتكزات المعجم الشعري ولنتعرف طرفاً من التكوين الفني لهذا الغرض الذي ارتضى شعراؤه المنهج القديم الحافل بالقافية والمتمسك بعروض الخليل وطابع الشعر الموروث في مبانيه ومعانيه بثوب جديد، ومن هذه الملامح ذكر المواقع العربية بأسمائها وتاريخها .

لابن دراج يقول : [من البسيط]

صَبْرٌ كثهْلانَ يومَ الرَّوْعِ مُتَّئِداً جُودٌ كَسَيْحانَ يومَ المدِّ مُعتَلِجَا [٢]

تهلان اسم جبل، وسيحان اسم لنهرين أحدهما في الشام والآخر في البصرة [٣] .

وله يقول : [من الطويل]

فواتِح عِزّ مالها دونَ (زمزمِ) ولا دُونَ سَعْي (المروتين) قُفُولُ [٤]
وقامَ بها عِنْدَ (المقامِ) مُبشِّرٌ وشامَ سَناها (شامةٌ) و(طفيلُ)

ذكر في البيت الأول (بئر زمزم (والصفا والمروة، وله في القصيدة نفسها يذكر (البيت العتيق(يقول :

---

(١) ينظر : الشعر في عهد المرابطين والموحدين في الأندلس : ٣٧٤-٣٧٥ .
(٢) الديوان : ٣٨٨ .
(٣) الديوان هامش ص٣٨٨ .
(٤) الديوان : ٧ .

سـيوفٌ عـلى الجُـرْدِ العِتـاقِ عَزِيـزَةٌ   وأرضٌ إلى (البيـتِ العَتيـقِ) ذلُـولُ [(١)]

وذكر مواضع (شامة(و(طفيل) في البيت الثاني وهما جبلان قرب مكة[(٢)].

ويذكر ابن دراج (بابل) و(أسيريها) إشارة إلى (هـاروت) و(مـاروت) معلمـي السحر فيها وكانا قد عصيا اللـه فباحا بالاسم الذي يرجعان به إلى السماء فخيرهما اللـه بين عـذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا، يشير إليهما ابن دراج يقول :

[من الطويل]

وَنُرْهَـى بِسـحرٍ مـن أَحاديـثَ بَيْنَنَـا   كـأَنَّ أسـيرَيْ بابـلٍ نفَثَاهَـا [(٣)]

ويذكر (تُبَّع) و(سبأ)   [من الطويل]

نَمَـاهُ لِقـوْدِ الخيـلِ (تُبَّـعُ) فخرهـا   وأوْرَثَـهُ سَـبْىَ المُلُـوكِ (سَـبَاها)

سباها، يقصد سبأ بَتَسَهيلِ الهمزة [(٤)].

ويذكر (عاد) و(جرهم) و(قحطان)   [من الطويل]

قَبَائِـلُ مـن أَبْنـاءِ عـادٍ وَجُـرهُمٍ   لَهُـمْ صَـفْوُ مـا تَنْمِيـهِ عـادٌ وقحطـانُ [(٥)]

---

(١) المصدر نفسه : ٧.

(٢) الديوان : هامش ص٧ .

(٣) الديوان : ٩ وهامش ص٩ .

(٤) الديوان : ١٢ وهامش ص١١ .

(٥) الديوان : ٤٨ وجاء في هامش الديوان، يذكر قبيلة الأوس والخزرج قبيلتي الأنصار، وقيله بنت كاهل هي أمهم التي يلتقي فيهما نسبهما، هامش ص٥٠ .

ويذكر (سطيح(و(شق(وكانا معروفين بالكهانة في الجاهلية، يقول :[من الكامل]

كــأنَّ (سَــطيحاً(في سَــنَاهُنَّ أو شِــقًّا يُخَــبِّرْنَ عــن إلحــاحِ سَــعْيكَ في العِــدى [1]

وللسان الدين بن الخطيب يقول : [من الطويل]

سَـــــفَائِنُ تَخْــــرِقُ بَحْــــرَ الْفَــــلاَ وَتَلْحَـــقُ نَحْـــوَكَ بيـــداً فَبيـــدْ [2]
تَــــــوَلَّى عَطـــــــارِدُ إتقَانَهــــــا وقَابَلَهــــا منــــك سَــــعْدُ السُّـــعودْ

يظهر هنا استيعاب الشاعر للأسطورة والاعتقاد أن عطارد نافذ في الأمور كلها فيظهر أثره في صناعة السفن، وقد وظف الشاعر (السفائن) و(البحر) على الرغم من أن الوصف في قصر بناه السلطان في وقته، وقد وظف في بيت لاحق (الصواري) أيضاً :

كــــأنَّ الصــــواري عــــلى ظهرهــــا خــــرجن مخافــــة هــــول شــــديد

ولابن هانئ الأندلسي يذكر سيف ذي الفقار يقول : [من الكامل]

وافى بهيبــــــة ذي الفقـــــارِ كأَنَّمـــــا وَشَّـــــحْتَهُ بِنَجـــــادِهِ توْشِـــــيحَا [1]
حتــــى إذا غَمَـــر البحـــار كتائبـــاً لــــو يرتشـــفن أجاجَهـــا لأميحـــا

---

[1] ديوان ابن دراج : ٥٨ .

[2] ديوان الصيب والجهام : ٤٠٠ .

وذو الفقار سيف قيل إنه كان للنبي (ع) وأنه أعطاه إلى علي بن أبي طالب U .

إن شواهد التضمين هذه قد وظَّفها الشاعر دليلاً على تمكنه وقدرته واستلهامه الموروث التاريخي والأدبي والديني، وأرى أن هذا النوع من فنون البلاغة قريب من مفهوم (الرمز) أن لم يكن هو ذلك أن الرمز ؛ تعمد استخدام كلمة أو عبارة لتدل على شيء آخر لا بالتشابه ((لان الرمز على نقيض الاستعارة والتشبيه يفتقر إلى المشبه به)) [1]، بل بالإيحاء والإشارة ويختار الشاعر الرمز على هواه ليقوم مقام فكرة أو نسق أفكار، والرمز أكثر جدوى وإثارة ذلك أن التجربة الشعرية تثير فيها الأفكار، والعواطف، وفي أغلب الأحوال تؤدي العواطف إلى أفكار توضحها وتضبط حدودها - كما ذكرنا سابقاً - وكان شعر البحرية الأندلسية بحاجة إلى هذه التعبيرات اللغوية لاستكمال صورة شعر البحرية التي تهدف إلى تأكيد القيم والمبادئ الأصيلة، والشاعر استطاع أن يبعث في هذه التعبيرات الحياة الجديدة لتشكل طرفاً آخر من معجم ألفاظ البحرية الإسلامية في الأندلس، واذكر أن للشاعر الأعمى التطيلي تضمينات بلغت أكثر من خمسين موضعاً مَثَّلَتْ ثقافته واقتداره وبراعته في الدين والتاريخ والمعارف واللغة [2] .

---

(1) الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، د. سلمى الخضراء الجيوسي، ترجمة: د. عبد الواحد لؤلؤة : ٧٢٥، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ٢٠٠١ .

(2) ديوان الأعمى التطيلي، الصفحات : ٤١، ٤٨، ٥٤، ٦٩، ١١٠، ١١٦، ١٢٥، ١٥٤، ١٦٥، ١٧١، ١٨٠، ١٨١، ١٩١، ١٩٢، ١٩٦، ٢٠٥، ٢١١، ٢١٤، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٩، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٣٠ .

المبحث الثالث

الصورة الشعرية

الصورة الشعرية وأن اختفت مصطلحاً من الموروث النقدي القديم إلا أنهم جعلوا المعنى بديلاً عنها، كما ذكر ذلك د. جابر عصفور، يقول ربما ((لا نجد المصطلح - الصورة الفنية ([الصورة الشعرية]* بهذه الصياغة الحديثة في الموروث البلاغي والنقدي عند العرب، ولكن المشاكل والقضايا التي يثيرها المصطلح الحديث ويطرحها موجودة في الموروث وأن اختلفت طريقة العرض والتناول))[1] .

ويرى د. محسن اطيمش ؛ أن النقاد والبلاغيين العرب قد خلفوا لنا (في هذا المجال العديد من الدراسات التي لم تغفل عن ماهية الصورة، ومكوناتها، كالتشبيه وأدواته وأنواعه والاستعارة وأنماطها، والمجاز وعلاقاته)[2] .

إن الصورة الشعرية التقليدية للمعارك الحربية البحرية استطاعت أن تكتسب أبعاداً موضوعية جديدة في نسيج شعري أندلسي أخرج الصورة القديمة إلى واقع نفسي من بيئته ومحيطه الجديد، وكان الصورة القديمة الموروثة (صارت تضميناً تاماً وهو تضمين غير متمثل وغير متجاوز لأنه ظلَّ حبيس دلالته القديمة وما تثير من أحاسيس)[3] .

---

* وردت هذه التسمية في (بناء الصورة الفنية في البيان العربي)، د. كامل حسن البصير: ٥٢٢ .

(١) الصورة النقدية في التراث النقدي والبلاغي: ٧ .

(٢) دير الملاك، د. محسن اطيمش : ٢٢١ .

(٣) دير الملاك : ٢٩٩ .

وإن كان الأستاذ (غرسيا غومس) يرى أن قصيدة المديح - التي تحتضن موضوع دراستنا في شعر البحرية الإسلامية في الأندلس - كانت تقوم مقام اللوحات الرسمية التي كان غير المسلمين من الملوك يؤجرون الرسامين على رسمها لأن التصوير والمثالة كانا محرمين على المسلمين [1] .

وهنا أتفق مع الأستاذ فيما ذهب إليه، وأختلف معه في آن واحد ؛ أتفق معه في أن قصائد المديح تقوم مقام لوحات رسمية، وبما أنها رسمية يجب أن تكون من الروعة بمكان، وهذا ما أشار إليه الجاحظ : (فإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير)[2] فالرسام والشاعر كلاهما يعتمدان التخيل لإبداع الصورة مرة بالريشة ومرة بالكلمة .

إن أسلوب الشعر في الصياغة يقوم على تقديم المعنى بطريقة حسية أي أن التصوير يترادف مع ما نسميه الآن بالتجسيم .... والتقديم الحسي للشعر يجعله قريناً للرسم ومشابهاً له في طريقة التشكيل والصياغة ... وإن أختلف عنه في المادة التي تصوغ بها ويصور بوساطتها [3] والذي أختلف فيه مع الأستاذ غرسيا غومس ان لوحات المديح التي أشار إليها تمتد جذورها إلى العصر الجاهلي ولم يكن يوم ذاك التصوير أو المثالة محرماً وقد جرى شعراء الأندلس على مذهب شعراء ما قبل الإسلام وبعده .

أرى أن الصورة الشعرية أو الصورة الفنية كان للتراث العربي النقدي والبلاغي الأساس الأول في إرسائها وما ذهب إليه عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز يمثل

---

(1) ينظر : الشعر الأندلسي : ١٠٥ .

(2) الحيوان : ١٣١/٣ .

(3) ينظر، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي: ٣١١ .

ذلك (وإنما سبيل هذه المعاني سبيل الأصباغ التي تعمل فيها الصور والنقوش)[١]، وهذا ما اسماه د. جابر عصفور بـ(العلة الصورية أو بحسن التأليف)[٢]، وهو نظرية النظم .

والصورة الشعرية هي مزيج من عناصر فكرية وخيالية وعاطفية ولا تتكون من أحد هذه العناصر فحسب، ووصفها في إطار خاص هو حسن التنظيم بإعتماد الوزن والقافية وما ينتج منهما من حركة موسيقية، ويتطلب هذا الأمر من الشاعر تركيز قواه وانتباهه في تجربته [٣] .

بعد هذا العرض لمعنى الصورة الشعرية في التراث العربي قديماًَ وحديثاً أرى أن الصورة الشعرية هي : عملية فنية عقلية تعتمد (النظم) والإعداد الفكري السريع في مسيرة المشاعر، لخلق صيغة شعورية تعبيرية في نوع من الشراكة الحسية أو المعنوية، تلبس لفظ المشبه صورةً له فيها أثرٌ، وفي فضائها منه نصيب، مكوناتها تشبيهية إذا اعتمدت أداة التشبيه وهي صورةٌ، وتخلو من الأداة فتكون تمرداً على الدلالة المعجمية فتكون استعارة وهي صورةٌ، ويجب أن تكون زائدة مقابل المعنى الذي يراد توصيله.وفي البلاغة نقول(علي كالأسد)و(علي أسد).

ولنا في حديث الرسول الكريم محمد ρ في موضوع البيان والشعر دليل على ما ذهبنا إليه في تعريف الصورة الشعرية، يقول الرسول ε ((إن من البيان لسحراً))[٤]، وله 6 أيضاً ((إن من الشعر لحكمة)) [٥]، يقول د. كامل حسن البصير (فبعض البيان هاهنا عد من السحر، ولما كان معنى السحر قلب الشيء في عين الإنسان

---

(١) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني : ١٦٧-١٦٨، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٢٣١هـ .

(٢) الصورة الشعرية في التراث النقدي والبلاغي : ٣٤٧.

(٣) ينظر : الصورة الشعرية في التراث النقدي والبلاغي: ٣٦٤ .

(٤) صحيح البخاري : ٦٤٠، رقم الحديث ٥١٤٦ .

(٥) المصدر نفسه : ٧٤٢، رقم الحديث ٦١٤٥ .

فإن مدلول كلمة البيان اصطلاحاً في هذا الحديث الشريف هو ما يمتاز به فن القول من التأثير بمهارة أسلوبه وتلون عباراته([١] فإن عد البصير الصورة من السحر فقد ذهبنا إلى هذا في تعريفنا للاستعارة : التمرد على الدلالة المعجمية للفظة من خلال مسيرة المشاعر لخلق صيغة شعورية تعبيرية ذات مدلول آخر .

أرى في هذا العرض ما يكمل الغاية التي نرمي إليها في بحث الصورة الشعرية في شعر البحرية الأندلسية خصائصها ونواحي الجمال فيها من خلال النصوص، لا من خلال النظريات لكن للمقدمات ضرورات، وإن توصل د. كامل حسين البصير إلى أن ما وصل إلينا من المصادر العربية في ميدان الدرس البلاغي والنقدي قد سبق المراجع الأوربية إبداعا وابتكاراً في مسائل جمالية : يدرس الباحثون المعاصرون في ضوئها القصيدة بناءً فنياً [٢] وهذا ما أثبتناه في أثناء دراستنا بالشواهد العلمية .

يذهب الباحث إلى أن دراسة الصورة الفنية قد ترسخت جذورها في الموروث من البحث البلاغي والنقدي العربي، وإن تمثل هذه الجذور في أيامنا هذه ضرورة علمية وقومية يقتضيها تجنب تقليد ما لا يمت إلى ثقافتنا الأصيلة ذوقاً ومآرباً [٣] .

والصورة الشعرية في شعرنا العربي تمثل حقيقة الشعور، ويمثل عنها بوسائل ثلاث كما يراها د. أحمد نصيف الجنابي، وهي ؛ الطريقة المباشرة، وهي التي يقترب فيها التعبير الشعري من النثر، ومن أمثلتها يذكر التركيب الموسيقي الداخلي للقصيدة، وطريقة التشبيه وهي أعلى مرتبة في سلم الخلق الفني [٤] في هذا يقول

---

(١) بناء الصورة الفنية في البيان العربي : ٢٦٦ .

(٢) ينظر: بناء الصورة الفنية في البيان العربي: ٥٤٩ .

(٣) ينظر: المصدر نفسه .

(٤) السمات الفنية لشعر البطولة العربية د. أحمد نصيف الجنابي : ١٤، دراسات للأجيال، السنة الثانية العدد / ٢ نيسان ١٩٨١ .

الأستاذ غرسيا غومس في شعراء الأندلس ((لم يغادروا في شعرهم شيئاً لم يشبهوه بشيء))[1] والطريقة الثالثة التي يراها د. أحمد نصيف هي ((التعبير بالصور الفنية بالشعر هو أرقى صور التعبير الفني الشعري وأكثرها أصالة)) [2] ويجمل سيد قطب القول في الصورة الشعرية إذ تتمثل عنده في تغيير الألفاظ أو نظامها أو في تنسيق العبارات وترتيبها أو في طريقة تناول الموضوع[3] ويعني هذا كما دلتنا دراستنا للبلاغة على توظيف المجاز لهذه الغاية - الصورة الشعرية - أما العلاقات التي تحكم هذه الصورة الشعرية في التراث العربي وفي شعر الأندلسيين عامة فهي ؛ الصور التشبيهية والاستعارات، والنظم أو حسن التأليف .

وللوقوف على الجانب الفني لما ذكرناه من تلك المضامين والأفكار للكشف عن قدرة شعراء البحرية الإسلامية في الأندلس في خلق وتوليد صور شعرية اختصوا بها، أو انطلقوا بها من ديوان الشعر العربي نتناول الصور التشبيهية أولاً ومن ثم الصور البيانية الأخرى وصولاً إلى الصورة الفنية وبحسب اتجاهات شعر البحرية وخصائصها في دراستنا للفصل الثاني .

لابن دراج وقد ازدحمت التشبيهات مفترقة في معانيها في وصف السفن وركوبها والبحار وأهوالها، وقد مكنته قدرته من دقة الوصف وعمق الخيال، يقول من قصيدة في مدح المنصور بن أبي عامر في وصف الأسطول مطلعها :[من الطويل]

---

(١) الشعر الأندلسي، غرسيا غومس : ٩٧

(٢) دراسات الأجيال، السنة الثانية : ١٥، العدد ٢، ١٩٨١ .

(٣) النقد الأدبي أصوله ومناهجه : ٣٢ .

لـــك اللـــه بالنـــصر العزيـــز كفيـــل   أجـــد مقـــام أم أجـــد رحيـــلُ [1]

إلى أن يقول في وصف الأسطول :

تحمـــل منـــه البحـــر بحـــراً مـــن القنـــا   يـــروع بهـــا أمواجـــه ويهـــولُ
بكـــل معـــالاة الـــشراع كأنهـــا   وقـد حملـت أسـد الحقـائق غيـل
إذا ســـابقت شـــأو الريـــاح تخيلـــت   خيـــولاً مـــدى فرســـانهن خيـــولُ
ســـحائب تزجيهـــا الريـــاح فـــإن وفـــت   أنافـــت بأجيـــاد النعـــام فيـــولُ
ظبـــاءٌ ســـمامٍ مـــا لهـــن مفـــاحصٌ   وزرق حـــمامٍ مـــا لهـــن هـــديلُ
ســـواكن في أوطـــانهن كـــأن ســـما   بهـا المـوج حيـث الراسـيات تـزولُ

وأنت تقرأ هذا النص وما أنطوى عليه مـن تـشبيهات كأنـك تعـيش أجـواء المعركـة البحرية التي ازدحمت سفنها وتعالت أشرعتها، فقـد شـبه الـسفن بــ(الغـول) ثـم شـبهها بــ (الخيول) وشبهها في حال سكونها ومظهرها الخارجي بـ (ظبـاء سـمام) و (زرق حـمام مـالهن هديل) ثم ينتقل إلى تشبيه مظاهر قوة الأسطول بالحيات، يقول :

أراقـــم تقـــري نـــاقع الـــسم مالهـــا   بمـــا حملـــت دون الغـــواة مقيـــلُ

---

[1] ديوان ابن دراج : ٤- ٥ .

فلكل تشبيه في النص صورة :

وفي وصف السفينة لابن حمديس، يقول : [من الكامل] [1]

خـــضنا حـــشاه في حـــشى زنجيـــةٍ كمـــسفةٍ شـــقت ســـكاكا أغـــبرا

يشبه السفينة التي كنى عنها بـ(زنجية لـسوادها) كـالخوص المـسفوف أي كالحـصير تطاير بريحٍ عالية ووجه الشبه هو طيران - سرعة - السفينة على سطح الماء .

ولابن هانئ الأندلسي في وصف السفن، يقول [من الطويل] [2]

قبـابٌ لمـا تزجـى القبـاب عـلى المهـا ولكـــن مـــن ضـــمت عليـــه أســـودُ

شبه السفن وهي تسير كالقباب المضروبة على الغيـد الحـسان إلا أن داخلهـا أسـود وهم الجنود المقاتلون، والتشبيه تشبيه بليغ، وكان الإحتراس فيه بليغاً أيضاً.

ولابن هانئ الأندلسي يشبه النار الإسلامية التي تقذفها السفن على الأعـداء، يقـول : [من الطويل]

لهـــا شـــعلٌ فـــوق الغـــمار كأنهـــا دمـــاءٌ تلقتهـــا ملاحـــف ســـودُ [3]

يشبه النار الإسلامية حينما تنطلق من هذه الـسفن لـيلاً فـوق المـاء كالـدماء التـي تسقط على ملاءات سوداء وهو تشبيه تمثيل .

---

(1) ديوان ابن حمديس : ٢٣٣ . والمسفة : من السفه بالضم ما يسف من الخوص أي ينسج. السكاك : الـسكاكة : الهواء الملاقي عنان السماء .

(2) ديوان ابن هانئ الأندلسي : ١٠٢ .
القباب : جمع قبة وهي خيمة صغيرة أعلاها مستدير، المعجم الوسيط : ٢/ ٧١٦ .

(3) ديوان ابن هانئ الأندلسي : ١٠٣ .

وله في تشبيه مقدمة السفينة (عنق السفينة)، يقول : [من الطويل]

تــرى كــل قــوداءِ التليــل كــما انثنــتْ ســـوالف غيـــدٌ للمهـــا وقـــدودُ[1]

تشبيه في صورة بديعة يشبه مقدم السفينة بالفرس الطويلة الظهر والعنق أو يشبه عنق السفينة بعنق الحسناء الطويلة الجيد .

ومن صور الاستعارة لابن حمديس في الأسطول الأندلسي، يقول : [من الطويل]

مـــدائن تغـــزو للعلـــوج مـــدائناً فتفـــتح قـــسراً بالـــسيوف وتغـــنم [2]

على سبيل الاستعارة التصريحية بخيال راقٍ ومعنى ظريف بحذف المـشبه (الـسفن) وابقاء المشبه به (مدائن) فقد شبه الـسفن لعظمتهـا بــ (مـدائن) وأبقـى مـن لـوازم المـشبه (تغزو) و (تفتح قسراً) بالسيوف أي بالمجاهدين الذين يحملون السيوف .

وله في المعنى بصورة استعارة، يقول : [من البسيط]

ومـــا رأيـــت أســـوداً قـــبلهم فتحـــتْ مـــدائناً نازلتهـــا وهـــي في الأجـــمِ[3]

والاستعارة هنـا تـصريحية فقـد شـبه (الجنـود في سـفنهم) بالأسـود فحـذف المـشبه وأثبت المشبه به (اسوداً) . وهي استعارة ظريفة .

---

(1) ديوان ابن هانئ الأندلسي: ١٠٣، القوداء : الفرس الطويلة العنق التليل : العنق، السوالف : جمع سالفة وهي صفحة العنق، المها : النساء اللواتي يشبهن بالمها أي بقر الوحش (هامش الديوان : ١٠٣) .

(2) ديوان ابن حمديس : ٤١٥ .

(3) المصدر نفسه : ٤٥٧ .

وله في تشبيه السفن بالبحر على سبيل الاستعارة التصريحية، يقول :[من الطويل]

يخوضـــون بحـــراً كـــل حـــينٍ إلـــيهم ببحـــر يكـــون المـــوج فيـــه فوارســـا[1]

بحذف المشبه من الشطر الثاني (السفن)، وأثبت المشبه به (بالبحر) في الشطر الثاني .

وأرى أن الشاعر في الاستعارات الثلاث هذه قد وفق الى تحويل المشاعر التي تعتلج في نفوس المقاتلين الى كلمات لإقامة علاقات لا يوجدها إلا الشعر، وهذا مفهوم الاستعارة الذي أوردته د. سلمى الخضراء الجيوسي: ((إن الاستعارة وسيلة يمكن بوساطتها دمج المشاعر من دون أن تفقد وضوحها الخاص المستقل.. وأنها الطريقة الأساسية لتحويل المشاعر الى كلمات وهي العملية التي يمكن بوساطتها إقامة العلاقات الداخلية الخاصة بالشعر)) [2] .

ولابن هانئ الأندلسي على سبيل الاستعارة، يقول : [من الطويل]

عليهـــا غـــمام مكفهـــر صـــبيره* لـــه بارقـــات جمـــة ورعـــودُ [3]

---

[1] ديوان ابن حمديس: ٢٧٥ .

[2] الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث : ٧٤٧ .

* الغمام المكفهر: دخان المدافع الأسود. الصبير: السحاب، بارقات : جمع بارقة، أي البرق

[3] ديوان ابن هانئ الأندلسي: ١٠٢ .

فقد جعل من دخان مقذوفات السفينة ونارها سحاباً فوقها، على سبيل الاستعارة التصريحية وشبه لمعان شعلتها - في الشطر الثاني - بالبروق وأصوات مدافعها بالرعود .

وله في تصوير (النار الإسلامية(التي استخدمها الأسطول الأندلسي في مواجهة سفن العدو، يقول : [من الطويل]

إذا زفـــزت غيظـــاً ترامـــت بمــــارجٍ ** **كــما شــب مــن نــار الجحـيم وقــودُ**[1]

شبه النار الإسلامية بـ (غيظاً) فحذف المشبه وأبقى المشبه به على سبيل الاستعارة المكنية تمثلت في تشبيه السفن بكائن حي .

والشاعر هنا وإن كان يصور النار الإسلامية إلا أنه يفخر ببلاء المسلمين وهي صورة أدبية مكنته من دقة الوصف وعمق الخيال في ربط الصورة المادية بصورة متخيلة صورة الجحيم متطاير الشرر وفي كلتا الصورتين يظهر مشهد اللهب الساطع .

ومن صور الكناية في شعر البحرية الأندلسية لابن حمديس، يقول : [من البسيط]

طيـــارةٌ ولهـــا فرخـــان وأعجبـــاً **إذ لا تـــزفهما حتـــى ترقاهـــا**[2]
كأنمـــا البحـــر عـــينٌ وهـــي أســـودها **فـــسبحها فيـــه، والعـــبران جفناهـــا**

---

[1] المصدر نفسه : ١٠٣ .

** المارج : الشعلة الساطعة ذات اللهب الشديد (المعجم الوسيط : ٨٦٧/٢) .

[2] ديوان ابن حمديس : ٥٦٠ . زف : أسرع، رفا الطائر : سما وارتفع (المعجم الوسيط: ٣٦٨/١ و ٣٩٧) .

(فالطيارة(كناية عن السفينة لسرعتها، وقد وظف الشاعر نوعاً من المحسنات المعنوية ؛ التورية، في (ولها فرخان) إذ ورى عن السفن الصغيرة التي تصاحبها والتي تسمى بـ (الشواني) ؛ ولكون الشاعر هو صاحب المعاني البديعة والخيال الخصب فقد مكنته براعته في وصف دقيق للسفن الحربية البحرية بانتقاله من (الكناية(إلى (التورية) إلى التشبيه في البيت الثاني إذ جعل من البحر عيناً والسفينة أسودها، وإن كانت العين بحاجة إلى جفنين فلم يغفل ذلك وجعل ساحلي البحر جفنيها .

ولابن الخطيب، يقول : [من الكامل]

تلك الجواري المنشآت صداقها مهج العدى وخلوفهن من الدمِ[1]

صورة فيها كنى عن السفن بـ (الجواري المنشآت) وهي صورة بديعة تستمد قوة أبداعها من معاني القرآن الكريم - وقد ذكرنا ذلك في موضوع الاقتباس - وقد أمتلك الشاعر قدرة فنية في تصوير سفن المسلمين في جهاد الأعداء بأن صداقها دم الأعداء يسيل على جوانبها (مهج العدا وخلوفهن من الدم).

ويكرر ابن الخطيب هذه الصورة مرة ثانية في : [من الكامل]

ولك الجواري المنشآت سوابحاً في اليم أمثال الصقور الحومِ[2]

---

[1] ديوان ابن الخطيب ٢ /٥٣٨ .

[2] المصدر نفسه .

وله في المديح، يقول : [من الكامل]

لـــو أن بأســـك والجمـــوع زواحـــفٌ   في مجمـــع البحـــرين غـــيض المـــاءُ [(١)]

يكني عن شجاعة الممدوح وزحف جيوشه، على الرغم من سعة مجمع البحرين بـ (أن بأسك) أي شجاعتك المفرطة تحيق ماء البحر فيعود فزعاً، وقد أفاد في الـشطر الثـاني مـن معاني القرآن أيضاً .

ومن صور (الكناية(عن خوف أعداء المسلمين، يقول : [من الطويل]

وأي فـــؤادٍ مـــنهم غـــير خـــافقٍ   إذا خفقــت في البحــر أعلامــك الحمــرُ [(٢)]

وصورة الكناية هنا ستتمثل في خـوف الأعـداء عنـد ظهـور الأعـلام الحمـر في الأفـق وهي كناية عن صفة وكانت الأعلام الحمر رمز السفن الغرناطية .

وفي فن الكناية عن السفينة، يقول : [من البسيط]

مـــن كـــل عـــذراء حـــبلى في ترائبهـــا   ردعـــان مـــن عنـــبر وردٍ وكـــافورِ [(٣)]

---

(١) ديوان الصيب والجهام: ٢٣٢ .

(٢) المصدر نفسه : ٥٣٥ .

(٣) إعلام الأعلام، ابن الخطيب : ٢٦٧ . (وبنات الماء) جاءت في شعر ابن الآبار كناية عن السفينة أيضاً (الـديوان : ٢٣٣) .

فقد كنى عن السفينة التي تنزل مياه البحر لاول مرة بـ (عذراء) لكنها (حبلى) كناية عن تزاحم الجنود في جوفها .

ولابن شرف القيرواني يكنى عن السفينة، يقول : [من الطويل]

ونحن نفوسٌ تسعة ليس بيننا وبين الردى إلا عويد ملفقٌ [(١)]

فقد جاء بلفظ (عويد ملفق) كناية عن السفينة .

ولأبن الخطيب يكنى عن الشراع، يقول : [(٢)] [من الكامل]

من كل طائرةٍ كأن جناحها وهو الشراع به الفراخُ تظلِّلُ

شبه السفن وهي تجري مسرعة بأشرعتها فكنى عن الأشرعة بجناحي أنثى الطير وهي تظلل أفراخها كناية عن الاستطاعة والقوة لملاقاة سفن الأسبان ومقاومتهم .

ومن بديع المحسنات البلاغية في تشبيه السحاب والمطر بالسفينة والبحر على سبيل الكناية يقول يوسف بن هارون : [(٣)] [من الطويل]

وجارية جري السفين تسوقها الرياح ولكن في الهواء غديرها
رأيت بأحشاءِ البحورِ سفينها وتلك سفين في حشاها بحورها

(١) ديوان ابن شرف القيرواني، تح: حسن ذكري حسن: ٧٩،دار مصر للطباعة (ب، ت).
(٢) نفاضة الجراب : ٢٩٢ .
(٣) كتاب التشبيهات : ٤٥ .

يكنى عن السحاب المحمل بالمطر بـ (وجارية) ؛ وهي ؛ السفينة، تسوقها الرياح لكن غديرها ليس البحر وإنما غديرها في الهواء ويتعجب من أن السفن تجري في أحشاء البحور لكن هذه (الجارية(في حشاها بحورها .

وإذا انتقلنا إلى صور شعر المعارك الجهادية البحرية في وصف الأساطيل والسفن، والتي تبرز ارتباط أبناء الأندلس بنوع من السلاح المذكور لتأمين الدفاع عن ثغور الأمة وما تنطوي عليه من دلالات نفسية وشعورية وفكرية وعقلية كانت صدى لمعاناة مقاتلي البحرية مرة وافتخاراً بالنصر شكلت امتدادا روحياً إيمانياً تلون بمسيرة الحركة الجهادية البحرية .

فمن نص لأبن هذيل (٣٨٩هـ) في وصف الأساطيل البحرية - وقد ذكرناه سابقاً - يقول : [من الطويل]

وصفت كأن البحر تحت صدورها قد أستأسرت أمواجه فهو أبكمُ [(١)]

فمن هذا الأسطول الذي استأسرت سفنه ألتحاج البحر وأخرستها في مشهد أظهر فيه عظمة الأسطول، فمن ذلك الاصطفاف إلى صورة الاصطفاق عند محمد بن أبي الحسين، يقول : [من الطويل]

كأن آصطفاق الموج في جنباتهِ خميسُ تهاوت بالسيوف قنابلهُ [(٢)]

(١) المصدر نفسه : ١٧٣ .

(٢) المصدر نفسه : ١٧٣ .

وأراه مأخوذاً من قول بشار بن برد : [من]

كــأن مثــار النقــع فــوق رؤوســنا وأســيافنا ليــل تهــاوى كواكبــه [(١)]

عادة تشبه جحافل الجيش وقطعاته بموج البحر لكن الخيال الشعري قلب الموازين لا لإظهار ضعف البحر لإرادة إظهار قـوة الجـيش، لكـن الـصورتين البحريـة والبريـة تـشكلان صورة متكاملة الخطوط والأبعاد، وقـد توحـد فـيهما عنـصرا الحركـة في تلاطـم أمـواج البحـر، وتهاوى سيوف المقاتلين .

ولابن حمديس صورة للبحر في التجاجه وهي صورة حسية نادرة يقول :

وقد ذكر في مناسبة أخرى سابقة [من البسيط]

وأخــضر حــصلت نفــسي بــه ونجــت ومــا تفــارق منــه روعــةٌ روعــي [(٢)]
رغــا وأزبــد والنكبــاء تغــضبهُ كــما تعبــث شــيطانٌ بمــصروعِ

هكذا يرتبط البحر لدى شعراء البحرية الأندلسية بالرهبة والخوف ذلك أنه مستقر الأهوال ومنبع الخوف والهم، يرسم الـشاعر للبحـر صـورة تتنـامى فيهـا الأحـداث مـن نجـاة وغرق إلى حالة من الفزع كصورة أكبر حيوان رغا وأزبد تعبيراً عن حالـة الانفعـالات النفـسية التي عاشها الشاعر والتي دعته إلى توظيف (النكباء) تسمية للرياح الهوجاء وتمثيلاً لنكبتـه في محبوبته (جوهرة) التي طواها البحر .

---

(١) ديوان بشار بن برد، تقديم ونشر: محمد الطاهر بن عاشور: ٣١٨/١، ط ١٩٥٠ .

(٢) الديوان: ٣١١، النكباء: ريح انحرفت ووقعت بين ريحين. المعجم الوسيط: ٩٥٩/٢ .

أما الصورة المتخيلة التي استطاع ابن حمديس أن يصورها فيحسن التصوير مما جعل صورة عبث الشيطان بمصروع وصفاً رائعاً تحتل أعلى مرتبة في سلم الإبداع الفني بالربط بين صورة إنسانية تدخل فيها الشيطان وصورة هيجان البحر بفعل النكباء فكما أغضب الشيطان المصروع أغضبت النكباء البحر.

ولأبن حمديس في وصف السفينة وكأنك تنظر صورة لا تقرأ كلمات، يقول :

[من الطويل]

تـرى الـشحم فـوق القـار* منـه مميعـاً ... فيـا مـن رأى لـيلاً تـسرول بـالفجر [1]

ســـوادُ غـــرابٍ في بيـــاضِ حمامـــةٍ ... تطـير بـه سـبحاً عـلى المـاء أو تجـري

صورة السفينة المطلية بالقار يعلوه شحم مميعٌ خالية من الخيال الذي تقرأ صورته في الليل متسرولاً بالفجر، وما أبهاها من صورة، وأعطت لفظة (تسرول) دفقاً شعورياً موسيقياً، أعقب هذه الصورة بصورة سجادة نسجها اللون الأسود والأبيض بالجمع بين الغراب بما يثيره من معنى والحمامة بما توحي من سلام .

استبقى الشاعر أخيلته من عالمه الحسي وجعل من هذا الخيال نوعا من الإلهام، وأرى أن القدرة على النظم التي جعلها الجرجاني أساساً في الصورة الشعرية قد تمثلت في الشطر الأول من البيت الأول بالإتيان بالجار والمجرور (منه) فلو حذفنا (منه) لفقد الشطر روعته وجماليته ولم يعد نظماً : (ترى الشحم فوق القار مميعاً)،

---

* ينقل الجاحظ : ((كان الحجاج أول من أجرى في البحر السفن المقيَّرة المسمَّرة غير المخرَّزة والمدهونة والمسطحة، وغير ذوات الجؤجؤ)) . الحيوان، تحقيق وشرح: د. عبد السلام هارون، : ٨٢/١، دار الكتاب العربي، مكتبة الجاحظ، بيروت- لبنان، ط٣، ١٩٦٩.

[1] ديوان ابن حمديس : ٢٢٦ .

وكذا الحال في تقديم الصفة على الموصوف في الشطر الأول من البيت الثاني (سواد غراب) و (بياض حمامة) ولو تأخرت الصفة لفقد البيت روعته ولأنفرط عقد النظم .

أما صورة الشراع في الشعر الأندلسي عامة فإنها تعد وجهين لعملة واحدة ففي الحرب يعد ظهوره إشعاراً بالحرب بوصول سفن العدو، ويعد بشرى لمترقبي وصول الأحباب والمسافرين في السلم، ففي الحرب نذير شؤم وفي السلام منديل وداع واستقبال أبيض .

يكون الشراع رمزاً للسفينة بل رمز للبحر عند ابن دراج، يقول في ترحيل قومه : [من الطويل]

هوت أمهم ماذا هوت برحالهم　　　إلى نازح الآفاق سفن وأضعان[1]
كواكب إلا أن أفلاك سيرها　　　زمامٌ ورحلٌ أو شراعٌ وسكانُ

صورة تظهر حجم مآساة الترحيل بين البر والبحر على ظهور الجمال (زمام ورحل وعلى ظهر البحر (الشراع و السكان) .

ومن صورة لأبن الدراج يظهر فيها وجه الممدوح أكثر من شراع، يقول : [من الطويل]

وأقبسته من نور هديك فأهتدى　　　إلى حيث لا يهدى شراعُ وملاحُ[2]

---

(١) ديوان ابن دراج : ٧٥ (جاء في الهامش : برجالهم)
(٢) المصدر نفسه : ٤٠٦ .

ولأبن الحداد يصور السفينة المضطرب شراعها بقلق العيون التي أصابها الأرق نتيجة القلق وترقب العدو بالسفينة المضطرب شراعها بالرياح العاتية، يقول [من الخفيف]

وتــــــراءت بــــــشرعها كعيــــــونٍ دأبهـــا مثـــل خائفيهـــا ســـهادٌ[1]

والشراع يجعل من السفينة غولاً عند ابن دراج، لأنها كبيرة عالية تخيف الأعداء، يقول : [من الطويل]

بكـــل معـــالاة الـــشراع كأنهـــا - وقـد حملـت أسـد الحقـائق - غِيـلُ[2]

ومن الصور النادرة للشراع تشبيهه بالذؤابة التي تفور شيباً بالإفادة من القرآن الكريم [**وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً**][3]، لأبي بحر يقول : [من الوافر]

كـــأن شراعهـــا شـــيب بفـــودي نجـــاشيٌ تثـــور ذؤا بتـــاه[4]

(١) نفح الطيب : ٢٠٣/٥، ط١، ١٩٩٥ .

(٢) ديوان ابن دراج : ٤، الغيل بالكسر : الآجمة وموضع الأسد، والغيل الشجر الملتف، وأرى أن الشاعر أراد المعنى الأول بقرينة (وقد حملت أسد الحقائق) . مختار الصحاح: ٤٨٧ .

(٣) مريم : ٤ .

(٤) زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر: ٤١ .

وقد جعل الشاعر هذا التشبيه صورة فنية فريدة في هذا الربط الذي يبدو بعيداً وقد جعله قريباً بصورة السفينة المطلية بالقار يعلوها الشراع الأبيض بصورة الإنسان الأسود الذي تثور ذؤابتاه بالشيب .

أما صورة المجاذيف بوصفها جزءاً مهماً من السفن الحربية البحرية فقد حرص شعراء البحرية الأندلسية على تصويرها، وأرى أن تصوير المجاذيف يكاد يكون بمعنى ولفظ واحد تقريباً، وأن ذكر د. محمد سعيد المجيد أن هذا الوصف يدل (على مدى تقصي الوصاف الأندلسي لجزيئات الصورة ومتابعة لدقائقها [(١)] وإن وافقنا هذا الرأي، أرى أن الشاعر ابن وهبون هو أول وصاف لصورة المجاذيف ومن جاء بعده عيالٌ عليه على الرغم من (أن تشبيهاتهم مسبوقة معروفة لدى شعراء أندلسيين آخرين قبلهم [(٢)] .

لأبن وهبون (٤٨٤هـ) في تشبيه المجذاف يقول [من الكامل]

ومجاذفٌ تحكي أراقم ربوةٍ نزلت لتكرع من غدير متأقِ[(٣)]

صور المجاذيف حيات مدت رؤوسها من ربوة وبحركة المجذاف علواً وسفلاً وهي تكرع الماء بألسنتها .

---

(١) الشعر في عهد المرابطين والموحدين : ١٣٦ .

(٢) المصدر نفسه : ١٣٥ .

(٣) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة،ق٢، م١: ٥٠٦، ونفح الطيب،٢٠٧/٥، ط١، ١٩٩٥.

* هو أبو عمرو يزيد بن عبد اللـه بن أبي خالد اللخمي الإشبيلي الكاتب، وهو صدر في نباهته بين أدباء إشبيلية، نفح الطيب : ٢٠٣/٥، ط١، ١٩٩٥ .

أما الشاعر أبو عمر يزيد بن عبد اللـه بن أبي خالد * (٦١٢هـ)، فيقول:[من الطويل]

مجـاذف كالحيـات مـدت رؤوسـها ... عـلى وجـلٍ في المـاء كي تـروي الظـمأ[(١)]
كـما أسرعـت عـداً أنامـل حاسـبٍ ... بقـبضٍ وبـسطٍ يـسبق العـين والفـما
هـي الهـدب في أجفـان أكحـل أوطـفٍ ... فهـل صـبغت مـن عنـدمٍ أو بكـت دمـا

الصورة هي صورة ابن وهبون (٤٨٤هـ) ولم يـزد عليهـا الـشاعر إلا حركـة الحيـات (المجاذيف) بحركة أنامل حاسب يسرع في عّد نقوده بحركة مستوحاة من المجاذيف فالفكرة والمعنى واحد استحياء من صورة بيت ابن وهبون وله الفضل في إضافة صورة البيـت الثالـث صورة هدبي عين الأكحل الذي أخذه من ابن حداد (٤٨٠هـ).

أما أبو الحسن بن حريق (٦٢٢هـ) في تصوير المجاذيف فلم يأت بجديد وكان عيـالاً على من سبقه، يقول : أوردناه سابقاً [من الطويل]

وكأنمـا سـكن الأراقـم جوفهـا ... مـن عهـد نـوحٍ مـدة الطوفـانِ[(٢)]
فـإذا رأيـن المـاء يطفـح نضنـضت ... مـن كـل خـرتٍ حيـةٌ بلـسانِ

صورة سفينة تقادم العهد بها مجاذيفها تتحرك بحركة السنة الحيات وهي تمتـد إلى الماء من ثقوب السفينة .

---

(١) نفح الطيب : ٢٠٣/٥، ط١، ١٩٩٥ .
(٢) نفح الطيب: ٢٠٤/٥، ط١، ١٩٩٥. (الأرقم) ذكر الحيات أو أخبثها جمع أراقم .

أما صورة ابن الحداد (٤٨٠هـ) التي ذكرناها، يقول : [من الخفيف]

ذات هـــدبٍ مـــن المجـــاذف حـــاكٍ هـــدب بـــاكٍ لدمعـــه إســـعادُ[(١)]

وهي صورة بديعة فيها المجذايف هدب باكٍ فرحاً لا هدب باكٍ حزينـاً، إذ الـصورة الأولى قطرات تتعلق بالهدب، أما الثانية فهي دموع جارية .

ومن الصور البديعة التي تظهر قدرة الـشاعر عـلى جمـع المتباعـدات لأميـه ابـن أبي الصلت، يقول :

كـــأن حبـــاب المـــاء در مبـــدد وهـنَّ أكـف الغيـد يعجلنـه لقطـا [(٢)]

وهنا يكون التشبيه أعمق وألطف وأدق من (أنامل حاسب) .

وأرى أن الأوصاف المذكورة هي التي قال فيهـا الأسـتاذ غرسـيا غـومس عـن الـشاعر الأندلسي (فينتقل بذهنه انتقالات سريعة يلم فيها بالمتباعـدات .... فيـشبه شـيئاً كبـيراً بـشيء صغير كتشبيه مجاذيف القارب بأهداب العين أو أوطاب الساقية بالجفون([(٣)] .

ولابن هانئ الأندلسي في وصف النار البحرية التي توصل علماء العـرب المـسلمين إلى أسرارها وسميت بالنار الإسلامية، يقول : [من الطويل]

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) ديوان الحكيم أمية بن أبي الصلت بن عبد العزيز السداني، تح: محمـد المرزوقـي: ١١٥، دار بوسـلامة، تـونس (ب . ت) .

(٣) الشعر الأندلسي : ٩٦- ٩٧ .

تعـــانق مـــوج البحـــر حتـــى كأنـــه   ســـليطٌ لهـــا فيـــه الـــذبال عتيـــد [1]

صورة نشأت عن موقف تأملي ولدت مـن حالتـه الذهنيـة فتبناهـا وتفاعـل معهـا، فتحولت إلى تجربة وجودية عبر عنها شعرياً بلغة وصورة حسية، هذه الصورة التـي جمعـت بين مشهد النار الملتهبة وشوق المحب الملتهب في آن واحدٍ بتوظيفـه لفظـة (تعـانق) أعطـت للبيت دفقاً شعورياً تمثل في ارتباط (النار الإسلامية) بمـوج البحـر ثـم أنتقـل إلى تـصوير هـذا المشهد بمشهد فيه القذائف النارية هذه فتـيلاً في وسـط المـوج الـذي تحـول زيتـاً يزيـد مـن استمرار توقدها وتوهجها، وقد جاء بالجار والمجـرور (فيـه) لإحكـام الـنظم فبـدونهما يفقـد البيت روحه وموسيقاه، وصورة المشبه صورة موجية معبرة بينما كانت صورة المشبه به كأنك تقرؤها وتحيط بجوانبها ذلك كله في قوة إدراك وبراعة وإحاطة، وإن أختـار لفظـة (العنـاق) من قاموس الحب الذي لا يتناسب وقاموس الحـرب إلا أنهـا أعطـت معنـى مخيفـاً باقترانهـا بالموج والصورة هنا ليست عناق محب وإنما صورة عناق الموج وما توحيـه مـن رعـب وفـزع وموت .

ومن صور المعارك البحرية نختار لأبن حمديس صـورة واقعيـة بعيـدة عـن التهويـل والتفخيم والمبالغة وبصدق فني تمثل في إظهار قوة المـسلمين يومـذاك يقـول في فـرار العـدو وهزيمته :   [من الوافر]

وخـــافوا مـــن منايـــاهم وفـــروا   فـــدافع عـــن نفوســـهم الفـــرار [2]
وقـــد جعلـــوا لهـــم شرع الـــشواني   مـــع الأرواح أجنحـــة وطـــاروا

---

[1] ديوان ابن هانئ الأندلسي : ١٠٣ .
[2] ديوان ابن حمديس : ٢٣٩ .

ليس للفرار إلا معنى الفرار لكن الشاعر شخصه وأعطاه معنى ووظيفة، فصوره مدافعاً عن نفوسهم ومخلصاً وقد صور ما تنطوي عليه نفوس الأعداء من دلالات نفسية وشعورية ارتفعت فيها أرواحهم فزعاً ورهبة من قوة المسلمين فقد خفقت نفوسهم مع الأشرعة وطاروا يخلصهم الفرار .

وأرى أن ما دفع الأستاذ (ليفي برفنسال) إلى الإعجاب بالشعر الأندلسي هو هذا الخيال وصدق المشاعر في الغوص على المعاني وقوة التصوير ودقة النظم المتمثل في استخدام (من) و (عن) و (لهم) والتقديم والتأخير في الشطر الثاني من البيت الأول، يقول : (ومن الطبيعي ألا نندهش إذ نرى في أرض الأندلس من أول الأمر ارستقراطية عربية معتزة بأصلها مكبرة له، تحافظ على مثلها الشرقية فيصبح الشعر فيها صورة دقيقة من الفن الشعري العربي في القرنين الأولين للإسلام)[1] .

من خلال دراسة الصور الفنية لشعر البحرية الأندلسية، نلحظ أنها أمازت بظاهرة صور الحرب بأدواتها من أساطيل وسفن ولجّ البحر وأشرعة ومجاذيف ونار إسلامية، وما نتج من هذه الصور من تلاحم جنود المسلمين بعدوهم وما جر من مآسٍ ودماء انتصارا مرة وإخفاقاً أخرى، وإن كان صوت الوصف في الإخفاق إذا ما قورن بالأول لا يشكل نسبة تذكر، ونلحظ أن المعاناة المستمرة للحروب وكثرة معارك المسلمين والأسبان جعلت من دنيا الأندلس تصطبغ بلون الدماء ومشاهد القتلى والصرعى .

---

[1] أدب الأندلس وتاريخها، ليفي روفنسال : ٥ سلسلة محاضرات عامة ألقاها عامي ٩٤٧- ٩٤٨، ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة و عبد الحميد العبادي، المطبعة الأميرية بالقاهرة، ١٩٥١ .

وهذا ما دفع ابن هانئ الأندلسي إلى القول : [من الطويل]

فــــما أرتـــــدي إلا بـــــأحمر قـــــانئٍ سـقته الطـلى مــن نـصل أبـيض صـارمِ[1]
وقـد فـاض بحـر للـردى مـن دم العـدى فـــسال حيـــاءً في وجـــوه الـــصوارمِ

وهذه صورة من صور الخيال البحري الأندلسي مستقاة من موقف حسي نتيجة موقف تأملي، صورة لونية يظهر فيها الرداء المسقى من الدم من دماء الأعداء وكان السيف أداة السقي، تتنامى الصورة بجعل الدم القاني صيغة الرداء دليلاً على الشجاعة والإقدام واستمرار معارك الأندلسيين، وما صورة الدماء على صفحة السيف إلا حياءً وخجلاً [2] .

ونلحظ أيضاً إن صور شعر البحرية الأندلسية وإن استمدت جذورها من التراث العربي الجاهلي والإسلامي إلا أنها تغيرت في دوافعها وتطورت في مضامينها وتمثلت في صور فنية جديدة فإن صور المتنبي سيف الدولة في تصديه للموت (كأنه في جفن الردى وهو نائم)[3] .

فقد أفاد أبو جعفر بن عاصم اللماني من شعراء الأندلس من بيت المتنبي المشار إليه، وأجاد وأبدع في تصوير ممدوحه متصدياً للجِّ البحر، يقول:[من البسيط]

---

(1) ديوان ابن هانئ الأندلسي : ٣٥٢ .
(2) بالإفادة من (الموقف الأدبي العدد ٣٦٥، ٢٠٠١ : ٤٠)
(3) **وقفت وما في الموت شك لواقفٍ كأنك في جفن الردى وهو نائم**
ديوان المتنبي : ١٠١/٣ .

وقفت بالبحر والأمواج فائضةٌ ... تترى على سيفه في يوم أهوالِ[1]

فقلت ما ذاك هولٌ فيه بل ولجت ... في لج موجته كف ابن كمَّالِ

فقد صور الشاعر الموقف تصويراً واقعياً لحقيقة الموقف الحربي، إذ الحديث عن المعارك الجهادية يستدعي ذكر الموقعة وطبيعة المكان الذي تجري فوقه، فكان المدح لموقف بحري أكثر تأثيراً وأبدع صورة من موقف بري ثم صور الحالة النفسية بمنهج فني بلاغي وجهها توجيهاً أدبياً خيالياً أفاد من هيجان البحر ووجود الممدوح فيه محارباً في صنع صورة مدحية رائعة عناصرها لجُّ البحر .

ونلحظ أن شاعر البحرية الأندلسية يعمد إلى تصوير قوة الأعداء ومقدرتهم في إدارة المعركة البحرية ليتخذ من ذلك سبيلاً إلى الفخر بقوة البحرية الإسلامية أو القيادة البحرية للأسطول العربي، ففي معركة الديماس سنة (٥١٧هجـ) يصور ابن حمديس عظمة أساطيل العدو، يقول : [من الطويل]

أتوا بأساطيل تمر كأنها ... جرادٌ مظلٌ ضاق عن عرضه البحرُ[2]

وخيلٍ حشوا فيها السفين ولم يكن ... لها في مجال الحرب كرٌّ ولا فرُّ

وفي تصوير انتصار المسلمين في القصيدة نفسها، يقول :

فكم من فريق منهم إذ تفرقوا ... له غرقٌ في زخرة الموج أو أسرُ

---

(١) زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر: ٨٨ .

(٢) ديوان ابن حمديس : ٢٥٢ .

وظلــت ســباع المــاءِ وهــي تنوشــهم فــلا شــلو مــنهم في ضريــح ولا قــبرِ

وعن انتصارات هذه الأساطيل وبلائها يقول محمد بن شخيص في ذكره مولاه غالب [من الطويل]

أســاطيل هـــن المــوت أو في طباعــهِ لإيقاعهــا بطــشاً وإتباعهــا رســلا [١]

ولأبي مجاهد الاستجي في مدح المستنصر يقول في الأسطول: [من الرجز]

تخـــــال في إجلالهــــــا أغـــــوالا أجبـــال مـــوتٍ تحمـــل آلأجبـــالا [٢]

بعد أن ذكرنا نصوصاً لانتصارات البحرية الإسلامية في الأندلس أرى مـن المناسـب أن نمر على نصٍ يظهر مأساة الأندلسيين في مـشهد رهيـب تهتـز لـه النفـوس أسىً ولوعـةً في أسر المعتمد عباد، ففي بيت واحد يصور ابن اللبانة هذا المشهد الذي يقول فيه د. أحمد نـصيف الجنابي : وأشهد أني قد اهتزت فرائصي فزعاً كلما قرأت كلمات الشاعر وكأنها سهام نفـذت الى مشاعري فهزتها هزاً ومزقتها أي تمزيق، وأشعرتني بالمأساة التي حلت بالأندلس قبل فلـسطين [٣]، يقول:

حــان الــوداعُ فــضجت كــلُّ صــارخةٍ وصــارخٍ مــن مفــداة ومــن فــادِ [٤]

---

(١) المقتبس في أخبار بلد الأندلس : ٦١ .

(٢) المصدر نفسه : ١٦٧ .

(٣) ينظر: في الرؤيا الشعرية المعاصرة : ٩٧ – ٩٨ .

(٤) شعر ابن اللبانة الدايني : ٣٩-٤٢، والنص ذكرناه سابقاً

المبحث الرابع

موسيقى الشعر

إذا كان أمر يخص الشعر قديماً وحديثاً فهو أمر موسيقاه إن كان إطاراً خارجياً أو إطاراً داخلياً وموسيقى الشعر لا تنحصر في وظيفة الوزن أو القافية، أو في اختيار الكلمات وترتيبها التي تفضي إلى بناء ما يسمى بـ (الموسيقى الداخلية)، إذ أن الوزن ليس مكوناً كافياً للشعرية [1]، ولا حتى القافية، أما الموسيقى الداخلية أو وحدة النظم، التي تزيد المعنى قوة وتجعله ينفذ إلى قلوب سامعيه [2]، فهي اقتران الوزن والقافية بالمكونات اللغوية والتركيبية والبلاغية [3] وهذا الترابط بين عناصر القصيدة أو الوحدة الشعرية هو (بناء عضوي قامَ على أساس تنظيم الانفعالات وإخضاع التعدد للوحدة واستخراج النظام من الفوضى)[4].

أما دراسة الوزن والقافية والموسيقى الداخلية، كل على حدة، فليس من باب دراسة الموسيقى خارج النص الشعري وإنما لما تقتضيه متطلبات البحث في الدراسة الفنية لشعر البحرية الأندلسية:

---

(١) ينظر: في الشعرية، كمال أبو ديب : ٩٣، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط١، ١٩٨٧ .

(٢) ينظر: النقد الأدبي الحديث: ٤٣٥ .

(٣) ينظر: في الشعرية: ٩٤ .

(٤) الشعر كيف نفهمه ونتذوقه، اليزابيث درو: ٢٧ (ترجمة محمد إبراهيم الشوش، بيروت، ١٩٦١) .

١- الموسيقى الخارجية:

وهـي التـي (لا يـضبط منهـا إلا ظاهرهـا وهـو مـا تـضبطه قواعـد علمـي العـروض والقوافي)[١].

أ- **الوزن:** أعظم أركان حد الشعر، وهو مشتمل عـلى القافيـة وجالـبٌ لهـا ضرورة[٢] وصياغة الشعر العربي منذ القديم كانت في كلام ذي وقع موسيقي.... ولا نـستطيع أن نقطـع بشيء من مراحل نشوئها أو تطورها لوصـول الـشعر بـصياغته الموسـيقية في بحـوره وقوافيـه بشكل ناضج [٣] . والبيت هو الوحـدة الموسـيقية للقـصيدة العربيـة [٤] والـوزن عنـد فلاسـفة العرب وسيلة من وسائل التخيل كالتشبيه والاسـتعارة وغـيرهما مـما يميـز اللغـة الـشعرية [٥] فكما الأصباغ تلون اللوحات الفنية فإن الأوزان والقوافي تلون النصوص الشعرية .

والوزن والقافية متلازمان ومنهما ومن اللغة يتشكل النص الـشعري إذ لا تقـوم لغـة الشعر بدونهما منذ شعور الإنسان باللون التعبيري هـذا، وحتـى قـصيدة النـثر كـما يراهـا د. محمد رضا مبارك وإن تبدو بعيدة عن الوزن والقافية إلا أنهما ظاهرة تلون إيقاعها الداخلي، يقول: ((ويستشهدون بقصيدة النثر ولكن هـذه القـصيدة لم يتركوهـا دون لـون أو وجـه مـن أوجه الوزن والإيقاع)) [٦] .

---

(١) في النقد الأدبي: ٩٩ .

(٢) ينظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني (٣٩٠-٤٥٦هـ)، تـح: محيـي الـدين عبـد الحميد: ١٣٤/١، مطبعة السعادة، مصر، ط٣، ١٩٦٣.

(٣) ينظر: النقد الأدبي الحديث: ٤٣٥ .

(٤) ينظر: المصدر نفسه: ٤٣٦ .

(٥) ينظر: نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين، د. ألفت الروبي: ١٥١، دار التنوير للطباعة، بيروت ط ١، ١٩٨٣ .

(٦) اللغة الشعرية في الخطاب النقدي العربي، محمد رضا مبارك: ١٧٢ (دار الشؤون الثقافية بغداد ط١، ١٩٩٣)

وهذا ما يدعونا إلى قراءة الشعر بإذن موسيقية، أو بأذن وعين، فقد صاحبت الموسيقى (الأدب) في أول ظهوره شعراً أو (ابتهالاً) هذا ما ذهب إليه د. عبد الواحد لؤلؤة ويضيف ((أن معرفة بضروب الفن الموسيقي وتطوره عبر العصور ضرورية لإنارة النص الأدبي قدر ضرورة المعرفة بالتاريخ واللغة وعلم النفس وغير ذلك من أدوات أصحاب النقد)) (١) .

وأتفق مع الأستاذ الدكتور أحمد شاكر غضيب فيما ذهب إليه من أننا (نسمع بين الآونة والأخرى أنهم يطلبون من الشاعر أن يعد القافية أو الوزن وهم من ذلك يتناسون أن كلا الركنين مرتبط بشعور الشاعر وعواطفه وأحاسيسه وظروفه ولا أظن أن الشاعر يفكر في وزن أو قافية حين تولد القصيدة، إلا ما كان متكلفاً فالشعر هو الروح [المنسابة] * على قصاصة من الورق)(٢) وأرى في قول الأستاذ الدكتور عباس صالح الصالحي (والحق أن الشاعر المجيد تنساب القافية من بين كلماته على وتيره المشاعر فالرقة لها قافية ووزن والحرب لها قافية ووزن فكأننا بمقولة (لكل مقام مقال) تنطبق على أن لكل غرض شعري وزن وقافية) (٣) لم يحدد وزناً خاصاً أو قافية محددة للغرض الشعري في مواضع الرقة أو الحرب، والأمر يعود أولاً وأخيراً إلى الشاعر(٤) .

---

(١) بين الأدب والموسيقى: اسعد محمد علي، تقديم: د. عبد الواحد لؤلؤة: ٩، دار آفاق عربية للصحافة والنشر، بغداد- العراق، ١٩٨٥.

* وردت اللفظة في الكتاب (المناسبة) وأرى أنه خطأ مطبعي والصحيح ما أثبتناه .

(٢) القصيدة العباسية في النقد العربي الحديث . الأستاذ الدكتور أحمد شاكر غضيب: ٣٢ دار الضياء للنشر والتوزيع، عمان الأردن ط١ / ٢٠٠١ .

(٣) رأي للأستاذ الدكتور عباس صالح الصالحي أثبته على مسودة الدراسة كونه، الأستاذ المشرف على دراستي في أثناء مراجعته للرسالة .

(٤) ينظر: النقد الأدبي الحديث: ٤٤١ .

وإن كنا لا نستطيع المقارنة بين استعمال الأوزان في الأغراض والاتجاهات الشعرية بحكم موضوع دراستنا فقد ذهب د. عز الدين إسماعيل إلى ذلك بقوله: ((والحقيقة أن الشعراء الأندلسيين أكثروا من استعمال الأبحر الطويلة في مدائحهم ومراثيهم . ولكنهم أيضاً استعملوها في غزلهم وخمرياتهم، وهذا ينفي وجود علاقة بين الوزن والغرض))[1] ويضيف ((أن الشاعر حين يريد أن يقول شعراً لا يحدد لنفسه بحراً بعينه وإنما هو يتحرك مع أفاعيل نفسه فيخرج الشعر في الوزن الذي يصدف له من الأوزان)) [2] . وهذا ما ألتزم به شعراء البحرية الإسلامية في الأندلس وكثيرة هي النصوص التي تنفي العلاقة بين الوزن والغرض، منها نصٌّ للعباس بن فرناس مرَّ بنا سابقاً، منه: [من الطويل]

ومختلف الأصوات مؤتلف الزحف   لهوم الفلا عبل القنابل ملتفِ[3]

البيت من البحر الطويل، وللشاعر يحيى بن الحكم الغزال من البحر نفسه متغزلاً، يقول: [من الطويل]

ولا والهوى ماآلألف زار على النوى   يجوب إلى الليل في البلد القفر [4]
ولكنه طيفٌ أقام مثالهُ   لعيني في نومي خواطر من فكري

ويعزز ما ذهبنا إليه ما يراه د. محمد غنيمي هلال، يقول: ((والحق أن القدماء من العرب لم يتخذوا لكل موضوع من هذه الموضوعات وزناً خاصاً أو بحراً خاصاً من بحور الشعر القديمة، فكانوا يمدحون ويفاخرون ويتغازلون في كل بحور

---

(1) الأسس الجمالية في النقد الأدبي، د. عز الدين إسماعيل: ٣٧٧ – ٣٧٨ (دار الفكر – القاهرة، ١٩٧٤) .
(2) الأسس الجمالية في النقد الأدبي: ٣٧٧ - ٣٧٨.
(3) العقد الفريد، ٤: ٤٩٥، شرح وضبط أحمد أمين وجماعة ط٣، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٢ .
(4) ديوان يحيى بن الحكم الغزال: ١٩٢ .

الشعر القديمة، وتكاد تتفق المعلقات في موضوعها وقد نظمت من الطويل والبسيط والخفيف والوافر والكامل ... والأمر بعد ذلك للشاعر)) [١] .

وأرى أن القدماء قالوا ؛ إن لكل معنى لفظاً يليق به، ولم يقولوا إن لكل معنىً وزناً يليق به، ذلك أن ((دراسة الارتباط بين الوزن الشعري وبين المعنى لا يمكن أن تضبط كما تضبط مباحث الفيزياء، لأن الأصوات متى أصبحت رموزاً دالة على معانٍ فقد أصبح من المتعذر فصلها عن معانيها ومن ثم قياس كل منهما على حدة إن كان من الممكن قياس المعاني)) [٢] .

وضرورة الوزن، كما ذهب الشاعر العراقي معروف الرصافي تتأتى من أنه وليد الغناء وقرينه ويكون مطابقاً لما فيه من ألحان وإيقاع، وعنده أن الرجز هو أبسط أوزان الشعر وهو أول مولود من الشعر وأقدمه، ولم يكن للعرب إلا لونان من الشعر وإن الشعر عندهم كان يسمى بـ(الرجز والقصيد)[٣] .

ويرى (أدجار آلن بو (أن لموسيقى الألفاظ مقدرة على التعبير عمَّا لا تستطيع المعاني أن تعبِّر عنه ولها طاقة إيحائية عالية في الشعر خاصة [٤] .

وبما أن دراستنا تبحث في شعر المعارك الجهادية البحرية فلا بدَّ إذن من حاجة موسيقاه إلى وزن وعقد قافيةٍ تتآلف فيهما العواطف والأحاسيس في ضرب من التناغم الصوتي أي بتوافق الأوزان والقوافي بما يسمو على غيره من أنماط الأغراض الأخرى فلصدق المشاعر وحرارة العواطف أثرٌ في اختراع توافق كهذا.

---

(١) النقد الأدبي الحديث: ٤٤١ .

(٢) موسيقى الشعر العربي، د. شكري محمد عياد: ١٤٦ .

(٣) ينظر: الأدب الرفيع في ميزان الشعر وقوافيه، معروف الرصافي، قدم له وعلق عليه: كمال إبراهيم ومصطفى جواد: ١١-١٢، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٥٦.

(٤) ينظر: النقد الأدبي الحديث: ٤٤٦ .

ويظهر الجدول رقم (٢) تعامل شاعر البحرية الأندلسية في موضوع الأوزان والقـوافي وعدد الأبيات والوحدات الشعرية والنسب المئوية لكل منها، وقبل البـدء بتحليـل محتويـات الجدول لابد من تقديم، أقول فيه:

ذكرنـا في دراسـتنا أن شـعر البحريـة الأندلـسية لم يـستقل عـلى شـكل قـصائد أو مقطوعات أو نتف أو أبيات يتيمة، وإنما جاء متناثراً في أثناء قصائد المديح والوصـف والرثـاء، وهذا ما ذهب إليه الدكتور نوري حمـودي القيـسي بقولـه: ((والـشعراء الـذين وصـلت إلينـا أشعارهم وهي مقطعات أو أبيات تؤكد أنها أجزاء من قصائد ومقـاطع مـن صـورة وجدانيـة متكاملة وخفقة من خفقـات موقـفٌ لـه وشـائح واضـحة تـتجلى حركتهـا في طبيعـة الأبيـات وصلتها من خلال الحديث التفصيلي، وطبيعـة التنـاول الـذي يقدمـه الـشاعر ومـا يثـيره مـن مواقف)) [١] .

وقد جمعنا المتناثر هذا من دواويـن الـشعراء ومـن مـصادر البحـث ومراجعـه، لـذا سُمِيَّتْ الأبيات الشعرية التي تتـآلف مـن سـبعة أبيـات وأكـثر [٢]، وجـاءت في ضـمن قـصائد المديح وغيرها، والأبيات التي تقل عن ذلك والنتف التـي تتـألف مـن بيتـين أو البيـت اليتـيم بـ(وحدات شعرية(من الناحية الشكلية وليس من الناحية الفنية.

---

[١] الشعر في ركاب المعارك التاريخية، د. نوري حمودي القيـسي: ١١٦، دراسـات للأجيـال، عـدد ٢، سـنة ٦ تمـوز ١٩٨٦ .

[٢] ينظر: العمدة: ١٨٨/١ .

جدول (٢)

شعر البحرية الإسلامية في الأندلس بحسب الوزن والقافية وعدد الأبيات

الوزن / القافية	الطويل	الكامل	البسيط	الوافر	المنسرح	الخفيف	المتقارب	السريع	الرجز	الرمل	المجتث	المديد	مخلع البسيط	مجزوء الرمل	المجموع
الهمزة	٤	١٤		٣٢		٣									٥٣
الألف	٦	٢													٨
الباء	٣٩	٢٣	٢٤	٥						٨	٤				١٠٣
التاء	٦	٢	١	١			٣								١٣
الجيم	٣	٤	٢												٩
الحاء	٢٢	٢		٥				٧							٣٦
الخاء		٥													٥
الدال	٥٥	٢٦	١١				٥	٢	القافية غير موجودة (٢١)						٩٩
الراء	٨٧	٣٦	٣٧	٩		٤							٧		١٨٠
الزاي		٤													٤
السين	١٠		٧		٢										١٩
الضاد		٢													٢
الطاء		٢	١	٣											٦
العين	٩	١٠	٢	٢											٢٣
الفاء	١٤		٢												١٦
القاف		١٥						٧							٢٢
اللام	٣٩	١٣	٢٠									٨		٦	١٠٤
الميم	٣٩	١٧	٢	٢		٤	٤								٣٦٨
النون	٧	١٥	٣				٨	٧		٣					٥٣
الهاء		٧	٤	٣			٢							٤	٢١
الياء		٥		٦	٢										١٣
المجموع	٣٤٠	٢٢٢	١٢٦	٦٥	٤	١٦	١٩	٢١	٢١	١١	٥	٨	١١	٦	٨٧٥

جدول (٣)

شعر البحرية الإسلامية في الأندلس بحسب الوزن والقافية وعدد الوحدات

الوزن / القافية	الطويل	الكامل	البسيط	الوافر	المنسرح	الخفيف	المتقارب	السريع	الرجز	الرمل	المجتث	المديد	مخلع البسيط	مجزوء الرمل	المجموع
الهمزة	٢	٦		٣		٣									١٤
الألف	٦	٢													٨
الباء	١١	٦	٦	٢						١	٢				٢٨
التاء	٢	١	١	١			١								٦
الجيم	١	١	٢												٤
الحاء	٤	١		١				١							٧
الخاء		١													١
الدال	٢	٦	٣			١	١								١٣
الراء	٢٣	١٠	٧	٣		١			(٤) القافية غير موجودة				١		٤٥
الزاي		٤													١
السين	٢		١		١										٤
الضاد		١													١
الطاء		١	١												٢
العين	٢	٢	١	١											٦
الفاء	٥		١												٦
القاف		٢						٣							٥
اللام	٨	٤	٧									١		١	٢١
الميم	١٠	١	١	١		١	١								١٥
النون	٢	٥		٢			١	١		١					١٢
الهاء		٢	٢	١			١				١		١		٨
الياء		٢		١	١										٤
المجموع	٨٠	٥٥	٣٣	١٦	٢	٦	٥	٥	٤	٢	٣	١	٢	١	٢١٥

توزعت الوحدات الشعرية لشعر البحرية الأندلسية على أربعة عشر وزناً*، وأظهر الجدول نسبة كل بحر إلى مجموع ما جمعناه من شعر في دراستنا، والبحور، وما نظم في كل منها هي:

١- ما يسمى بالبحور القومية وهي أربعة، احتل البحر الطويل المرتبة الأولى وجاء في (٨٠) وحدة شعرية بواقع (٣٤٠) بيتاً من مجموع الأبيات الكلي (٨٧٥) بيتاً، وجاء في المرتبة الثانية البحر الكامل في (٥٥) وحدة شعرية بواقع (٢٢٢) بيتاً، وجاء في المرتبة الثالثة البحر البسيط بواقع (٣٣) وحدة شعرية في (١٢٦) بيتاً، أما الوافر فقد احتل المرتبة الرابعة بواقع (١٦) وحدة شعرية في (٦٥) بيتاً.

٢- الأوزان الأخرى، وهي عشرة أوزان، احتل البحر السريع والرجز المرتبة الأولى بعد الأوزان القومية المذكورة في (١) وجاءا في المرتبة الخامسة بالنسبة لمجموع الأوزان في (٦) وحدات شعرية، بواقع (٢١) بيتاً، تلاهما البحر المتقارب بواقع (١٩) بيتاً من الشعر، ثم البحر الخفيف بواقع (١٦) بيتاً من الشعر .

٣- أما بقية الأوزان فجاءت على التوالي: الرمل، ومخلع البسيط، والمديد، ومجزوء الرمل، والمجتث، وأخيراً المنسرح، إذ تراوح عدد أبياتها ما بين (١١-٤) تنازلياً .

٤- أظهر الجدول النسب المئوية للأوزان الشعرية، إذ أحتل البحر الطويل النسبة الأولى ومقدارها (٣٨.٩%) جاء من بعده البحر الكامل بنسبة مقدارها (٢٥.٤%) واحتل البسيط نسبة (١٤.٤%) أما الوافر فقد احتل الرابعة إذ حقق نسبة مقدارها (٧.٤%) . أما الأوزان الأخرى فقد حققت نسباً متدنية قياساً بالأوزان

* وإن كانت هذه الأوزان ليست جميعها لوحدات شعرية مستقلة في شعر البحرية الإسلامية في الأندلس، لكن ضرورة البحث اقتضت وضع الجداول وتحليلها استكمالاً للموضوع.

القومية ((فكانت نسبة البحر السريع والرجز (٢.٤%)، وتأتي بقية البحور بنسب أقل وصولاً إلى المنسرح بنسبة (٠.٤٦%).

٥- لم أعثر في شعر الموشحات الأندلسية على وحدة شعرية في موضوع الجهاد البحري الأندلسي، وإن ذكر (البحر(فَذِكْرُ لا يَمُتُّ إلى الدراسة بصلة كما جاء في موشحة للأعمى التطيلي في وصف من يُحِب، يقول:

كـــــالطوْدِ في جَلاَلـــــــــهْ	**كـــــالبحرِ في أشرافِ بُنــــــــودْ** [1]

وفي موشحة أخرى يذكر البحر يقول:

وَمُزْمـــــــــــعٌ لِلـــــــــــسَّفرِ	**لم يـــــرضَ غــــيري مُستَــــشارْ** [2]
فقـــــال تـــــدري ســــــفري	**هُــــمْ عـــلى البَحـــــرِ بحـــــارْ**

ومن موشحة لابن الخطيب ذكر البحر ونوعاً من السفن (الشواني) يقول:

كــم مــن ســنا هــلال بأفقــه انجــلى	**أنحــى عـلى الـضلال فانجـاب وانجـلى** [3]
جنـــــــى النعـــــــيم دان	**والبحـــــــــر والعـــــــــذير**
أهلَّـــــــــه الـــــــــشواني	**في أفقـــــــــه نـــــــــسيرْ**

---

[1] ديوان الأعمى التطيلي: ٢٧٦ .

[2] المصدر نفسه: ٢٧٣ .

[3] ديوان ابن الخطيب: ٧٨٧/٢ .

٦- لم أعثر على وحدات شعرية في موضوع دراستنا لشاعرات الأندلس .

وأرى أن نسبة نظم شعراء البحرية الأندلسية في البحور القومية يعود إلى ما ذهب إليه الدكتور أحمد نصيف الجنابي: من أن ((مظاهر الواقعية في شعر الفروسية تناسب الموسيقى تفاصيله ودقائقه فالموقف الهادئ تكون موسيقاه الداخلية ذات مقاطع طويلة، والموقف المذهل الذي يستدعي السرعة تكون موسيقاه الداخلية سريعة وذات مقاطع قصيرة، والموقف الذي يستدعي القوة والبأس والشدة تكون موسيقاه قوية وذات نبرات رنانة)) [١] .

وليس معنى ذلك أن لكل معنى وزناً خاصاً به – وقد فصلنا القول في هذا الموضوع – ولأن موضوع دراستنا –البحرية الإسلامية في الأندلس– يأتي ضمناً وبنسب كبيرة من وحداته الشعرية في قصائد المدح، وبما أن شعر المديح ليس من الموضوعات التي تنفعل لها النفوس وتضطرب لها القلوب فأجدر به أن يكون في قصائد وبحور كثيرة المقاطع كالطويل والبسيط والكامل، ومثل هذه الأوزان تسمى بالأوزان القومية لكونها كثيرة الشيوع مألوفة [٢] .

ومع خصوصية غرض المديح فقد وفق شاعر البحرية الأندلسية في الانتقال إلى وصف المعارك الحربية البحرية والسفن والأساطيل والبحر وطغيانه وكأنه انتقال من رحلة السفر إلى غرض القصيدة في الموروث النقدي، لما لمعارك الجهاد هذه من علاقة روحية بالممدوح أولاً، وما لتأثير بيئة الأندلس البحرية في مكونات الشاعر الفكرية والنفسية والاجتماعية ثانياً، نلمس هذا واضحاً في نصٍ لابن فركون وإن

---

[١] السمات الفنية لشعر البطولة العربية: ٢٠، مجلة دراسات الأجيال .

[٢] ينظر: موسيقى الشعر، د. إبراهيم أنيس: ١٧٨، مكتبة الأنجلو الأمريكية، ط١، ١٩٧٢.

يبدو طويلاً إلاّ أنه يصور لنا منهج الشاعر الأندلسي في الانتقال من المدح ووصف الرحلة إلى وصف المعارك البحرية وأدواتها يقول [1]: [من الطويل]

تجلى صباح الفتح من جبل الفتح ... فهنئتها بُشرى تجِلُّ عن الشرح [2]
هو الصنع صُنع الله حياك أفقه ... بوكاف [3] غيثٍ طالما ضنَّ بالنصحِ
فبشرى بهذا الصنع يا ملك الهُدى ... وهنئت هذا الفتح يا جبل الفتح
لك الدولة العليا عليٌّ معزها ... بها الذي أعلت يد البغي من صرحِ

فيا ملكاً يستقبل النصر عزمه ... وما الفجر إلا أن يُدل على صُبح

وينتقل إلى الأسطول، وكان موفقاً في الانتقال إلى غرض القصيدة من دون الرجوع إلى تقليد الموروث بصيغة (دع ذا أو دع عنك) .

وأرسلت فوقَ البحرِ أجفانك التي ... بِها حركات الرفع تبنى على الفتح
سوابح تغني حين تجنحُ للعدى ... بأجنحة النصر العزيز عن السّبحِ

---

[1] يمدح الأمير أبا الحسن معز الدولة علي أخو الملك يوسف الثالث ملك غرناطة بدخوله جبل الفتح عام ٨١٧ هـ.

[2] ديوان ابن فركون: ١٨٠ .

[3] الواكف: المطر المنهمر، المعجم الوسيط: ١٠٦٧/٢ .

وقـد كـسِيتْ مـن دامِـسِ القـار صـبغةً ... كـما التفـت الرُّهبـانُ في خلـق المـسح [1]
يبـــدد شـــمل المعتـــدين اجتماعهـــا ... فـــذاك إلى صـــدع وتلـــك إلى صـــدحِ
وفي مجمـــع البحـــرين قـــومٌ تمتعـــوا ... زمانـــاً ونـــارُ البغـــي مـــشبوبة اللفـــح

ويستمر في وصف أجواء المعركة ووصف شجاعة الجنود في قوله:

لقـــد طـــرقتهم في منـــازل طـــارقٍ ... كتائـــب لا تنجـــي ولكنهـــا تنحـــي
فـــألقوا يـــد التـــسليم طوعـــاً ولم يكـــن ... لينقـــاد بـــاغيهم إلى الـــسلم والـــصلح

وبعد وصف العدو واستسلامه يقول في الحرب:

لقـد كـشفت عـن ساقِها الحـرب وانثنـت ... كـما صـدرت بلقـيس عـن لجـةِ الـصَّرح

ويذكر جهاد المسلمين وما بشر اللـه به من جزاء:

وكـم مـن جهـاد مجهـدٍ نفـسه التـي ... متاجرهـــا في اللـــهناميـــة الـــربح

---

[1] المِسح: جمع أمساح ومسوح: الكساء من شعر، أو ما يلبس من نسيج الشعر على البدن تقشفاً وقهراً للجسد، المنجد: ٧٦٠ .

ثم يختتم بالمديح أيضاً يقول:

علـى أننـي قـصرتُ في وصـفك الـذي هـو البحـر لا يفنـى عـلى كـثرة المـتحِ
إذا اللــه قـد أثنـى عليـك فـما الـذي يوفيــه عبــدٌ مــن عبيــدك بالمــدح

نلمس أن الشاعر أراد تجسيد فكرة مقاومة المسلمين لأسطول العدو فجاءت ألفاظه قوية معبرة توحي برباطة الجأش والمقاومة البطولية التي تحـلى بهـا القائـد الأمـير مـستهدفاً العدو، مكبراً روح الجهاد، أما منهجه في تسلسل معاني القصيدة فجاء منساباً متـدرجاً منطقيـاً خلُص إلى وصف المعركة بعد مدح لا يخلـو مـن إشـارة إلى معـاني الجهـاد والمقاومـة معتمـداً البحر الطويل لمناسبته للغرض .

والأوزان القومية بما تتيحه لـشاعر البحريـة الأندلـسية مـن جدِّيـة وحماسـة ورزانـة ودعوة إلى الجهاد، توفر له أيضاً تناغماً موسيقياً بإيقـاع مـؤثر يخـدم الهـدف الإيمـاني، لتعـدد معاني صور البطولة والتضحية والكفاح، فما كان من الشاعر سواء أكان جندياً مقاتلاً أم متأثراً بانتصارات المسلمين إلا أن طوّع تلك الإيقاعات الموسيقية بما يتلاءم مع الحالة الشعورية التي صاحبت نظـم قـصيدته في وحـدة نغميـة موضـوعية عاشـها الـشاعر مجاهـداً ليـستميل بهـا المجاهدين في مشهد حربي بحري يتمثل عفوياً في بحر من البحور القومية وهي:

١- البحر الطويل:

استأثر نفوس الشعراء لمنزلته في أنه من أكـثر البحـور الـشعرية مواءمـة لعديـدٍ مـن المعاني والأفكار إذ يتكون من تفعيلتين متعـاقبتين (فعـولن مفـاعيلن) ولتكـرارهما في الـشطر الواحد على نسق خاص يفضي إلى مجال أرحب في استيعاب تجربة الشاعر

التي تحتاج إلى نوع من الإطالة، لهذا استأثر أغلب الشعر العربي [1]، فضلاً عن أن تفعيلاته تلك تقود إلى نهايات معتدلة الأنغام وكأن بعضها يتولد من بعضها الآخر.

وقد أفاد ابن فركون في النص السابق من تفعيلات البحر الطويل في وصف إحدى المعارك البحرية وأدواتها:

ولابن المنخل الشلبي في وصف إحدى المعارك وإظهار مقاومة الجيش الموحدي للأسبان يقول: [من الطويل]

فتحتم بلاد الشرق فاعتمدوا الغربا	**فإنَّ نسيم النصر بالفتح قد هبا** [2]
أصرتم إليه الخيل وهي أجادلٌ	**فسالت بكم بحراً وطارت بكم ركبا**
ودستم بها هامات كل مضللٍ	**ولم تتركوا عجماً هناك ولا عُربا**
رميتم بها مثل السِّهام فأصبحت	**كماتهُمُ صرعى وأموالهم نهبا**

لقد أفاد الشاعر من تفعيلات بحر الطويل بما له من طاقة استيعابية وإيقاعات متميزة جعلته يتسع لأفكار ومعاني نصر المسلمين في المعركة هذه وبما تهيأ من قافية الباء وألف الإطلاق من ترجيع موسيقي .

وليس إلا البحر الطويل لابن هذيل (٣٨٩هـ) في معانٍ جزلة ومشاهد مرعبة مفرحة في آن واحد وهو يصور السفن كأنها تجري بيد الغيب لتحصد النصر، يقول:

[من الطويل]

(١) ينظر: موسيقى الشعر: ١٣ .
(٢) تاريخ المن بالإمامة: ١٤٢ .

وتلــــك الأســـــاطيل المــــسخرة التــــي تمـــــرُّ بتأييـــــد وتغـــــزو فتغـــــنم [1]
إذا مخـــرت في البحـــر ماجـــت كأنمـــا تخاصـــم أبنـــاء الظـــلال فتخـــصم
وصــفت كــأن البحــر تحــت صــدورها قـــد اســـتأسرت أمواجـــه فهـــو أبكـــم
وقامـــــت ســـــتارات عــــلى جنباتهـــا طـــوال كـــما امتـــد الـــسحاب المـــركم

صورة أساطيل مسخرة للحرب تقهر البحر وتأسر أمواجه، وما للمعاني الضخمة هـذه والجلبة في إرهاب أسطول العدو ألا البحر الطويل .

٢ - البحر الكامل:

ويأتي الكامل كما أظهر تحليل الجدول في المرتبة الثانية من حيـث الأهميـة في شـعر البحرية الأندلـسية، ومرتبتـه هـذه في الـشعر العـربي أيـضاً، وهـو مـن الأوزان ذات المـساحة الإيقاعية الواسعة فهو بحر الجلالة والفخامة لبنائه على وحدة مفردة (متفاعلن) منحته لونـاً موسيقياً خاصاً، وجزالة هذا البحر وفخامته وكثرة الحركات في تفعيلاته[2] جعلته يتوافـق ومـا يتطلبه شعر المعارك الجهادية .

وأفاد ابن اللبانة من جلجلة الكامل مفتخراً وهو يصف أسطول المسلمين الأندلسيين يجوب شواطئ ايطاليا وفرنسا مظهراً قوة الأسطول وهيبة جنوده واكتمال عدته، فكان البحـر الكامل مناسباً لمناسبة كهذه يقول: [من الكامل]

---

(١) كتاب التشبيهات: ١٧٢ .
(٢) ينظر: المرشد الى فهم أشعار العرب وصناعتها، عبد الـلـه الطيب: ١١٤، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٩٧٠ .

طـــارت بنـــات المـــاء فيـــه وريـــشها ريـشُ الغـراب وغـير ذلـك شـوذق [1]
وعـــــلى الخلــــيج كتيبـــة جـــرارة مثـــلُ الخلـــيج كلاهـــما يتـــدفق

وقد طوع البحر الكامل روي القاف وأضـفت عليـه حركـة المـد الـضمة نوعـاًً مـن الفخامة بجرس ظاهر جعلته أكثر ملاءمة لغرض الشاعر .

وقد ألبس البحر الكامل في نـص لعـلي بـن محمـد الأيـادي الألفـاظ والمعنـى منظـراً حسناً، ومن جلاله منح الأسطول فخامة وقوةً بتأثير إيقاعاته المتوحدة المتلاحقة، يقول:

[من الكامل]

اعجـــب بإســـطول الإمـــام محمـــد وبحـــسنه وزمانـــه المـــستغرب [2]
لبـــست بـــه الأمـــواج أحـــسن منظـــر يبـــدو لعـــين النـــاظر المتعجـــب

٣ - البحر البسيط:

يمثل البحر هذا المساحة الثالثة من حيث عدد الوحدات الـشعرية في شـعر البحريـة الأندلسية وعدد الأبيات والبحر البسيط والطويل من أطول البحور الـشعرية، ويـشتمل عـلى تشكيلات موسيقية تؤهله لاستيعاب معانٍ متعددة وله في غرض المديح خـصوصية معينـة إذ أن ((صناعة المديح يكون تعلمها في الأعاريض الطويلة، لا في

---

(١) شعر ابن اللبانة الدايني: ٧٢، (تح: محمد مجيد السعيد) .
(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: مج٢: ٥٠٥/١ .

القصيرة لذلك رفض المتأخرون الأعاريض القصار التي كانت تستعمل فيها وفي غيرها من صنائع الشعر ... وأخص الأوزان بها هو الوزن البسيط)) [1] .

لابن عياش القرطبي في البحر البسيط من قصيدة خلّد فيها مقاومة الأسطول الموحدي بقيادة عبد المؤمن بن علي الذي واجه الأسبان وحقق انتصاراً رائعاً في القضاء على محاولاتهم النيل من أسطول المسلمين . يقول: [من البسيط]

ملكٌ إذا ما دعته الحرب من بعد ... طار السفين أمام الجحفل اللجب [2]
ما بين مخضرة الأقطار نازحةً ... وأخضرٍ في غمار الريح مضطرب
والجيش تختطف الأرواح راحَته ... من سابقٍ زبدٍ أو عائمٍ درب

وابن زمرك في معانٍ عظيمة وكريمة وجليلة كان البسيط إطاراً خارجياً لنصٍ يقول فيه: [من البسيط]

هذي المعالم لفظٌ أنت معناه ... كلٌ يقول إذا استنطقته الله [3]
بحر الوجود وفلك الكون جارية ... وباسمك الله مجراها ومرساها

وقد وفق الشاعر في اقتباس معانيه من القرآن بإيقاعات مقطعية تخضع لهندسةٍ موسيقية تدعوك الى أن تتوقف إيقاعياً في الشطر الأول عند (لفظ) ثم تكمل

---

(1) فن الشعر، أرسطو طاليس، ترجمة وشرح وتحقيق: د. عبد الرحمن بدوي: ٢٠٨، دار الثقافة، بيروت- لبنان، ط٢، ١٩٧٣.
(2) تاريخ المن بالإمامة: ١٥٥ .
(3) ديوان ابن زمرك: ٥٠٦ .

ثم تتوقف عند (معناه) ثم تكمل الشطر الثاني بوحدته الموسيقية الى نهايته، وقد زان التقطيع الموسيقي هذا رويَّ الهاء هيبة وجمالاً .

٤ - البحر الوافر:

احتل الوافر المرتبة الرابعة في تسلسل البحور القومية في الشعر الأندلسي، شأنه شأن مرتبته في الموروث العربي، إلا أن نسبته كما أظهرها الجدول كانت متدينة قياساً الى نسب الأوزان القومية التي تقدمته إذ كانت (٧.٤%) تناولته الدراسة في (٦٥٠) بيتاً تقريباً، منه لابن الابار يُخلد توجه الأسطول العربي لنجدة بلنسية، يقول:

[من الوافر]

جواري منشآت في تبار — إلى الفوز العظيم بما تشاءُ [1]
وجرد مقربات أيدتها — على من غُلت في الأرض السما

تدمرهم رياحٌ ليس منها — وقد هبت بأعصاف رخاءُ
كتائب لا يُحيط بها كتاب — يضيق برحبه عنها الفضاء
إذا نزلت بساحات الأعادي — صباحاً لم تلبثها الضحاء

وقد أفاد ابن الابار من بحر الوافر الموحد التفعيلة (مفاعلتن) ليستجيب لابداعه الشعري في تجسيد استجابة الممدوح لنداء أهل بلنسية في جهادهم لمقاومة الأعداء بصور دقيقة في وصف الأسطول بحركة موحية حشَدَ لها ألفاظاً تبعث الرهبة،

---

(١) ديوان ابن الابار: ٤٩ .

وتمثل عظمة الأسطول الذي لا يحيط به وصف ويضيق بـه الفـضاء وسـاعدته تفعيلـة البحـر الوافر في تطويع الإيقاعات الموسيقية بما يتناسب ووصف الأهوال وتسجيل الانتصارات .

أما بقية البحور الـشعرية فقـد عمـدنا في دراسـتنا الى تعريـف كـل وحـدة شـعرية، وحتى البيت الواحد وأن تكرر بالوزن المناسب .

لقد رصدت الدراسة من خـلال الجـدول رقـم (٣) هيكـل شـعر البحريـة الأندلـسية متمثلاً بالوزن والقافية كإطار خارجي فقـط، إذ مـن العـسير دراسـة موسـيقى الـشعر خـارج النص إلا من خلال الجداول الرقمية هذه .

والحق أن المعنى الذي يريده الـشاعر ومـا يعتمـل في الـذهن يولـد نظـماً في أجـواء موسيقية ولادة واحدة، بعيدة عن لغة العقل وتحديداته، ولا يترك له مخاض التجربـة فرصـة للتفكير إلا في ولادة النص .

وأرى أن حماسة ابن حمديس وحبه لوطنه وزهوه بانتصار أسـطول المـسلمين بتلـك الصور الرائعة من الكفاح الباسل والبطولة الصادقة هي التي دفعته الى أن يخلع عليها أصـالة فنه وشاعريته، غير ملتفت لوزن أو قافية، فكان تصويراً بلغ حدَّ الكمال، يقول بعد مدح:

[من الوافر]

وخـــافوا مـــن منايـــاهم وفـــروا　　　فـــدافع عـــن نفوســـهم الفـــرار [(١)]
وقـــد جعلـــوا لهـــم شرع الـــشواني　　　مـــع الأرواح أجنحـــةً وطـــاروا

[(١)] ديوان ابن حمديس: ٢٣٨ .

وكما ذكرنا فإن انتصار اسطول المسلمين وحب الشاعر هما من دفعه وبعفوية الى (وخافوا من مناياهم (وما أجمله في (وفروا) في بحر الوافر (فدافع عن نفوسهم الفرار)، فكما أن الشاعر انثالت عليه العبارات التي تحمل معنى الهزيمة (فروا، الفرار) بصورة عفوية فإنه لم يفكر كذلك بالأتيان بالبحر الوافر ليضم في داخله (الفرار) هذا وهل الشعراء قبل الخليل الفراهيدي، كانوا يدركون أن البحر هذا مناسب للمعنى هذا ويأتون به ؟ أم أنها العفوية ؟ وهل التزمت الخنساء بحراً واحداً في ديوان الرثاء ؟ .

ولا أرى الشاعر وقف طويلاً ليختار [البحر الطويل] في:

وقـــد ركبـــتْ فرســـانها صـــهواتها　　　فـــأرجلهم عنهـــا التـــذلل والـــذعر [(١)]

بالتناغم الصوتي الموسيقي هذا في تعاقب (السين والصاد) في الشطر الأول والمواءمة في اختيار إيقاع نغمي بما صنعته (الذال واللام والراء) في (التذلل والذعر) فلم يقف الشاعر طويلاً في اختيار إطار موسيقي خارجي يضم بين دفتيه إيقاعاً داخلياً نغمياً ينساب موجةً أثر موجةٍ داخل البحر الطويل هذا .

وكذا الحال عند ابن رضوان إذ لم يختر البحر الطويل صناعةً وإنما جاء جزءاً من هندسة صوتية موسيقية وهو ينظر تلدد العدو أمامه بين الساحل والبحر فكان البحر طويلاً، يقول:　　　[من الطويل]

ولمـــا اســـتقامت بالزقـــاق أســـاطلٌ　　　واســـتقلت للـــسعود محـــافلا [(٢)]

رآهـــا عـــدو اللـــه فـــانفض جمعـــه　　　وأبـــصر أمـــواج البحـــار أســـاطلا

---

(١) المصدر نفسه: ٢٥٤ .

(٢) الإحاطة: ٤٤٣/٣ .

ومــن دهــشٍ ظــن الــسواحل أبحــراً   ومــن رعــب خــال البحــار ســواحلا

ذلك أن من أبـسط مـستلزمات قـصيدة الفروسـية سـواء أكانـت في معركـة بريّـة أم بحرية أن تتسم بالنضج وقوة التأثير والمتانة، كـما ذهـب الى ذلـك د. أحمـد نـصيف الجنـابي، يقول: ((أما من حيث البناء الخارجي الكلي للقصيدة ؛ فإن قصيدة الفروسية قـصيدة ناضـجة قوية التركيب قوية البناء لأنها تعبير عن مواقف القوة الصادقة)) [(١)] .

ويردف قائلاً: ((إنَّ الفرسان لم يكونوا يتحدثون عن أحلامهم يتمنون أن تتحقـق إنمـا كانوا يكتبون التأريخ ويصنعون للناس بطولاتهم وحياتهم)) [(٢)] .

ولا أرى أن ابن الخطيب في تصوير وقيعـة حربيـة اشـتبكت فيهـا الـسيوف والرمـاح بمهج الأعداء والأرواح في نص تكامل فيه الأداء التعبيري بالأداء الموسيقي قـد تـرك لـه مـشهد النار الإسلامية وهي تتوهج محرقة العدو ودم الأعـداء مـسفوح تـأسره أمـواج البحـر، فرصـة لاختيار البحر الكامل، يقول:

وقَــدحت فــوق المــاء نــاراً تلتظــي   وســفحت فــوق البحــر بحــراً مــن دم [(٣)]

---

(١) السمات الفنية لشعر البطولة العربية: ٩ .

(٢) المصدر نفسه: ٩ .

(٣) ديوان ابن الخطيب: ٥٣٩/٢ .

ب – القافية:

هي ((شريكة الوزن في الاختصاص بالـشعر ولا يـسمى شـعراً حتـى يكـون لـه وزن وقافية)) [1]، وسميت قافية ((لأنها تقفو إثر كل بيت وهي قافية بمعنى مقفوّة))[2] .

ويستفيد معروف الرصافي من ابن رشيق ؛ بأنها سُميَّت قافيةً لأنها في كل بيت تقفـو – أي تتبع – البيت الذي سبقها بأن تأتي برويٍ مثل رويّهِ ولابدَّ في الكـلام المـوزون مـن قـوافٍ تمثل بتكرارها تلك النغمات المتكررة في الأغاني [3]، وعليه، كما يذكر الرصافي ؛ فـالكلام المـوزون وأن شئت فقل الشعر بلا قافية مخالف للغاية المطلوبة التي لأجلها وجد الشعر وهي الغنـاء [4] .

وتنجلي أهمية القافية في قيمتهـا الموسـيقية واتـصالها بموضـوع القـصيدة بحيـث لا يشعر المرء أن البيت مجلوب من أجل القافية، ويكون معنـى البيـت مبنيـاً عليهـا، ولا يمكـن الاستغناء عنها [5] .

والالتفات الى القافية ليس وليد العصور المتأخرة فمن أوائـل الـشعراء الـذين أشـاروا الى أهميتها ووجوب الانتقاء لفضلها في إكمال موسيقى البيت هو امرؤ القيس[6]، يقول:

[من المتقارب]

---

(1) العمدة: ١٥١/١ .
(2) المصدر نفسه: ١٥٤/١ .
(3) ينظر: الأدب الرفيع في ميزان الشعر وقوافيه: ٨٨ .
(4) ينظر: المصدر نفسه: ٨٩ .
(5) ينظر: النقد الأدبي الحديث: ٤٤٢ .
(6) ينظر: العمدة: ٢٠٠/١ .

أذود القـــــــوافي عنــــــــي ذيـــــــادا ذيــــــاد غـــــلام جـــــريء جــــرادا

فلـــــــما كـــــــثرن وعنينــــــــــه تخـــــير مـــــنهن شـــــتى جيـــــادا

فــــــأعزل مرجانهــــــا جانبـــــــاً وآخــــذ مــــن دُرِّهــــا المـــــستجادا

وأن كانت القوافي عند امرئ القيس تنثال عليه انثيالا فيختار من مرجانها دُرَّها فابن الرومي يقر بأن القوافي لا تسلسل قيادها إلا للشاعر المقتدر وأن يكن بعضها صعب المراس ((وقد اعترف بأن أمر القوافي ليس يسيراً وأنها خاصة في الموضوعات التي يقصد إليها قصداً في أكثر الأحيان وتتعمد فيها الصنعة أكثر كالمديح والهجاء)) [١] .

في هذا يقول ابن الرومي، في مدحة لابن صقر: [من الكامل]

كـــم مـــن قـــوافٍ لا ينـــال وصـــالها قــد أصــبحت ولهــا إليــك توصُّــلُ [٢]

باتــــت معاولهـــا عليـــكَ تقاتـــلُ وغـــدت إليـــك لهـــا إليـــك تقتُّـــل

وينقل الجاحظ من كلام بشر بن المعتمر بخصوص القافية، تأكيده أن تحتل القافية مركزها يقول وإنْ ((القافية لم تحل في مركزها وفي نصابها، ولم تصل بشكلها، وكانت قلقة في مكانها، نافرة من موضعها، فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن والنزول في غير أوطانها)) [٣] .

---

[١] في النقد الأدبي إضاءات وحفريات، د. يوسف بكار: ١٠٤، دار المناهل للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ط١، ١٩٩٥ .

[٢] ديوان ابن الرومي: ٢٠٧٥/٥ .

[٣] البيان والتبيين للجاحظ، تح: عبد السلام هارون: ١٣٨/١، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٣، ١٩٦٨م .

وحرف الروي الذي يبنى عليه الشعر لابدَّ من تكراره في كل بيت [1]، وحدُّ القافية الذي يعدُّهُ ابن رشيق الأرجح [2] هو رأي الخليل، وهو من آخر حرف في البيت الى أول ساكن يليه من قبله مع حركة الحرف الذي قبل الساكن، و((تكون مرة بعض كلمة، ومرة كلمة، ومرة كلمتين)) [3] .

أما ارتباط القوافي بموضوع القصيدة، فما ذكرناه من أن العرب لم يتخذوا لكل موضوع وزناً خاصاً، فإنهم لم يوجدوا قاعدة تربط حروف القوافي بموضوع القصيدة، إلا أن الدكتور محمد غنيمي هلال يلحظ (أن القاف قد تجود في الشدة والحرب والدال في الفخر والحماسة والميم واللام في الوصف والخبر، والباء والراء في الغزل والنسيب)[4] ويرى أن ذلك هو قولٌ أجمالي إذا صح من باب التغليب فلا يصح من باب الإطلاق [5] .

والقافية في شعر البحرية الأندلسية شأنها شأن القافية في الموروث الشعري العربي تأتي مقيدة وهي التي يكون حرف رويها ساكناً وجاءت بقلةٍ ذلك أن شيوعها في الشعر العربي كان قليلاً [6] ومن القافية هذه قول الشاعر ابن خفاجة: [من السريع]

وأيــــن مــــن بحــــر طمــــى أخــــضر   مـا سـال مـن أوشـال بـيض الـصفاح [7]

---

[1] ينظر: الكافي في العروض والقوافي، للخطيب التبريزي، تح: الحساني حسين عبد اللـه: ١٤٦، مكتبة الخانجة، القاهرة، ١٩٧٧ .

[2] ينظر: العمدة: ١٥٢/١ .

[3] المصدر نفسه: ١٥١/١ .

[4] النقد الأدبي الحديث: ٢٤٣ .

[5] ينظر، المصدر نفسه: ٢٤٣ .

[6] ينظر: كتاب الكافي في العروض والقوافي: ١٤٢ .

[7] ديوان ابن خفاجة: ١٦٧ .

وله أيضاً يقول: [من المتقارب]

ألا طـــــــم بحـــــــرُ أتي طـــــــما وجـــد انكفـــاء ســـماءٍ تجـــود [1]

فـــأهوت تخـــر هنـــاك البنـــى كـــما تتلقـــى الملـــوك الوفـــود

وتأتي مطلقة وهي القافية التي يكون حرف رويها متحركاً [2] . وهي في جميع شعر البحرية الأندلسية الذي اخترناه في دراستنا فيما عدا المذكور في القافية المقيدة، وقد توزعت على (٢١) حرف روي بواقع (٢١٥) وحدة شعرية، ومن خلال الجدول رقم ٣ يتبين أستعمال شعر البحرية الأندلسية القافية من حيث شيوع حروف من دون غيرها ونسبة الشائع منها .

وقد شكل حرف الراء المرتبة الأولى فكان روياً لـ (٤٥) وحدة شعرية بنسبة (٢٠.٩%) تلاه روي الباء بـ(٢٨) وحدة شعرية وبنسبة (١٣%) وجاء روي اللام بـ(٢١) وحدة شعرية بنسبة (١٠%) بعده روي الميم بـ(١٥) وحدة شعرية بنسبة (٧%) * .

وأظهر الجدول بقية الروي وبشكل تنازلي من روي الدال بنسبة (٦%) وحتى روي الضاد بنسبة (٠.٢%).

---

(١) المصدر نفسه: ٣٠٨ .

(٢) ينظر: كتاب الكافي في العروض والقوافي: ٢٤٣ .

* جاءت النسب المذكورة بحسب الوحدات الشعرية وليس بحسب عدد الأبيات، وربما يأتي عدد الأبيات في بعض الروي أكثر من عدد الوحدات فأهملنا ذلك .

ولم نطلع على روي بحرف من الحروف غير المذكورة فيما توافر لدينا من المصادر والمراجع التي اعتمدتها الدراسة .

أما الحروف التي لم تستعمل روياً في شعر البحرية الأندلسية من مختاراتنا فهي حروف: الثاء، والذال، والشين، والصاد، والظاء، والغين، والكاف، والواو، وأرى أن إهمال هذه الحروف جاء متوافقاً والموروث الشعري العربي.

أما حروف الروي التي انتظمت شعر البحرية الأندلسية فهي معظم الحروف التي انتظمت شعر المعارك البرية والبحرية الجهادية، ومن أكثره استعمالاً كما أظهر الجدول رقم (٣)، هي الراء والباء واللام والميم، وقد عززت حروف الروي هذه نصوصهم الشعرية بإيقاعات مؤثرة تنسجم وطبيعة الحدث، وقد منحت النص، فضلاً عن قيمته التعبيرية قيمة موسيقية، عبرت عن الحالة الشعورية للشاعر الأندلسي مجاهداً أو متأثراً بانتصارات البحرية الأندلسية، ذلك أن حرف الروي يمثل وحدة صوتية تتكرر في آخر الأبيات، لتشكل بناء القصيدة التي تنسب إلى هذا الحرف[١] .

أظهر الجدول أن روي (الراء) شكل المستوى الأول في شعر البحرية الأندلسية لما يشكله وروي (الباء واللام والميم) من رنين موسيقى يتناسب وإثارة حماسة المجاهدين في مقاومتهم الأسبان .

---

[١] ينظر: ميزان الذهب في صناعة شعر العرب، أحمد الهاشمي: ١١٤ (منشورات المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ط١١، ١٩٥١) .

أكثر الشعراء من روي (الراء) لما ينماز به مـن مواصـفات ذكرناهـا جعلتـه في ضـمن الحروف المجهورة [1]، ومن الشعراء اللذين أتخـذوها رويـاً ابـن فركـون مادحـاً ملـك غرناطـة يوسف الثالث، يقول: [من الطويل]

هنيئـــاً فقـــد وافـــت إليـــك البـــشائرُ وعـــزت لأنـــصار النبـــي عـــشائرُ

إلى أن يقول:

وأرســلت في البحــر الأســاطيل نزعــاً تــراوح أقطــار العــدى وتبــاكرُ [2]
يــــراوغ بعــــضٌ بعــــضها متلاعبــــاً كــما لعبــت وســط الفــلاة جــآذرُ
وقـــد جللوهـــا بالـــسواد كأنمـــا مجاذفهـــا هـــدب وهـــن نـــواظرُ
ويطفـــو حبـــابُ المـــاءِ في جنباتهـــا كــما فتحــت وســط الريــاضِ الأزاهــرُ
فللـــه منهـــا منـــشآت إذا رســـت لهــا فلــك بالــسعد والــيمن دائــرُ

ويختم القصيدة، قائلاً

وأهـــدي لبحـــر الجـــود منهـــا قلائـــداً ومــن عجــب للبحــر تهــدى الجــواهرُ

[1] ينظر، جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغـي والنقـدي عنـد العـرب، د. مـاهر مهـدي هـلال : ١٣٦، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٠. وروي الراء والنون واللام من أكثر الأصوات شيوعاً في العربية لما تمتع به مـن إمكانيـة عـلى الانطلاق في الكلام كونها من أصوات (الذلاقة(ينظر، الأداء الأسلوبي في المستوى الصوتي، أدونيس: ٨٩ .
[2] ديوان ابن فركون: ١٩٨، ١٩٩، ٢٠١

نلمس أن القافية المطلقة بروي الراء المجهور مع التصريعٍ (البشائر، عشائر) أعطى البيت ومن ثم النص بعداً موسيقياً عالياً، وزاد حرف المد القصير (الضمة) من تدعيم الجانب الموسيقي بما لها من ضخامة وأبهة تناسب غرض المدح ووصف معارك الجهاد البحرية، فضلاً عن جمالية التأسيس [1] في بناء القافية مما أضفى قدرةً صوتية في استمرارية امتداد الصوت وبما يعطيه هيكل البحر الطويل من قدرة في تراكم الصور والمعاني والأصوات وكما وفق الشاعر في التصريع في مطلع القصيدة فإنه وفق في التصدير في ختامها فجاء بـ (وأهدي لبحر) في الشطر الأول، أعقبها بـ (للبحر تهدي) في الشطر الثاني .

وفق الشاعر بإختيار روي الراء لمناسبة كهذه ولتقوية الجانب الموسيقي استخدم موازنات صوتية من دون تكلف أو تصنع فجاء بقافية مؤسسة، زادها بحرف المد القصير الضمة وما يوحيه من دلالة وجانس القافية بالتصريع، ثم عمد في أثناء النص إلى نوع من التصريف يسمى (الترصيع) وصولاً في البيت الأخير إلى (التصدير) .

وقد خلق التنويع الموسيقي هذا تآلفاً مع القافية وبذلك قوي كل منهما دور الثاني في إثارة مشاعر الحماسة لدى المتلقي وبالهام سحري غريب .

جاء روي (الباء) في المستوى الثاني ومن الشعراء الذين نظموا فيه إسماعيل بن عمر المعروف بالشواش الشبلي [2] (٥٦٩هـ) في مدح الخليفة أبي يعقوب ابن أمير المؤمنين عام (٥٥٨هـ)، يقول: [من الكامل]

---

[1] التأسيس: ألفٌ ملتزمة تقع في لفظة واحدة مع الروي ويفصلهما حرف يعرف بالدخيل لا يلتزم ولكن حركته تلتزم، والردف: حرف لين يسبق الروي مباشرة وهو إما ألف أو واو أو ياء، (ينظر، علم القافية، د. صفاء خلوصي: ٦٧، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٣) .

[2] كان أستاذاً مجيداً في أقراء القرآن والعربية والأدب وكان شاعراً كاتباً، توفي بمراكش سنة ٥٦٩هـ (تاريخ المن بالإمامة، هامش ص ٢٠٢) .

عزمـــات منـــصور العـــزائم غالـــب ضـــمنت فتـــوح مـــشارقٍ ومغـــاربِ[1]

بـــــسوابق كبـــــوارق، ومواكـــــبٍ ككواكـــب وجنائـــبٍ كخبائـــبِ [2]

تلــك الــسيول تغــول مــن تــسطو بــهِ فأطلـــب أمانـــاً مـــن هزبـــر غاضـــبِ

خلــج مــن البحــر الطمــوح هــوت بهــم جياشـــــةً بزواخـــــر وغـــــواربِ

يـــوم العروبـــة اعربـــت فتكائـــه في الكفـــر عـــن فـــتحٍ مبـــينٍ راتـــبِ

جاء الشاعر بروي الراء تبنى عليه القصيدة وكسابقه، جاء بالتصريح في (غالب ومغارب) وفي نوع من التجانس الصوتي في تقسيم البيت الثاني إلى عبارات متوازنة وصولاً إلى نوع من الإيقاع يسمى بالترصيع في (بسوابق كبوارقٍ، ومواكب ككواكبٍ، وجنائب كخبائب) وكان لهذا التوافق الصوتي وقعاً موسيقياً أثار به انتباه السامع، وكان لهذا البيت صوته الخاص الذي لم يتحد مع بقية أصوات الأبيات الأخرى وأفضى بنا إلى الجمال الموسيقي هذا الذي أثار في نفوسنا أندهاشاً وفخراً، وفي نفوس الأعداء تهويلاً ورعباً وبتعاقب وتكرار حرفي (الباء والكاف) إذ كرر حرف الباء ثماني مرات، وحرف الكاف ست مرات، ثم تجانساً لفظياً بتوافق لفظي موسيقي في (السيول تغول) .

وذهب الشاعر إلى التضاد أو الطباق لخلق نوع من التوازن الموسيقي في (مشارقٍ ومغاربِ) .

---

[1] تاريخ المن بالإمامة: ٢٠٢- ٢٠٣ .

[2] الجنائب: جمع جنبة: الناقة، الخبائب: جمع خبية: الحظ من السحاب أو الرمل (تاريخ المن بالإمامة، هامش ص ٢٠٣) .

أما روي اللام فجاء في المرتبة الثالثة ومنها قافية مطلقة مردفة بالألف في أبيات الوحدة جميعها والذي زانها جمالاً مجيء ألف الإطلاق وفيه ((أجمل ما يمكن أن تصل إليه القافية العربية)) (1) .

للشاعر ابن مجاهد الاستجي بمدح الخليفة المستنصر ذاكراً الأسطول البحري الأندلسي: [من الرجز]

والبحـــــر لايهـــــولهم إن هـــــالا ... يمــــشون فيهـــا طرقـــاً إذلالا[2]
قـــد جعلـــوا لظهـــره أجـــلالا ... حتـــى إذا جـــازوا بـــهِ حـــلالا
عـــاين مـــن منظـــرهم أهـــوالا ... قـــد طبقـــوا أقطارهـــا نـــصالا
تخـــال في إجلالهـــا أغـــوالا ... أجبـــالُ مـــوتٍ تحمـــل الأجبـــالا

وجميلٌ أن تكون القافية موصولة بالألف من دون ردف بروي اللام أيضاً وقد أجاد محمد بن شخيص في مدح الحكم المستنصر، يقول: [من الطويل]

بـــسعدك يـــبلى غالـــبٌ لا ببأســـه ... فأنـــت ولي الـــشكر في كـــل مـــا أبـــلى[3]
ولمـــا أحاطـــت بـــالمحيط جنـــوده ... فلـــم تبـــق مـــن شـــطيه علـــواً ولا ســـفلا
أســـاطيل هـــن المـــوت أو في طباعـــهِ ... لإيقاعهـــا بطـــشاً وإتباعهـــا رســـلا

---

(1) ينظر: علم القافية: ٤٨ .

(2) المقتبس في أخبار بلد الأندلس: ١٦٧ .

(3) المقتبس في أخبار بلد الأندلس: ٦١ .

واحتل روي الميم المرتبة الرابعة، ومن أجمل القوافي بروي الميم جاءت مؤسسة وقد أشبعت بحركة الروي الضمة ما جاء في قول ابن دراج وقد ذكرناها سابقاً، ومنها: [من الطويل]

وكم عجزت عنا ذوات قوائمٍ فعجنا بعوجٍ ما لهن قوائمُ[1]
جآجئ غربانٍ تطير لنا بها على مثل أطوادِ الفيافي نعائم
لها من أعاصير الشمالِ إذا هوتْ خوافٍ ومن عصف الجنوب قوادمُ

جاء بالمطلع مصرعاً (قوائم، قوائم) وقد أكسب رد العجز على الصدر موسيقى النص تآلفاً ووقعاً رائعاً طوع فيه حرفي الجيم والكاف بتكرارهما ثم إتجاهه إلى قافية بروي مضموم لدلالته التي تنطوي على الفخامة بما يناسب النص في وصف أسطول بحري مجاهد .

أما بقية القوافي فقد وردت في أثناء عرضنا اتجاهات شعر البحرية الأندلسية في الفصل الثاني وما بعده وقد أظهر الجدول تفاصيلها .

٢- الموسيقى الداخلية .

إن كانت العلاقة بين الأدب والموسيقى علاقة جدلية ذات أبعاد تاريخية وكان لها دور بارز في تصوير الأعمال المسرحية والقصائد الشعرية وإعادة خلقها في أوروبا في القرن الثامن عشر[2]، فإن الموسيقى الداخلية في الشعر العربي هي التي أبدعت ومنذ العصر الجاهلي تصوير الأعمال الشعرية، بعدها تعبيراً نغمياً يعبر عن عواطف

---

(١) ديوان ابن دراج: ١٣٢ .
(٢) ينظر، بين الأدب والموسيقى: ١٦ .

الشاعر[1] كنغم أدوات الموسيقى، المقترن بالغناء , وهـي تكـوين صـوتي صـادر عـن الألفاظ نفسها. [2] وتمثل وحدة النغمة التي تتكرر على نحو ما في الكلام أو في البيت [3] .

وبما أن الشعر لا يحقق موسيقية بمحض الـوزن والقافيـة بـل بالإيقـاع الخـاص لكـل وحدة لغوية مرة بالجرس الخاص لكل حرف هجائي وتوالي هذه الحروف مرة أخـرى [4]، وأرى أن الموسيقى الداخلية ترتكز عـلى النغمـة أو مـا يـسمى بــ (النوتـة(وهـي بمثابـة الفواصـل الموسيقية التي يتوقع السامع ترددها ويستمتع بهذا التردد الذي يطرق الآذان في مـدة زمنيـة منتظمة وبعد عدد معين من مقاطع ذات نظام خاص يسمى بالوزن [5] ونظـام المقـاطع هـذا يرتكز على الإيقاع في الشعر العربي الذي يتولد من تردد ارتكاز يقع على مقطع طويـل في كـل تفعيل، ويعود على مسافات زمنية محددة النسب، وعـلى سـلامة الإيقـاع هـذا تقـوم سـلامة الوزن[6] ثم يأتي دور القافية لتؤسس إلى ضبط الإيقاع الموسيقي وإكماله وشد البيت الـشعري إلى كيان القصيدة التـي تحولـت اللغـة فيهـا مـن لغـة النـثر إلى لغـة تختلـف عنهـا، عـلى ان الموسيقى هذه تؤسس على صور عديدة من أبرزها ؛ التكرار والجنـاس و الطبـاق والتـصدير . (إذ ليس الوزن والقافية كل موسيقى الشعر فللشعر ألوان مـن الموسـيقى تعـرف في حـشوه، وشأن موسيقى الإطار تحتضن موسيقية الحشو [الموسـيقى الداخليـة] شـأن النغمـة الواحـدة تؤلف فيها الألحان المختلفة في موسيقى الغناء)[7] .

---

(1) ينظر، في الرؤيا الشعرية المعاصرة: ١٠٧ .

(2) الأسس الجمالية في النقد العربي: ٣٧٤ .

(3) النقد الأدبي الحديث: ٤٣٥ .

(4) ينظر، الصورة الفنية معياراً نقدياً: ٤٢٩ .

(5) موسيقى الشعر: ٢٤٦ .

(6) ينظر، الصوت الآخر، فاضل ثامر، ٢٧٨ (دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط١، ١٩٩٢) .

(7) خصائص الأسلوب في الشوقيات، محمد الهادي الطرابلسي: ١٩ (منشورات الجامعة التونسية، ١٩٨١) .

والإيقاع يختلف عن الوزن (لأن الإيقاع يختلف باختلاف اللغة والألفاظ المستعملة نفسها في حين لا يتأثر الوزن بالألفاظ الموضوعة)[١] .

وتبقى مهمة خلق الموسيقى هذه قدرة الشاعر في توظيف طاقات اللغة، وما من شأنه أن يعين على تجويد البنية والرنين في أبيات القصيدة [٢] ولا أغفل العفوية في الإبداع الأدبي سواء أكان التعبير الأدبي شعراً أم نثراً، والتي تغيب عن أبداع الفنان في الفنون التشكيلية .

ومن الظواهر الإيقاعية في شعر البحرية الأندلسية ظاهرة (التكرار) ولا يرى ابن رشيق (التكرار) إلا في الألفاظ (وللتكرار مواضع يحسن فيها، ومواضع يقبح فيها، فأكثر ما يقع التكرار في الألفاظ دون المعاني، وهو في المعاني دون الألفاظ أقل . فإن تكرر اللفظ والمعنى جميعاً فذلك الخذلان بعينه)[٣] .

والتكرار في حقيقته - كما تراه نازك الملائكة - الحاحٌ على جهة هامة في العبارة يعني بها الشاعر أكثر من عنايته بسواها .... فالتكرار يسلط الضوء على نقطة حساسة في العبارة ويكشف اهتمام المتكلم بها وله دلالة نفسية قيمة [٤]، وترى الكاتبة ؛ أنه يخلق نوعاً من التوازن الدقيق الخفي يخضع لنوع من الهندسة اللفظية الدقيقة، أسمته (قانون التوازن)[٥] .

(وقانون التوازن) هذا، أو الهندسة اللفظية استثمرها ابن دراج في مدحته للتعبير عن معاناته وحزنه لضياع بلده بعد تهجيرهم قسرياً منها فكان التكرار

---

(١) الأسس الجمالية للنقد الأدبي: ٣٧٤ .

(٢) ينظر، المرشد في فهم أشعار العرب: ٢ - ٤ .

(٣) العمدة: ٢/ ٧٣ .

(٤) ينظر: قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة : ٢٧٦، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط٨، ١٩٩٢ .

(٥) ينظر: المصدر نفسه: ٢٧٧ .

صرخة بطاقة تعبيرية وبتلوين لفظي مثل حالته النفسية من يأس وتشاؤم لمصيرهم المجهول في لج البحر الذي فاضت فيه مدامعهم، بانتظار أن تفيض فيه أرواحهم خوفاً ورعباً، فكان تكراراً لكلمة مرة ولعبارة أخرى، ولحرف من حروف الجر أو الاستفهام وبالجرس الخاص لكل حرف هجائي وتوالي هذه الحروف، بقصد الإلحاح على سبيل الاستغاثة في باب المديح ولبيان وقع الفجيعة وتهويلها وفي إيضاح صورة المأساة بمعانٍ وأفكار وبإمكانيات تعبيرية غيرت اتجاه الأبيات الشعرية من غرض المدح إلى صرخات استنجاد متتالية أرتبط من خلالها الأداء التعبيري بالأداء الموسيقي الذي لم يتحقق بالإيقاع العام الذي يحدده الوزن والقافية بل بالموسيقى الداخلية وبالكلمة المثيرة المكررة التي تقرع الأسماع وتؤدي الغرض الذي يعصف بقلب الشاعر ومن معه في رحلة بحرية إلى المجهول، يقول:

[من الوافر]

وطـاف علـيهم طوفـان روعٍ ... أفـاض بهـم إلى القفـر الفـضاءِ [1]

وألحقهـم بلـج البحـر سـيلٌ ... يمـد مـدوده فـيض الـدماءِ

فوشـكا مـا هـوى بهـم هـواء ... تـألفهم بأفئـدة هـواءِ

وحـال المـوج دون بنـي سـبيل ... يطـير بهـم إلى الغـول ابـن مـاءِ

أغـر لـه جنـاحٌ مـن صـباحٍ ... يرفـرف فـوق جـنح مـن مـساءِ

وصـك المـوج فيهـا كـل وجـهٍ ... وجوهـاً سـاورتهم بالجفـاءِ

وعـدمهم صـفاء المـاء منـه ... بعـدمهم لأخـوان الـصفاءِ

بحيـث تبـدلوا بـاللهو هـولاً ... ورحـب المـاء مـن رحـب الفنـاءِ

---

[1] ديوان ابن دراج: ٢٧٢- ٢٧٥ .

وكـــم فاضـــت مـــدامعهم فمـــدت عبـــاب البحـــر بالمـــاءِ الـــرواءِ

وقـــد وفـــدت جـــوانحهم بـــشجوٍ ينـادي الـشمس حـيَّ عـلى الـصلاءِ [1]
وكـــم خاضـــوا كهمهـــم بحـــوراً وكـم عـدموا الـثرى عـدم الـثراءِ
وجـــاء المـــوت مقتـــضياً نفوســـاً لـــوت بقـــضائهن يـــدُ القـــضاءِ

فلأيـــاً [2] مـــا أهـــل بـــه بـــشير إلى أرض تخيـــــل في ســـــماءِ
ولأيـــا مـــا تجـــافى ألـــيم عـــنهم تجافيـــه عـــن الزبـــد الجفـــاءِ
وقـــد قـــالوا: أفتقـــاراً أو أســـاراً كـــما قـــالوا:الجـــلاء مـــن الـــسباءِ

صوَّر الشاعر دقائق الرحلة تصويراً نفسياً وقبل تحليل الموسيقى الداخلية للنص الذي عمد فيه ابن دراج إلى محورين مهمين هما تحويل مجرى النص من غرض المديح إلى صرخة استغاثة تمثل وقع الفجيعة وعمق المأساة بإيجاد مستوى من التوافقات والتنويعات الصوتية على سبيل التعظيم والتهويل لشد انتباه المتلقي أولاً

---

(1) الصَّلاء: النار و الوقود (ينظر: المعجم الوسيط، ١: ٥٢٤) وردت اللفظة في معلقة الحارث بن حلزة اليشكري، يقول:

فتنـــــورت نارهـــــا مـــــن بعيـــــدٍ بخـــــزازى، هيهـــات منـــك الـــصِّلاءُ

وجاء في شرح البيت:
الصِّلاء: مصدر صلي النار يصلى صلى وصِلاء إذا احترق بها أو ناله حرها .
وبعد عرض معنى (الصِّلاء) أرى أن لفظة (وَفَدَت) في الشطر الأول من البيت هي (وقدت) وبها يستقيم المعنى (شرح المعلقات السبع، للزوزني: ٢٨٩) .

(2) (اللأي): الشدة، يقال: فعل ذلك بعد لأي (المعجم الوسيط: ٨١٧/٢) . والمعنى وبعد مشقة وشدةٍ وجهد تجافى أليم عنهم .

ولتوظيف الأسلوب التكراري هذا لتأدية الغرض الشعري المطلوب على سبيل العتاب الموجع، ثانياً .

لا بد لنا من وقفات قصيرة تظهر ارتباط ألفاظ التكرار بالمعنى العام وظروف الشاعر النفسية وطبيعة حياته، فكان لكل حركة من السفينة أو البحر حالة نفسية تمثل اليأس والتشاؤم الذي وصل إليه الشاعر (فالغول) في البيت الرابع يمثل السير إلى المجهول . و(زفيف الريح) في البحر يمثل ديارهم التي تركوها وهي خلاء إلا من الريح. وصوت الريح نواح، وزوال الماء لأثر السفينة زوال آثارهم، وتلاطم الأمواج، إعراض الناس عنهم .

وعمد المبعد عن وطنه قسراً، ابن دراج إلى تكرار لفظة (الطواف) . (طاف، طوفان) فقد أردف الفعل أسماً تحاكي حروفه معناه، وقد أوحى له (الفراق) تكرار الفاء في البيت الأول خمس مرات بالتناغم مع جمال القافية المطلقة المردفة، الممتدة بحركة الروي الكسرة إلى احتواء الحزن والحسرة، وكذا الحال في (يمد، مدوده) وبما تحقق من وحدة نغمية موضوعية تماشت مع سلسلة الانتقالات الشعورية التي لم تعط مجالاً للتوقف منذ بداية البيت حتى نهايته وكأنه لفظ واحد صبت فيه هذه المعاني، ثم يكرر (هوى و هواء) وصولاً إلى الأفئدة الخالية إلا من الخوف والرعب . في الأبيات الثلاثة التالية وظف التكرار لتجسيم حالة الرعب في رحلة المجهول على سبيل التعظيم مستعيناً بالموسيقى الداخلية التي خلقها التكرار مقترناً بالطباق في (جناح من صباح) و (جنح من مساء) في صورة الشراع الأبيض تتوزع حوله السنة الدخان فكأنه صباح في مساء، مكرراً لفظة (الموج) بوقع حرف الجيم على الأذن لتهويل الموقف (حال الموج، صك الموج) منتهياً بثقل (الجفاء). وإن كرر الشاعر لفظ (عدمهم) في البيت السابع ليصل إلى مفارقة الأحباب فقد كررها في البيت الحادي عشر (وكم

عدموا الثرى عدم الثراء) لإرادة ترك الديار وما يملكون وعمد إلى التكرار بتغيير مواقف الحروف في لفظة (الهول، هولاً) ليترك من خلال تكرار الحروف أثراً في تصعيد النغم إلى مستوى الحدث لشد الانتباه .

وقد أجاد الشاعر بتقسيم لفظي موسيقي مقترن بالتكرار في (ورحب الماء من رحب الفضاء) بامتداد موسيقي تعاقب ما بين حرف الراء والهمزة في (رحب، الماء، الفضاء) وأستمر ممتداً إلى البيت الذي تلاه (عباب البحر بالماء الرواءِ)

ولزيادة صورة المشهد بؤساً وشقاءً ورهبةً كرر لفط القضاء بـ (مقتضياً، بقضائهن، القضاء) ثلاث مرات في البيت الثاني عشر ليؤكد استمرار المأساة بما وصل إليه من طباق في البيت السابع عشر (أرض، سماء) ويكرر (لأَيا) وما توحيه من معنى.

وقد أقترن المعنى بما يوحيه تكرار لفظ (جفاء) وبما يوحيه العطف من ربط التوافق النغمي في (افتقاراً أو أساراً) و (الجلاء من السباء) وقد تصدر هذا التوافق النغمي توافقاً لفظياً في (وقد قالوا، كما قالوا) .

أما تكرار الحروف المتشابهة أو المتقاربة فقد خلق نوعاً من الأداء الذي تأنسه الأذن وتألفه النفس في تكرار تاء التأنيث مع الفعل الماضي (فمدت، وفدت، لوت)، وتكرار حرف الأطباق في (طاف، طوفان، أفاض الفضاء) وحرفي الصفير (صك، ساورتهم) .

واللافت للانتباه ما أبدعه الشاعر في تكرار حرف الهمس وحرف الأطباق لإعطاء لفظٍ لم يتوقعه المتلقي من خلال ما تعارف عليه (حي الصلاة) فجاء بـ(حي على الصلاة) ولفظة الصلاء وما توحيه من معنى قصدها الشاعر ولم يتوقعها المتلقي وجاءت مطابقة للمعنى العام وجو القصيدة ومناسبتها وقد جمع فيها ما تفرق من معاني القصيدة .

ثم نلمس أن الشاعر قد أحكم قرار القافية فقد جاءت متتابعة منسقة تنسيقاً توحي باقتدار الشاعر في اتحاد عدد حروفها وحركاتها وسكناتها , (الفضاء، الصفاء، الرواء، الصلاء، الثراء، القضاء، الجفاء، السباء)

(وقد سمى أصحاب البديع هذا النوع بـ (التطريز) [1] .

والتكرار بوصفه نوعاً من أنواع الموسيقى الداخلية لا يتوافر في النص الشعري إلا نتيجة انفعالات الشاعر بمعنى خاص أو فكرة معينة تخلق هذه العلاقة بين التعابير داخل بنية البيت الشعري أو النص، وهذا من عوامل خلق لغة شعرية. وقد أعطى تكرار الفاء في نص للعباس بن فرناس توزناً صوتياً وتماثلاً على المستوى اللفظي والدلالي، يقول:

[من الطويل]

ومختلف الأصوات مؤتلف الزحف لهوم الفلا عبلٍ القنابل ملتفِ [2]

قتلناهم ألفاً وألفاً ومثلها وألفاً وألفاً بعد ألف إلى ألفِ

ويكرر ابن الخطيب لفظاً واحداً في شطر واحد يقول:

والبحر يفخر منه يوم ولاده بملنده ابن ملندة ابن ملندة [3]

ويكرر لفظ في عبارات مرادفة بالعطف يقول: [من الكامل]

---

(1) الفن ومذاهبه في الشعر العربي: ٨٥ .

(2) العقد الفريد، لابن عبد ربه، تح: أحمد أمين ومجموعة: ٤/٤٩٥، ط٣، ١٩٦٢ .

(3) ديوان ابن الخطيب: ٢/٥٨٥ .

النـــور أنـــت وكـــل نـــور دجيـــة   والبحـــر أنـــت وكـــل بحرٍ جـــدول [(١)]

ويكرر ابن الخطيب عبارة (إلا إنهـن) في تقـسيم موسـيقى ينتهـي بـالواو والـلام أو الياء واللام ليعطي تنوعاً إيقاعياً يزيد النص جمالاً وروعة، يقول: [من الكامل]

كـــالبحر إلا إنهـــــن كتائـــــبُ   والـــــريح إلا أنهـــــن خيـــــول [(٢)]
والـــــبرق إلا أنهـــــن أســـــنة   والرعـــــد إلا أنهـــــن طبـــــول
فبكـــــل بحـــــر رايـــــة منـــــشورة   وبكـــــل غـــــور مقنـــــب ورعيـــــل

ولا يخفى أن للتكرار علاقـة وثيقـة بظـروف الـشاعر النفـسية وطبيعـة حياتـه، وفي الحياة الحربية يكون التكرار سـبيلاً إلى إثـارة الحماسـة في صـدور المقـاتلين، ويـضع في أيـدينا مفتاح الفكرة المتسلطة على الشاعر، كقول ابن زمرك: [من الكامل]

كـــانوا جبـــالاً قـــد علـــتْ هـــضباتها   تـــستفتهم ريـــحُ الجـــلاد فزلزلـــوا [(٣)]
كـــانوا بحـــاراً مـــن حديـــدٍ زاخـــرٍ   أذكـــتهم نـــارَ الـــورى فتـــسيلوا
كـــان الحديـــد لباســـهم وشـــعارهم   واليـــوم لا تلبـــسه إلا الأرجـــل

---

(١) نفاضة الجراب: ٢٨٨/٢ .
(٢) ديوان ابن الخطيب: ٤٨٦/٢ .
(٣) ديوان ابن زمرك: ٤٦٦ .

كرر الفعل (كانوا) على سبيل التنويه وتفخيم الأمر في القلوب والأسماع وتهويله، وقد سلط الضوء على أمرٍ مهم وهو قوة العدو في الماضي (كانوا) بما لها من دلالة نفسية في الحاضر، وجاء بهذا الترابط اللفظي المقترن بالتناغم الموسيقي إظهاراً لعظمة الانتصار .

أما التكرار قصد تعظيم المحكي، وعلى جهة الوعيد والتهديد، لزيادة بن إبراهيم بن الأغلب، من شعراء بني الأغلب، ملوك أفريقية (٢٢٣هـ) يقول: [من الطويل]

أنا النارُ في مستكنة — فإن كُنتَ ممن يقدح الزند فاقدح [١]
أنا الليث يحمي غيله بزئيره — فإن كنتَ كلباً حان موتك فانبح
أنا البحر في أمواجه وعبابه — فإن كنت ممن تسبح البحر فاسبح

كرر لفظة أنا في أول كل بيت من الأبيات الثلاثة، لشد انتباه السامع وإيجاد مستوى من التوافقات اللفظية والصوتية وصولاً الى الشطر الثاني من كل بيت بمعاودة تكرار عبارة (فإن كنت) على سبيل التهديد والوعيد وقد خلق التكرار هذا في شطري البيت نوعاً من الهندسة اللفظية الدقيقة بما عُرف بـ(قانون التوازن) (أنا، فإن كنت) ثم الأتيان بجواب الشرط، وقد وفق في نوع من الأداء الذي تأنسه الأذن وتألفه النفس بتكرار نغمة النون التي كررها (١٦) مرة ولا يخفى ما لحرف النون من توافق مع انفعال الشاعر بخلق نوع من الرنين في جو التحدي والفخر بنفسه وتقريع الخصم .

---

[١] الحلة السيراء، لابن الابار: ١/١١٣، (تح: د. حسين مؤنس، ط١، ١٩٦٣).

ويفخر المعتمد بن عباد (٤٨٨هـ) عندما أحَسَّ بالمنية ترهقه، وحبائلها تعلقه، أمر أن يكتب على قبره: [من البسيط]

قبر الغريب سقاك الرائح الغادي حقاً ظفرت بأشلاء ابن عباد [١]
بالطاعن الضارب الرامي إذا اقتتلوا بالخصب أن أجدبوا بالرِّيِّ للصادي

فإن اعتمد تكرار المرادف بـ(الطاعن، الضارب، الرامي) وبالتجانس الصوتي في (الخصب أن أجدبوا، بالرِّي للصادي) وصولاً الى نوع من الإيقاع يعرف بالترصيع، وقد جاء البيت الأول مصرعاً (الغادي، ابن عباد) .

والترصيع أو الموازنة أو الموسيقى الداخلية قد أكثر منها شعراء البحرية الأندلسية، فضلاً عن التصريع ولاسماعيل بن بدر في الترصيع: [من الطويل]

قريبُ الخُطى نائي المدى مالئ الملا بجمع تراهُ واقفاً غير واقف [٢]

جانس الشاعر صوتياً في تقسيم البيت على عبارات متوازنة، ويأتي هذا الأسلوب التعبيري لإيقاف المعنى الذي وصل إليه الشاعر لبدء معنى جديد كما في (قريب الخطى، نائي المدى، مالئ الملا) ثم ينتهي الى توافق طباقي في (واقفاً غير واقف)، وفي الشطر الأول (قريب، نائي) .

وللشاعر عبد الله بن يعقوب الأنصاري: [من الكامل]

---

(١) تاريخ الملوك الشعراء: ٢٥٢/٥ .
(٢) الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة: ٢٢٠.

فركبـــت بحـــراً حـــاملاً قـــد أثقلـــت ... وشـــــقفت بحـــراً زاخــــراً ببحـــــور [1]

ولابن خفاجة في التصريع يقول: [من الطويل]

أرأيـــكَ أمـــضى أم حـــسامك أقطـــعُ ... ومـــرآك أبهـــى أم حـــديثك أســـمع [2]

ولابن الخطيب [من الطويل]

فالـــصرح منـــه ممـــرد والـــصفح منـــه ... مـــوردٌ والـــشط منـــه مهـــدلُ [3]

وللأعمى التطيلي: [من الكامل]

ركـــاب أهـــوالٍ قريـــع حـــوادثٍ ... طـــلابُ أوتـــارٍ رفيـــعُ مبـــان [4]

أنت تقرأ وأنت تسمع في آن واحد، طباقاً صـوتياً وكـأن الكلـمات مـن أسرة واحـدة، فكل كلمة تقبل على الثانية (رأيك، حسامك، مرآك، حديثك) و(أمـضي، أقطـع، أبهـى، أسـمع) و(ركبت بحراً حاملاً) و(شققت بحراً زاخراً) بتكرار لفظة بحر فضلاً عما تقدم، و(الـصرح منـه ممرد والصفح منه مورد، والشط منه مهدل) بتكرار

---

(1) ترصيع الأخبار وتنويع الآثار: ١٢٨ .

(2) ديوان ابن خفاجة: ٨٧ .

(3) ديوان ابن الخطيب: ٥٠١/٢ .

(4) ديوان الأعمى التطيلي: ١٩٨ .

حرف الجر والضمير منه ثلاث مرات، و(ركاب أهوال، قريع حوادث، وطلاب أوتار، رفيع مبان)، أداء تعبيري بتوافق موسيقي، وهو كما يره د. صلاح فضل ليس زخرفاً لفظياً يعتمد الوزن والقافية، وكسر قوانين لغة النثر بقدر ما يحتوي في داخله على سلم من العناصر والقيم والقوانين [١]، لذا فالإيقاع في ضوء ما تقدم يكون مكملاً لتعريف النظم الذي هو نوع من التعبير اللغوي الموزون المقفى .

هذا النغم الذي تتشكل فيه الكلمات صوتاً وإحساساً ويشيع في النفس لوناً عاطفياً ما هو إلا سلسلة أمواج بحر تدرجه ريح الصَّبا تجري النغمة فيه خلف النغمة كما تجري الموجه خلف أختها، أنه تتابع مقاطع: ((ولاشك أن في ذلك مشقة أكبر من مشقة توفير البنية الإيقاعية الخارجية)) [٢] .

والجناس لون من ألوان الموسيقى الداخلية، وإن كان ((في مذهب كثير من أهل الأدب غير محبوب لأنه يؤدي الى التعقيد ... إلا ما جاء منه عفواً وسمح به الطبع من غير تكلف)) [٣]، والجناس ضرب من ضروب التكرار المؤكد للنغم من خلال التشابه في الجرس ليدفع الذهن الى التماس معنى تنصرف إليه اللفظتان [٤] وتأسيساً على ذلك فهو من صور الموسيقى الداخلية المهمة، ويبدو أثره واضحاً من خلال ما يوحيه من تناغم موسيقي يثير الانتباه لجماليته واستثارته النفوس، وبما أنه نوع من التكرار فله في شعر الجهاد الحربي البحري ما للتكرار من تأثير في نفوس المقاتلين بإيجاد مستوى من التوافقات على سبيل التعظيم والتهويل ولإثارة حماستهم .

---

[١] ينظر: نظرية البنائية في النقد الأدبي، د. صلاح فضل: ٧٠-٧١، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط٣، ١٩٨٠.

[٢] نظرية الشعر عند نازك الملائكة: ١٥٠ .

[٣] البلاغة الواضحة، علي الجارم، مصفى أمين: ٢٩٢، (مكتبة الاسد، دمشق، ١٩٩٩).

[٤] ينظر: جرس الألفاظ ودلالاتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب: ٢٨٤ .

يكون الجناس ناقصاً كما في قول ابن الخطيب في ذكر جبل طارق: [من الكامل]

جبلاً لطارق مذ أقل ركابه لم تهُن عنه طوارق الحدثان [١]

وقبل هذا البيت يقول:

ولو أنني أمسكتُ أجفاني وقد ذكروا العهود لقلتُ: ما أجفاني

في البيت الثاني نجد أن لفظ (أجفاني) مكررٌ مرتين فمعناه مرةً أجفان العينين، ومرة أخرى صيغة تعجب من الجفاء أي البغض، علماً أن اختلاف كل كلمتين في المعنى على النحو هذا مع اتفاقهما في نوع الحروف وشكلها وترتيبها يسمى جناساً تاماً [٢] .

أما لفظتا (طارق) و(طوارق) في البيت الأول، فقد اختلفتا في واحد من الأركان المذكورة، فـ(طارق)، طارق بن زياد، فاتح الأندلس، و(طوارق) الحدثان، أي: الليل والنهار [٣] .

والجناس هنا جناس ناقص بشكل الحروف، وجاء الشاعر بالجناس هذا ؛ لإحداث إيقاع موسيقي بما يخدم النص ويعزز موسيقاه .

---

(١) ديوان الصيب والجهام: ٦٠١ .

(٢) جواهر البلاغة في المعاني والبديع، أحمد الهاشمي: ٣٩٦، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، (د. ت).

(٣) الطارقة: الضاربة بالحصى للتكهن (المعجم الوسيط: ٥٦٢/٢) وأرى أن المعنى المطلوب كما جاء في المصدر نفسه ؛ الحدثان الليل والنهار وحدثان الدهر نوائبه: ١٦٠/١ .

وللشاعر الأسواني في وصف سفن الأسطول يقول: [من الكامل]

أحبـــب إليَّ بهـــا شـــواني أصـــبحت مـــن فلكهـــا ولهـــا العـــداة شـــواني [1]
شـــــبهن بالغربـــــان في ألوانهـــــا وفعلـــــن فعـــــل كـــــواسر العقبـــــان

جاء لفظ (الشواني(مكرراً مرتين ففي الأولى ؛ نوع مـن أنـواع الـسفن، سُـميت بهـذا الاسم، والثانية أصلها شوانئ جمع شانئ أي كاره ومبغض [2]، وهو جناس تـام، وهـذا الـضرب من المحسنات اللفظية تبنى عليه الموسيقى الداخلية، وهو تـصدير يتـصل بالـصوت وينظمـه تنظيماً موسـيقياً يـسهم في خدمـة الـنص، بمـا يحدثـه مـن توافـق صـوتي بـين شـطري البيـت الشعري، وفي البيت الثاني جاء بـ(الغربان) و(العقبان) وأن اختلفت دلالة كـل مـنهما، فدلالـة الأولى في الألوان، والثانية في الأفعال إلا أن اشتراكهما في الوزن، واشتراكهما في أكثر مـن صـوت، الأمر الذي أغنى الموسيقى الداخلية بخلقه نوعاً من التوازن يخضع لهندسة لفظية اسـتثمرها الشاعر لإثارة الرعب والفزع في قلوب الأعداء .

والتصدير الذي يظهر قـوة الجـيش الإسـلامي في مقاومـة الأسـبان وغـزوهم في عقـر دارهم للشاعر مرج الكحل، يقول [من الكامل]

أوطـــــأت أرض المـــــشركين كتائـــــب كـــادت تميـــد الأرض مـــن وطأتهـــا [3]

---

[1] الكتيبة الكامنة في من لقيناه من شعراء المئة الثامنة: ٢٥٨ .
[2] شنأه: أبغضه وتجنبه (المعجم الوسيط: ٤٩٧/١، ومختار الصحاح: ٣٤٨) .
[3] المقتضب، من كتاب تحفة القادم، ابن الأبار: ١٣٨.

اللفظان يشتركان في الدلالة على القوة والتحدي وقد أغنى الجناس الناقص موسيقى البيت الداخلية وجسد عمق المقاومة .

هذا الصوت المنبعث من داخل النص الشعري عند قراءته هو تعبير نغمي عن تجربة شعورية، وصلته وثيقة بها لايمكن فصلها، فكلما تصاعدت انفعالات الشاعر وثارت عاطفته ارتبط أداؤه التعبيري بأداء موسيقي يتناسب وتلك الانفعالات وهنا تظهر قدرة الشاعر ((على التلوين الموسيقي عندما تتلون التجربة الشعرية وتتغير فهو يستطيع أن يكيف البناء الداخلي للقصيدة بحيث يتناسب مع تجربته))[١] .

من خلال النصوص المتقدمة، فقد أجاد الشاعر الأندلسي في غرض الجهاد البحري في توظيف التشكيل الموسيقي الداخلي من خلال استغلال طاقات اللغة من تكرار وجناس وطباق وترصيع وتصريع وتصدير، وأصوات الحروف والتقسيمات ذات الإيقاع الذي يتناغم توافقات لفظية وصوتية لخدمة النص وتوظيفه في تجسيد مقاومة الأندلسيين للأسبان، ومن خلال ((اختيار الشاعر لكلماته وما بينهما من تلاؤم في الحروف والحركات وكأن للشاعر أذناً داخلية وراء أذنه الظاهرة تسمع كل شكلة وكل حرف وحركة بوضوح تام، وبهذه الموسيقى الخفية يتفاضل الشعراء))[٢] .

---

[١] في الرؤيا الشعرية المعاصرة: ١١٠ .
[٢] في النقد الأدبي : ٩٨ .

نتائج البحث

بعد أن مَنَّ الـلـه عزوجل عليّ بإتمام البحث ووصوله الى النهاية أود أن ألخص أهم النتائج التي توصل إليها :

١- إن شكلت بعض الأغراض والمعاني وجـوداً لهـا في دائـرة الـشعر الأندلـسي بـشكل خـاص والشعر العربي عامة كالموشحات والأزجال وشعر الاستنجاد، وتطور شعر وصف الطبيعة، فقد شكل شعر البحرية الأندلسية مساحة في الدائرة هذه وكانت له اتجاهاتـه ومعانيـه التي أغرب فيها عن شعراء المشرق، وسجل سبقاً أدبياً أغنى التراث العربي الشعري صـوراً ومعانياً وأفكاراً كان يفتقر إليها ، وقد مثل اللـون الـشعري الجهـادي البحـري هـذا قـوة العـرب المـسلمين الفـاتحين ومـن أهـل الـبلاد في ملاحـم بطوليـة كـان البحـر والـسفن والأساطيل مكوناً مهماً من مكوناتها.

٢- أظهر التاريخ مستشهداً بشعر البحريـة الأندلـسية بطولـة العـرب المـسلمين الأندلـسيين بأختراقهم أوربا ووصولهم إلى جنوب فرنسا والى ألمانيا وشـمال إيطاليـا، مـما دعـا ملـوك أوربا إلى طلب الصلح ، وصار يقيناً في تلك الحقبة عند المؤرخين الأوربيـين أن للمـسلمين قوة بحرية لا تقهر وبها أقروا أن الإسلام هو معجزة الرسول صلى **الـلـه** عليه وسلم .

٣- لم يكن شعراء البحريـة الأندلـسية في معـانيهم وأفكـارهم وأخيلـتهم عيـالاً عـلى شـعراء المشرق، فإن دفع شعر ما قبل الإسلام الشعر المشرقي، فقد دفع الـشعر المـشرقي الـشعر الأندلسي ، وشعر البحرية الأندلسية، لم يكن تقليداً لشعر الجهاد البحري المـشرقي بقـدر ما كان توظيفاً لأكبر قدر ممكن من السوابق الأدبية

والفنية بطريقة مقتدرة بفعل أثر البيئة الأندلسية جغرافياً وموضوعياً واجتماعياً .

٤- إن الطوابع التي طبعت شعر المسلمين في فتوحاتهم هي نفسها التي رسمت صورة جهاد البحرية الأندلسية، تأطرت بإطار وجداني قومي إسلامي الفكرة والمثل والقيم، بشعور للجهاد فيه حضور، خالٍ من الجزع، مستهيناً بالموت لم يحرص على الحياة ، وهذا الذي قلب موازين القوى لصالحهم وقادهم إلى معجزة ليست فوق الرمال وإنما وسط البحار، ولم يكن للشعوبية فيه وجود .

٥- من مفاهيم البحرية الأندلسية استمد كثير من الشعراء معاني الحياة والدنيا والموت والوجود، وبنظرة فاحصة تأملية أوقفوا بعضاً من شعرهم في المفاهيم هذه التي فاقوا فيها شعراء المشرق .

٦- أفرز شعر البحرية الأندلسية اتجاهين في رحلة البحر، يظهر البحر في الاتجاه الأول ضعيفاً استأسرت أمواجه السفن والأساطيل وجنود الحرب عندما تكون الرحلة حربية، أما الاتجاه الآخر يظهر البحر فيه جباراً طاغياً وتظهر السفن متهالكة يتلاعب بها لج البحر وركابها من خوفٍ ومن رهب سكارى وما هم بسكارى، ذلك في الرحلة إلى الممدوح طلباً للنوال والعطاء والحظوة .

٧- أظهر شعر البحرية الأندلسية أن ركوب البحر وتحمل أهواله من القيم التي يمتدح بها ، والاتجاه هذا يمثل قيمة جديدة أضيفت إلى القيم المدحية المعروفة .

٨- شكل التراث التاريخي والأدبي العربي جانباً مهماً من معجم شعر البحرية الأندلسية من أسماء الأماكن والأعلام وأيام العرب وأمثالهم وحكمهم والأساطير والقيم وأسماء الحيوان والطيور كما كان للقرآن الكريم وجود لافتٌ للانتباه باقتباسهم من معانيه وأفكاره وقيمه وتعاليمه وقصصه دليلاً على ثقافتهم

الإيمانية واقتداراً في الصياغة ورسم الصور ، ولم يغفلوا التضمين كجانب فني فيه إثراء لمعانيهم وأفكارهم وارتباطاً قومياً بتاريخ أمتهم وأمجادها وثرائها الفكري والحضاري .

٩- لم يتكسب شعراء البحرية الإسلامية بشعرهم وأن كان في أثناء قصائد المديح إذ كانت الدعوة إلى الجهاد والدفاع عن الوطن وسيلة في خدمة الغايات الإيمانية التي أخلصوا فيها وإليها ولم يخرجه مفهوم الالتزام هذا عن شعريته وفنيته .

١٠- **من الناحية الفنية أظهرت الدراسة ما يأتي :**

أ - مثل شعر البحرية الأندلسية مشاعر اللحظات الحادة دونما إسهاب أو إطالة فهي مشاعر واضحة وعفوية ليس فيها مغالاة وليست بحاجة إلى بيان ، وهذا لايعني أن البساطة والعفوية تحلل من القيود الفنية بقدر ما هي بعيدة عن التكلف والتقعر وجنوحه إلى الصدق وحرارة الانفعال ، على الرغم من اعتماده أدق التفاصيل في وصف المعارك وأدواتها من بحرٍ وسفن بأنواعها وأشرعة ومجاذيف ونارٍ إسلامية وخطط حربية بحرية .

ب- شكلت الصور التشبيهية والأسلوب الاستعاري والمحسنات البديعية والأنماط البلاغية نمطاً عفوياً بعيداً عن التكلف إلا نادراً ، ولم يقف شعراء البحرية الأندلسية في وحداتهم الشعرية - أن صحت التسمية - في التعبير عن معنى واحد بل تعددت فيها المضامين وحتى في البيت الواحد .

ج- جاء أكثر الشعر البحري في معارك الجهاد في البحور الطويلة متمثلة بالبحر الطويل والكامل والبسيط، وجاء بالدرجة الرابعة بالبحر الوافر، وجاءت القوافي بروي الراء والباء واللام والميم بالمرتبة الأولى، وجاء بقافية مطلقة إلا نادراً [1] ، ولم تظهر الدراسة عدد القصائد والقطع والنتف والأبيات اليتيمة ، ذلك أن شعر البحرية الأندلسية لم يأت على شكل قصائد مستقلة وإنما جاء في أثناء قصائد المديح أو الفخر أو الرثاء أو الوصف، فضلاً عن أن المصادر والمراجع استشهدت ببعض الأبيات ولم تشر في معظمها إلى ماهيتها .

---

[1] ربما يعتمد باحث آخر نصوصاً من شعر البحرية الأندلسية لم تتوافر لنا فتظهر نتائجه مخالفة أو مطابقة للنتائج التي ذكرناها من ناحية الأوزان والقوافي .

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .
- ابن الأبار- حياته وكتبه، د. عبد العزيز مجيد ، معهد مولاي الحسن، ١٩٥١.
- الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين، د. منجد مصطفى بهجت ، مؤسسة الرسالة، بيروت ، ط١، ١٩٨٦.
- الاتجاه الوجدان في الشعر العربي المعاصر ، د. عبد القادر القط، دار النهضة العربية، بيروت- لبنان، ١٩٧٨.
- الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث،د. سلمى الخضراء الجيوسي، ترجمة : د. عبد الواحد لؤلؤة ، بيروت ، ط١، ٢٠٠١ .
- ابن خفاجة والبحر، د. مصطفى محمود الحلوة ، مركز المعتصم، إربد - عمان، ١٩٩٥.
- ابن ماجد، شعره الملاحي، تحقيق: إبراهيم خوري، سلسلة الملاحة العربية الفلكية ، ١٩٨٩.
- أبو المطرف ، أحمد بن عميرة المخزومي، حياته وآثاره ، تح: محمد بن شريفة ، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي ، ١٩٦٦ .
- أثر القرآن الكريم في الشعر الأندلسي منذ الفتح حتى سقوط الخلافة، د.محمد شهاب العاني، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ط١، ٢٠٠٢.

- الإحاطة في أخبار غرناطة لدى الوزارتين، لسان الدين بن الخطيب (٧٧٦هـ)،تحقيق:محمد عبد الله عنان، مطبعة الخاني، القاهرة، ط١، ١٩٧٤.
- أحيقار الحكيم، تحقيق وتقديم : غريغوريوس بولس بهنام ، مطبوعات مجمع اللغة السريانية ، بغداد، ١٩٦٩ .
- أخبار مجموعة في فتح الأندلس ، مجهول ، تح: إبراهيم الإيباري، دار الكتاب المصري، ودار الكتاب اللبناني، ط٢، ١٩٨٩.
- اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى ، لابن سعيد، تح: إبراهيم الإيباري، دار الكتاب اللبناني ، بيروت، ط٢، ١٩٨٠.
- أدب الأندلس وتاريخها، ليفي بروفنسال ، ترجمة، محمد عبد الهادي شعيرة، وعبد الحميد العبادي ، المطبعة الأميرية بالقاهرة، ١٩٥١.
- الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة، د. أحمد هيكل ، دار المعارف بمصر، ط١٣، ٢٠٠١.
- الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة ، د. منجد مصطفى بهجت ، دار الياقوت ، الأردن ، ط٢، ٢٠٠٦ .
- الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه، د. مصطفى الشكعة دار العلم للملايين، بيروت-لبنان، ط١٠، ٢٠٠٠.
- أدب البحر، أحمد محمد عطية ، دار المعارف، ط٧، ١٩٨١.
- أدب الرحلات ، د. حسين محمد فهيم ، عالم المعرفة، حزيران ، ١٩٨٩ .

- الأدب الرفيع في ميزان الشعر وقوافيه، معروف الرصافي، قدم له وعلق عليه، كمال إبراهيم، ومصطفى جواد ، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٥٦.
- الأدب العربي في الأندلس، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٦.
- الأدب العربي في جزر البليار، د. عبد الرزاق حسين، دار الجيل للنشر، عمان، ط١، ١٩٩٤.
- أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، بطرس البستاني، دار المكشوف ودار الثقافة، بيروت- لبنان، ط٦، ١٩٦٨ .
- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، تح: مصطفى السقا ومجموعة ، مطبعة التأليف والنشر، القاهرة، ١٩٣٩.
- الاستقصا لأخبار ملوك المغرب الأقصى، لأبي العباس أحمد بن خالد الناصري، تح: جعفر الناصري، ومحمد الناصري، دار الكتاب ، الدار البيضاء، ١٩٥٤ .
- الأسس الجمالية في النقد الأدبي، عز الدين إسماعيل ، دار الفكر، القاهرة، ١٩٧٤.
- الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحدي، عصره ، حياته، شعره ، د.عباس الجراري، دار الرواد الثقافية، المغرب، ط١، ١٩٧٤.
- انبعاث الإسلام في الأندلس ، د. علي المنتصر الكتابي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، ٢٠٠٥ .
- أندلسيات عبد الرحمن الحجي، دار الإرشاد للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٦٩.

- بلاغة العـرب بـين العـرب واليونـان ، د. إبـراهيم سـلامة، مكتبـة الأنجلـو المـصرية، ط٢، ١٩٥٢.
- بناء الصورة الفنية في البيان العربي ، د. كامل حسن البصير، مطبوعات المجمـع العلمـي العراقي، بغداد ، ١٩٧٨.
- بهجة المجالس وأنس المجالس، ابن عبد البر ، تح: د. محمد مرسي الخولي، الـدار المـصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة، ١٩٦٩ .
- البيان والتبيين للجاحظ، تح: د. عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٣، ١٩٦٨
- بين الأدب والموسيقى ، أسعد محمد عـلي، تقـديم: د. عبـد الواحـد لؤلـؤة، آفـاق عربيـة للصحافة والنشر، بغداد، ١٩٨٥.
- تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة، د.إحسان عباس، دار الثقافة ، بيروت- لبنان، ط٥، ١٩٧٨.
- تاريخ الأدب الجغرافي، أغنـاطيوس يوليـانوفتش كراتشكوفـسكي، ترجمـة : صـلاح الـدين عثمان هاشم،القسم الأول،لجنة التأليف والنشر والترجمة، ١٩٥٧.
- تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام، د. نـوري حمـودي القيـسي ومجموعـة ، وزارة التعلـيم، ط٢، ١٩٨٩.
- تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعـي، دار الكتـاب العـربي، بـيروت- لبنـان، ط٢، ١٩٧٤.
- تاريخ إسـبانيا الإسـلامية، أو أعـمال الإعـلام ، لـسان الـدين بـن الخطيـب ، تـح: إ.ليفـي، بروفنسال، دار المكشوف ، بيروت- لبنان، ط٢، ١٩٥٦.

- التاريخ الأندلسي ، عبد الرحمن الحجي، دار القلم، بيروت ، ط١، ١٩٧٦.
- تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ، د. عبد العزيز سالم، د. أحمد مختار العبادي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ١٩٦٩.
- تاريخ الرسل والملوك ، الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ط٤، ١٩٧٧ .
- تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٦٠.
- تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، الأمير شكيب ارسلان، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٣٥٢هـ.
- تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين ، لابن صاحب الصلاة، تح: د.عبد الهادي التازي، دار الحرية للطباعة ، بغداد، ١٩٧٨.
- تاريخ ملوك العرب الشعراء ، علي المصري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١.
- تحليل الخطاب الشعري (ستراتيجية التناص) د. محمد مفتاح ، دار التنوير للطباعة ، بيروت، ط١، ١٩٨٥.
- ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، للعذري ، المعروف بالدلائي ، تح: عبد العزيز الأهوائي، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية (د. ت) .
- التفسير الكبير للإمام الفخري الرازي، دار إحياء التراث العربي ، بيروت- لبنان، ط٤، ٢٠٠١.
- تفسير المنار، للسيد محمد رشيد رضا، دار المنار بمصر، ط٣، ١٩٥٢.

- التكملة والذيل والصلة، للحسن بن محمد بن الحسن الصَّغاني، تح: إبراهيم إسماعيل الإيباري، مطبعة دار الكتب ، القاهرة، ١٩٧١.
- جذوة المقتبس، لأبي عبد الله محمد بن فتوح الحميدي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦ .
- جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي، د. ماهر مهدي هلال، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٠ .
- جمهرة أشعار العرب، لأبي زيد القرشي، تح: الأستاذ خليل شرف الدين، مكتبة الهلال ، بيروت، ط٢، ١٩٩١.
- جمهرة رسائل العرب في العصور العربية الزاهرة، أحمد زكي صفوت ، مطبعة البابي ، ط١، ١٩٣٧.
- جواهر البلاغة في المعاني والبديع، أحمد الهاشمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، (د. ت) .
- الحضارة الإسلامية ، دراسة في تاريخ العلوم الإسلامية، د. طه عبد المقصود عبد الحميد أبو عيبة ، دار الكتب العلمية ، بيروت، دمشق، ط١، ٢٠٠٤.
- حضارة العرب، د. غوستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتر ، بيروت- لبنان، ط٣، ١٩٧٩.
- حضارة العرب في الأندلس، عبد الرحمن البرقوقي، المكتبة التجارية ، مصر، ١٩٢٣.
- الحلة السيراء، لابن الابار القضاعي، تح: د. حسين مؤنس، لجنة التأليف، القاهرة، ط١، ١٩٦٣، وتح: د. أنيس الطباع ، بيروت ، ١٩٦٢.

- الحياة العلمية في مدينة بلنسية ، كريم عجيل حسين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ساعدت جامعة بغداد على نشره ، (د. ت) .

- الحيوان ، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مطبعة البابي الحلبي وأولاده، ط١، ١٩٣٨، ودار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ط٣، ١٩٦٩.

- خريدة القصر وجريدة العصر، عماد الدين الأصفهاني (شعراء مصر) تحقيق: أحمد أمين وشوقي ضيف، وإحسان عباس، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٥١.

- الخصائص ، لأبي الفتح بن جني (٣٩٢هـ) ، تح: محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر ، ط٣، (د. ت) .

- خصائص الأسلوب في الشوقيات ، محمد عبد الهادي الطرابلسي ، منشورات الجامعة التونسية، مجلد، العدد ٢٠، ١٩٨١.

- الخلافة الأموية والدولة العامرية (١ - ٢)

- دراسات أدبية في الشعر الأندلسي ، د. سعد إسماعيل شلبي ، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٧٣.

- دراسات أندلسية، المجموعة الأولى، د. عبد الواحد ذنون طه، مطبعة دار الكتاب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، ط١، ١٩٨٦.

- دراسات بلاغية ونقدية، د. أحمد مطلوب، دار الحرية للطباعة والنشر، بغداد، ١٩٨٠.

- دراسات في التاريخ الأندلسي ، د. عبد الواحد ذنون طه، مطبعة دار الكتاب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، ط١، ١٩٨٧.
- دراسات في الرحالة ابن جبير الأندلسي البلنسي الكناني وآثاره الشعرية والنثرية، دار الغرب الإسلامي، ط١، ٢٠٠١ .
- دراسات في النقد والشعر، د. ناصر الحاني، منشورات المكتبة العصرية، بيروت- لبنان، (د. ت) .
- دراسات ونماذج في مذاهب الشعر ونقده ، د. محمد غنيمي هلال ، دار النهضة، القاهرة، (د. ت) .
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تح: محمد عبده ومحمد محمود الشنقيطي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٣٣١هـ .
- دولة الإسلام في الأندلس ، محمد عبد اللـه عنان :
  - دولة الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي (مجلد واحد) ، مكتبة الخانجي، القاهرة ، ط٣، ١٩٨٨ .
- دير الملاك ، د. محسن اطيمش، دار الشؤون الثقافية ، بغداد، ط٢، ١٩٨٦.
- ديوان ابن الابار، تح: عبد السلام الهواس، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٥.
- ديوان ابن حمديس، قدم له : د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠.
- ديوان ابن حيان الأندلسي، جمع وتحقيق: د. أحمد مطلوب، وخديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، ط١، ١٩٦٦ .
- ديوان ابن خفاجة، تح: سيد غازي، منشأة المعارف ، مصر ، ط٢، ١٩٧٩.

- ديوان ابن دراج القسطلي، تح: د. محمود علي مكي، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٩٦١.
- ديوان ابن الرومي، شرح : قدري مايو، دار الجيل، بيروت- لبنان، ١٩٨٨.
- ديوان ابن رشيق القيرواني، جمع: د. عبد الرحمن ياغي، دار الثقافة، بيروت، (د.ت) .
- ديوان ابن زمرك الأندلسي ، تح: د. محمد توفيق الينفر، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٧.
- ديوان ابن زيدون ورسائله ، تح: علي عبد العظيم، نهضة مصر للطباعة والنشر، ١٩٧٧ ، وتقديم : د. محمد إحسان النص ، ط٣، ٢٠٠٤ .
- ديوان ابن سهل الأندلسي، تح: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٨٠.
- ديوان ابن شرف القيرواني، تح: حسن ذكري حسن، دار مصر للطباعة، (د. ت) .
- ديوان ابن عبد ربه، جمع وتحقيق: د. محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٧٩.
- ديوان ابن فركون ، تقديم محمد بن شريفة، مطبوعات سلسلة التراث، الرباط، المغرب، ط١، ١٩٨٧.
- ديوان ابن هانئ الأندلسي، قدم له: د. عمر فاروق الطباع، دار الأرقم، بيروت- لبنان، ط١، ١٩٨٨.
- ديوان أبي تمام بشرح الصولي، دراسة وتحقيق: د. خلف رشيد النعمان، منشورات وزارة الثقافة ، بغداد، ١٩٧٨.

- ديوان أبي تمام،بشرح التبريزي، تح: محمد عبده عزام، دار المعارف بمصر.
- ديوان أبي نواس، برواية الصولي، تح: بهجت عبد الغفور الحديثي، دار الرسالة للطباعة، بغداد، ١٩٨٠.
- ديوان الأعمى التطيلي،تح:د.إحسان عباس،دار الثقافة، بيروت- لبنان، ١٩٦٣.
- ديوان البحتري، تحقيق وشرح: حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، ١٩٦٣.
- ديوان الحسين بن الضحاك،تح:د.خليل العطية،دار الجمل،بغداد، ط١، ٢٠٠٥.
- ديوان الرصافي البلنسي، تح: د. إحسان عباس، نشر وتوزيع دار الثقافة، بيروت- لبنان، ١٩٨٩.
- ديوان الرصافي، مطبعة دار المعرض، بيروت، ١٩٣١.
- ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام،لسان الدين بن الخطيب،تح: د.محمد الشريف قاهر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط١، ١٩٧٣.
- ديوان المتنبي، وضعه: عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ١٩٨٠.
- ديوان المفضليات ، اختيار أبو العباس المفضل بن محمد الضبي، تح: د. محمد نبيل الطريفي، دار صادر، بيروت، ط١، ٢٠٠٣.
- ديوان النابغة الذبياني، تح: كرم البستاني، دار صادر، بيروت، ط٣، ٢٠٠٣.
- ديوان الهذليين ، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥.
- ديوان امرئ القيس، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ط٣، (د.ت) .

- ديوان أمية بن أبي الصلت ، تحقيق : محمد المرزوقـي، دار الكتـب الـشرقية، تـونس، (د. ت) . وديوان الحكيم أمية بن أبي الصلت ، دار بوسلامة، (د. ت).
- ديوان بشار بن برد ، شرح محمد الطاهر بن عاشـور، لجنـة التـأليف والنـشر ، القـاهرة، ١٩٥٤، وج٣ ، طبعة ١٩٥٠ .
- ديوان بشر بن أبي خازم، تحقيق: د. عزة حسن ، طبع دار إحياء الـتراث العـربي، دمـشق، ١٩٦٠.
- ديوان زهير بن أبي سلمى، تح: د. أحمـد طلعـت ، دار القـاموسي الحـديث، ودار الفكـر للجميع، بيروت، ١٩٦٨.
- ديوان عبد الكريم القيسي، تح: جمعة شيخه ، تونس ، ١٩٨٨.
- ديوان عبيد بن الأبرص، تح: كرم البستاني، دار صادر، بيروت، ١٩٦٤.
- ديوان لسان الدين بـن الخطيـب الـسلماني، تـح: د. محمـد مفتـاح، دار الثقافـة والنـشر والتوزيع، ١٩٨٩.
- ديوان ملك غرناطة ، يوسف الثالث، تح: عبد اللـه كنون، معهد مولاي الحسن، تطوان ، ١٩٥٨.
- ديوان مهيار الديلمي، شرح : أحمد نسيم، منشورات الأعلمي للمطبوعات ، بيروت، ط١، ١٩٩٩.
- ديوان يحيى بن الحكم الغزال، تح: محمد صادق البنداق، دار الآفاق الجديـدة، بـيروت، ١٩٧٩.

- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، لأبي الحسن علي بن بسام الشنتريني، تـح: د. إحـسان عباس، دار الثقافة ، بيروت- لبنان، ١٩٧٨ .
- الروض المعطار في خبر الأقطار، لأبي عبد اللـه محمد بـن عبـد اللـه بـن عبـد المنعم الحميري ، تح: إحسان عباس ، بيروت- لبنان، ط٢، ١٩٨٤.
- زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر، لأبي بحـر بـن صـفوان، دار الرائـد العـربي، بـيروت، ١٩٨٠.
- زبدة التفسير، د. محمد سليمان عبد اللـه الأشقر، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن ، ط٢، ٢٠٠٤ .
- الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام، د. عبد الإله الصائغ ، دار الرشيد للنـشر ، العـراق ، ١٩٨٢.
- السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق وشرح: مصطفى السقا وآخـرون، دار القلـم ، بـيروت، (د. ت) .
- سيكولوجية الشعر ومقالات أخرى ، نازك الملائكة ، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٩٣.
- شرح المعلقات السبع، للزوزني، تح: محمـد عـلي حمـد اللـه المكتبـة الأمويـة بدمـشق، ١٩٦٣.
- شرح ديوان زهير بـن أبي سـلمى، تـح: د. أحمـد طلعـت ، دار القـاموسي الحـديث، ودار الفكر للجميع، بيروت، ١٩٦٨ .
- شرح ديوان صريع الغواني مسلم بن الوليد الأنصاري، تح: د. سامي الدهان، دار المعـارف بمصر، ١٩٧٠.

- شعر ابن اللبانة، جمع وتحقيق : د. محمد مجيد السعيد، منشورات جامعة البـصرة، دار الكتب للطباعة والنشر، ١٩٧٧ .

- الشعر الأندلسي في عهد الطوائف، هنري بيرس، ترجمة الطاهر أحمد مـكي، دار المعـارف بمصر، ط١، ١٩٨٨.

- الشعر الأندلسي، غرسيا غومس، تح: د. حسين مؤنس ، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٦.

- شعر البحرية الأندلسية، د. مصطفى محمود الحلوة، مطبعة البهجة ، إربد ، ط١، ١٩٩٥.

- شعر الحرب في أدب العرب ، د. زكي المحاسني ، دار المعارف بمصر، ١٩٦١.

- شعر الخوارج، تح: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٢٣.

- شعر الطبيعة في الأدب العربي،سيد نوفل، دار المعارف بمصر،ط٢، ١٩٧٨.

- الشعر العربي المعاصر ، د. عــز الـدين إسـماعيل، دار الكتـاب العـربي للطباعـة والنـشر، القاهرة، ١٩٧٦.

- شعر سابق البربري، تح: د. بدر أحمد نصيف، دار المعرفة الجامعية، الأسكندرية، ١٩٨٧.

- الشعر في عهد المـرابطين والموحـدين بالأنـدلس، د. محمـد مجيـد الـسعيد ، دار الرشـيد للنشر، بغداد، ١٩٨٠.

- الشعر كيف نفهمه ونتذوقه ، اليزابيث درو، ترجمة : محمـد إبـراهيم الـشوش، بـيروت، ١٩٦١.

- الشعر والبيئة في الأندلس ، د. ميشيال عاصي، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٧٠.
- شعر يزيد بن الطثرية ، صنعة د. حاتم صالح الضامن ، دار التربية للطباعة والنشر، بغداد، ١٩٧٣.
- صحيح البخاري لأبي عبد الله بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، ترتيب محمد فؤاد عبد الباقي، تقديم : أحمد محمد شاكر، مكتبة ألفا للتجارة والتوزيع، مصر، ط١، ٢٠٠٨.
- صحيح مسلم للإمام أبي الحسن مسلم بن الحجاج، تح: أيمن إبراهيم الزاملي ومجموعة ، بيروت- لبنان، ط١، ١٩٨٨.
- صفة جزيرة الأندلس، منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، للحميري، تح: إ. ليفي، بروفنسال، دار الجيل ، بيروت، ط٢، ١٩٨٨.
- الصلة في تاريخ أئمة اللغة وعلمائهم ومحدثيهم ، ابن بشكوال الدار المصرية للتأليف ، القاهرة، ١٩٥٥.
- الصوت الآخر، فاضل ثامر، دار الشؤون الثقافية، بغداد ، ط١، ١٩٩٢.
- الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي ، الولي محمد ، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٠ .
- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، د. جابر أحمد عصفور ، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٤.
- طبقات الشعراء المحدثين، ابن المعتز، تح: عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، ط٤، ١٩٨١.

- طبقات فحول الشعراء ، محمد بن سلام الجمحي، شرح: محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني، القاهرة ، ١٩٨٠ .
- ظهر الإسلام ، أحمد أمين ، ج٣، لجنة التأليف والنشر، القاهرة ، ١٩٥٣.
- عبد القاهر الجرجاني في بلاغته ونقده، د. أحمد مطلوب، دار العلم للملايين ، ط١، ١٩٧٣.
- العرب في صقيلة ، د. إحسان عباس، دار المعارف بمصر، ١٩٥٩ .
- العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة، جورج فضلو حوراني، ترجمة: د. السيد يعقوب بكر، مكتبة الأنجلو الأمريكية، ١٩٥٨.
- عصر الدول والإمارات (الأندلس) شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط٣، ١٩٨٩.
  - عصر المرابطين والموحدين (المرابطين) .
  - عصر المرابطين والموحدين (الموحدين)، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٦٤.
- العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، تح: أحمد أمين ومجموعة ، مكتبة النهضة المصرية،ط٣، ١٩٦٢،وتحقيق:محمد التونجي،دار صادر،بيروت،ط٣، ٢٠٠١
- عقدة الأندلس وأسلمة أوربا، محمد نمر المدني، دار ارسلان، سوريا - دمشق، ٢٠٠٨.
- علم القافية ، د. صفاء خلوصي، مطبعة المعارف ، بغداد، ١٩٦٣.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، ابن رشيق القيرواني، تحقيق : محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة ، مصر، ط٣، ١٩٦٣.

- غرناطة في ظل بني الأحمر، د. يوسف شكري فرحان، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت- لبنان، ط١، ١٩٨٢.
- فصول في الأدب الأندلسي في القرنين الثاني والثالث للهجرة ، د. حكمة الأوسي، مطبعة بابل، بغداد، ط٥، ١٩٨٧.
- فضائل الأندلس وأهلها ، لابن حزم ومجموعة ، نشرها وقدم لها : د. صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد، ١٩٦٨.
- فن التقطيع الشعري والقافية،د. صفاء خلوصي،مطبعة الزعيم،بغداد، ١٩٦٢.
- فن الشعر ، أرسطو طاليس، ترجمة وشرح وتحقيق : د. عبد الرحمن بدوي ، دار الثقافة ، بيروت- لبنان ، ط٢، ١٩٧٣.
- فن الملاحة عند العرب،حسن صالح شهاب،دار العودة،بيروت، ط١، ١٩٨٢.
- الفن ومذاهبه في الشعر العربي، شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر، ط١٣، ٢٠٠٤ .
- الفوائد في أصول علم البحار، أحمد بن ماجد النجدي، تح: إبراهيم خوري، سلسلة الملاحة العربية الفلكية، ١٩٨٩.
- في الأدب الأندلسي ، د. محمد كامل الفقي، دار الفكر العربي، ط١، ١٩٧٥.
- في الأدب الأندلسي، د. جودت الركابي، دار المعارف بمصر، ١٩٩٩.
- في الأدب الجاهلي، طه حسين، دار المعارف بمصر، ط٢، ١٩٢٧.
- في الأدب والنقد، د. شوقي ضيف، دار المعارف، ١٩٩٩.
- في الرؤيا الشعرية المعاصرة، د. أحمد نصيف الجنابي، دار الحرية للطباعة والنشر، بغداد، (د. ت) .

- في الشعرية، كمال أبو ديب ، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط١، ١٩٨٧.

- في الفلسفة والشعر ، مارتن هيدجر، ترجمة وتقديم: د. عثمان أمين، دار الثقافة العربية للطباعة ، القاهرة ، ط١، ١٩٦٣.

- في النقد الأدبي، إضاءات وحفريات، د. يوسف بكار، دار المناهل للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ط١، ١٩٩٥.

- قصة الأدب في الأندلس، محمد عبد المنعم خفاجة، منشورات مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٦٢.

- قصص القرآن الكريم، أ.د. أحمد الكبيسي، راجعه: أ.د. عبد المنعم صالح، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، ط١، ٢٠٠٠.

- القصيدة العباسية في النقد العربي الحديث ، أ.د. أحمد شاكر غضيب، دار الضياء للنشر والتوزيع، عمان – الأردن، ط١، ٢٠٠١ .

- قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، دار العلم للملايين ، بيروت- لبنان ، ط٨، ١٩٩٢.

- قضايا حول الشعر، د. عبده بدوي، ذات السلاسل للطباعة والنشر، الكويت، ١٩٨٦.

- القطوف اليانعة من ثمار جنة الأندلس الإسلامي الدانية، عبد الله أنيس الطباع، دار ابن زيدون، بيروت، ط١، ١٩٨٦.

- قلائد العقبان للفتح بن خاقان ، مطبعة التقدم العلمية بمصر، ١٣٢٠هـ .

- قوات البحرية العربية في مياه البحر المتوسط، إبراهيم العدوي، مكتبة نهضة مصر، ١٩٦٣.

- الكافي في العروض والقوافي، للخطيب التبريزي، تـح: الحـساني حـسن عبـد اللــه، مكتبـة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٧.

- كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ، لأبي عبـد اللــه محمـد بـن الكنـاني، تـح: د. إحسان عباس، دار الشروق، ط٢، ١٩٨١.

- كتاب الخطط المقريزية، للمقريزي، ج١، مطبعة النيل، مصر، ١٣٢٤هـ.

- الكتاب المقدس، سفر الملوك الأول، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، عـمان- الأردن ، ١٩٩٠.

- الكتيبة الكامنة في مَنْ لقيناه من شعراء المئـة الثامنـة، لـسان الـدين بـن الخطيـب، تـح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت- لبنان، ١٩٦٣.

- لسان العرب، لابن منظور، أبي الفضل جمال الدين بن مكرم ، دار صادر، بيروت- لبنـان ، ط٣، ٢٠٠٤ .

- لغة الشعر بين جيلين ، د. إبراهيم السامرائي ، المؤسسة العربية للدراسـات والنـشر، ط٢، ١٩٨٠ .

- اللغة الشعرية في الخطاب النقدي العربي، محمـد رضـا المبـارك ، دار الـشؤون الثقافيـة ، بغداد ، ط١، ١٩٩٣.

- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الـدين بـن الأثـير ، تـح: محيـي الـدين عبـد الحميد، مطبعة البابي الحلبي، مصر، ١٩٣٩.

- مجمع البيان في تفسير القرآن ، الفضل بن الحسن الطـبرسي ، دار إحيـاء الـتراث العـربي ، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٩٢.

- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي (٦٦٦هـ) دار الرسالة ، الكويت، ١٩٨٣.
- مختارات الشعر الجاهلي، شرح عبد المتعال الصعيدي، القاهرة، ط٤، ١٩٩٨.
- المدخل إلى تاريخ الحضارة، ناجي معروف ، مطبعة العاني، بغداد، ط١، ١٩٩٦.
- مرج الكحل الأندلسي، سيرته وشعره، د. صلاح جرار، دار البشير، عمان- الأردن، ط١، ١٩٩٣.
- المرجع في الحضارة الإسلامية ، د. إبراهيم سلمان الكروي ، منشورات ذات السلاسل، الكويت، ط٢، ١٩٨٧.
- المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ، عبد الله الطيب، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٩٧٠.
- مروج الذهب ومعادن الجوهر، للمسعودي، دار الكتاب العربي ، بغداد، ط١، ٢٠٠٤ .
- المستظرف في كل فن مستطرف ، شهاب الدين بن أحمد الأبهيشي، شرح: إبراهيم أمين محمد، المكتبة الوطنية، (د. ت) .
- معجم الحضارة الأندلسية، د. يوسف عبيد، د. يوسف فرحات ، دار الفكر العربي، بيروت ، ط١، ٢٠٠٠ .
- المعجم الوسيط ، إبراهيم مصطفى ومجموعة ، مجمع اللغة العربية ، أشرف على طبعه عبد السلام هارون ، (د. ت) .
- معجم آيات الاقتباس، صنع وترتيب: حكمت فرج البدري ، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٩.

- المغرب في حلى المغرب، لابن سعيد المغربي، تح: شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط٤، (د. ت) .
- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي ، دار العلم للملايين ، بيروت، ط١، ١٩٧١.
- مقالات في الشعر الجاهلي ، يوسف اليوسف، دار الحقائق، بيروت- لبنان، ط٤، ١٩٨٥.
- المقتبس في أخبار بلد الأندلس، لابن حيان ، تح: عبد الرحمن الحجي، دار الثقافة، بيروت- لبنان، طبعة ١٩٨٣.
- المقتضب من كتاب تحفة القادم، لابن الابار، تح: إبراهيم الإيباري، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥٧.
- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، تح: د. حامد أحمد الطاهر، دار الفجر للتراث ، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤ .
- مقدمة القصيدة العربية في الشعر الأندلسي، د. هدى شوكت بهنام، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط١، ٢٠٠٠ .
- المكتبة العربية الصقلية، ميخائيل أماري، مكتبة المثنى ، بغداد، ١٨٥٧م .
- ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام، للعلامة دوزي، تح: كامل كيلاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، مصر، ط١، ١٩٧٣.
  - من الفتح إلى بداية عهد الناصر (١ - ١)
- المن بالإمامة لابن أبي صاحب الصلاة، تح: عبد الهادي التازي، دار الحرية للطباعة ، بغداد، ١٩٧٩.

- من حديث الشعر والنثر، طه حسين، دار المعارف بمصر، ط١٠، ١٩٦٩.
- المنجد في اللغة والإعلام، منشورات دار المشرق، بيروت، ط٣٠، ١٩٨٦.
- الموازنة بين الشعراء، د. زكي المبارك، مطبعة البابي الحلبي ، مصر، ط٢، ١٩٣٦ .
- موسيقى الشعر العربي ، د. شكر محمد عياد، دار المعارف بمصر، ط١، ١٩٦٨.
- موسيقى الشعر، د. إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية، ط١، ١٩٧٢.
- ميزان الذهب في صناعة شعر العرب ، أحمد الهاشمي، منشورات المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ط١١، ١٩٥١.
- نصوص النظرية النقدية في القرنين الثالث والرابع للهجرة، جمع وتبويب: د. جميل سعيد وداود سلوم، دار الشؤون الثقافية ، العراق، بغداد، ١٩٨٦.
- نظرية البنائية في النقد الأدبي، د. صلاح فضل، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ط٣، ١٩٨٠
- نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين، د. ألفت الروبي، دار التنوير للطباعة، بيروت، ط١، ١٩٨٣.
- نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ، لسان الدين بن الخطيب (٧٧٦هـ) ، نشر وتعليق: د. أحمد مختار العبادي، دار الشؤون الثقافية ، بغداد، (د.ت) .
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقري التلمساني، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي ، بيروت- لبنان، (د. ت) ، وتحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨ .

- النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، نهضة مصر للطباعة والنشر ، ١٩٧٧ .
- النقد الأدبي، أصوله ومناهجه، سيد قطب، دار الفكر العربي ، ط٢، ١٩٥٤ .
- نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين النويري، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٢٣.
- نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين (مجلد واحد) ، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ١٩٨٧.
- النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات محمد بن محمد (ابن الأثير) ، تح: المزاوي الطناجي، القاهرة، ١٩٦٣.
- نهج البلاغة ، شرح الشيخ محمد عبده ، دار القارئ ، بيروت- لبنان ، ط١، ٢٠٠٧ .
- الوساطة بين المتنبي وخصومه ، للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، تح: محمد أبو الفضل وعلي البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط٤، ١٩٦٦.
- وصف البحر في الشعر الأندلسي، د. أحمد عبد القادر صلاحية، دار شراع للدراسات والنشر، دمشق، ط١، ١٩٩٤.
- وصف البحر والنهر في الشعر العربي من العصر الجاهلي حتى العصر العباسي الثاني، د. حسين عطوان، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٨٢.

الرسائل الجامعية :

- أدب الحرب في عهد الطوائف في الأندلس ، محمد حسين محمد أبو رقيق ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب- جامعة بغداد، ١٩٨٨ .

- البحر في الشعر المهجري، فاضل عبد الأمير شريف ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب- جامعة بغداد، ١٩٩٧ .
- شعر الحرب في الأندلس من الفتح حتى سقوط الخلافة ، عبد اللطيف محمود مجيد، رسالة ماجستير، كلية الآداب- الجامعة المستنصرية، ١٩٧٨ .
- شعر المقاومة في الأندلس من عصر ملوك الطوائف حتى سقوط غرناطة، زياد طارق لفتة، رسالة ماجستير، كلية الآداب- جامعة بغداد، ٢٠٠٣.

الدوريات :

- آداب الرافدين ، جامعة الموصل (شعر الحرب في عصر بني أيوب) ، د.ناظم رشيد شيخو، العدد ١٥، ١٩٨٢.
- التراث العربي (ركوب البحر في الشعر الأندلسي) ، د. أحمد عبد القادر صلاحيه، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد ٦٠ ، تموز ، ١٩٩٥ .
- حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت (البحر في شعر الأندلسيين والمغرب في عصر الطوائف والمرابطين) د. منجد مصطفى بهجت ، الحولية السابعة، الرسالة الأربعون، ١٩٨٦ .
- دراسات للأجيال (الشعر في ركاب المعارك التاريخية) د. نوري حمودي القيسي، نقابة المعلمين في الجمهورية العراقية، العدد ٢، تموز ١٩٨٦ .
- دراسات للأجيال (السمات الفنية لشعر البطولة العربية) ، د. أحمد نصيف الجنابي ، نقابة المعلمين في الجمهورية العراقية، العدد٢، السنة الثانية، نيسان ١٩٨١.
- لغة العرب (السفن في العراق) كاظم أفندي الدجيلي, مجلة شهرية أدبية علمية تاريخية ، الأب انستاس ماري الكرملي ، المجلد الثاني، تموز ١٩١٢، حزيران ١٩١٣، العدد ٣، أيلول ١٩١٢ ، .

- مجلة الهلال(البحر في القرآن)،د.أحمد الشرباصي،العدد الثامن،بيروت،١٩٨٤.
- مجلة آداب المستنصرية (اقتباس شعراء صدر الإسلام من القرآن الكريم) د.سامي مكي العاني، العدد ٢٠-٢١، ١٩٩١.
- الموقف الأدبي (الحياة في الخيال البحري الأندلسي) ، د. أحمد عبد القادر صلاحية، مجلة أدبية يصدرها اتحاد الكتاب العرب ، بدمشق ، العدد ٣١٧-٣١٨ ، ١٩٩٧ .
- الموقف الأدبي (الموت في الخيال البحري الأندلسي) د. أحمد عبد القادر صلاحية، مجلة أدبية يصدرها اتحاد الكتاب العربي بدمشق، العدد ١٤٢٢، ٢٠٠١.

المحتويات



دار دجلة
ناشرون وموزعون

عمان ـ شارع الملك حسين ـ مجمع الفحيص التجاري
تلفاكس: ٠٠٩٦٢ ٦ ٤٦٤٧٥٥٠   خلوي: ٠٠٩٦٢ ٧٩ ٥٢٦٥٧٦٧
ص.ب: ٧١٢٧٧٣ عمان ١١١٧١ ـ الأردن
بغداد ـ شارع السعدون ـ عمارة فاطمة
تلفاكس: ٠٠٩٦٤ ١ ٧٩٢-٨١٧ خلوي: ٠٠٩٦٤ ٧ ٧٠٥٨٥٥٦٠٣

E-mail: dardjlah@yahoo.com
www.dardjlah.com

9789957711856